رشيد بوجدرة

ألف وعام من الحنين

(رواية)



رشيد بوجدرة

ألف وعام من الحنين

رواية

الطبعة الثانية

ترجمة: مرزاق بقطاش

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر 84/1719

الجزائر ــ 1984

بلغ من حذر محمد عديم اللقب انه تحايل دائما الا يترك ظله منسحبا وراءه ، أيا كان موقع الشمس ، وايا كانت الساعة . فلا وقت الظهيرة الصارم الرتيب ، ولا غبش الفجر المزركش بغشاوة فسفورية شديدة الزرقة ، ولا الاصائل المتألقة المبقعة بصفرة الفليور الزعفرانية ، كلا ، لا شيء يمكنه ان يدخل أي تحوير في الامر . فالتجربة برهنت على هذه المعجزة آلاف المرات . واذا كانت العادة قد جرت منذ قرون على ان السكر يساعد على تحلية المشروبات ، وان الملح يرفع من حدة الاغذية فان البلدة قد تعودت هي الاخرى على هذه المعجزة . وعندما كان محمد يعبرها ، وهذا ما يحدث له مرات عديدة في اليوم الواحد ، كان اهل المنامة يشعرون وكأن نوعا من الدوائر المتمركزة الحريرية الوردية تجتذبهم ، لها لون البشرة العميق المتأصل ، وان كانت غير مرئية . شيء لا يمكن ضبطه . بل مجرد احساس او انبهار عنيف تثنى منه اجفان الناس القلائل الذين يصادفهم محمد في الطرقات القاحلة المغبرة . ولم يكن هؤلاء الناس يريدون التوقف ولو للحظة واحدة لفهم هذه الظاهرة التي تتجاوزهم ، خشية منهم — بكل تأكيد — من ان يفقدوا صوابهم او ينزلقوا انزلاقا نهائيا في مستنقعات اللاواقع المعشوشبة . يكفيهم ان كل شيء يلوب امامهم . فالاشياء حواليهم مسامية هشة ، كأنما هي مغطاة بالطين ، بسبب ذلك الغبار المداهم الذي يلتصق بكل شيء ، حتى انه لم يكن في مستطاع اي شخص مهما رجعت به الذاكرة الى الوراء ، ان يقدر الثمن الحقيقي لاداة او آنية او جسد ما . بل انهم لم يكونوا يعرفون كثافتهم ولا استطاع الواحد منهم ان يفرز واقعه من مظهره ، باستثناء محمد عديم اللقب . فقد كان نفاذ بصيرته في هذا المجال شيئا اقرب الى

الخرافة ، ظله الذي لا يتركه يتموج وراءه ابدا ، لا خوفا من السخرية بل من باب الاحتراس . ثم ان الرجال اشاعوا عنه بأنه ساحر عصري ، في حين قالت عنه النسوة بأنه عاشق لا يعرف الكلل ، يجدد نسغه بفضل لون الصفاء في خضرة عينيه الواسعتين اللوزيتين . والواقع ان عديم اللقب هذا كان وحيدا ، رغم انشغاف النسوة به ، وتضخم عائلته التي تركها والده في عهدته قبل ان يلقى مصرعه بكل غباوة اثناء حادث عمل .. لقد وسمته العزلة بميسمها ، واثقلت عليه تلك الخوارق الغريبة المتعددة التي ما عرف قط كيف يستفيد منها لكنها تجعل الناس يخشونه جميعا . فالاطفال يكفون عن الضحك ، والدجاج عن القوقأة ، والرحى عن الجمجعة كلما مرّ على مسافة مائة وست وستين مترا منهم ، وهي مسافة قدرها له بالضبط صديق يعمل في مسح الاراضي . لا غرابة في الامر ، لو لم يفض عديم اللقب بذلك لصديق اخر ، فأوجد تقاربا بين هذا الرقم الملغز وبين تاريخ ميلاد شيخ هرم يكن له اعجابا شديدا ، عاش منذ قرون عديدة . ولما استفسر في الامر ، راح يغرق في حوار داخلي وهو الشاب ذو العينين الخضراوين الصافيتين ، الذي لم يكن يترك ظله ينكسر وراءه ، والذي كان بارعا في ملء الفروج بالانداء الليلية دون ان يفض بكارتها ، وفي ارغام الاطفال على الكف عن ارسال ضحكاتهم والدجاج عن القوقأة والرحى عن السحيف . وفهم اصحابه ان الامر قد يتعلق بزعيم ملة ظهرت في القرن الثاني من الهجرة . وانتهى به الامر الى ان يبكي والده بمرثية تفيض حنانا . لم يكن سكرانا في تلك العشية ، ولم يكن لديه وقت يهدر . لقد طلب منه خلال الليلة الفارطة ان يدبج عددا من رسائل الغرام ، بتلك الطريقة المعروفة عنه ، اي من تلك الرسائل التي تحرق اصابع العشاق . وهذه تجارة مربحة في بلدة كان فيها الرجل الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة ، الى جانب ماسح الاراضي والمعلم ، وهذا ما ساعده بالاضافة الى بعض الاشغال الصغيرة الاخرى على تلبية حاجات اسرته الكبيرة المتكونة من الام ومن تسعة اخوة وتسع اخوات ولدوا اثنين اثنين بكل توازن خلال تسع ولادات هائلة لا يزال اهل المنامة يتذكرونها . كان عديم اللقب هذا ، هو الوحيد الذي قدر له ان يولد بمفرده ، وهو امر بالاضافة الى كونه الابن البكر ، قد أثر على حياته تأثيرا قاسيا ووضع عليها بصمة لا تمحى ، تعرف النسوة استشفافها عبر مشيته الجارفة ، ذلك انه يعطي للرائي صورة شخص يصارع العناصر الطبيعية دون توقف . وهو ما فتىء يردد منذ

ولادته انه ما دام بدون لقب مسجل حقا وصدقا مثل معظم سكان المنامة ، فانه لا يرى كيف يسلك سلوك سائر الناس ويتفنن في ارسال ظله وراءه — خلال بضع ساعات من النهار — مثلما يفعل سكان بلدته وما وراءها من سكان القرى الاخرى ، ومثلما يفعل سكان قرى العالم التي لم يزرها ابدا . انه يعرفها نتيجة لشغفه بالاطالس وبكتب التاريخ التي قرّ رأيه على ان يكرس لها حياته ، يحدوه في ذلك بعض الفضول ، حتى يعرف ما حدث في العهود البعيدة ، وما وراء الجدران المتعاقبة التي تحاصر البلدة التي ولد وترعرع فيها وتعرف فيها على بعض الالغاز الهيروغليفية الجوهرية . وحتى يعرف لماذا كان اول من أبصر الحياة ولماذا ولد وحيدا فريدا ، في حين ان اخوته جاؤوا الى الدنيا ازواجا ، مرتبطين بحبال السرة التي كانت من الصلابة بحيث تطلبت في كل مرة استعمال مقص البستاني للفصل بين التوائم . ثم انه كان يريد ان يعرف ولو قليلا لم حرمه المشرّع الاجنبي الذي عاش في البلاد بضعة قرون من اسم على غرار الاسماء التي يحملها الناس . اسم في مقدوره ان يحمله حين ينام ويستيقظ ويأكل ويتناسل ويغضب ويتصالح ويخط صفحات كاملة على الكراريس او على اللوحات المصنوعة من خشب الزيتون الاملس المطلي بالطين المجفف بحرارة جسده في الشتاء وبحرارة الشمس في الصيف ؟ وكان عديم اللقب هذا يعرف كل شيء بفضل بعض الميزات التي وهبته اياها سمعته وتميزه . وهو ما ان بلغ العشرين حتى كانت شهرته قد تجاوزت حدود بلدته . وهي عبارة عن شرائح وطبقات متعاقبة من الحضارات المرتاعة ، وقعت فريسة أبهتها وترفها ، وان كانا قد صقلا بسادية لذيذة وبالية ، تحت ضربات السياط والسيوف التي يتلقاها العبيد بلا مبالاة سمحة ، اذ فقدوا كل شيء عدا حنينهم الاسفنجي كنشاف مشبع بالعرق والدم والمني .

والواقع ان محمد عديم اللقب تعوّد الاعتقاد بأن بلدة المنامة تنطوي على نسبة لا بأس بها من الخونة والاوباش المتحلقين بالحاكم الذي سمح لنفسه ، بالاضافة الى البلدة ، بتسيير محطة بنزين في قلب الصحراء مع ان احدا من اهل المنامة لم يكن يملك اية عربة من اربع عجلات ذات محرك امامي او خلفي ، ولا ادنى دراجة نارية يتطلب تشغيلها استخدام بعض رواسب البترول . ولكن الناس كلهم كانوا يعرفون ان النفط يباع

لاجانب شقر ، منفوشي الشعر ، جاؤوا كمبعوثين موفدين من قبل ملوكهم للتوقيع على اتفاقيات سرية لاستلامه بأثمان بخسة . وكان القناصل الاجانب يصلون في البداية خلسة ويتنكرون في اثواب عجيبة حتى لا يتعرف عليهم اهل المنامة الذين طالما تساءلوا عن فائدة تلك المحطة النموذجية البرتقالية التي لا نفع فيها وغير القابلة للاحتراق ، يحرسها رجل عجوز من البلدة ، محترم لمظهره الورع وللرحلة التي قام بها ذات يوم راجلا الى مكة . على ان محمد عديم اللقب لم يكن يجهل بأن ذلك العجوز لم يتجاوز ابدا بور سودان حيث جنح الى اليابسة ، بعد ان ثمل حتى الموت مع ملاحين يونانيين كانوا ينقلون على متن سفينتهم اغطية بديعة من جزيرة العرب السعيدة والقادمة من « ماكاو » حيث قامت بنسجها فتيات بوذيات صغيرات ، نحيلات الاجساد امتهنت حقوقهن . اما الحارس الهرم فكان يستدل على حجة ذاك بالعمامة الرائعة التي جاء بها وبعشر اخرى للتبديل يضعها بالتناوب . وقد ألقى رحاله في قلب للمحطة حيث جلس على صندوق شاي فارغ وعلى ركبتيه قطته ، وغرق في ذكرياته المذهلة عن تلك السكرة الفريدة والرائعة في بور سودان ، والتي روى لعديم اللقب تفاصيلها بشحة ، كأكسير يرشح قطرة قطرة ، ولا ينبغي ان يسمعها الا الرجال القادرون على اتيان الخوارق . وقد وصف له أيضا كيف كان السماسرة الاجانب يصلون بحقائب مكتظة بالدولارات وبأقراص الملاهي الصالحة للاستعمال في دور القمار ذوات الاسماء المكهربة البراقة المزركشة . وكثيرا ما كان هؤلاء الناس يتخذون مظاهر السواح البشوشين المزودين بآلات التصوير العتيقة ، او المستكشفين الذين حز في نفوسهم ان يطلعوا على العالم كله في ظروف ثمانية عشر يوما ، او الرسامين المستشرقين المولعين بفلكلور الشعوب او المجانين الشاذين امثال « جورينغ » الذي جاء ليمارس التزحلق في العرق الصحراوي الكبير سنة ١٩١٢ ، والذي كان له بدلا من أنفه مرجانا يصاب بالروع امام اية رائحة نفطية . وفي الواقع لم يكن اشد ما يؤلم عديم اللقب متمثلا في الاسطورة التي نسجت حول ظله الذي يحمله مثل درع الى الامام ، ولا في الحرفين الذين يرمزان اليه واللذين الصقهما المستعمر السابق على ظهره ، كأنما ليجبره على التنقيب عن هويته في اعماق التاريخ السحيقة متسلقا اياه بشكل تنازلي ، مثلما يبحث ثمل عن قطعة نقدية سقطت سهوا في حانة ظلماء . ولم يكن متمثلا

ايضا في حكاية الندى الليلي الذي تمتلىء بها مسامه ، والذي تترجاه منه النسوة بفراعاتهن المتكررة كلما شعرن بالرغبة في ان تمتلىء عظامهن في في السر بوشوشة الماضي والمستقبل . عنصران جوهريان بالنسبة لعديم اللقب ممخوضان مثل صفار البيض المستعمل في شكل ضمادات لمنع الحمل من قبل القابلات المشعوذات المتخصصات في هذا النوع من التجارة الذي يزداد رواجا بسبب التقلبات الاجتماعية المذكورة في المجلات ، التي تصل بين الحين والاخر الى بلدة المنامة بتأخير يتراوح ببضع سنوات . ولم ينقص ذلك ابدا من اللذة التي يجدها عديم اللقب حينما يقرأها بصوت جهير — بمساعدة صديقه ماسح الاراضي — على كهول البلدة مقابل مكافأة نقدية او عينية ، لان حاجات امه واخوته الثمانية عشر كانت لا تسبر ولا تحصى . وكان يجد متعة كبيرة في تلاوة الاحداث السياسية كأنما الامر يتعلق بقراءة ادب خيالي شوّه كل شيء فيه عن قصد لاثارة القارىء ودفعه الى ممارسة لعبة الترابطات الخيالية حيث يجد نفسه محصورا بين الامور الغريبة المستبعدة . اما الاحداث التي توردها تلك المجلات فقد تجاوزها الزمن ابعد التجاوز ، وفرغت من كل محتوى ، حتى ان السامعين كانوا كثيرا ما يقهقهون عند تلاوة باب الوفيات ، او ينطلقون في الضحك عند قراءة انباء السياسة الدولية ، او كانوا يبكون بدموع حرى حين ينصتون الى الخطب الملأى بالوعود التي لم تتحقق ابدا . وكانت بعض حصص القراءات العمومية تتحول الى صخب حقيقي يروّح عن المستمعين ويشحذ هممهم ، او الى تنفيس حقيقي ممهور بحس سياسي رفيع حسب قريحة عديم اللقب وهواه . فقد كان يضيف الى صفاته المتعددة ، صفة المشوّش السياسي وهو الامر الذي تنظر اليه حاشية الحاكم بعين الحذر ، هذا الحاكم الذي فكر في احد الايام تزويجه بصغرى بناته التي دفع جمالها بأكثر من عاشق الى الموت . وكان ينوي بذلك ضمه الى صفه . لكن محاولته تلك كانت بلا طائل ! مع فارق وحيد وهو ان الفتاة كانت على علاقة طيبة بعديم اللقب . فقد صار قطب الدائرة في كل البلدة ، ولم يكن يريد ان يولي اية اهمية لحكاية طيور ابي الحناء والشحارير والببغاوات والعنادل التي انتشرت في البلدة وتعودت على ترديد النشيد الامي كلما مرّ بالقرب من الاشجار التي عرّشت عليها والتي كانت اوراقها تثور غاضبة كأنما تشدد على عنف النشيد الثوري وتتناغم مع الطيور التي تثرثر مرجفة صوتها

وكأنها زودت بآلية انطلقت يوما ما ولم تتوقف بعد ذلك ابدا ، كما كانت تزقزق دون حسيب كالمهووسة بزغاريدها ، وهي في ذلك اشبه ما تكون بقطرات حامضة تحرق قطعة من المخمل الاصفر ، فتزعج المنامة بصريرها الذي لا يتوقـــف .

كثيرا ما كان يردد على مسامع أصدقائه القلائل في البلدة ان هذه الدعاية لا تهمه . ومن بينهم ماسح الاراضي والاسكافي العجوز الـــذي تجاوز الزمن ولزم الصمت منذ وفاة ستالين ، بعد ان اقتنع في قرارة نفسه انه ليس من حق حامي المضطهدين ان يموت كما يموت أي بشر اخر . على ان عديم اللقب كان يعاني من اللامبالاة التي يقابل بها اهل المنامة تنقيباته عن المكان المحدد حيث وجدت الدار التي كتب فيها ابن خلدون جزءا من مقدمته وسيرته الذاتية الكاملة . وكان ابن خلدون هذا قد اقام بالبلدة بين سنة ٧٧٤ وسنة ٧٧٧ من الهجرة بالضبط . لذلك شعر محمد عديم اللقب بالاسى العميـــق لانه لم يستطـــع ان يبهرهم بموضوع يملك عليه قلبه في حين انهم يواصلون الاعجاب بيقظته المتواصلة ازاء ظله الذي لم يكن يتركه وراءه ابدا ، كما كانوا يرونه يرهف السمع باستمرار للوشوشة الانثوية التي يلتقـــط منها اشذاء المسك ورائحـــة الهال . ويبصرون به غارقا في الحرفين الاولين من اسمه اللذين يزيدان من عزلته . ثم انهم كانوا يضبطونه وهو يرسل برقياته المشفرة الى الطيور لاثارتها وبث الروع في قلوبها ، حتى انها كانت ترفع اجنحتهـــا اليسرى وتغني النشيد الاممي بصوت واحد كالجوق المتناسق ، بغض النظر عن اصولها واجناسها وألوانها . وكان عديم اللقب يتمتع بموهبته في اتيان الخوارق التي تفصم ضحكات الاطفال وقوقأة الدجاج وسحيف الرحى ... والحقيقة ان قصة ابن خلدون هذه لا تهمهم في شيء . فقد كانوا يرونها اكثر ايغالا في دنيا الخيال من الخوارق الاخرى التي كان قادرا عليها . فهم لم يستطيعوا معرفة ذلك الشخص الذي جاء ليستقر في بلدتهم قبل حوالي سبعة قرون ، وليضع كتبا لم توجد ابدا على حد زعمهم الا في ذهن عديم اللقب المكتظ بالمطالعات ، الفائض بين الوقـــت والاخر بأفكار غريبة او بشطحات جنونية قد تنفس عنهم وتشغلهم بضعة اسابيع وتساعدهم على التخلص — ولو مؤقتا — من السأم الذي يلتصق ببشراتهم منذ اختراع التاريخ مثل الغبار الذي يتناثر على اهدابهم ويحرق صدورهم ويشوه نظرتهم الى الموجودات والاشياء والظواهر . على ان

محمد عديم اللقب كلما ازداد استمساكا بالفترة التي قضاها ابن خلدون في المنامة ، ابتعد عنه اهل بلدته . لا لانهم لم يكونوا يعرفون هوية ذلك الشخص فحسب بل لانهم لم يكونوا يتصورون كيف استطاع مثل ذلك الرجل العظيم ان يتوقف ذات يوم ببلدة تعودوا ان يقولوا عنها بأن الله تبرزها في يوم من ايام الغضب .

لم تستطع والدته مسعودة عديمة اللقب ان تكبت غيظها حين عاد ذات ليلة وقد تعتعه السكر ، فصرخت فيه : « ألا يكفيك انك تنادم اي شخص وتنام مع ابنة الحاكم دون ان تقوى على فض بكارتها وتعاشر الشيوعي الوحيد في هذه البلدة ؟ ها انت ذا تقلب الدنيا رأسا على عقب بحكاية ابن خلدون هذه ! النساء تسخر مني . وتدعي بأنه يهودي » . ولم ينبس عديم اللقب ببنت شفة لكي يصحح الخطأ الشنيع الذي وقعت فيه امه . بل فضّل ان يذهب للنوم بعد ان سلم لها الدراهم التي ربحها خلال يومه ، وطلب منها ان توقظه باكرا في اليوم التالي لان امامه عددا من رسائل الغرام يتعين عليه كتابتها ، وعددا من دروس الموسيقى يعطيها للطيور بساحة البلدة . قدم الربيع باكرا في تلك السنة فبدأ يحدث انقلابات مدمرة سواء في اعشاش الطيور او في عقول اهل المنامة الذين يعيشون عادة من تربية دود القز ومن الرهان على صراع الاكباش ، التي كان الحاكم يستوردها من استرالية بفضل ارباحه المشبوهة وبفضل وجود احدى بناته في سيدني حيث كانت تدرس الرقص في المعهد الموسيقي بهذه المدينة ، لكي تصبح ذات يوم نجمة من نجوم الرقص وتتزوج بسلطان من سلاطين الصحراء . وقد كان هذا النوع من المصاهرة تقليعة شائعة، حتى ان التنافس القتال كان يتطلب من المترشحات الى مثل هذه المسابقات مهارة ولباقة ومواهب فنية متعددة مدهشة . وكان الحاكم يكتب الى ابنته : « يمكن لك على الاقل ان تعودي بشهادة من ذلك البلد البعيد وان تستخدمي معارفك في مجال الرقص العصري وان تشرفي على امسيات الخليلات والزوجات الشرعيات وتحولي دون وقوعهم تحت وطأة السأم القاتل والجمود او التخشب في اسوأ الاحوال ، فتساعدي بذلك زوجك على ان يكون سعيدا وتدفعيه الى ان يختارك محظية له من بين العشرات من النساء الاخريات اللواتي لا يقل جمال الواحدة منهن عن الاخرى بكل تأكيد ، ولكن لا تستطيع الواحدة منهن أن تتوفر على الحظوة التي نلتها

انت بمتابعتك لدروس الرقص في المعهد الملكي بسيدني . انك ترين ان والدك لا يفتقر الى الخيال ابدا ، والحمد لله » .

في تلك الليلة بالذات ، رأى عديم اللقب جده في المنام . وحين استيقظ في اليوم التالي خيل اليه انه يراه جالسا في صحن الدار يقرأ مخطوطا عربيا قديما مكتوبا بالارقام حسب الطريقة المتبعة في القرن الثاني للهجرة من قبل القرامطة الثوريين بالكوفة . وما اسرع ما تذكر انه سكر سكرة شديدة خلال الليلة الماضية . فجده مات منذ زمن بعيد ، وعلى اية حال فقد كان أميا كغيره من كهول المنامة الذين ضرب التقدم صفحا عنهم وحكم عليهم بالتقوقع وسط الرياح الجنوبية اللافحة وداخل محيطهم الضيق . كان عديم اللقب في واقع الامر معتكر المزاج ، ولم يكن لديه حتى التبغ لكي يزيح عن صدره القلق الذي امسك بتلابيبه منذ ان افاق من رقاده مكدودا خائر القوى ، لان الشاحنة التي تزوّد البلدة بالنيكوتين نسيت أن تمر بها منذ شهر . وكان يدرك في قرارة نفسه انه يشوّه صورة اهل بلدته . ولم يستطع ان يغفر لهم تعنتهم في محاولة انكار هذا الامر البديهي : لقد توقف بالمنامة رجل عظيم ذات يوم من ايام سنة ٧٧٤ من التقويم الهجري ونسي نفسه بين احضانهم لمدة اربع سنوات كتب خلالها تحفة من تحف العلم في حين ان بلاطات الامبراطورية المتهالكة كانت تتنافس على استقدامه . كيف يفسر لهم بأنه فر من تلمسان حيث مات حاميه مخنوقا بخمار كبرى بناته ؟ لقد كان من الممكن ان يصنع ذلك الخمار بحرير المنامة الذي كان يصدر في ذلك العهد الى مدينة تسياتونغ الصينية المشهورة بانتاج قماش الاطلس. وهل يجديه نفعا ان يفضي بذلك كله الى هؤلاء الناس الذين قر رأيهم على ان بلدتهم انما هي قذارة اسقطها الله ذات يوم من ايام الضجر ؟ كان عديم اللقب في ذلك الصباح فريسة لانهيار شديد ، حتى انه احجم عن التحرك من مكانه لكي ينهمك في اشغاله المعتادة مثل تدبيج رسائل الغرام التي طلبها منه البعض وتوزيع حبوب الزؤان على طيور الساحة وغيرها من الاعمال . ورغم ان ماسح الاراضي كان على استعداد تام لكي يساعده بأن يعيره ادواته المضبوطة لكنه كان يشك كثيرا في النتائج التي قد يتوصل اليها صاحبه هذا . فالرمال غطت كل شيء خلال سبعة قرون بطبقات متعاقبة ، وفتتت وافسدت كل شيء حتى الحجر . باستثناء الاسوار التي صمدت بفضل ذلك التحدي الذي لا تزال تجابه به كل

حضارة مُثيلاتها عبر القرون والمذابح متخطية الاطماع البشرية التي تريد باستمرار ان تتجاوز نفسها بتجاوز الاخرين . ويبلغ بها الامر حينذاك حدود التفاهة التي ما انفكت تستبد بالبشر . ومن المؤكد انه صعب العثور على اي اثر يشهد على المرور المفترض للمؤرخ الكبير على الرغم من ان البلدة كانت محمية دائما بتلك الكيلومترات من الاسوار المتعاقبة. وهي اسوار أثرت فيها تقلبات الطقس بعض الشيء وفضلات الطيور ، لكنها ظلت قائمة مع ذلك . وكذلك الامر بالنسبة للاسكافي العجوز الصموت الذي اكتفى بالاخلاد الى السكوت حتى لا يثبط من همة صديقه الفتى . ذلك ان عديم اللقب استمر في تخصيص بضع ساعات من يومه املا منه في العثور على اثار ذلك العلامة الذي لم يكن شاهدا على الخراب فحسب بل استطاع ان يتنبأ بوقوعه ويقدر مدته ، التي كان من المفروض ان تدوم بعض الوقت ، الامر الذي يفرح الحاكم الذي ظل يشرف على تسيير محطة البنزين ويراسل ابنته في استراليا لكي يعطيها النصائح الضرورية لعقد زواج جيد مثمر . وفي نهاية المطاف لم يأخذ احد عديم اللقب مأخذ الجد . وعلى الرغم من ان اصدقاءه القلائل كانوا متعودين على شطحاته المذهلة فانهم لم يستطيعوا مسايرته على هذا الدرب المتعرج الضيق من دروب الذاكرة السياسية . واذا كان ماسح الاراضي يعتقد بأنها خطيرة ، فان الاسكافي — الذي لم يعرف السلوان منذ وفاة ستالين — كان يراها عرضية بالغة الهشاشة . وامام مثل هذا التعنت وموقف الريبة الذي وقفه منه اغلى اصدقائه ، راح عديم اللقب ينظر بعين الشك الى مسعاه ذاك . وكان خلال هذه الفترة التي زلزله الشك فيها ينطلق خارج الاسوار ويظل اياما متتالية غارقا في التأمل دون ان يأكل او ينام او يغتسل او يحلق لحيته . حتى ان والدته اغتاظت لهذا السلوك ، ووصفته بالطفولية ، واثقل عليها هؤلاء العشاق الذين روّعهم غياب كاتبهم ، فجاءت لانتشاله من موقفه ذاك . ثم انها ضجت بالشكوى واتهمته امام الناس بأنه يتركها تموت جوعا هي وابناؤها الثمانية عشرة، فتعود به الى الدار ، مرتبكا مضطربا لانه لا يمتلك اية وسيلة تمكنه من ان يشرح لهذه المراة المسكينة جدلية ابن خلدون المضبوطة ، والدليل على ذلك الاستغلال الذي كان ضحية له من قبل عائلته نفسها . فهي ما زالت تعاني من نير الاقطاع المنزلي الذي ذكره المؤرخ الكبير في مقدمته في حين ان الحاكم يتاجر بالاشياء المشبوهة ويبيع النفط خفية الى الاجانب بأسعار بخسة ويسمح لنفسه بارسال ابنته لدراسة الرقص الكلاسيكي في

سيدني ــ عاصمة قارة بأكملها ــ لا لشيء الا رغبة منه في ان يقدمها على سرير مذهب الى احد اباطرة الصحراء ! وهكذا استعادت مسعودة عديمة اللقب ابنها العاق ذات صباح ، وقد علت وجهه لحية مشعثة وبرق منه البصر كالذين يتحاورون مع الغيب ، لكنه ظل مطرق الراس والندم يعصر بشرته . وقد كانت بشرته مثل الصوف الناعم على حد الوصف الذي قدمته امرأة متزوجة اضطرت بعد قضاء ليلة معه الى ان تغسل فرجها اكثر من اثنتي عشرة مرة . وبين هذا وذاك ، جعلت والدته تدفع به ، وتصيح فيه امام اهل البلدة الذين تجمعوا عند مداخل الاسوار في انتظار هذا الفتى النابغة الذي لم يعد الى والدته فحسب بل اليهم جميعا ، لانهم لا يستطيعون الاستغناء عن براعته في تدبيج الرسائل على الرغم من حذرهم منه ، ولا عن قدرته التوليدية او طريقته في مراوغة القدر او موهبته في علم الطيور او شطحاته التي تبعث القشعريرة في الفتيات المتيمات وتبث الروع في قلوب الكهول ... ثم ان والدته بلغت ذروة الغضب فقالت : « الخوف يسيطر عليك حتى انك لست قادرا على ترك ظلك ينسحب وراءك ، وتعتقد انك فحل لا مثيل له بحجة ان نصف نسوة هذه البلدة اللعينة يعتقدن ان لك أداة جنسية خارقة . الحمد لله على انك لم تولد مع اخت صغيرة لك على غرار اخوتك الاخرين، والا لكنت قد وضعت لها اثنين من التوائم قبل ان تغادر بطني المسكين ! واعجاب النساء بك خارج عن ارادتك ... الغلطة تعود الى الشمس ، الى الجفاف الذي يدوم منذ عشر سنوات والى طيور الفردوس التي تعلمها ترديد الفواحش ... الاحزان الكبرى التي تسببها لي ليست وليدة اليوم بل تعود الى يوم ولادتك . فأنت بدلا من ان تنطلق لحظتها في البكاء كسائر المواليد رحت تتكلم بالكلدانية حسب اقوال المرحوم والدك . لم يرغب عديم اللقب في الرد على امه طوال الوقت الذي استغرقته المسافة بين الصحراء والدار . كان يحبها حبا جما ويعلم انها على اطلاع بكل ما يخص اموره . وهو وان لم يكن ينطوي على اية موهبة خاصة ، الا ان والدته كانت تضيف من عندياتها امام الملأ حتى تضاعف من عدد زبائنه السذج ومن العاشقات المتوهمات . وهو لم يتحكم ابدا في ظله مثلما اشيع ذلك عنه في البلدة ولا حول الطيور عن زقزقتها العريقة . اما عن علاقته بالطيور ، فهي تقتصر على تقديم الحبوب لها كل صباح في ساحة البلدة . ويتم ذلك كله في تلك الساعة التي يأتي فيها بعض مربي العصافير المتعصبين ، بالدرر والكناريا

والعنادل المسجونة في اقفاص هي من الروعة حتى انها لم تكن في حاجة الى ان تضم طيورا في حناياها . كانوا يصطحبون معهم اقفاصهم الى الساحة ويعلقونها على الاشجار وينظمون مسابقات غنائية خارقة . بل انهم كثيرا ما يعمدون الى الغش والتدليس للحصول على جائزة احسن طائر مزقزق خلال اليوم . كانت العادة تفرض ان يدفع المنتصر ثمن الشاي لكل المشاركين ، حتى يبرهن بأنه فضلا عن مهارته في تربية الطيور ، فهو لا يقل كرما عن الاخرين .

اما بالنسبة للبقية ، فان عديم اللقب آثر الا يغرق في الحديث ، وترك الامر للزمن لانه كان على يقين من ان يوما ما سيأتي يقرونه فيه على رأيه . ولكنه حدس بأن الوقت سيفوته حينذاك ، وان الحاكم سيسارع بالاستيلاء على اكتشافه الكبير ، واقامة نصب في الموقع الذي حدده بالضبط ، حيث كتب المؤرخ العربي الكبير تلك الوصية السياسية الهائلة والمفرطة في النبوءة ، الى حد ان الناس يشهدون يوميا تحققها . ونتيجة ذلك ان تحول اهل المنامة الى ايتام من اتعس خلق الله ، والى اثرياء من افقر سكان البسيطة ، والى مخلوقات تنعزل عن الدنيا كل الانعزال وتتضاعف بنسب مروعة حقا . عند ذاك يقول محمد لنفسه انه لو كان والده موجودا لفهم موقفه احسن الفهم ولساعده بشكل خاص فيتوضيح قضية اللغة السريانية التي ما فتئت والدته تحدثه عنها . حتى في الاوقات التي تذوب فيها امومة وعطفا . قد يكون الامر يتعلق باللغة العبرانية بكل بساطة ، وهذه فرضية محتملة جدا : ذلك ان جالية اجنبية استوطنت بقضها وقضيضها ، بفضل تواطؤ الحاكم ، وذلك يوم مولده بالذات . وألقت رحالها غير بعيد من المنامة حيث كان العيش يطيب لمحمد عديم اللقب على الرغم من التقولات المتضاربة . وهو يعرف ايضا انه لا ينبغي عليه ان يضخم غياب والده المبكر حتى وان لم تؤاته الفرصة في توضيح مسألة اللغة القديمة التي يكون قد نطق بها يوم ان رأى النور .

وعندما يفاجئه الارق في اويقات الفجر ، وهو يذرع غرفات شقيقاته النائمات ، اللائي لا تقل الواحدة منهن جمالا عن الاخرى ، يحدث له ان يشعر بنوع من الحقد على ذلك الذي صنع ايامه . فهو في رايه لم يعمل شيئا لكي يجنبه تلك العزلة التي يحس بثقلها بتراكم على مر السنين .

لقد تركه وحيدا طوال تسعة اشهر في بطن امه بلا شخص يتحدث اليه ، ولا ادنى شقيقة صغيرة تشاطره تلك اللفظة الرهيبة عبر هذه النافذة التي فتحتها والدته بفخر ذات يوم اليم بين فخذيها لكي تقذف به الى مناطق الحياة المجدبة . واثناء صبيحات السهد كان يتساءل اذا لم يكن موت والده مجرد انتحار مقنع في شكل حادث عمل غبي ، يقال بأن رصيصا من الورق مال عليه وسحقه الى الابد على ارض تلك المؤسسة التي قضى فيها اكبر وقت من حياته — حتى تتمكن زوجته من تسلم منحة التأمين ومعاش عامل مات وهو يؤدي واجبه في حمل رزم من ورق الحلفاء الرفيع الذي تصنع منه اجمل الكتب . وحين ينال منه التعب ، ينطلق في الهذيان ويقول في قرارة نفسه بأن والده ترك نفسه يموت تحت طن من الورق تأسيا باكبر عالم عرفه الاسلام ، ذلك الذي وضع ما لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مصنفا في مختلف العلوم بدءا من علم الحياة وانتهاءا بالبرهان الرياضي على وجود الله . وهكذا كان يمهد الطريق للتنقيب التاريخي دون ان يبرح داره ... وعندما يشتط به الامر يستعيد ذكرى ذلك العالم الذي ولد سنة ١٦٦ هجرية وتوفي سنة ٢٥٢ منهـا بالكوفة ، مسحوقا هو الاخر تحت كتلة عظيمة من المخطوطات . لقد قيل بأنها وقعت عليه من رفوف احد الوراقين ، حيث تعود التردد عليه كل صباح للتزود بالكتب . ويزداد خياله جموحا بسبب الارق فيجد نفسه مكتظا بشبح الشخصين اللذين ماتا في ظروف غامضة . واذا كان الطمع في الحصول على منحة التأمين يمثل حاجة جادة حول موضوع وفاة والده، فانه على العكس من ذلك يعتقد بأن العالم الموسوعي قد اغتيل في المكتبة التي يختلف اليها للاتصال بحركة سرية كانت بصدد احداث انقلابات في الامبراطورية الاسلامية من خلال اشكال التمرد الثوري . وقد استبدت به تلك الشكوك والفرضيات التي لم يكن غموضها ليغيب عنه بطبيعة الحال ، فانتهى به الامر الى ان يطرق باب صديقه ماسح الاراضي : وشرح له علاقة التناظر بين مسافة مائة وست وستين مترا المرتبطة بقدرته على تحطيم ضحكات الاطفال وقوقأة الدجاج وجعجعة الرحى وبين تاريخ ميلاد الجاحظ صاحب العينين الناتئتين الضائعتين ، كأولئك الذين يبذرون بؤبؤ اعينهم في الصفحات الصفراء للمخطوطات المثبجة .

كان مبهورا بتأرجح صديقه بين اليقظة والنوم . يظلان وقتا طويلا يتبادلان الحديث في هدوء مقرفصين عند عتبة الدار . كان عديم اللقب

مرتديا كعادته سروالا من الصوف الاسود مشدودا الى فخذيه . وكان عاري الصدر ، ينتعل حذاء مطاطيا ناصع البياض . اما الاخر فيرتدي منامة برتقالية اللون : « انتظر قليلا ... لقد بدأت افهم ما ترمي اليه .. اعترف بأنك تحسن ربط الاشياء فيما بينها ، والظواهر فيما بينهـــا ، واعترف بأن أهل البلدة لا يسايرونك في سرعتك الفائقة ، ولعلك تنتعل الحذاء المطاطي لهذا السبب بالذات منذ ان تعرفت عليك » . على ان عديم اللقب عندما زوّج اخته التوام الاولى ، بعد سنوات طويلة من ذلك اليوم ، ظل يتذكر اقوال رشيد بناصر ، ماسح الاراضي الذي كان يرتدي منامة صارخة الالوان ، تثير السخرية ، فضفاضة جدا بالقياس الـــى جسده .

عندما بنى احد التجار الاثرياء بلدة المنامة في القرن التاسع داخل حدود الاسوار ، وفي مفترق القوافل التي تقايض الملح والتمر بالخرطال والخرداوات وتمارس التبادل دون اية حيلة او مراوغة وتعود بجمالها محملة بالمؤونة والطرف والحلي والصمغ والشمع والاقمشة والاواني والادوات المعقدة نسبيا والضرورية في نفس الوقت للمعاش اليومي ولشطحات الاحلام وغيرها من اشكال الاوهام الموشومة على الوجوه الخمرية ذات اللون الابنوسي المتقطر بلآلىء مرّة ومالحة . — عندما بنى البلدة — وقع في زعمه انه سيحولها الى عاصمة تربط بين حضارات عديدة وبين قارتين او ثلاث . غير ان هذا الحلم الاخرق مني بالفشل ، لان مركز الثقل في تجارة الملح تزحزح بمسافة الف كيلومتر عن ذلك المكان .

واعتبر هذا الانحراف الهائل بمثابة مجابهة شخصية ، فلم يعرف الراحة الا حين شنق نفسه على احدى الاشجار التي غرسها بنفسه في المكان الذي تحول بعد عشرة قرون الى الساحة المركزية لبلدة المنامة : وهو مكان ارهم ، تلتجىء اليه طيور العالم كلها وتعقد فيه مسابقات غنائية خارقة ، ويأتيه الناس من بعيد . وقد حدث ذات يوم ان نزل بالبلدة وفد امازوني محمل بأقفاص هائلة تضم المئات من طيور الكتوات والببغاوات والطيور الغريبة الاخرى ، مع فصائل من الببغاوات الوقحة الناطقة بلغات متعددة . وكانت هذه الطيور تتعمد الخلط بين اللغات السومرية والسريانية والبربرية والعبرانية والمصرية المكتوبة على اوراق

البردي وعربية الفقهاء . وتتحكم تحكما تاما في تلك اللهجات المتنوعة ، وتضرب صفحا عن القواعد النحوية ، وتطلق العنان لثرثرتها الجارفة ، وفكاهاتهـا المبتسرة ، واحاسيسها التي تدفـع السامعين اليها علـى مضاجعة كل ما يقع بين ايديهم . وما اسرع ما قامت تلك الطيور الدخيلة بعروض غنائية تنطوي على ترديد الفواحش الاسيوية والشرقية كأنمـا تربت بين صفحات « كاما سوترا » و « الروض العاطر » او غيرها من كتب الشبق التي لا يعرفها الا مريدو الجنس والمأخوذ على صورته الاولى . وفي وقت قصير جدا ، عمدت هذه الطيور ذات الالوان الزاهية الى ذر المئات من التآلفات الصوتية في فضاء المنامة وهو الامر الذي لم يفكر احد في وجوده بالمنطقة كلها . وجاء القادمون الجدد بأقفاص اخرى اصغر من الاولى ، مملوءة بطيور كفية القوائم من بينها الضريس وطيور الكاميشي وطيـور الفردوس والدفناش والترنجي والتناغـر والسراب والبنغالي والكروان ، التي دفعت بالطيور الاهلية العادية على الغيرة في المسابقات الغنائية الصباحية . وشعرت بالمذلة دفعة واحدة داخـل اقفاصها الصغيرة المزخرفة والمثقلة بالزرازير والعصافير والببغـاوات والعنادل والكناريا وغيرها من الطيور العادية ، واخلدت الى الصمت فجأة امام الضيوف والموسيقيين المترفين الذين جاؤوا من مختلف المناطق التي لم يفكر اهل البلدة يوما ما بوجودها حتى في احلامهـم المزقزقة ، باستثناء محمد عديم اللقب بطبيعة الحال . فهو لم يعرف هذه المناطق البعيدة فحسب ، والتي تفصلها عن بلدة المنامة كثبان الرمال والشطوط الملحية والمستنقعات الطينية ومحيطات المياه ، بل عرف حيواناتها وبناتها والالاف من انواع الطيور الاخرى . ولم يكن احد ليصدق ما يراه وما يسمعه ، وخاصة ذلك التاجر الثري من تجار العصور المنصرمة . فقد جعل يشهد من اعماق قبره هذا الغزو بعد ان خدعته تجارة الملح واحتالت عليه الدروب التي حاد عنها رجال القوافل ذوو الالـوان السكريـة . وبالفعل فقد صار هؤلاء يعبرون المسافات مثل بروق زرقاء مخططـة بالفوران والتكلف لكي يتجنبوا الوقوع في فخاخ هذه البلدة التي لعنتها الطبيعة ويتفادوا كوارثها المتعددة تاركين اياهـا تحت رحمـة الرمال والريح ، وامام سخرية التاريخ الذي يحتل مكانة كبيرة في حياة عديـم اللقب . وخلال ذلك ، استمر محمد في التسكع عبر غياهب السهد وهذيان المبادرات المضطربة لا يدري اي موضوع يوليه اهتمامه بالدرجة الاولى . وشعر بنفسه ممزقا بين العالم الموسوعي الذي كان شاهدا على اكبر

مظاهر البذخ وبين المؤرخ المطلع على الكوارث العظيمة والنوازل في عصر الانحطاط ، العارف بنهاية الحلم الذي تربى بين النهود الرائعة للمحظيات الزنجيات ذوات الحلمات الباذنجانية الاسطورية ، التي ساهمت مساهمة جدية في تزييف خريطة العالم ووجهة التاريخ ، الذي استطاع الى ذلك الحين اخفاء جرائمه وتغطية مذابحه وتحويل اشكال الصراع نحو مجالات المستقبل الباذخة دون اية كوابيس او عقبات . ولم تكن ابسطة الريح حينذاك الا تصورا أوليا لتلك الالات الجهنمية التي سوف تعرفها الازمنة القادمة . هكذا اذن ضاعت المنامة في متاهات القرون ، وابتعدت عن تعاليم الله وعن ثورات اخر الانبياء التي غيرت وجه العالم على مجرى الزمن ، وقلبته راسا على عقب وجعلته يندفع بسرعة خارقة . ولم يبق من ملحمة التاجر الذي كان يظن في نفسه الحيلة الا بعض اشجار عتيقة وسط ساحة في حجم المنديل تحاصرها عشرات المقاهي التي يوجد بداخلها رجال عاطلون ، يقضون اوقاتهم في لعب الدومينو وسط جو يثخنه عبق الشاي المنعنع ، والمغلي الذي يشربونه طوال النهار . وهذا ما دفع بمحمد عديم اللقب الى الغضب الماحق . لا سيما انه ادرك مدى تواطئه في ذلك الجمود السطحي الذي تنام تحته الاهواء الجامحة والاحقاد القتالة والقلق الخانق، وكان حانوت الاسكافي الستاليني الذي لم يستعد ابتسامته منذ سنة ١٩٥٣ . موجودا بين تلك المقاهي التي تحاصر ساحة الطيور وتجمد على كراسيها معظم رجال البلدة . لقد ود الذهاب الى موسكو لا لكي يحضر جنازة الزعيم الراحل ، بل لكي يحتج على عدم جديته ، لانه ترك نفسه يقع بين حبائل الموت مثل اي بشر اخر . ولم يكن رجال المنامة يعرفون تأدية اي عمل لان تربية دود القز ، وهي التجارة الوحيدة التي تعود عليهم بالربح ، كانت متمركزة بوجه خاص بين افخاذ النسوة. كانت تعنى بها ، وتحميها من الامراض النوعية ذات الاسماء الغريبة مثل داء الاغماء والشلل الوردي والتغلغل ، وتعطيها افضل اوراق التوت وتنظف اروقتها الواسعة ومذاودها العظيمة . وعندما تبلغ مرحلة التشرنق ، كن يحضنها تحت جلابيبهن ذات الطيات المتعددة . وكان في استطاعة دود القز حينذاك ان يزداد نموا بصورة تتحدى كل السنن المعهودة ، لا سيما وانه اشتهر عن نسوة المنامة انهن يحملن فروجا شديدة النعومة والاشراق . وهذا ما يبعث الرجال على الاغراق في احلام مهفهفة تمثل النسوة وهن محملات بالاضافة الى فروجهن الاعتيادية

بفتحتين اخريين تحت آباطهن . كذلك كان يصنع اجمل حرير في العالم وقد تضمخ برائحة الامومة والحنان التي لا تزول .

وعلى الرغم من ان هذه التجارة كانت تمارس بكل اللطافة والمهارة التي تقتضيها بنية تلك الحشرات ورهافة احاسيسها وهشاشتها ، الا ان الحرير قد كسد بتأثير الشركات الاحتكارية الدولية الكبرى . وعبثا حاول محمد عديم اللقب العثور على حل لذلك الكساد الذي فرضته قوة مجهولة . اما الاقمشة التي نسجت في البلدة فلم تحصل ابدا على اسهم في البورصة . وظلت مخزونة في الصناديق المنقوشة ذات المغاليق الفضية المرصعة ، وانتهى بها الامر الى ان يقرضها العث امام حيرة الحاميات ذوات الافخاذ المفروشة بدود القز الراعش طوال السنة . وكانت تزوقها وتخططها بالزعفران المستورد من اسيا منذ ان قام ربان عبقري وشعرور في نفس الوقت يدعى احمد ابن ماجد باقتياد فاسكو دوجاما ومكنه من اكتشاف الطريق البحرية لاول مرة ، نحو الهند ذات صباح من شهر مارس ١٤٩٨ . وقد اراد القدر ان يعمد ذلك البرتغالي الى الاستحواذ بنفسه على شرف الشهرة . ولولا ابن ماجد ذاك ، لكان الى يومنا هذا متأرجحا بقاربه بين امريكا ومضيق جبل طارق . ولعل المجاعة اجتاحت بلدة المنامة مرتين او ثلاث مرات خلال قرن واحد لهذا السبب بالذات ، وعمها الجفاف والوباء زمنا طويلا . وكان اهاليها يعتقدون الى ذلك الحين انهم ينزلقون على جزيرة من البحر الهندي وليسوا في صحراء احرقتها الشمس ، حيث راح الظل يلعب مقالب على الناس كلهم ... وما كان احد ليجرؤ على قول ذلك ، فحتى عديم اللقب نفسه وماسح الاراضي والاسكافي العجوز ، كانوا يتظاهرون بأنهم لا يعلمون بالامر . على انه من البديهي ان اهل المنامة لم يحبوا حاكمهم كثيرا ، بسبب اختلاساته البترولية ، واكباشه المستوردة ، وبسبب الامر الذي استصدره بأن يعمد رب كل عائلة الى تزيين داره بزهور الجاردينيا المصنوعة من الباغة البيضاء . بحجة انه كان يصنعها في اقبية منزله من البترول (النفط) غير المباع . وروجت اشاعات كثيرة حول حياته الخاصة ، وتردد في المقاهي ان كلثوم صغرى بنيته قد وهبت عذريتها الى محمد عديم اللقب بمجرد انتهاء عادتها الشهرية الاولى . وقيل ايضا بأنها فعلت ما فعلته تحرشا بعديم اللقب حتى يبرهن بأن الله زوده حقيقة بذكورة خارقة وناعمة جدا في آن واحد . بل ذهب البعض

الى القول بأن خوارقه كانت تحول دون تطور صناعة الحرير الفريدة من نوعها ، وكان في مقدورها ان تحول هذه البلدة التي نكبت بصلفها وبغرائب سكانها وبجشع حاكمها الاسطوري الى فردوس . والحقيقة هي ان هذا الحاكم فوضته السلطات المركزية في البداية لتطبيق مشروع ري كبير . وسرعان ما وقع المشروع طي النسيان وادرج بين الامور الثانوية التافهة التي تجاوزها الزمن ، وظلت تتراكم في المزبلة البلدية خارج الاسوار .

وباستثناء اصحاب المقاهي والاسكافي وماسح الاراضي ومربيات دود القز والحاكم صاحب الانشطة المتعددة المتشعبة ، لم يعثر على ما يمكن ان يوضع في عداد ثروات البلدة سوى المصارعات الشهيرة بين الاكباش . وهي تضمن عيش العديد من العائلات الشريفة بفضل المراهنات المنظمة حول الحلبات الدامية . وقد ادخلت تلك المصارعات عندما كان الرومان يطاردون رجلا يدعى « تاكفاريناس » واتباعه الذين فرضوا لاول مرة في تاريخ المنطقة التي تقوم بين دجلة وملوية مبدأ تقسيم الارض بكل عدالة . حدث ذلك رغم انف المسمى بالقديس اوغسطين الذي ظل يعيش تحت وطأة الخيانة خوفا من محاولة اغتيال محتملة . غير ان تقاليد هذه المصارعات تدهورت بسبب سوء النية وتأنيب الضمير اللذين اثقلا على المنامة منذ قضية القوافل التي تنقل الملح . وافردت البلدة في ذلك العهد ، وقوطعت ونبذت خارج كل حضارة مزدهرة . وبعد بضعة قرون من ذلك التاريخ ، عمد الحاكم بصورة عرضية الى احياء ما صار فيما بعد اكثر النقائص انتشارا وتحكما في البلدة . وقد كان هو نفسه يعاني من نقص لا مرد له ، على غرار كل ثري وصولي ، فوضع في صالون داره الرائعة اول مرآة قدر لاهل المنامة ان يبصروها . وكان له كبش محظي يغذيه بأوراق التوت ، فقطع الحبل الذي يشده الى مربطه المجاور للدار ، واندفع نحو قاعة الاستقبال ذات الطابع الدمشقي، وهجم على المرآة مشهرا قرنيه فحطمها شر تحطيم . لقد ظن صورته في المرآة خصما له مقرنا مثله ، فأحدث اضرارا في الدار وفي عقول اهل المنامة . كان هؤلاء قد اولعوا ثانية بتلك اللعبة التي تدر ارباحا كبيرة على عائلة بندرشاه . وسارعت هذه الى تنظيمها في شكل مراهنات ، مكثرة من المكاتب المكلفة بتسلم المبالغ في جميع انحاء المنامة وزواياها . وما كان احد ليشك في الواقع في امر هذا الولع الذي راح يهز البلدة ويتسبب في ضحايا عديدة لا بين الاكباش المروضة فحسب ، والتي

يدربها اساتذة محنكون ، بل وبين السكان الفقراء الذين يطغى عليهم جنون المقامرة الجارف ، فيعمد بعضهم الى غرس خناجرهم في صدور خصومهم المنتصرين . ولم يسبق للمنامة ان عرفت اية حروب او كوارث او ثورات بفضل تلك الاسوار المتعددة التي صمدت في وجه الرياح والرمال والعواصف والقيظ . وتعود اهل البلدة ان يموتوا من الشيخوخة، وان تنوف اعمارهم على المائة . كما تعودوا التقوقع في محاورات ذاتية كلها هذيان عن تلك الحروب التي ظلوا يستعرضونها بطريقة موغلـــة في الخيال ، لانهم لم يمارسوها بالمرة . وقد شعروا بالحرمان لانهم لـــم يشتموا روائح البارود ولم تتناه الى اسماعهم موسيقى المدافع وصليل السيوف ، فراحوا يستعيدون ما ضاع منهم خلال مصارعات الاكباش حتى انه حين يقتل احدهم اثناء نزاع حول هذا الموضوع كان يدفـــن بطريقة فخمة وسط قعقعة الصنوج والتراتيل القرآنية . وحين ينتابه الندم القاتل ، تفرض عليه التقاليد زواجا طقوسيا بأرملة القتيل المتأسية، وبناته اللواتي وصلن سنا تسمح لهن بتحمل الصدمات القوية . وهـــي الصدمات التي كثيرا ما تسمرهم في مركز الثقل لمدة زفرة واحدة تجتاح الاثاث كله لانه محمل بثقل الجريمة واللعنة . ولهذا السبب ، كان هناك مقبرتان . اخفيت الاولى منهما بكل خجل وراء شجيرات الصبار عنـــد مشارف الوادي الذي كان فيضانه غـــير متوازن بالقياس الـــى حجمـــه ومنسوبه . واهل المنامة يدفنون بهذه المقبرة هؤلاء الذين كانوا من الجبن حتى انهم ماتوا شيخوخة او مرضا . ويتم ذلك كله بدون موسيقى او طبول وبكل سرعة ودون ان تذرف عليهم الدموع . اما المقبرة الثانيـــة التي تشرف على البلدة وتشكل مركزها ، فهي اشبه ما تكون بفردوس سماوي ينمو فيه العشب الذي يسقى ببول النعاج العجيبات المستبعدة عن المعارك الهوميرية . في هذا المكان بالـــذات ، كان ضحايا الاهواء ومصارعات الاكباش والاكباش انفسها التي تقتل خلال المقابلات يدفنون جنبا الـــى جنب .

لم يكن عديم اللقب يهتم بهذه الحكايات الخرافية المأتمية ، بـــل ينتهز فرصة وجود اهل المنامة في الحلبة ثلاث مرات في الاسبوع الواحد ، وينتقل من دار الى اخرى . ويلعب عندئذ دور البهلوان فيملأ عينيـــه بغمامة اللذة ــ كانت عيناه بلون الخضرة المائيـــة ــ ويغرق في الاسرة الجارفة ذات الزرقة البرتقالية ، دوائر الشكوك المبهمة التي تنتظرهن

حيث تجتذبه شهوات النسوة . كن يرغبن في التعرف على تلك الرعشة في الجانب الاخر من الدوخة . وكان محمد يرضخ لهواه ، على الرغم من نصائح رشيد بناصر ماسح الاراضي ، وعلاوة الاحمر الاسكافي اللذين ما انفكا يحذرانه من امراض النساء ، وينتهزان كل مناسبة لكي يصبا بكل سرية مسحوق البرومير في كؤوس البيرة التي يتناولها . الا ان ذلك كله كان عبثا في عبث . والظاهر ان التأثير الوحيد لذلك الدواء العقيم هو انه يجعله مرحا طوال عدة ايام ، ويعكس مزاجه حتى انه حينما يباشر احدى العشيقات كانت تبصق رحمها من فمها وتموت وسط حشرجة صاخبة من اللذة والمرارة . وليس لها من الوقت الا ما يكفي لتهمس في اذنه بلغة المنامة المزهرة : « ليبارك الله مسعودة عديمة اللقب التي فكرت بأن تغذيك بالسمسم لكي تحول الموت الى تحويمة من الفراشات البنفسجية التي ترتطم بعنف بنوافذ الرغبة » . ولهذا السبب حاول حلفاؤه توضيح تلك الاسطورة التي تنسج حول شخصه : ومن بينها حكاية الظل الذي لم يكن يتركه ليختال وراءه أيا ما كان موقع الشمس ، وقدرته المغناطيسية التي يمارسها على طيور الساحة ، والاقاويل عن اندائه الليلية التي لا تخصب اية امرأة ، ذلك الخوف الذي يحدثه على بعد مائة وست وستين مترا في نفوس الاطفال والدجاج والرحى المجعجعة، و" موض الذي يحيط بموت والده والكنية التي اعطيت لجده ، والعلاقة بكلثوم ابنة الحاكم ، والاسطورة القائمة حول اللغات القديمة الارامية والعبرانية والبربرية وعربية الفقهاء والمصرية المكتوبة على اوراق البردي ، التي يكون قد نطق بها حين خروجه من بطن امه ، وهذياناته حول ابن خلدون وحول ذلك العلامة الذي مات سنة ١٦٦ في ظروف وهمية او مأساوية او سرية بكل بساطة . لم يكن عديم اللقب مغفلا ابدا . فالبيرة التي يجرعونه اياها بمقدار براميل لم تكن تعمل الا على شحذ احاسيسه ، وحفز مواهبه الخارقة ، وتقوية تلك العزلة في اعماق نفسه وذلك الحنين الذي يتشرب قلبه كقطعة خبز مبللة . ثم ان هذا الحزن كان يذكره بذلك الصباح الصرد الذي جاء فيه رجلان بألبسة بيضاء ، وبشوارب مدهونة ، وقد اصطحبا معهما داخل ازرار مخضب بالدم تلك البقايا المشرمة التي لم تكن في واقع الامر الا بقايا والده . لقد قالا حينذاك وهما يداعبان خده : « لك ان تفخر بوالدك ، فقد مات في العمل ، وهذا افضل له من ان يموت في مراهنة يائسة على الاكباش . ليس لك ان تحزن ، فلم يكن لديه حتى الوقت لكي يدرك ما حدث . ولكن يتعين عليك

ان تدبر امورك بنفسك ، رصيص الورق الـــذي سحقه لـــم يعد صالحا للاستعمال ، ورب العمل يريد تعويضات عنه » . وبعد زمن طويـــل . طويل ، طويل ، تذكر عديم اللقب تلك اللحظة حين شيع جنازة امه . في ذلك اليوم احس وكأن العالم يتزاخر عجاجا عشعش بين فخذيه وجعل يتصاعد من بئر الطفولة كلما ثمل او بلل بأندائه الليلية العذارى اللائي يستمسكن به بقدر استمساكهن ببراعـــم فروجهن المورقـــة والناعمة . ويعتريه نفس الاحساس عندما يقرأ في نسخة قديمة ـــ من تلك التـــي يستخدمها تجار القضامة لحزم سلعهم ـــ اكثر المقاطع استشرافا للمستقبل في مقدمة ابن خلدون . ويحس خلال كل قراءة نوعا من الاحباط الكوني يجتاحه ، يتلقاه ككارثة من الدم المسفوح على رقع كاملة من سلالته الذي احتجز منذ سبعة قرون بعد ان تمخط عقودا طويلة بمناديل الموسلين التي يؤتى بها من اقصى اطراف الدنيا ، وبعد ان غـــذّى باللحم النيء طيور البزاة الجشعة لا لشيء الا رغبة منه في ترويضها واخذها الـــى الصيد . فلا ذكورته الخارقة ولا توبيخات والدته مسعودة عديمة اللقب ولا شبح جده المصابيحي الذي يظهر امامه كلما وشت فوسفورية عظامه جدران غرفته بزرقة نيلية . كل هذا لا يغير شيئا ولا ينسيه انه يعيش في أنأى واهوس قرية نبعت يوما ما من الرمال المتحركة ومن خـــلال النقيضة الاساسية للبشر الذين يرفضون مثله ان تنتزع منهم ضمائرهم المؤلمة وشعورهم الفاقع بالاثم عندما يعمد ظل القيلولة المفعمة بالصنان الاليف الى محو الفشل الذي لا يريد احد تحمله . ولا قطعة قطعة ولا حتى جرعة ، جرعة خلال حفلات الشاي التي تدوم دهورا قاطبة ، بينما تخرخر ابواق الورع ويتواصل التخريب بأشكال اخرى منذ ان جاء المستر براون على متن شاحناته بكمشة من الكشافين المدججين بالاسلحة لقضاء عطلهم والعودة مسرعين الى ديارهم . وها هو ذا المخيم يتسمر في عين المكان ـــ يردد عديم اللقب ـــ دو ن ان يحزن احد لهذا الاغتصاب ولهذا التزييف التاريخي . وكلما شرب اكثر ازداد نقمة على الحاكم لانه لم يبادر بصورة حازمة الى ردع هذه المستوطنة التي تحرم اهل المنامة من قيلولتهم . ويرعبونهم بلعبة الحرب واطلاق المحاريق التي يتسبب تفجرها في ايقاف لعبة الدومينو بمقاهي الساحة ، وعندما يكون للاحلام الدافئة مذاق الشاي المنعنع المنقوع بالملح . ثم بغتة ، تغمر محمد موجة من المرح والقهقهة التي يكسر صداها زجاجات البيرة ويحولها الى رذاذ مبلر ، فيتذكر انذاك كم كان غبيا حين وجه كلاما كهذا في حين انه لا

يملك حتى لقبا ، بل يحمل بدلا من ذلك حرفين اولين لا يمكن ترجمتهما حتى الى لغته الاصلية . وقد اثقل عليه الندم ، فانتهى به الامر الى ان ينظر تحت الطاولات ويمسح بيده النخالة التي تغطي قيأه لكي يتبين اذا ما كان لقبه غير منقوش على بلاط الاسمنت في الحانة التي يسكر فيها كلما خرج من نحس ليدخل في اخر .

كان الرفاق الثلاثة اخر من يبارح الماخور الوحيد الذي يحمل اسما ينضح بقساوة الحقائق اليومية : « الكبش الشبق » . وكلما ثمل الثالوث لفه الشجن ، فيتذكر كل منهم ، تتقاذفه جدران عزلته الضيقة ، طيشه وشقاءه ، امواته واحياءه . فينسل محمد شرايينه فوق جثة والده المتفرقعة فقاعات فقاعات من اللحم الاكهب المختمر . وينتحب رشيد بناصر راجعا القهقري على روابي موت ناتئة القواطع ، وقد داهمت سلفا له اعدمه القراصنة منذ زمن طويل . طويل ، طويل . صورته لا تزال تتصدر واجهة سرير والديه . اما علاوة الاحمر ، فيهمهم بحشرجة صماء حول شبح ستالين ، الذي كان من المنتظر ان يبعث من جديد لتصفية حسابات كل الرجعيين مهما اختلفت اشكالهم والوانهم . وكثيرا ما يتسببون في فضائح ليلية وهم يغادرون الماخور متكئين الواحد على الاخر ، الى ان ينتهي بهم المطاف مرة اخرى الى الماخور الذي يعمل ليلا نهارا ، والواقع بين احضان الشطوط البلورية واسوار المنامة المتهالكة، فيتوزعون في غرفه العفنة ، حيث ينام الاسكافي العجوز ملء جفنيه وهو الاعزب الذي باع روحه الى ثورة كان يترقب انبثاقها ذات ليلة شتائية داخل دكانه الذي اتخذه منزلا في نفس الوقت . اما ماسح الاراضي فقد كان يتمثل فروج المومسات كآبار نفط ويسبرها بآلات ، بينما يحتفظ محمد بجديته مؤكدا لأهرم قحبة في الماخور بأنها اخته التوأم التي حرمه الدهر منها ، حتى يسد شقوق سكره ويتنصل من ذاكرة الهزيمة والشجن .

ورغم كل هذا الابتذال ، يفاجىء الصباح كلا منهم وهو في فراشه ، خاصة وان محمد عديم اللقب لا يمكنه هجر طيور الساحة التي قد تموت جوعا اذا لم يطعمها ، ولا ان يتخلى عن العشاق الذين قد يرون تنهداتهم تتجمد على شكل كتلة ثلجية محرقة ، ان هو لم ينقل سرائرهم الى لغة الهذيان الشعري . غير ان « مليكة » كبرى شقيقاته كانت تقول : « لست افهم كيف تدبر امورك لكي تقوم بما تقوم به دون ان تصير اضحوكة

في اعين الناس . لكن لا تنس ان لك تسع اخوات في سن الزواج ، ولا تنس انك لو واصلت نزقك هذا فلسوف تحكم علينا بالعزوبة ابد الدهر ».
حينذاك يصرفها عديم اللقب عنه بقوله : « سوف احكي لك ذات يوم ما فعلته فتيات المنامة خلال القرن السادس عشر . ذكريني واطلبي مني ان احدثك عن معركة الخصل . والى ذلك الحين انظري ما تحت جلابيبك ، انني احس ان هناك الملايين من الفراشات تسبح تحتها ! »
وكلما القى اليها بمثل ذلك الكلام المغرق في الهذيان ، وقفت مليكة مندهشة حينما ادركت انه على حق . فترفع تنانيرها ، وتبصر بالعديد من الفراشات البيضاء وهي تطرق باب فرجها بكل براءة . هكذا كانت تستغني مؤقتا عن الزواج .

كانت المنامة معبرا للرياح المنسربة ، والمهربين المتعبين ، وساحة للحروب الصيلبية الثماني التي سبق لها ان اعلنت عن التوسع الاستعماري القادم ، وكانت تضم دار عائلة عديم اللقب التي تصطخب بنشاط فوضوي لا يعرف سبيلا الى التعب بقيادة مسعودة عديمة اللقب المتسلطة . وكلما غضبت هذه المرأة فرقعت بحمالة صدريتها العظيمة ، فكان صخبها يجعل الطيور تهرب من ساحة البلدة ومن غيرها من الساحات الاخرى بما في ذلك الطيور التي جاءت بها فرقة الامازونيين المريشة . الحمائم والسلاحف فقط تمكث ساكنة في اماكنها ، وتتلهى برؤيتها وهي تصر باسنانها ، وتهمهم وتندب حظها السيء ، ذلك لانها استصحبتها من دار والدها حيث سلكت النسوة نفس السلوك منذ اقدم العصور . كن يفرقعن بحمالات صدريتهن كلما فاض الحليب وهو على النار واحترق الطعام وطار الغسيل وكلما زاد صخب الاطفال ... وعلى الرغم من ان مسعودة تشرف على بناتها التسع واولادها العشرة ومن بينهم عديم اللقب ، الا انها كما كفت عن التكرار بأنها لم تعد تفهم شيئا في امر الشهور والاعوام منذ ان أولع بكرها الغبي ولوعا شديدا بالمعرفة ، في حين كان من الافضل له ان يصير تاجرا يبيع كل متر من القماش القطني بما يوازيه ذهبا . وما كانت تفهم ايضا سبب انهماك البلدة كلها في فلاحة الحرير داخل أصص النعناع والسمسم . بل وحتى في سراويل النسوة المحترمات ، مع ان احدا لم يكن يريد شراءه . وكانت تقول لمن يريد الاصغاء اليها سواء في الحمامات او في حفلات الزواج او في الجنازات ان الله نفسه قد بدأ يمارس الغش ، لانه لم يتمكن من حصر مخلوقاته داخل المساجد ولا أدل على ذلك من تدهور الزمن ومن تقلبات

المواسم ومن تذبذب القثاء الذي صار ينمو بعيون السمك ، ومن اهواء النسيم الذي لم يهب على المنامة منذ زمن طويل ومن عقود الورد التي صارت تشبه زهور البيجونيا داخل اصصها ، وغيرها من غرائب هذه الازمنة الجديدة التي لا توحي بأي خير . كانت اذن على علاقة سيئة مع السماء ، تنتظر منها ان تضع يدها ثانية على وقائع الامور وخاصة على ابنها المجنون قبل ان تذهب لزيارة الاولياء الذين اهملتهم تعبيراً منها عن غضبها وعن خيبتها لرؤية الله وهو ينجرف في سيول فيضاناته .
وعلى الرغم من هذه الخوارق الكلامية ، فقد عرف عنها بأنها ما انفكت تبذل جهدا للبر بالوعد الذي قطعته على بعلها ، وذلك بأن تزوج بناتها بأمراء اصلاء . وعرف عنها ايضا انها لامته لموته دون ان يحيط بها علما بذلك . وعندما تشكو لها مليكة ، في حضرة شقيقتها « أمحمد » ، تلك السمعة السيئة التي الصقتها بالعائلة خوارق محمد عديم اللقب ، ترد عليها بألا تخشى شيئا لانها رأت في المنام انه تزوجها قبل نهاية الجفاف الذي يدوم منذ عشر سنوات . وبما انها احتقرت حرير دود القز احتقارا متأبدا ، وصوف الاكباش فقد منعت دخول بيتها لادنى الخرشفيات ولأشد الحيوانات الفة ومن ذوات القرون . ومسعودة هذه ابنة تاجر عمل في تهريب القماش القطني والرياش وكتان القلاع بمدائن الساحل ، وهي تشغل وقتها واوقات العديد من ابنائها بفلاحة جنينتها العجيبة حيث تنمو اكبر انواع القثاء على سطح الكرة الارضية واحلى حبات البطيخ واضخم ثمار الزعرور ، التي كان لها على الرغم من شذوذها مذاقا آتيا مباشرة من الفردوس ، ونكهة لا مثيل لها . نكهة لا علاقة لها البتة بتلك التي تنبعث من الحرير والتي تشتم منها مسعودة عرق الافخاذ وصنان امسيات الخميس . وكانت تغذي نوعا من الهلوسة العائلية في انتظار ان يدرج استعمال القماش القطني ثانية . فتستأنف انذاك المهنة العتيقة التي احترفها ابوها ، والتي ورثها عن اكثر اسلافه اغراقا في التاريخ . لكنها كانت تعرف تطرفات تلك الهلوسة ، وتتحكم فيها بصلافة هي اقرب الى التجلي ، وبعناد ذاكرتها الخارقة . ثم انها تنزلق في تهويماتها بتشجيع من فتياتها اللائي ينتهزن فرصة الانتشاء هذه ، فيضعن تحت جلابيبهن كل ما يجدنه من الرضع والصبية وغيرهم حتى يشعرون بالاحساس نفسه الذي تعرفه نسوة المنامة عندما تحتضن الشرانق . وهو احساس حرمن منه بسبب ذلك القرار الذي اتخذته والدتهن .
كانت مليكة وحدها تتمتع سرا بقانون خاص وترى بين الفينة والاخرى

اعماقها وهي تشرق بحضور الالاف من الفراشات البيضاء الفوسفورية المقرورة العذبة والحامزة في آن واحد . المرفرفة ، المسرنمة المجهولة المصدر . وحينما لا تنشغل مسعودة بجنينتها ولا تنهمك في توبيخ محمد عديم اللقب ، تخصص وقتها للاعتناء بالدار ولصناعة اوانيها بالطين الذي يجيء به ابناؤها على ظهور البغال من تعاريج الوادي الذي يمتد على طول اسوار البلدة ويشكل هوة طبيعية توحل فيها العديد من الغزاة منذ اقدم العصور . وكان هذا النشاط الدؤوب ممهورا دائما بالرغبة في الحفاظ على تلك الاسطورة القائلة بأنها تملك انظف واهدأ بيت في البلدة، لا سيما وانها قضت على الناموس والحشرات حتى انها استغنت عن الناموسيات ولم تعد نوافذ بيتها في حاجة الى الشبابيك الواقية . بل ان اثاثها الموروث جيلا عن جيل كان يبدو وكأنه خارج لتوه من معمل النجارة ، تصدر عنه رائحة التشميع على الرغم من قدمه . وتقول مباهية بأن اثاثها هذا هو هدية قدمت الى احد اسلافها من قبل السلطان محمود الثاني خلال ازدهار الباب العالي . ويومها كان يحتـل وظيفة حاجـب المروحة . ويتملكها الزهو احيانا ، فتصيح امام ابنائها المجتمعين حـول المائدة العائلية اثناء الغداء ، بأنه لم يكن في مقدور كل من هب ودب ان يروّح عن وجه السلطان المقدس ، ذلك لانه فضلا عن هيبته الاسطورية ونسائه السبعمائة ، وقف في وجه عدد كبير من اشكال الاحلاف المقدسة الكافرة . وما كان لابنائها ان يعارضوها ، هؤلاء الذين كانت اسماؤهم من التقارب يشكل يدعو الى الالتباس : محمد ، احمد ، حامد ، أمحمد ، حميد ، حمده ، حمدان ، حمود ، محمود ، حمادى ، بالاضافة الى انهم عديمو اللقب منذ ذلك اليوم من سنة ١٨٤٠ ، حين قرر رئيس الحالـة المدنية الاجنبي اذلال جدهم الاكبر ، فيما يقال ، فحرمه من لقبه والصق به حرفين حقيرين ، لم تشف العائلة من وخزهما بعد . والبعض الاخر من الذين وصفتهم عائلة عديم اللقب بأنهم اعوان طيعون ، اكدوا ان ذلك قد حدث ذات يوم شديد الحرارة ، كانت فيه اللقالق تثير جعجعة كبرى حتى ان كاتب الضبط الذي وصل متأخرا على متـن شاحنة عسكريـة اجنبية ، لم تكن لديه الشجاعة لكي ينقل الى لغته اللعينة اسم سالفها المحترم ، الذي لم يكن من عامة الناس . وازاء مثل هذه الخطب الرنانة، كانت الفتيات اللائي اطلقت عليهن اسماء مليكة ، عتيقة ، رشيقـة ، صديقة ، عريقة ، حديقة ، عشيقة ، رفيقة ، وسميكة ، تنتابهن نوبات من الضحك الذي يستحيل كبته ، لا سيما وان امهن جعلت تهددهـن

بحرمانهن من الزعرور ان هن لم يتوقفن عنه . حينذاك ، تدرك مسعودة اهمية ابنها البكر ، وهو الوحيد الذي راى النور منفردا . وراحت تستخدم سلطته لتهدئة الصخب الذي كانت ضحية له من قبل توائمها الثمانية عشر . على انها ظلت تقول بأنه لا ينبغي لولدها مع ذلك ان يغرق في الاوهام او ينتهز هذه الفرصة لكي تغتفر له خوارقه المعروفة عنه في كل البلدة ، خاصة منها ذلك الظل الذي يحركه كيفما شاء . وكان هو يسخر بذلك من كل قوانين الفيزياء الشمسية التي دونها ابن الهيثم في القرن العاشر . وكانت له ايضا تلك العادة في اقحام ذكره الاسطوري في اي مكان دون ان يترك اثرا ملموسا لمروره عبر المسارب الانثوية المحبجبة . غير ان مسعودة تؤاخذه على بعض الفواحش ذات المطمح التاريخي ، وتراها مجرد فصول من مهزلة يقوم بها كراكوز تركي ، مطلي بألوان مهفهفة ، هي الوان الميوعة عند ذريتها ، بل عند سلالتها المحكوم عليها بأن تعاني دائما من البثور المتقيحة المؤلمة التي وضعها الله — الذي لم يكف عن ممارسة الغش — بين الوقت والاخر وبطريقة جد صائبة ، بين خصيات ومراكز الذكورة لدى افراد العائلة . وعندما تتحسن العلاقات بين الام والابن تحسنا جيدا ، تطلب منه ان يهمس لها ببعض الاسرار عن اصل وجنس هذا الابن خلدون الشهير الذي اغرم به . حينذاك ينتهز عديم اللقب الفرصة ويعدها بأن يحكي لها كل شيء عن تاريخ هذا الرجل العظيم وغيره من المشاهير الاخرين ، شريطة ان تعيد طلاء البيت باللون الازرق النفطي وان ترخص له بأن يربي في غرفته طيور البرازيل وان تغير مواضع الاثاث الموروث عن سالفها من مكانه المعتاد . وامام مثل هذا الطوفان من الطلبات ترفض مسعودة رفضا قاطعا ، وتصفها بأنها اهواء طفل لا يخاف من ظله فحسب ، بل يبدع اساطير غريبة حول ذكورته الخارقة وحول معارفه اللغوية التي لا يمكن لاحد ان يتصورها . غير انه لم يكن لديها الوقت للدخول في حكايات معقدة تعلم انها خارجة رأسا من خيالات ابنها . عندئذ تبتلع حنانها ثانية ، وتذهب لسقاية قثائها وباذنجانها وتستعرض فروج بناتها التسع ذوات الاسماء البراقة المتشابكة فيما بينها . هذه الاسماء التي كان المقطع الاخير المكرر منها يدفع بها الى الخلط فيما بينهن . وعلى اية حال ، لم يكن هناك الا فارق ستة اشهر بين الواحدة والاخرى منهن حتى انهن كن غير راضيات بتبادل الثياب والاسماء ، وتبلغ بهن الجراة حد تبادل الهويات لاستغفال امهن واشقائهن التوائم ، وصديقاتهن

بل وحتى عشاقهن الوهميين الذين لم يدركوا تلك الخدعة ابدا . وكانت مسعودة تراقب بانتظام اذا ما كن دائما على بكاراتهن حتى تستطيع نشر قمصانهن الملطخة بدم الدخلة على الحبل الذي يستخدم عادة في تجفيف الغسيل ، وذلك في حالة ما اذا تجاوزت الحاكم باختطاف احد امـراء الصحراء لكي تهدي له احدى بناتها . وقد سخرت من غرور الحاكم الذي قرر ارسال بنته الكبرى لتعلم الرقص في قارة اخرى كانت عاجزة عـن التلفظ باسمها لشدة بعدها عن المنامة . غير ان الشقيقات التوائم اللائي لم يكن يتفاهمن جيدا فيما بينهن ، لدرجة تصل حد الكراهية ، كن يغالين في نزواتهن فيغمى عليهن جميعا في نفس الوقت كامرأة واحدة بمجرد وقوع حادث خطير او محزن او مدهش . كانت العادة الشهرية تأتيهن في نفس الوقت بالضبط من كل شهر وتدوم لدى كل منهن عددا مماثلا من الايام ، فيقعدن خلالها على السطح الذي نصل لون قرميده على مـر السنين لشدة ما لوحته الشمس وبرز حشيشه الازرق بين الفتحات . وكن يؤولن علامات السطح وشقوقه وينحبسـن بين الصمت والثرثرة فيشعرن بسريان دمائهن التي تتقاطر بغزارة في قصريات فضية حتى لا تضيع هباء ، ويفاجئهن ذلك السيلان الضعيف حتى انهن تترنحن جميعا بين الدوخة والاغماء . وهذا ما يدفع الابن البكر الى القول ، وهـو منهمك في لعب الدومينو : « يجب ان اعود الى الدار ، فهناك ولا شك امر يحدث هذه اللحظة » . اما الاشقاء فيتجنبون العمل وقتا طويلا في غرس ثمار المحامي البنفسجية والبصـل والتين الهندي وغيرهـا من الخضر ، فيقضون أوقاتهم ، بدورهم ، في تبادل ثيابهـم واصواتهـم وايماءاتهم . ويستغفلـون والدتهـم المتسلطـة التـي لـم يكونـوا ليقووا على مقاومة انفعالها المتطرف الا بتلك الحيلة الذكية التي تحفـز خمولهم المعهود فيهم منذ ان توقف التاريخ عن الدوران في منطقة اسلافهم. وهي المنطقة التي صارت اضحوكة بين اولئك الذيـن سيطروا عليهـم سيطرة تامة طوال سبعة او ثمانية قرون . ولكن الامر كان يبلغ ذروة التدليس الذي يعمد اليه الابن البكر المنفرد ، وذلك عندما يبادر التوائم الى الاحلال محل شقيقاتهم ، وتغرق دار مسعودة عديمة اللقب في هذيان مشهود . ويصاب سكان الدار بشيء من الوجوم فتشدهم الدهشـة وكأن صاعقة نزلت عليهم لكثرة ما عمدوا اليه من اشكال التنكر والتحولات والتبدلات في جنسهم . محمد عديم اللقب وحده هو الذي يسجل على الدفتر مختلف حالات المسخ والاستبدالات المتعددة والانقلابات في الاوضاع

والتأثيرات المسرحية ومن ثم فهو يعرف كيف يعيد الامور الى نصابها وكيف يرجع الى اشقائه اعضاء ذكورتهم والى شقيقاته بنياتهن الانثوية . ثم انه يزيد من عندياته ، فيلف ذلك كله بخطاب رائع يقتبسه من خيماوي وطبيب من القرن الثالث للهجرة . معجب به أيما اعجاب . وبالفعل فقد شارك الرازي في اكبر حركة ثورية عرفها الاسلام ، ولم يكتف بتقديم مساندته الاخلاقية بل ساهم مساهمة جدية في انتصارها . على ان عديم اللقب ظل يؤثر مؤلف المقدمة لسبب واحد وهو انه خطر له التوقف بالمنامة مدة اربع سنوات ، ووضع فيها ادق مصنف في الاقتصاد السياسي حصل عليه العالم . وكان عديم اللقب يجلس الى طاولته عندما تقضي والدته فترة القيلولة . ويذهب في اخذ ورد حول مصير اشقائه وشقيقاته من التوائم الثمانية عشر . وعندما ينتهي من ذلك ، يراجع حساباته مرات عديدة لكي يتأكد من انه لم يخطىء . كان على وعي بما قد يكلفه مثل هذا الخطأ ، ويوقعه على العائلة والبلدة معا والمنطقة وما اليها والبشرية جمعاء التي سوف ترى حينذاك جهود قرون عديدة يعاد فيها النظر ، وما ذلك الا لانه لن يكون في مقدور احد ان يعرف ما يعنيه الكلام ، وما تحمله الاسماء من المعاني ومن الرموز التي لم تحظ باعتبار حقيقي . وعندما يفرغ محمد من اعادة النظر في كل شيء ، يشعر بالتعب الشديد حتى ان عينيه الخضراوين تصيران مثل حجرين خرجا من بركان خمدت نيرانه منذ ملايين السنين . ويظل في مكانه ساعات طويلة جامد الهيئة ، كأنه ينتظر من شبحي والده او جده ان يجيئا فيهزانه ويعيدانه الى الواقع اليومي المزري .

الاعيب المرايا هذه ، والادراج ، والمشاهد التهريجية ، والوقائع التاريخية ، كانت تنظم على غير علم من الوالدة وعلى حسابها ، تلك الوالدة التي تجاوزتها الاحداث البيتية والملحمية على حد سواء . كانت خلال سحابة نهارها تنطلق في اثر الزمن فلا تقوى على حصره ضمن حدوده الصارمة . وفي الوقت الذي تنشط فيه وتنحني لقلب الارض وغراسة بستانها وسقيه والاعتناء به ، تلقي بانتظام نظرة قاتلة على ساعاتها الجدارية التسع عشرة ، المصطفة فوق اثاث تقادم به العهد . وتهمهم بين أسنانها بعض الوقاحات تجاهها ، متهمة اياها تعمد تجاوز الوقت بساعة على الاقل حتى تسرق منها وقتها الذي يسيل عبر تضاعيف دماغها بعد ان تحوّل الى ساعة مائية يغذيها دمها القوي العتيد .

وهي تعلم انها اذا كانت اليوم ارملة بتسعة عشر ولدا ، فانها مدينة في ذلك لارادتها التي لا تعرف الكلل وولعها بالتناقض . وهذا ما اوقعها في تصرفات متطرفة رغبة منها في ان تعارض اوامر الحاكم الذي دفعت به اهواؤه وغطرسته الى ان يتسبب في هبوط نسبة المواليد هبوطا لا يصدق في بلدة محرقة مثل المنامة .

وبعد زمن طويل . طويل ، طويل . اي عندما زوّج محمد عديم اللقب شقيقته التوأم الاولى ، تذكر ذلك المسبح الاولمبي الهائل الذي اهداه الحاكم لنفسه . لقد اجبر السلطات على قطع الماء خلال النهار لكي يستطيع ملء المسبح . وهذا الوضع قلب عادات اهل المنامة رأسا على عقب ، فقللوا من انجاب الاطفال . وكان لمسعودة رد فعل مختلف ، فقررت الا تنجب منذ ذلك الحين الا توائم من جنسين مختلفين . وتحايلت ايضا حتى تعمل على اخصاب بستانها ، وهكذا ، وعلى الرغم من قلة الماء حصلت على نتائج عجيبة . لقد جنت حبات من الطماطم في حجم الشموس وبعض الخضراوات المتعملقة وحبات من اليقطين هي من الكبر حتى انه كان في المستطاع حجز البلدة داخلها وتخليص الكوكب منها الى الابد . وتعودت تخزين ثرواتها الغذائية فيثلاجات صنعها محمود ، توأمها الثامن من هنا وهناك . مستجلبا قطع الغيار من عتاد عسكري قديم مهجور منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على بعد كيلومترات من البلدة ومدفون تحت كثبان من الرمال . وانتهى بها الامر الى ان تتسبب في هوس حقيقي حول نقص الاغذية على الرغم من الاحتجاجات الشديدة التي رفعها محمد عديم اللقب . لم يكن ليتوقف عن مؤاخذتها على تصرفاتها الانانية التي تكبح نموا حقيقيا ، صعب تحقيقه . خاصة وان كشافي المستر براون الذين صاروا محاربين اقوياء متغطرسين ، لجأوا الى شتى الحيل لاسقاط ذلك النمو . على ان مسعودة ضربت صفحا عن تهويمات ابنها وامرته ان يعود الى خوارقه السحرية . ثم انها حاولت التخلص منه فأعلنت له بأنه على حق ولا شك حين يحاول التعرّف على المكان المحدد الذي وجدت فيه دار ابن خلدون ، وما كان ذلك منها الا لكي تتملقه وتمنعه من الدوران حول مغروساتها ودواجنها وتوائمها الذين تخشى عليهم من ان يعديهم بهذيانه وجنونه المعروفين عنه في كل البلدة .

غير ان اهل المنامة رأوا انه اذا كان الابن مصابا في عقله ، ويمثل خطرا على توازن الطيور واللقالق والعائلات واشجار الساحة والمجتمع

بصورة عامة فان والدته تمثل هي الاخرى لغزا مبهما بسبب نجاحها في مجال الفلاحة وتربية الحيوانات . وهذا بطبيعة الحال امر لم تكن اصولها الساحلية لتقوى على تعليله بالتمام . حقا ، لقد كانت تحمل وشم الخصوبة الذي تخفيه بين ثدييها العظيمين اللذين تنظر اليهما النسوة باعجاب حين اللقاء بها في الحمام . وقد كان في هذا الحمام ساحرة عجوز تتلخص مهمتها الفورية في تسجيل اسماء اللواتي لم تكن فروجهن حليقة حتى تخبر الحاكم بذلك . وكان الحاكم يجعل من النظافة الجنسية مبدأ من مبادئه الجادة في فن تسيير شؤون شعبه . غير ان مسعودة عديمة اللقب هي الوحيدة التي ظلت متمنعة ، ولم يكن تخفي جزوتها الهائلة عن تلك الحارسة الشرسة المسئولة عن فحص الفروج . وكانت تصرخ لتستفزها : « ليس له سوى ان يأتي الى هنا ليضع انفه بنفسه . ان فرجي الذي سبق له ان قذف بتسعة عشر ولدا وبنتا لم يعد يخاف من تهديدات مجنون عجوز . انا على الاقل لا ارسل بابنتي الى بولينيريا لتزويجها برجل ثري ! » وكلما ذهبت الى الحمام سارعت نسوة البلدة الى اللحاق بها . وكانت حلقات الدعك هذه تتحول الى مهرجان ضخم تطالب فيه النسوة بحقوقهن في التصرف في فروجهن على هواهن ، ويذهبن الى حد الاعلان بأنه اذا كانت متطلبات الحاكم امورا واجبة الاحترام ، فان مثل هذا القانون حول العانة يجب ان يشمل الرجال انفسهم . وبعد بضع سنوات كانت الغلبة لجعجعتهن تلك . وهكذا اهمل قانون بندرشاه التعسفي بفضل مقاومة مسعودة عديمة اللقب وغيرها من النسوة اللواتي سرعان ما رحن ينتفن شعيراتهن بكل حيوية ونظام بواسطة عجينة يحصلن عليها بطبخ عصير الحامض والسكر طوال اشهر كاملة مع مركب من حامض الكلوريدريك والاطرب . رفضت قائدة هذه العملية ان تنتف شعيراتها وصمدت على الرغم من توسلات بناتها اللائي خشين ان تفيض جزوتها على سروالها وان تغزو البيت مثل نباتات طفيلية ثم تنطلق من دار الى دار فتغطي الطرقات المغبرة كلها وتبلغ الساحة وتتسلق مثل عليق عنيد جدران العشرات من المقاهي التي كان اصحابها بطبيعة الحال يدفعون جزية لبندرشاه .

وفيما عدا تعنتها ومواهبها الفلاحية وخصوبتها الخارقة التي دفعت بها الى ان تضع تسع مرات متتالية سلسلة من التوائم باستثناء محمد عديم اللقب المسكين ، فانها كانت تعرف اعطاء النصائح الى النسوة

العقيمات وتبرع في فن رسم الوشم على الاجزاء السرية وتفيض على الرغم من خلقها الشرس ، بحنان لم يكن له من مساو الا جشعها . وكانت قوتها الكبرى تكمن مع ذلك كله في انها تعرف اسرار الحاكم كلها ، الذي ولد في نفس المنطقة الساحلية مثلها ، ولم يكن في واقع الامر الا براحا سابقا في ماخور شهير يقع على شاطىء البحر . وقـد استطاعت ان تسمح لنفسها بأن تقف منه موقف المزدري وترفض اقتراحه بتزويـج كلثوم صغرى بنتيه لابنها البكر . وعلى الرغم من ميلها الـى نوع مـن الوصولية المبتسرة ، فانها رفضت بكل قوة التحالف الذي قـدم لها على طبق من ذهب . « رائحة الماخور تنبعث منه » . كذلك تردد على مسامع صويحباتها اللواتي يأتين لقضاء اوقات الظهيرة في بيتها المعروف برطوبته وبأنه احسن مكان للافشاء بالاسرار عندما تعبر الطيور فضاء البلـدة وتلطخه بجو لا واقعي . وقد سارع سيد البلدة بعد ان جاءه عيونه الى ارسال بعثة مصالحة مقترحا عليها مقابل كتمانها للسر ان يفتح المجال لابنائها للعمل في الشرطة المحلية باستثناء ابنها البكر ، بحجة انه لم يكن يترك ظله ينسحب وراءه ابدا ، وانه يعاشر الاسكافي الشيوعي ، وانه غرر بجزء كبير من نسوة المنامة . واكد لها انه لن يأخذ بعدها اي قرار حتى وان كان صحيا ، والا يصوغ قانونا حتى وان كان تحرريا دون ان يستشيرها ويأخذ برايها الذي صار بحكم مجريات الامور نوعا من حق النقض المطلق . ورفضت مسعودة مثل هذه المصالحة وقالت لمبعوثي بندرشاه انه مهما حدث فانها لن تقوى على الثقة في رجل قضى جزءا كبيرا من حياته يقوم بدور البراح لاحياء السهـرات في اكبر بيـت للدعارة بالساحل . وكانت تؤاخذه على انه تدخل فيما لا يعنيه . ومن ثم فانها سوف تجبر نفسها طوال حياتها على الاعتناء بجزوتها التي لم تكن لتخدمها في شيء الا في نسج كفنه هو بالذات لتدخره الى ذلك اليوم الذي تأتي فيه اللقالق الوردية بالنبأ السعيد عن موته .

عند ذاك راودت الحاكم فكرة شيطانية ، فعرض عليها بالمجان ، وطول حياتها ، سمادا عجيبا مستوردا من كاليفورنيا رأسا ، وقادرا على رفع مردودية قطعة ارضها بنسب مذهلة . وقد تغلب بمثل هذه الحيلة على عداوتها . ولم تتحدث بعد ذلك ابدا عن اصوله المشكـوك فيها ولا عن ماضيه المخزي . وواصل هو استثمار شؤونه ، وبيع النفـط للاجانب وكتابة الرسائل المليئة بالحنان الى ابنته التي كانت لا تزال تعمل

على تحسين حركات قدميها بمعهد الرقص الملكي في سيدني . بل انه واصل بث الرعب في البلدة المولعة على الدوام بصراع الاكباش والمنشغلة بحضانة الشرانق بين افخاذ النسوة ، وعمل على تربية بازيه الذي يحمل اسما شفافا هو « يوبا الثاني » . وعلى الرغم من تلك المصالحة بين العدوين في سبيل اسكات الفضيحة ، وتهدئة الاهواء ، ظلت العلاقات متوترة بينهما الى ابعد حد . فقد كانت تردد للزائرات من النساء : « انني احمل حدادي بين فخذي بسبب هذا الحاكم الغبي . ولو ان الله لم يعمد الى الغش ، لما كان اهل المنامة على مثل هذا الجبن والطواعية ، ولما كنت اهرش باب السعادة في كل حين » . وخلال هذه الفترة بالذات ، عمد والد كلثوم الى صرف الانظار عن عملية تهريب العملة الصعبة التي يمارسها ، فأصدر ذلك القانون العجيب المتعلق بحلاقة الفروج ، بحجة الحيلولة دون تسرب الامراض التناسلية التي احدثت اضرارا كبيرة في القرى المجاورة للمنامة . ولم تنطل الحيلة على احد ، ولا على مسعودة بالاخص . فقد استشفت من وراء ذلك كله ، تلميح الحاكم المخادع الى القوة التناسلية التي يتمتع بها ابنها الوحيد . وعملا منها على تجنب المفاجآت المداهمة ، اتخذت حذرها وارغمته على ان يتبول على سيف محمي ، كان فيما مضى ملكا لاحد اسلافها من الدراويش اصحاب الحلقات ، وذلك حتى تستأصل شأفة اي مرض شائن.

كان رشيد بناصر اول من خطر له ان يخطب « مليكة » عديمة اللقب التي كانت تشعر بالضيق من كونها لا تزال عذراء غير مدنسة ، رغم الزيارات التي تقوم بها الفراشات الفوسفورية حسب الاهواء ، ورغم رغبة احمد ، شقيقها التوأم في تمرير يده تحت جلابيبها الموصلية . وقد رفضت ايضا مواقف الدلع التي تتخذها شقيقاتها عندما تكون والدتهن في قمة النشوة ، ولا تقوى على النظر بسبب الدموع التي تغشي عينيها من الضحك . ولم تكن تضع تحت جلابيبها واثوابها الاطفال الرضع لكي تهزهم وتبين لهم ما ينطوي عليه ديجور الانثى من المواعيد التي لها مذاق الملح المحلي . وعلى الرغم من هذه الترجيات العديدة العاجلة ، فانها نجحت في البقاء بعيدة عن كل فسق ، الى ان جاء ذلك اليوم الذي اطلعت فيه على نية ماسح الاراضي . لم تستغرق الامور طويلا . فبعد شهرين من الخطوبة التي تمت على يدي اخيها البكر حينما كان يغذي طيور الساحة ، تم العرس في جو من الفرح الغامر . وغرقت

البلدة كلها بمشروبات الليمون وعصير البرتقال وعصير اللوز . غير ان العريس لم يقاوم رغبته في احتساء بعض زجاجات الجعة صحبة صهره الجديد لكي يشجع نفسه ويواجه عائلة عديم اللقب ، خاصة منها الشقيق التوأم لزوجته الجديدة الذي اقسم على ان يغـرز خنجرا في رقبته . وتبددت هذه التهديدات التافهة بعد بضعة اسابيع ، ثـم ما لبثت ان تنوسيت تماما عندما انجبت « مليكة بناصر » صبية ذات جمال ساحر . واحتفل بالوليدة كما ينبغي . وذبحت مسعودة عددا من العتاريس لكي تشكر الله على الخصوبة . كانت مقتنعة بأن هذه الولادة هي البشير بمستقبل رائع سوف يفتح عبر العصور والقرون والانظمة السياسيـة طريق الازدهار امام عائلتها الكبيرة . واسلمت نفسها لله في ذلك اليوم ، بعد ان خاصمته مدة طويلة ، وحكت عانتها التي كانت تطهرها فيما مضى بماء ورد البرتقال وقالت : « الان وقد عاد كل شيء الى مجراه ، اعتمد عليك لكي ترسل لي صهرا اخر يكون مولعا بالفلاحة » .

على ان هذه الولادة لم تقع موقعا حسنا في نفس محمد عديم اللقب الذي تضاعفت وحدته . وتذكر انه الوحيد بين اشقائه الذي قدر له ان يولد منفردا . وفي هذه الفترة بالذات عرف عنه ذلك التقاعس . فقد ترك ظله ينسحب وراءه وتوقف عن تلطيخ ارحام النسوة بأندائه الليلية واقلع عن تقديم الطعام الى الطيور ، ولم تعد له القدرة علـى ايقاف ضحكات الاطفال وقوقأة الدجاج وصخب اللقالق وجعجعة الرحى عندما يمر على مسافة لا تقل عن مائة وستة وستين مترا منها ... وفي هذه الفترة بالذات ايضا تخلى عن تنقيباته عن موقع المكان الذي كتبت فيه مقدمة ابن خلدون ، واغلق على نفسه في حانوت الاسكافي ولم يخرج منه الا بصحبته لكي يسكر في ماخور « الكبش الشبق » ، ويتوسل الى اكبر زانية في الماخور بأن تعترف في اخر الامر بأنها شقيقته التوأم ، لانه لم يستطع تحمل فكرة ولادة أخوته اثنين اثنين في حين قدر عليه ان يولد منفردا . وكان علاوة الاحمر يقول : « كف عن هذيانك . ينبغي ان تكون راضيا في تقليد الله . فهو كذلك وحيد ، لكنه على ما يرام .

وانت تعلم ان لا شقيق له والا فيالخرابنا ! » . وعندما كان يستمر في جموده وفي البقاء دون سلوان ، ينتهي الامر بصديقه الى اقناعه بأنه لم يبق عليه سوى ان يشنق نفسه على الشجرة نفسها التـي شنق عليها مؤسس المنامة نفسه . ذلك الذي ظن بأن قوافل الملح سوف تغير من

توازن الساعات . واعتزم تبديل ساعات الرمل بساعات الملح التي تجعل الزمن اقل خشونة واقل جفاء ، واكثر انضباطا وخفة ، لا سيما وانه خلال نزوله بالمكان اصيب بالدهشة وهو يرى بأن الهواء داخل الاسوار يحمل في تضاعيفه مذاقا سمجا اشبه بمذاق نهاية العالم . معندما بنى ذلك المؤسس اول دار في المنطقة كان متحفزا لصناعة ساعات مائية يبيعها لاصحاب القوافل الذين قد يستعملون العرق الغزير المتصبب من اجسادهم بدلا من الماء النادر جدا في هذه الصحراء . وبذلك يستطيعون توفير الملح والرمل وقضاء ساعات كاملة في تأمل عرقهم ، مشدوهين ، وهو ينزلق من آنية الى اخرى ليحدد لهم وجهة الزمن والفضاء ، فقد تعرضت في الواقع الشواخص التي يستدلون بها طوال قرون عديدة للضياع والتيه وهو الامر الذي دوّخهم وشحذ نفوسهم في آن واحد ، حتى انهم سرعان ما ادركوا تلك المهزلة وتركوا المؤسس قابعا هناك بقريته التي جعلت تتيبس الى اخر الزمن على الرغم من الاشجار التي غرسها بها واللقالق التي نقلها الى المكان عينه . وكان ذلك كله عبثا في عبث لان اهل المنامة صاروا يعرفون اليوم بأن الملح لم يعوّض الرمل ابدا ، وان الساعات المائية قد اكل الدهر عليها وشرب على الرغم من تحريكها لمادة اشد لزوجة وانزلاقا . حقا لقد برهنت الاشجار على جدواها ، ومدت ظلالها الى حدود بعض المقاهي التي لم تكن تتمتع بموقع جيد في الساحة ، غير أن اللقالق التي جيء بها من بعيد لم تعد تصلح الا لمضاعفة الصخب الذي يصم الاذان . وقد كان صخبا قادرا حين هبوب الرياح المؤاتية على بلبلة العادات المبطنة لرجال الاسكيمو في كندا. وكان عديم اللقب يرفض مثل هذه النصيحة من قبل الاسكافي العجوز . ويدرك بصورة مبهمة انه لا علاقة له البتة بخيالات ذلك التاجر الذي اسس البلدة . ولقد سبق له ان قرأ في احد الكتب ان هذا التاجر فكر في اقامة تمثال لنفسه من الذهب الخالص بساحة البلدة ، بفضل الارباح الطائلة التي تدرها عليه تجارة الساعات المائية المتحركة بعرق الجباه ، والتي يبيعها بالتدليس للبدو الجهلة السذج . غير ان النقلة في درب القوافل حطمت اماله . ومع ذلك فان محمد عديم اللقب لم يمنع نفسه من الحقد عليه على الرغم من انه شهد له بفكرته الطيبة في غرس الاشجار التي تعشش فيها اليوم الطيور المروضة بفضل مهارته وصبره الاسطوري .

كان عديم اللقب عاجزا عن التخلص من ذكرياته . اذ لم يكن له منها الكثير حتى يبددها هكذا ، وينسى حظه التعس الملتصق بجلده ، الذي قدر له ان يولد منفردا معزولا ، دون شقيقة توأم تبعث الطمأنينة في نفسه داخل ذلك المصران السائل المعتم الذي لم يكن سوى بطن امه. وقد اولع بجمع المخطوطات القديمة والكتب الصفراء التي كانت رطوبتها الزنخة تساعده نوعا ما ، على تبين الحقائق مـن الخيالات . واغرم بتاريخ بلدته ، ثم بتاريخ العالم الذي ادرك شموليته ولكنه عجز عن حصره والوقوف عليه عن كثب لشدة ما بدا له بعيدا عن الواقع وشديد الغرابة . فمنذ وفاة والده وقعت حوادث عديدة ، وعلى الرغم مـن الجمود المحيط به والفقر والجهالة ، ظهر له ان شيئا ما ، في مكان ما ، يسير بسرعة وأن فترة التلعثم بدات تنتهي ، الا اذا كان ذلك نتاج مخيلته التي تلتهب لادنى شرارة . والذكريات التي انتقاها ، كانت هي الاخرى تضطرب وتنتفخ حتى تصير زوائد تقلقه مثل حصيات تدور في رأسه دون ان تقوى على التوقف . سنة تدفع بأخرى ، والزمن ينزلق في الذاكرة مثل فأرة داخل مصيدة . ويطارده وله عتيد . فبعد تسعين سنة بالضبط من وفاة ابن خلدون ، اي في الثامن والعشرين من شهر مارس ١٤٩٨ ، لم يفتح ابن ماجد — هـذا الشعرور — طريق الهنـد البحرية امام الغربيين ، بل بلدان التوابل والحرير والقطن والعبيد في وقت كان فيه اهل المنامة عاجزين عن تصديق حالة التنسل والتمزق والاستحالة الى طرائق قددا . لقد جرفتهم نبوءة ذلك الذي وصل ذات صباح من خريف ١٣٧٥ الى بلدتهم لكي يضع مصنفـا رهيبا يقيد فيه بكل دقة جميـع الاسباب التاريخية وكل القوانين العلمية التي غيرت العالم فيما بعد .

لم يعمل احمد بن ماجد الا على التعجيل بالكارثة وتدشين الطريق الاستعماري امام البرتغاليين والاخرين . وهذه السيطرة لم تتوقف عن الاستمرار ولا عن جر الملايين من الجزئيات المؤلمة التي لم يكن ليستطيع التخلص منها بيسر في حين ان البعض الاخر كانوا يستمرون في حرق اخماص اقدام الانسانية كلها بواسطة تبغات ملتهبة . كانت حكاية تتلاءم وشطط عديم اللقب ، اذ كان بحد ذاته كتلة من الغرائب ، يشتم في كل مكان قوى مستخفية وظواهر خارقة . ويهوى التحرك في ضوء الغرابة المبهم لانه جعل يغذيها يوميا بقصص دائمة التجدد ورائعة في الكثير من الاحيان ، ومشربة ببهارج سحرية لطفل خارق المواهب . وكان يحسن التنقل من اكتشاف الى اخر ، وهكذا راح يصور لنفسه ولاقرب اصدقائه تلك الملحمة الملتبسة لمؤسس المنامة ولولعه بتجارة الملح ، وملحمة الربان « فاسكو » المهووس بجغرافية الفلفل الاكحل . طريقان على طرفي نقيض . يلتقيان في خضم التجارة الكبيرة وتهريب التوابل والنخاسة واستغلال البشر . شهر يأتي بآخر ، واسبوع يتدحرج بعد اسبوع ، والهاجس يثقب نفقا عبر مخه المروي بالتاريخ العالمي الى حد الاعياء . وعندما يبلغ هذه النقطة ، يعجز به الفهم . اذ تتفرع امامه مصائر المغامرين المشهورين الذين وقعوا في فخ التكسر الضاري ، الذي يتشكل في الداخل بالخلط بين العديد من الامور الرديئة ، والمزوجات المشكوك فيها ، والتشابكات غير المنتهية ، والتداخلات التي لا تصدق ، والتراكمات التاريخية ، والتجمعات الصارخة للظواهر التي تتجاوزهم . على انهم كانوا واعين بها وعيا مبهما محدودا على الرغم من كونه مضمرا ، وعلى دراية بأن غرابة المحيط الذي اكتشفوه تنطوي على اسرارها وروائحها الصميمة وتعطناتها الجسدية ، الموجزة في نهاية الامر في ذلك التداخل الشيطاني بين الاشياء اليومية التي تحمل هشاشة الموت ، والمصائر المتعفنة على الدوام التي تخلط معا وفي نفس الوقت داخل نظام من الترابطات التي لم يتوصلوا — اي مكتشفو العالم الجديد — الى فك رموزها ، لانهم حسبوا التاريخ منشفة حيضية تستخدم لتشرب تذارات هذيانهم . هذا دون التحدث عن الاثار الداخلية التي تتركها هذه الرواسب الحضارية التقريبية الفوضوية ولا عن حركات فتاة في السادسة عشرة ترقص كمجنونة في طرقات سيدني ... كان عديم اللقب يخرج منهكا متهالكا من تلك المطالعات المتعاقبة حيث الصدام بين القصص وتعاريجها يذكره على الدوام بتلك الليلة الشمالية الصرد ، التي اخذه

فيها جده لكي يرى لاول مرة في حياته قاطرة ملفعة بدخان ازرق ، ومتجمدة على سكتها الحديدية ، التي استبد به ضبابها السرمدي طوال حياته : « انظر الى ما يصنعون . ولا يذهب بك الظن الى ان الجواد انبل من هذه القاطرة ! » . كما علمه كيف يتحايل على مقالب الاخرين ، ثم اعاده الى حدود البلدة بعد مسيرة طويلة ارهقت الطفل وجعلته مشاكسا . وبعد عشرين سنة من تلك الحادثة ، فهم محمد عديم اللقب مغزى الكلمات التي تلفظ بها جده . وامضى وقتا طويلا لكي يدرك ذلك كله ، غير ان القصص عن قوافل الملح ، وملحمة الفلفل وتزمتات بعض المخطوطات ، ذكرته بأن السيطرة على الشعوب كانت دائما مرهونة بطرق المواصلات .

كل سكرة تعيده الى جده . وكل احساس يعتريه يجعله يشعر به موجودا هناك ، جالسا في فناء الدار ، يقرأ مخطوطات قديمة او يفك رموز البعض من خرائط سكك الحديد او المسارات البحرية . والحقيقة انه كان الانسان الوحيد الذي عرف كيف يحبه ، والذي تعلم منه دروس الحنان والحنين والتهويم . كان صاحب قصص خرافية ، يضع امام الطفل الذي يفتح عينيه على سعتهما قائمة مكتملة بالعوالم العجيبة الغريبة . لكنه لم يجد الشجاعة في نفسه ابدا ليقول له بأنه لم يكن هو الشخص الذي يقود القاطرة الضخمة ذات السحابة الزرقاء التي رآها خلال وميض خاطف خارق . في الواقع لم يكن جده الهزيل ذاك الا مصابيحي المقطع الواقع على بعد مائتي كيلومتر من المنامة وقريبا من بلدة اخرى أتفه منها توجد في حوزة شركة السكك الحديد . وقد ادرك منذ البداية ، بل ومنذ ان اسعفته الذاكرة ، ان والدته مسعودة عديمة اللقب لا تريد له ان يسلم نفسه لخيالات العجوز . لانه احس بها مسجلة الى الابد كأنما هي نقش بارز ما فتىء يوشم حياته : فالخطوط التي تشكل شبكة معقدة من السكك تتتابع فيما بينها ، وتنكسر في الافق ، وتتشعب لكي لا تنتهي ابدا ، وهي تعج بمشاريع تجريدية عن المستقبل وتنتفخ تحت لذعة البرد وتفجر دوائر الزمن الى آلاف الشظايا والى مجالات معوّجة والى هندسات غير معقولة . وبعد زمن طويل . طويل، طويل . في اليوم الذي دفن فيه والدته ظل يحس فوق بشرته بذلك النبض الخارق المتولد عن الهندسة الفضائية الخطية التي لم يفهم منها شيئا ، لكنه توقعها مع ذلك بصورة مبهمة خلال رؤيا غريبة ارقته طوال حياته ،

واعطته انطباعا بأنه هلب من الداخل ، ومخيط بسلك حديدي من الخارج . لكأنه ادرك حين اكتشف تلك القاطرة المتبخرة لاول مرة في حياته ، انه في كبره سيصير محكوما عليه بالشقاء والتعثر . على انه اليوم يمتلك في ذهنه صورة ذلك العجوز حية مقلقة وهو يتجول ليلا بمصباحه على طول المعالم ، ويعود في الصباح منفوش الشعر مقرورا داخل سترته السوداء التي تحمل علامات الشركة ، ليغرق قدميه المكدودتين المجرحتين في وعاء من الماء الساخن المزوج بالصوديوم .
وعلى الرغم من تلك العلاقة التي تربطه بجده ، لم يجرؤ هذا الاخير على الاعتراف بأنه فقد كل شيء بما في ذلك الحرفين الاولين لاسمه . فقد الصقوا به ذلك الاسم الغريب الذي يحمله رئيس المحطة ، حيث كان يعمل كمصباحي . لم يكتشف الحفيد هذا الاهمال الا بعد سنوات طويلة عندما تساقط الثلج لاول مرة منذ قرون على المنامة وساعد هذا الحدث الخارق سكانها على الخروج من ذواتهم والافضاء بسرائرهم ، كأن ندف الثلج رطبت جذورهم المتوفزة التي تحيط ببشرة القذل وتحصرهم داخل كلابة من البرونز الثقيل . وفجأة صار كل شيء ممكنا . فقد سمع الناس لاول مرة مسعودة عديمة اللقب وهي تغني في المطبخ كأن البياض الذي فطى الارض قد حقن في دمها مقدارا لا بأس به من الصفاء . في حين انها عودت محيطها على الحمى المرهقة . حتى نوبات الضحك لم تكن الا تعبيرا منها عن حيرتها التي تتخلص منها لكي لا تترك الشقاء يتسرب عبر باب سعادتها مثلما تعودت تسمية مكان خصوبتها . كان احد حراس الاسوار ، وهو عجوز يبلغ مائة واربعا وعشرين سنة ، هو الذي روى لعديم اللقب كيف اغتصب اسم جده مرة ثانية . افضى ذلك الشيخ بما يلي : « كانوا يسمونه محمد بونفوس . لا ينبغي لك ان تلومه لانه لم يتحمل هذه الكنية ابدا لانها جعلت منه مجرد عبد » . وكان بونفوس هذا عملاقا ، ذا بخر موبوء برائحة الخمر الحادة والثوم . كان قادما من سجن لا يعرفه احد . وقد عمدت السلطات الاستعمارية الى امتحانه، فارسلته ليسهر على القطار الوحيد الذي يمر كل يوم على بعد مائتي كيلومتر من المنامة . وصار محمد عديم اللقب الجد ، مصابيحيه ، وقيما على حياته وكاتم اسراره الى حد انهم قالوا عنه في كل مرة صادفوه فيها وهو يراقب السكك الحديدية او وهو ذاهب لقضاء حاجات صاحب العمل : « ها هو خادم بونفوس ! » وشيئا فشيئا ، انتهى الامر بالناس الى ان يصيحوا به كلما راوه : « هوذا محمد بونفوس ! » لا غير ...

ودفع هذا الكشف بالحفيد الى الانطواء داخل حالة من التصقع القاتل الذي لم تقو على ازالته تلك الحيوية التي اتسمت بها ذكرياته الاخيرة . وعبثا حاول استثارة مواهبه الخارقة لكي يوهم نفسه بظهور جده في فناء الدار ، ويطلب منه الحسابات ، لكنه لم يصل الى اية نتيجة . وزاد عنادا على عناد ، وارتعش من البرد مثلما حدث له يوم ان ذهب يتأمل القاطرة الاولى والاخيرة في حياته ، فانهمك في الشرب بانتظام لكي يحصل على الرؤيا التي يأمل فيها ولكي يفيق في الصباح الباكر خائر القوى ، قبل ان تتحول دار مسعودة عديمة اللقب الى خلية دائمة الطنين . لكنه اخفق ثانية في محاولته تلك . وارقته فكرة الاتصال بجده لكي يطلب منه بعض الاستفسارات حول الصمت المضروب حول هذا الاسم المغلوب على امره . حقا ، لقد طغى هذا الاسم على هويته ، وسحقها والغاها تحت وطأة العملاق الذي صار رئيس محطة ومالكا لمستخدمه . خيل اليه ان جده يتملص منه ، ويختفي ولا يريد الظهور ، ويعاند في الافلات منه لكي يتفادى اعطاءه توضيحات مؤلمة جدا . وقرر محمد عديم اللقب الخروج وراء الاسوار ، واعتزال العالم كلية . وقبل ان يغادر البلدة ، حطم عددا كبيرا من الاقفاص ، وقتل بعض اللقالق بضربات من الحجارة ، ومزق رسائل الحب التي تعوّد كتابتها مسبقا ، وسكر اكبر سكرة في حياته كلها . وعندما وجد نفسه في الصحراء ، فتر غضبه بفتور الريح الرملية ، وجاء دور المرارة والتعثر . احس كأنه واقع في فخ ، لان جده لم يجد الشجاعة في نفسه ليقول له بأنه اضاع حتى الحرفين الاولين من اسمه وورث مقابل ذلك كنية لا يعلم من اين جاءت . كنية عملاق طوله متر وتسعون سنتتمرا ، وسجين سابق وقاتل نساء يشوي عشيقاته بنار هواه القاتل . لم يكن هناك ما يؤهله لتحمل مثل ذلك السر في الوقت الذي كانت فيه خوارق والدته وتهويمات صديقه الشيوعي ، وفيضان الطمث لدى اخواته ، وصخب اللقالق ، وغنج طيور الكتوة وحيل الكاميشي ، وصراع الاكباش ومسابقات الطيور ، واوجاع الرأس التي تعاني منها طيور الببغاء العربية ، تفرغه من كل قواه وتزرع الاضطراب في ذهنه حقا . كل شيء يغرق في عالم منقلب حيث كان دور جده بصدد التحول الى امر غريب تمام الغرابة . لم يكن ليغتفر له تمنعه عن توضيح اللغز الكامن وراء تلك الكنية المضحكة لا سيما وانه ورثها عن وحش بشري يبث صوته الجهير الرعب في الغزلان على بعد المئات من الفراسخ حوله . ولم يكن

طول جده يتجاوز مترا وخمسين سنتمترا ، ولا وزنه يتعدى الخمسين كيلو غراما . وكان له صوت غرير كأنما هو صوت طفلة تتغذى بالعسل والليمون . وادرك حينذاك انه لم يبق أمامه الا ملجأ واحد وهو أن يسيء التصرف مع تناقضاته ، ويحرق التاريخ ويفتح شقوقا في الكلمات ويحدث ثقوبا في حنينه بدلا من أن يتشرب بذلك القلق الذي لم تكن أرض الصحراء المتيبسة المحترقة الا لتزيد من حدته . حتى اعذب الذكريات لم تعد تخفف حزنه عندما تحوم الطيور المجنونة وتعبق الدار القديمة بروائح الحبق حتى ليخيل للمرء بأن الجدران معطرة هي الاخرى . وانطلق بغضبه الجارف يطارد شبح جده الذي خدعه بدون شك . ثم جاء ذلك اليوم الذي ظهر فيه هذا الجد ! أو صورته المطابقة له تماما ! كان يرتدي سترة مهترئة ، وبدت قامته وكأنها لدمية . وجعلت عيناه تتبعانه وتتلقانه . قال له : « ما اتعسني بعلمك لما حدث » . الا أن عديم اللقب ظل مصدوما ، زائغ النظرة ، شاحب الوجه ، يحمل أله كأنه قميص شدت ياقته باحكام حول جوزة حلقه البارزة . « سوف انتظرك في فناء الدار . فالريح شديدة في هذا المكان ، ثم أن الحرارة خانقة . لست أرغب في رؤية مسعودة وهي تقع مغشيا عليها ... انها امرأة طيبة . انا على علم بقضية قتائها ، ولكن لا تكن مأخوذا بهذه الكنية الغبية . لديك كل التوضيحات في المخطوطات التي لا تتوقف عن مراجعتها » . وبعد هذه المقابلة التي افترضها أو رآها في المنام ، انتظر وقتا طويلا في الصحراء ان تأتي والدته لتعود به ، لكنها رفضت هذه المرة الخضوع لأهوائه ، وصفقت بحمالة صدريتها ، واكدت لأبنائها الآخرين أنه يوجد في المكان الذي يناسبه . واضافت بأن غيابه يمنح الراحة للنساء اللائي اتخذن عادات سيئة معه ، ويقضي على عدد من الطيور التي تقر بقثائها ودلاعها وتينها ، ويخفف نوعا ما تلك الاسطورة التي تحاك حول ظله ، ويجعل اهل المنامة على علم بأن ابنها البكر ليس الا فتى خامل الذكر يمكن الاستغناء عنه بكل يسر . والحقيقة ، انها ظلت تتعذب في صمت ، وتشعر بقساوة ذلك النقص في الارباح نتيجة لتخاذل ابنها . لكنها ظلت أحوج ما تكون الى نبرة الغرابة التي يلقي بها حيثما مر . و فيسبيل أن تنسى حزنها ، راحت تكرس وقتها كله لفلاحتها التي جعلت تسقيها ليلا بطمث بناتها بعد أن تجمعه في قصريات فضية . وقد حفظت ذلك الدم في غرفة أعدت خصيصا لهذا الغرض ، وضبطت حرارتها بـ ٣٧ درجة حسب معايير علمية . وتم ذلك كله على الرغم من الاسمدة العجيبة التي تستخدمها لاخصاب

بستانها والتي كان الحاكم يبعث بها اليها سرا وبكميات وافرة . وخلال الفترة التي هجر فيها محمد عديم اللقب الدار والبلـدة حاولت بعـث الحماس في توائمها السبعة عشر ، لكن هؤلاء قصروا مجونهم على العاب تافهة وعلى دعايات خفيفة . وتفادوا على الخصوص تبادل اسمائهم وثيابهم واعضائهم الجنسية خشية الا يقووا على فك العقد المتشابكة عن شخصياتهم المتبادلة خلال غياب أخيهم البكر المنعزل . اما عديم اللقب الذي كان ضحية تمعشه ، فقد شعر بخيانة ابن ماجد اكثر مما شعر بخيانة جده . وكان لومه ينصب بوجه أخص على ابن خلدون لأنه لم يغتفر له أنانيته وجمود عواطفه : فهو لم يخصص في سيرته الذاتية الا خمسة أسطر للحديث عن غرق أسرته كلها خلال رحلة لها من تونس الى الاسكندرية حيث جاءت لتلحق به . لقـد سئم ذلـك النوع مـن العائلات التي لم تفد في شيء سوى كتم بعض الاسرار وعدم التأثر على الاطلاق بموت الآخرين . وكان محمد عديم اللقب يقول لنفسه : « لقد كان من الأحسن له أن يقيم الحداد ، بدلا من أن يحاول شرح آليات الشقاء الكوني » . وعندما علم ابن خلدون بالكارثة التي وقعت في شهر ما من سنة ١٣٩٨ ، انشغل على الخصوص بمنصب قاضـي القضاة فـي القاهرة . وهو المنصب الذي ظل يكد وراءه طوال سنوات . على انه في سنة ١٣٩٩ ، حصل على ما رغب فيه اشد الرغبة . وخمسة أسطر فقط كانت كافية للحديث عن غرق أسرة باكملها في البحر .

يوم يدفع بآخر ، وتنتفش الذاكرة ، مثل قطعة لحم معروق مغلي بالكمون . وقد ترك محمد عديم اللقب نفسه لشمس الظهيرة ولتجليات الفضاءات الواسعة ، فأحس برأسه يصطخب وبأعصابه تتراخى مثل قطعة الخبز التي يغطسها جده الخائن في قهوة الصباح . وكان يعود بين الوقت والآخر الى كيمياء المخطوطات المنحولة والى ذلك الصفاء الضروري الذي يرغمه على التخلص من خوارقه المركبة من اي شيء نتيجة لسذاجة اهل المنامـة . فكـان أن خضـع ظله لقانون الفيزياء الشمسية . وحومت حوله فراشات الاصيل في دوامة جنونية عاصفة . وسيطر عليه الرعب ووجد نفسه اعزل في ذلك الامتداد الصحراوي الهائل ، وأدرك حينذاك خطورة الالعاب التي يستبدل خلالها هويات أشقائه وشقيقاته . لم يكن بذلك ينوي الثأر من لعنة العزلة التي حلت به فحسب بل حاول أيضا أن يبحث عن ذاته داخل سراديب الدم المتشابكة

فيما بينها حتى يبلغ ذروة السلالة الخارقة التي لم تكن تقوى على الاستغناء عن علمه ولا عن حنينه . لقد عرف جيدا انه اذا لم يعد الى الدار على وجه السرعة فلن يأتي أحد للبحث عنه ، وحينذاك سوف تقع اسرته كلها في أحابيل الفسق الذي سيخلط فيما بينها ويفرغها من جوهرها كله. وانطلق في الجري وهو يفكر بأنه ينبغي عليه في الوقت المناسب أن تقدم والدته على الانتقام لغيابه ، فتعمد الى مشروعها الرهيب بترك جزوتها تفيض عن أثوابها الداخلية وتنزلق عبر الدار وتغزو الطرقات مثل اشواك مضرة زرقاء اللون .

وعاد الى الدار مطرق الرأس ، وقد ضاقت نفسه اشد الضيق حين ادرك بأن أحدا لم يشعر بالحاجة اليه . ودخل حانوت الاسكافي الذي ناوله قهوة كأنما تركه الليلة الماضية . ويا لهوله حين علم أن اللقالق قد تضاعفت وان التذبيح الاخير لم يزدها الا صخبا على صخب . كانت تصلصل بمناقيرها الكبيرة فوق سقوف البلدة المصقولة كأنما لتستثيره او لتحتفي بذكرى مرور الف سنة وسنة على قدومها الى المنامة في حقائب ذلك التاجر . وكان هذا الاخير يحسب نفسه اشد حيلة من اصحاب قوافل الملح وظنهم من السذاجة بحيث يقدمون على شراء ساعات رملية تشتغل بواسطة عرق الجباه . حتى الطيور الهشة التي أهداها الامازيون الى البلدة لم يبد عليها انها تأثرت من اي نقص في الاعتناء بها . أما عائلته فقد اغرمت بآخر وليد لها ، أي بابنة مليكة بناصر ، وراحت تقضي كامل وقتها في دغدغتها لاثارتها وجعلها توذن عن الصخب الخاص لدم خصب هنيف . بل ان مسعودة عديمة اللقب لم تكلف نفسها عناء استقباله . وقد وجدها منهمكة في صناعة الفزاعات لوقاية فلاحتها وبناتها الثمانية اللائي لم تكن تريد تزويجهن بعد لأن جمالهن قد يجر الحسد عليهن . قالت له : « ها انت ذا قد عدت . انك لم تضيع الا جني التين فقط . لا تقلق ، فلقد تركت لك نصيبك في غرفة الطمث » . حتى صهره ماسح الأراضي لم يبد سرورا بالغا بلقائه : « لا جديد منذ غيابك سوى انني لم أعد اقوى على الشرب بسبب قرحة اصبت بها . بالاضافة الى وصول اجهزة دقيقة لمسح الاراضي ، سوف نتمكن بفضلها من الكشف في بحر ايام قلائل عن المكان المحدد الذي وجد فيه بيت ابن خلدون ... » ولم يجرؤ محمد عديم اللقب على القول بأن ولعه بابن خلدون قد زايله مثل حمى عولجت أحسن علاج . ولم يحدثه اطلاقا عن انانية معلمه الذي عاش فناء اسرته وكأنه مجرد حادثة وقعت لشخص آخر .

ادرك محمد منذ اليوم عدم جدواه ، وفكر حقا وصدقا في الانتحار بأن يعلق نفسه على الشجرة التي شهدت احتضار مؤسس البلدة . وفي انتظار تنفيذ مشروعه هذا ، اهتم لأول مرة في حياته بصراع الاكباش ، وراح يقامر بمبالغ كبيرة على الرغم من توبيخات أمه . تنكر له الحظ في البداية ، لكنه سرعان ما ادرك أن اكباش استراليا كانت مصدر نحس بالنسبة له . ومن ثم راودته فكرة تتمثل في تهجينها مع معاز المنطقة . وحصل في ظرف أسابيع قليلة على فصيلة خارقة ذات قرون هي أقرب الى الدرباني منها الى الاكباش . وبفضل هذا التهجين ، حققت حيواناته انتصارات ساحقة على خصومها ، ومكنته من اثراء عائلته اثراء هائلا تبنته مسعودة في غمرة من السعادة المفرطة . كان يحمل على الأكتاف ثلاث مرات في الاسبوع من قبل المتراهنين . ولكن تعين عليه أن يعاني من حقد أعدائه الذين اتهموه بانه حصل على هذه النتيجة بسفد شقيقاته من طرف تلك الاكباش المستوردة من استراليا وبانه متواطىء مع الحاكم . كانت تهمة باطلة لم تجمع حولها الا القليل من الانصار . على انها زرعت الشك في نفوس أشد المتحمسين له . بل ان مسعودة نفسها التي كانت دائما مستعدة للتشكيك في مرامي واعمال ابنها ، لم تصمد أمام تلك الدعاية المغرضة . ومن ثم أرادت أن تطمئن نفسها ، فتفقدت فروج بناتها الثمانية لكي تتأكد من أنهن عذارى ، مستعملة حنكتها ولباقتها . هذه التجارة المربحة في مجال المراهنات ، وتربية الأكباش العجيبة ، وفلاحة القثاء والبقول المغذاة بأسمدة كاليفورنيا وبدماء العذارى ، هذا الثراء المفاجيء كله مكن مسعودة من توسيع دارها ، ومد الحيطان ، وتمتين الاثاث ، واقامة جهاز تكييف ملائم في غرفة الطمث ، والانطلاق في فلاحة الحجر المكيفة . بل انها فكرت في حفر حوض : فاذا ما حدث ونزل المطر لأول مرة منذ عشر سنوات ، فانه سوف يكون في ميسورها ان تستجمعه وتلقي فيه ببعض القناطير من الملح وتشرع بعدها في تربية الاسماك البحرية . ولهذا السبب كانت تحتفظ في وعاء من بلور شيرازي بعشر سردينات تسترق حياة هنيئة وتحظى بكل عناية ، اذ كانت مسعودة بالمرصاد لأدنى صداع ، أو بخار او نزوة حب يمكن أن تعاني منها سمكاتها الحبيبة . وأمام تزايد شرور عائلة عديم اللقب ، حاول بندر شاه مرة ثانية القيام بمسعى بالغ الحذر لدى ربة الدار ذات الحمالات الأسطورية التي ترهب الطيور على بعد كيلومترات فيما حولها . واعاد الى ذهنها رغبته في مصاهرة أسرتها بزواج بين ابنها البكر وبين ابنته الثانية

والأخيرة . ورغبة منها في مماطلته تقدمت مسعودة باقتراح معارض . فقد قبلت تزويج محمد عديم اللقب لكن بابنته « ليلى » التي تدرس الرقص في معهد سيدني الملكي . وثارت ثورته أمام حيلة عدوته اللدود ، فلم يفكر حتى في الرد عليها لشدة ما انجرف مع رغبته في تزويج ابنته بأمير اصيل .

سنة تأتي بأخرى ، وانتهى الامر بمحمد عذيم اللقب الى أن يطرد حزنه الكبير الذي تسبب فيه الكشف عن الكنية المزرية التي الصقت بجده . ونبت حشيش الزمن فوق هذا الحزن الطاغي ، ثم ان محمد نسي حتى الحقد على نفسه بفضل النجاح التجاري الذي حققه . وما أسرع ما سئم تراكم راس المال والتبذير الفاحش المتولد عن جنون الاستهلاك الذي سيطر على عائلته ، فرجع الى مخطوطاته ، والى مطالعة ابن خلدون والجاحظ . وذهبت به طيبته الى حد القاء أشعار ابن ماجد عن المآثر البحرية التي حققتها ذلك المستكشف البرتغالي حينما وصل ، الى كلكوتا يوم ٢٨ مارس ١٤٩٨ . واستأنف أبحاثه لكي يحدد موقع البيت الذي ضم ابن خلدون سنة ١٣٧٥ ، وتحرى في الظروف الدقيقة لموت الجاحظ سنة ٢٥٢ هجرية ، هذا العلامة الذي سحقه مخطوط هائل ، الا اذا كان قد اغتيل من قبل أعدائه السياسيين الذين ظلوا يلومونه على انتمائه الى حركة سرية . ومقابل المال الذي مكن والدته من ربحه ، حصل محمد زيادة على بركتها ، الحق في تعاطي أعماله العلمية على هواه وكذلك تربية كل طيور البرازيل التي يريدها في غرفته . وثاب الى رشده ، فجعل ينادي في سرية كاملة بصراع الطبقات ، ويختلف الى صديقه الشيوعي العجوز ، ويسكر بانتظام ، لا لشيء الا لكي يحصل حين يقظته على رؤيا جده وهو متربع في الفناء على الأرض ، ومنشغل بفك رموز المخطوطات المكتوبة بالآرامية أو بالعبرية أو بالبربرية أو بمصرية أوراق البردي أو بعربية الفقهاء ، هذا ان لم يبصر به وهو يفك رموز خرائط السكك الحديدية ودليل الطرق البحرية .

وقد حدث خلال تلك الاصابيح الرائعة التي اتصل فيها مباشرة بمحمد بونفوس أن تذكر ذلك اليوم المشهود الذي اصطحبه معه في قطاره الى مكان بعيد جدا . لقد اكتشف حينذاك ولأول مرة في حياته بأن الثلج الذي تحدث عنه الناس والذي قرأ عنه فيما بعد في بعض المصنفات

الخيماوية ، موجود حقا وصدقا . وبعد حوالي عشرين سنة من ذلك التاريخ ، سقط الثلج لأول مرة على المنامة فغطى مزروعات مسعودة ونشر بياضه على الفزاعات التي كانت قد طلت وجوهها بدهان أسود لكي تجعلها أبعث على الرهبة . والحقيقة أن مسعودة التي نشأت في عائلة من البورجوازية الساحلية كانت تخدمها في سنواتها الغريرة ، زنجيات يغسلن مؤخرتها بماء الورد ، ويعطرن دورات المياه بالصمغ والعنبر عندما تقضي حاجتها . وقد كان محمد عديم اللقب مأخوذا بهذه الظاهرة الطقسية العجيبة ، فسارع الى التقاط بضع كيلوغرامات من الثلج الناصع خفية . ووضعها في كيس من البلاستيك واغلق عليها في المبرد الذي صنعه اخوه « محمود » من قطع مختلفة . وقد كان هذا قادرا على بناء صواريخ بأجنحة الفراشات . أما مسعودة التي ترسب في نفسها من تربيتها السابقة احتقار مرعب للجنس الأسود ، وولع بماء الورد وماء الزهر ، وشح اسطوري يمس حتى أبناءها ، فلم تستطع أن تمنع الثلج من اتلاف فزاعاتها . وكان من بين هذه الفزاعات واحدة تمثل السلطان محمود الثاني الذي اشتهر بأنه ارتكب مذابح جزيرة « خيو » سنة ١٨٢٢ ، والذي ظل معلقا مدة طويلة فوق سرير والديها ... أما عديم اللقب فجعل يقوم كل صباح ، ويذهب الى المبرد ليسحب الكيس المليء بالثلج ويلعب به بضع دقائق فقط خشية أن يذوب ويسارع الى اعادته الى مكانه حيث لا يتعرض للتبخر . وقد خيل اليه بذلك أنه يبقي على الاتصال الجسدي الملموس بجده المصابيحي لا سيما وانه علم في ذلك اليوم الذي تساقط فيه الثلج لأول مرة في المنامة أن جده هذا حينما مات ، عثر عليه مدفونا تحت الثلج على بعد مائتي كيلومتر من البلدة ، وقد ضم اليه مصباحه وقصاصة من ورق في احدى يديه ، كتب عليها أحدهم بطلب منه ولا شك : « اسمي عديم اللقب محمد » . وهذا الخبر الذي أوردته مسعودة في لحظة من لحظات ضعفها بسبب الحدث الخارق الذي لم تسلم منه هي الاخرى ، كان له مفعول البلسم على ولدها . وقد صاح قائلا : « ليس هناك شك . فالثلج لا يوجد حقا وصدقا فحسب ، بل كان لدي جد يتمتع بخصيتين فولاذيتين » .

كانت اعصاب محمد عديم اللقب تتوتر كلما لحقت به كلثوم صغرى بنتي الحاكم في مكان ما . وهي لم تستطع ابدا أن تدخل غرفته بسبب العداوة المستحكمة بين العائلتين . وكانت مسعودة تغض الطرف عن كل من يريد أن يزور ابنها سواء كان ذكرا أم انثى . ولكنها كانت ذات حقد مستجد ، دائمة اليقظة فمنعت أي فرد من عائلة صاحب محطة البنزين من أن يطأ دارها وخاصة بأن يدخل غرفة ابنها البكر . وهكذا ، راح محمد وكلثوم يلتقيان في أغرب الاماكن ، مثل خزانات المحطة كلما افرغها المشترون الاجانب من محتواها ، أو حانوت الاسكافي الذي يقبل بهذه العلاقة وينتهز الفرصة لكي يسلم للفتاة كتبا تحريضية تقرأها أمامه بصوت جهير ، أو داخل يقطين مسعودة قبل بلوغه النضج الكامل ... وذات يوم غافلت كلثوم مسعودة التي كانت منشغلة بنسج كفن الحاكم بجزوتها ، فدخلت غرفة محمد . وقد كان هذا منشغلا بتلقين درس في الغناء البلدي لطيوره البرازيلية وقالت له : « جئت لأنام معك ، حقا ، هذه المرة ، وعلى سرير حقيقي » . واعتذر محمد لطيوره عن ضرورة التوقف عن درسه ، ووضع حجابا محتشما على الأقفاص كلها حتى لا يصدم أحاسيس حيواناته . ودون أن يقول شيئا ، اقترب من كلثوم ، وخلع ثيابها ببطء ، وتخلص من سرواله الصوفي الاسود الذي يلتصق بفخذيه ومن نعليه الأبيضين ، واستلقى جنبا لجنب مع صغرى بنتي الحاكم بندرشاه . وخاضا معا في صمت كامل ، ولأول مرة — على الرغم من الاقاويل التي نسجت حولهما — عباب الامواج الرائع . ولم يخلفا وراءهما ذلك العدد الهائل من الأحكام المسبقة ، والكتل من المحرمات فحسب ، بل خلفا ايضا مهاوي العذاب السحيقة . وغرق كل منهما في الآخر عبر رياح الرمال

وعواصف الثلج ، وعبر المستنقعات حيث يجرف الدم والبذار طينة الرغبة. وعندما عادت كلثوم الى نفسها ، ادركت انها اخذت ثارها من والدها الذي ظل دائما بعيد المنال . فلقد اشتط في غروره الى حد انه أرسل شقيقتها لتعلم الرقص الكلاسيكي وتركها هي تتعلم الطرز . وبكى محمد عديم اللقب من التجلي ، فداعبته وجعلته يسلو ، وضمته الى نهديها وهدهدته حتى غرق في نوم عميق . وعندما أفاق ، أدرك أنه غرز لأول مرة في حياته شوكة في قلبه ، ذلك لأن جمال كلثوم وارادتها سيطرا عليه . وفتح عينيه ورأى انها مستلقية الى جانبه ، وشاهد بين ساقيها المنفرجتين عددا من الطيور الصغيرة تنقر الدم المتجمد الذي يلطخ اعالي فخذيها . فقالت : « ما اشد نعومتها !» لكن الغيرة أدركته ، فتناول الطيور الصغيرة ودكها في أقفاصها ، ثم هجم على كلثوم التي فهمت في تلك اللحظة ما يعنيه الموت . استقبلت كلثوم ذكورة ذلك الذي أحبته بجنون ، مثل ضربة قاصمة شقتها نصفين ، رنت في أحشائها حتى انها اهتزت تحت أمواج الرغبة وصاحت « أبتاه ! » . ولكنها لم تكن الا صرخة محررة ، لأنها أحست بشيء ينفش في بطنها ، وخيل اليها أن شفتي فرجها تتباعدان حتى تلامسا جدران الغرفة الغارقة في صخب الطيور الثائرة ، لأنها لم تستطع ان تشهد ذلك التشابك الرائع بسبب ستار الحياء الذي حال بينها وبين الرؤية .

وفي الوقت المحدد الذي فقدت فيه كلثوم زرها الوردي المزهر ذا البتلات المتعددة ، كانت مسعودة عديمة اللقب منهمكة في نسيجها ، فتنهدت وقالت لصغرى توائمها : « لقد حدث شيء مؤلم في مكان ما من العالم الفسيح » . وكانت ابعد ما تكون عن التفكير في أن ذلك الحدث قد وقع في العرين حيث يربي ابنها اجمل طيور الكون . على ان بنتها لم تفهم معنى كلامها فأضافت بعد صمت طويل وهي تواصل نسج جزوتها : « لا تنسي يا سميكة ! الرجال يرون ان المراة مجرد ثقب ، هو بمثابة ملجأ لهم عندما يصابون بالدوار ! » . ثم صفقت مغازلها واسرعت الى غرفة محمد حيث اطلعت على هول الخطب . لم تقل كلمة ، بل دخلت بستانها وقضمت بأسنانها كل المزروعات قضما فظيعا .

لم يتبادل محمد ووالدته الكلام مدة تفوق السنة . انتظر كل منهما أن يقوم الآخر بالبادرة ولكن أحدا منهما لم يرفع اصبعه . وقد ذهبت

مسعودة في اليوم التالي لذلك الهول المروع الى الحمام صحبة بناتها الثمانية ، ونتفت شعر عانتها ، واشهدت على نفسها كل النسوة الحاضرات في المكان عينه قائلة : « انها طريقة اخرى في حمل الحداد . لقد فقدت اذكى ابنائي ، وأرقهم احساسا ... لو كنت أعلم انه قد يؤول الى هذه الحال ، لكنت تحايلت على الا يولد منفردا ، وعلى الا يكون له ذلك اللون في عينيه الذي يسلب عقول النساء ... ينبغي على الحاكم أن يعثر على شيء آخر . ولينقل له صنائعه الخبر . لقد عادت الحرب ، لأن ابنته الزانية جرت العار على ابني ! » . ولم تأخذ واحدة منهن مأخذ الجد هذه الشتيمة العنيفة البهلوانية التي تلفظت بها مسعودة عديمة اللقب . وانتهى بها الأمر هي بالذات الى ان تنسى شقاءها ، وعادت بكل صبر وتأن الى فلاحة بستانها مجلجلة بحمالات صدريتها الهائلة لكي تبعد الطيور : فمنذ أن تساقط الثلج ، لم يعد لفزاعاتها السود التي ابيضت وتقاطر طلاؤها الأسود اي تأثير على الحمائم والعصافير وغيرها من الطيور الناقرة . واستمر محمد عديم اللقب في استقبال عشيقته الصغيرة داخل مطيرته ، ولكن دون أن يكف عن التفكير في كيفية التصالح مع والدته من غير أن يفقد ماء وجهه أو يطلب السماح منها لا سيما وأنه كان يعيش في سعادة خارقة مع كلثوم . لقد صارت هذه امرأة صارمة في مجال الحب . كانت تتضايق كلما حدث فتور من جانب عشيقها حتى وان كانا قد مارسا الحب خمس عشرة مرة في اليوم الواحد . أما والدها الذي لم يكن على علم بأي شيء ، فكان يظنها منهمكة في تعلم تطريز الحرير مع فتيات مسعودة عديمة اللقب ! وطال الصراع الصامت بين الوالدة والابن الى يوم أن دخل محمد المخبزة الوحيدة بالبلدة وطلب مائة غرام من الخميرة . وحين انشغل الخباز بوزن الخميرة في الداخل ، وضع ابهامه الأيسر تحت قاطع الخبز ، وبحركة وحيدة قطعه بضربة خاطفة . فقد وعيه . فنقل الى والدته وهو يقطر دما . ولم تنطل الحيلة على مسعودة . بل ادركت بادرة ابنها ، وجعلت تعالجه ، وهي تفرغ نفسها من كل دموعها في انتظار ان يعود اليه رشده . وعندما أفاق ، تصنع بانه يجهل سبب مداعباتها ، وسأل اخوته وشقيقاته المجتمعين حول سريره : « ما الذي صنعتموه بابهامي ؟ » . ولم يجرؤ احد على ان يقول بأن والدته أهدته الى كلثوم لكي تحملها مسؤولية ما حدث . ولم يعثر عليه ابدا لأن الفضيحة تعاظمت حتى أن بندرشاه سارع الى ارسال ابنته للالتحاق بشقيقتها الكبرى بسيدني لكي تتعلم الانجليزية . وقبلت كلثوم القرار ، وحملت معها ابهام

محمد عديم اللقب داخل بوقال مليء بمحلول الفورمول . ولم تقل وهي تجتاز الأسوار صحبة والدها سوى الكلمات التالية : « الآن وقد عاد الى امه ، ليس لدي أي هم انشغل به . سوف يكـــون هذا البوقال الدليل القاطع على الجبن المتأصل في الرجال » .

وبمجرد أن تخلص الحاكم من صغرى بنتيه ، اراد ان يستعيد سلطته بعد أن هزته الفضيحة هزا عنيفا ، وأن يروق في انظار رجال الدين ويحمل عائلة عديم اللقب مسؤولية ما حدث . وقد كان معظم افراد هذه العائلة يحبون الشرب كطريقة منهم لفهم الواقع المتشابك ولمعرفة نوعية العلاقة فيما بينهم . وصدر القرار القانوني ظهيرة يوم جمعـــة ، خـــلال صلاة الاسقاء التي أداها أهل المنامة للحصول على طوفان من المطر . فكان ان منع الحاكم بيع وشراء وشرب المشروبات الكحوليـــة في بلدة المنامة كلها . وصفق رجال الدين بينما عمد الاخرون الى توظيف مادتهم الشحمة أيما توظيف . ولم تدرك مسعودة حينذاك بأن ذلك القانون وضع خصيصا للاضرار بها ، فأعلنت لأبنائها الثائرين على ذلك القرار الجديد : « ها هو يصير ذكيا في طرفة عين ! » . واقترحت عليهم ان يساعدوها في فلاحـــة البستان ، بعد أن فقدوا الحرية في العربدة ليلا خارج الدار ، والنوم خلال النهار لتعويض ما فقدوه من نعاس . وقبلوا الاقتراح وهم يفكرون بأنهم قد يغرسون الكروم بدل القثاء والبصل والبقول الأخـــرى ويعصرون الخمور بأيديهم . أما عن المشروبات الكحولية ، فكانوا يعرفون انه في مقدورهم استخدام فواكه شجرة التين التي نيفت على المائة سنة وصنع مشروب قاسح منها . وما أسرع ما علموا أن والدتهم لم تكن تريد أن تنتهك قانون بندرشاه الذي بدا لها لأول مرة ، قانونا في محله . وكـــان محمد أكثر الأبناء خيبة ازاء تصلب والدته . كان يومها منهمكا في التخفيف عن قلبه وفي معالجة ابهامه ، فترك لذلك أعماله العلمية ، ودروسه الموسيقية للطيور المحلية ، وعشقه للنساء وعادته في ان يكون ظله أمامه دائما — أيا كانت الساعة وأيا كان الموسم — وهي عادات استأنفها عندما عاد من المنفى الذي فرضه على نفسه بعد ان علم بأن جده قد فقد حتى الحرفين الأولين الملعونين من اسمه . أما الشقيقات التوائم اللائي لم يكن يشربن الخمر بل يدخن خفية ، فقد ذهب بهن الامر الى حد الشك بأنها متواطئة مع الحاكم : فبالاضافة الى الأسمدة الكاليفورنية ، تعين عليه أن يعطيها حصة من أرباحه غير المشروعة التي يحققها بفضل تهريب

المحروقات . واعتقد الناس كلهم أن الحرب قد انتهت على الرغم من خطاب مسعودة الاخير الذي ألقته في الحمام غداة اليوم الذي فاجأت فيه ابنها وهو ينوس عشب كلثوم الطري ، ابنة عدوها اللدود . وقد عبرت فضاء المنامة اشاعات متناقضة ، حتى ان أشد الناس تفاؤلا ظنوا ان خضوع مسعودة ، بل موافقتها الضمنية ، لم تكن الا حيلة من حيل الحرب التي لن يطول بهم الأمر لاثباتها . وخلال ذلك تيبست الحناجر وسيطر الوجوم على تلك البلدة التي لم تكن بهيجة على الاطلاق . وفقد محمد مديم اللقب خيط الاتصال بجده بعد أن تعود رؤيته في فناء الدار كلما أفاق من سكرة رهيبة . وقيل بأن مسعودة جعلت تعد العدة للحظة مرعبة ، وأنها عادت الى نسج جزوتها الاسطورية . كانت تضع عرقها البارد داخل قارورة ، وتستجمع مستخلصا انفجاريا من اختراعها . وكانت تبحث عن صيغة للاكسير الذي يجلو الامور ... وقيل أيضا بأنها شعرت بصعود فجائي لدفعة من الحليب المسموم ، فجمدته وصنعت منه لبنا رائبا واستعدت لكي تناوله لبندر شاه المخادع الذي دام حكمه الاستبدادي زمنا طويلا . وقد أشيعت أشياء أخرى عديدة كانت تعني بكل بساطة بأن مسعودة قد عقدت العزم على تخليص البلدة من برّاح الماخور السابق . بل انها كانت تفكر في تسميمه بخليط من بول العذارى ، بالاضافة الى بثور الجذام ومياه النفاس والحليب المسموم . أما محمد عديم اللقب الذي كان يغار نوعا ما من الاسطورة التي تحاك حول أمه فقد قال : « انها خرافات السكارى وقد تيبست حلوقهم ! » . وعلى الرغم من المصالحة التي دفع ثمنها غاليا بفقدان عشيقته ذات الفرج الطفولي اللين وبضياع سبابته اليسرى ، فانه أدرك بأن والدته لم تغفر له تماما خيانته للعشيرة . لقد صارت الحليف الموضوعي لعدوها السابق ، في حين أن الراي العام ظل يعتقد ان بندر شاه قد بدأ ينتفخ ببطء شديد ، بينما راحت بشرته تنفجر بفقاعات شاحبة ، تتفرقع مثل حبات ملح كبيرة في النار وترصع جلده بلآلىء براقة من الالم . وفي الحقيقة كانت مسعودة تصمد في وجه ابنها وتشكر الله على خلاصها من كلثوم السليطة . فقد كانت هذه تلتهب شبقا وقادرة على خطف ابنها المحبب اليها على الرغم من أن العلاقات الجارفة التي أقامتها معه لم تعكس في واقع الامر حنانها الذي لا يحد . وخلال هذه الفترة ، كانت وضعية مدمني الخمر تزداد تدهورا بينما شمل الجمود كل شيء بما في ذلك اللقالق التي أخلدت الى الهدوء منذ تلك الجمعة الشهيرة التي صدر

فيها القانون المناهض للكحول . بل ان الطيور المحلية منها والقادمة من الخارج افتقرت الى عطف السكارى لمواصلة غنائها وزقزقتها وتهويماتها المجنحـــــة .

اما الذين كانوا يختلفون الى الدور المختصة والحانات فقد حاروا ماذا يفعلون . أصابتهم الغشاوة يوما ، واستبد بهم الهذيان يوما آخر . واحس الجميع بالضلال بسبب ذلك الجفاف الاضافي ، لكأن الجفاف الذي فرضه الله لم يكن كافيا . وبداوا يضجون بالشكوى من وقوعهم في الفخ الذي نصبه الشريكان مسعودة وبندرشاه حتى أن فجوات النسوة التي كان الرجال يلتجئون اليها فيما مضى قد صارت مختمة ومغلقة . ولم يكن احد ليقوى على رد هذه المصائب الى ماهياتها الحقيقية . حتى النسوة شعرن بأن ازواجهن قد تخلين عنهن وكذلك عشاقهن الذين غرقوا في هذا التحريم الجائر سواء اكانوا من مدمني المشروبات ام لا . كان اهل المنامة يعلمون تمام العلم أن الحاكم يبتلع بانتظام ليترا من الويسكي كل ليلة . وبعد بضعة أسابيع صارت الطرقات مغبرة أكثر ممـــا مضى . وبدات ريح ضعيفة متهالكة تهب على المنامة وتذبل الحبق في الأصص ، وتقشر جدران الماخور الوحيد حيث كان الرجال فيما مضى يختتمون أحلام الليلة السابقة في جو من الفخفخة والأبهة . اما ربة الماخور وهي زنجية مستوردة من زنجبار ، فكانت تشكو من الجمود وتصرخ في بعض الايام : « لكأن الرجال يصنعون المني من البيرة ! » . في حين تهتاج النسوة ، وما أسرع ما تصير فروجهن بلا فائدة فتتقلص مثل حبات جوز قديمة تنوسيت على جذوع الاشجار . لم يكن شيء يسير على ما يرام ، وكل الآمال التي علقها السكارى على هجوم مضاد محتمل من قبل مسعودة جعلت تتضاءل على مر الايام . حتى كحول الاحتراق تناقص وقرر الحاكم وقف استيراده لأنه ادرك بأن البعض كانوا يخلطونه بعصير اللوز لارواء اكبادهم العطشى .

وفي هذه الفترة بالذات ، أبصر الناس بسيارة الاسعاف ، تلك التي تجيء كل صباح من خارج الاسوار لتنقل المرضى المصابين اكثر من غيرهم نحو مراكز أخرى مجهزة بطريقة أحسن . وقد حدس الناس بســـبب الاشاعات الرائجة بأن سيارة الاسعاف تلك لم تكن الا خمارة متنقلة تقوم بدورتها الى ساعة متأخرة من الليل . اما زبناء الخفية ، المتنكرون

في اشكال من يعانون من عاهات جسدية وأمراض وهمية وجروح خطيرة، فجعلوا يركبونها في مواقف ثابتة ومحددة مسبقا . كان الواحـــد منهم يستلقي على الحمالة بينما يغرز أحد المهربين في ساعده ابرة موصولة بقارورة مملوءة بمصل خاص جدا وشديد الكحول . وكان التقطير يحدث معجزات خارقة ، بينما كان المشلولون والمصابون بالسرطان وأمراض القلب ، وأمراض الكبد والسكر ، والمحروقون ، وضحايا الحـــوادث والمصدومون والمقروحون والمسلولون الذين يعانون من القلق والجمود والسوداوية يعاودون الانطلاق وهم على اشد ما يكونون صحة وحيوية بعد أن برئوا في لحظات معدودات من قلقهم وعذابهم . وقد سمي هذا النوع من العملية الطبية « التحقين الالهي » . وضحكت المنامة في قرارة نفسها بما في ذلك الامام المستنير . وبفضل تلك الحيلة وذلك النظـــام الدوري الصارم الناجع استطاع كل واحد أن يشرب حصته من الخمر بواسطة حقنات تحت جلدية . ولكن بأي ثمن ! فقد كان صاحب سيارة الاسعاف المموهة يطلب اثمانا غالية عن كل حقنة من البيرة وكل قطرة من ماء الحياة . ورجعت الأمور الى مجراها الطبيعي . وعادت اللقالق الى صخبها والطيور الى زقزقتها ، والببغاوات العربية الى لفظهـــا المتعدد اللغات والرجال الى جعجعتهم وشجاعتهم . وكان لهذه الحيلة أتباع كثيرون وانتظم التهريب بطريقة ناجحة . وكانت زجاجات الخمر البلدي تباع بالمزاد داخل اقبية التهريب ، أما المشروبات الاجنبية القوية فتبلغ أسعارا خيالية بسوق المنامة الشهير ، حيث كانت تباع المشروبات المحرمة والمجلات الاباحية ، وابر الاجهاض ، والطواحين التي تســحق الحزن ، والجبن المثقوب ، والاثواب الداخلية الهفهافة ، والواقيات من الامراض الجنسية ، والاحجبة الشهوانية ، والوصفات ضد أحـــزان القلب ، وسراويل « فورموزة » والاعضاء الذكرية المستعارة ، وأكاسير تزيد في الطول ، والتلفزيون الملون ، والصـــور الكاريكاتورية للحاكم ، والبسط الطائرة السمرقندية ، وادوات التعقيم التي لا تخطيء ، ومكاوي تجاعيد الدهر ، والآلات التي تخيط مصائب الحياة ، والمواعين التي تخمر الزمن ، وأباريق تغلية السأم ، والطرائق الخاصة بحبــك المؤامرات ، وقطع الغيار لسيارات الرويس ١٩ ، والاسلحة التي استعملت لقتـــل قياصرة روسيا ، والمقاصل الحادة لمحمود الثاني ، وسيف سيدنا علي ، والمخطوطات المنحولة والمشكوك فيها ، ومجلات الموضة التي تجاوزها الزمن ، والآلات التي تنغص الحياة ، والاقراص التي تستبدل الاجناس...

وقد كانت ردود فعل محمد عديم اللقب كغيرها من ردود الناس الآخرين . ودفع الكثير لكي يشرب ثمالته وعاد الى تدبيج الكلمات الرقيقة حسب الطلب . بل انه طلب ان يستلم اجورا غالية تدفع له مسبقا . على أن مسعودة هي الوحيدة التي بقيت غريبة عن تلك الجعجعة التي تسبب فيها قرار بندرشاه . كانت لا تزال توافقه في قرارة نفسها ، وظلت صماء ازاء كل الدعوات التي تستحثها على مساومته على نشاطه القديم المزري . وقد صمدت الى ذلك اليوم الذي دشنت فيه سيارة الاسعاف المشبوهة . وغضبت لانطلاء الحيلة عليها وللمقلب الذي قام به مبتدئون تافهون ، فدخلت الحلبة وبدات تقطر في غرفة الطمث أفضل نوع من كحول التين واحسن مشروب من ثمرات الصبار . ومنذ ذلك الحين استبد ببلدة جنوب التهريب . فلم يبق شخص لم يهرب شيئا ليشتري آخر في السوق السوداء . ووقع محمد في فخ الربح من جديد ، وعمل على الاتصال بجده ثانية ، ذلك الذي اصطحبه لرؤية اول قاطرة في حياته ومكنه من التعرف على الثلج تعرفا حقيقيا ، فبادر الى سفد اكباش استراليا مع أي حيوان يقع بين يديه . وهكذا ربح أموالا طائلة مرة اخرى ، ووضع ابن خلدون جانبا في خلفية دكان الحنين ، بل انه راح يحاول التحرش به لأنه حسب ظنه يكون قد خدع سلطان مصر سنة ١٤٠٠ : فلعله يكون قد اقام تحالفا مع « تيمورلنك » الذي كان يحاصر دمشق يومها ، والتي انتهى به الامر الى احراقها وسلبها تحت انظاره ويتواطؤ منه . بل لعله يكون قد سلم بجاية سنة ١٣٦٦ في وقت كان فيه مكلفا من قبل أمير قسنطينة بالدفاع عنها والصمود حتى الموت . وكان محمد يقول في ذات نفسه عندما يؤلمه ضميره المذنب كايلام حصاة في حذائه : « لم الاهتمام بمثل هذا الخائن ! » على أنه لم ينس مع ذلك بأن يظل يقظا ويحذر من ظله بالذات الذي لم يكن ليتركه يتقاعس وراءه . وواصل تجديد منيه بفضل ماء عينيه الخضراوين ، وجعل يعطي للطيور غذاءها ، ويعالج اصواتها المبحوحة واختناقاتها ، ويقطع ضحكات الاطفال ، وقوقآت الدجاج وعجيج الرحى على مسافة قدرها مائة وست وستون مترا . وخلال هذه الفترة من الجنون الجماعي ، فقد محمد ثقة وصداقة « علاوة الاحمر » الاسكافي الذي رفض مثل ذلك الحل الوسط حتى وان كان حلا تكتيكيا مؤقتا .

وكان من نتائج هذا الثراء المفاجيء غير المشروع الذي حققته المنامة

اعادة فتح الماخور ، التي اضطرت صاحبته الزنجبارية فيما قبل الى اغلاقه لنقص الزبن في عز الجفاف الذي فرضه قانون بندرشاه . تجدد فيه كل شيء . وكانت صاحبته الجديدة امراة فتية بشوشة ومثقفة . مجيء بالأثاث من اسكندينافيا ، واستورد الفونوغراف والاسطوانات من فيينا . أما البغايا الصغيرات اللائي كن خجـولات شبقات ، فيعود أصلهن الى المناطق الجبلية حيث التقاليد الوثنية لم تتأثر بدين الدولة الوطنية ، التي حاول البعض تنصيبها وسط صعوبات متعددة . وموجز القول هو ان الماخور صار قطب الرحى لبلدة المنامة . وتدفقت الاموال ، وامتلأت الخوابي بالخمور ، وبلغت اللذة مرتبة خارقة . وكانت بنات الهوى يطلن العلاقة حتى يرهق الزبون . ذلك هو المعيار الوحيد المعمول به في هذه الدار التي تنطوي على رفاهية محتشمة ونزيلات هائلات وتوفر نوعا من الاستقبال العائلي : « انها احسن من أي نزل عائلي أندلسي » . كذلك صرح الخباز الصبي الذي شهد محمد عديم اللقب وهو يتعمد بتر اصبعه بقاطع الخبز اليومي . على أن هذا تجاهل الحدث وظل يلغو ضد ابن خلدون . وضاق ذرعا بالجميع . حتى الجاحظ العجوز الذي مات سنة ٢٥٢ هجرية القي هو الآخر في مزابل التاريخ . هذا عدا عن أحمد بن ماجد ذلك الربان الذي خوض في البحر المريض . على أن هناك عددا من العباقرة الذين نجوا من انتقاداته . فابن مسعودة لم يكن يريد أن يصدر احكاما مسبقة على مواهب هؤلاء . وكان ينوي التثبيت أولا من كفاءاتهم قبل أن يتخذ مواقفه منهم . لكن لم يكن لديه الوقت ، لأنه انشغل بترضية نسوة البلدة كلهن ، بعد أن تركن لوحدهن على اثر فتح الماخور ، وانهمكن في خيالاتهن المتجددة على الدوام . وهو لم يشرع في ابداء بعض الفضول ازاء هذا الفردوس الجسدي الا حين ذهب اخوته كلهم للقيام بدورة في الماخور . لقد كان محمود وحمود قاطعين في أحكامهم حول هذا الموضوع : « ليست لديهن فروج بين سيقانهن بل أفران تبلغ المائة فولت . كادت تصعقنا شرارتها المكهربة ... »

وفي العشية نفسها ، عمد ابن مسعودة الذي قدر له ان يولد منفردا الى شراء بعض اكياس الوقاية المدهونة من السوق السوداء ، وظهر على عتبة الماخور أمام تصفيقات مساندية . كان على وشك أن يطلب منهم الا يفشوا خبره لوالدته ، لكن لم يكن لديه الوقت ليعبر عن فكرته اذ سرعان ما وجد نفسه في غرفة كلها بذخ ، ذات قبة وناموسية ، عاريا ، مهزوزا ،

مسحوقا الى حد الموت . وبعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من تخبطات ممارسة الحب ، وضع ركبته على الارض وطلب الشفاعة كملاكم يقذف بالمنشفة . لقد شعر بأنه فقد حدوده وحوافه وان عروقه ارتبطت بأعصابه كأن لحاما غير مرئي جمع بينهما وجعله يحس بهناءة لم يعرفها ابدا . وانطرحت انفاسه على حدقتيه فازدادت شفافية الخضرة فيهما . وسيطر عليه دوار جعل سيولته تزداد سرعة . وعندما غادر الفراش شعر بأنه يوشك على الطيران ، فتشبث بعشيقته الرائعة التي لاحظت أن فوسفورية بشرته قد ازدادت ، كأن آلافا من المصابيح أوقدت تحت جلده . ولم يدرك بأن المومس لم تتجاوز الخامسة عشرة الا حينما غادر الغرفة ، وانها تحمل وشما يفصلها الى اثنين ، ويقسمها بصورة قاطعة ، فينطلق من وسط جبهتها ويمر عبر الوادي السعيد لنهديها الضخمين اللذين تتصدرهما حلمتان بنفسجيتان ثم ينزل في خط مستقيم الى مدخل الفرج حيث يتوقف دفعة واحدة كبراق لدن على حافة جرف . ولم يطلب اي شرح ، ووعد بالعودة بمجرد أن يستعيد قواه ، وينظم حياته المصطخبة . شرحت له الفتاة بأن النسوة لا يبقين الا اسبوعا واحدا ، وانهن يستبدلن بنسوة اخريات حسب دورة متواصلة الى أن يرهقهن العمر . فشعر بالرغبة في البكاء ، لكنها واسته ، وقالت له بأن قريباتها جميلات مثلها ، وانهن يحملن هذا الوشم كعلامة انتماء . فهو يرمز الى ضربة سيف كادت تقسمهن الى اثنين لولا أن تقاليد قبيلتها الاصلية تطورت . وبالفعل ، فقد كانت الاناث من المواليد فيما مضى يذبحن بضربة سيف يشطرهن شطرين متساويين . غير أن اتجاه هذا التقليد الذي كان معمولا به قبل مجيء الاسلام قد تبدل بفضل الفرزدق ، ذلك الشاعر النابه الذي حول الضربة القاطعة الى خط رمزي . وهكذا أنقذ نصف سكان بابل القديمة خلال القرن الاول للهجرة . وحين خرج محمد عديم اللقب من ذلك المكان ذي السمعة الطيبة ، صادف صهره ماسح الاراضي ، عائدا الى داره بصحيفة قديمة تحت ابطه : « لقد عرفت لتوى اكبر امراة مثقفة في الوجود ، ولكن لن أقول لك أين » . وسقط من الاعياء .

نام خمسة ايام متتابعات بلياليها . وحين افاق ، وتناول بعض الفواكه ، خطر له فجأة بأنه اضاع سنوات عديدة مع ابن خلدون وبأن الوقت قد حان لكي يهتم بالفرزدق ، الذي تحايل على همجية عصره لكي ينقذ النسوة المحكوم عليهن بضربات الشاقور . وقال في نفسه : « ولهذا

السبب بالذات ترجع حيويتهن في الفراش . انهن يعرفن معنى الحياة ، ولا يشبهن تلك النساء الثخينات في هذه البلدة اللعينة اللائي يعرفن القليل من اللذة ، وتكبر فروجهن عن بطونهن » . وبمجرد أن أفاق ، شعر بالحاجة الى العودة الى تلك الدار العجيبة حيث يعم التسامح كل شيء في اطار آداب المجاملة ، وحسن الذوق . باستثناء العنينين الذين لم يكونوا ليقووا على ابراز الحد الادنى من الذكورة . لأن صاحبة الدار كانت تفحصهم عند المدخل بواسطة متر جلدي مزين بمنمنات فارسية تمجد الحب الجسدي بطبيعة الحال . ولبس ثيابه بسرعة ، وشعر لأول مرة في حياته بالرغبة في ان ينظر الى نفسه في المرآة حتى يتعرف على لون عينيه ويعرف ما اذا كان قميصه المصنوع من قماش حلب يناسبه أم لا . لكنه تدارك نفسه بسرعة ، دون أن يعتريه اي احساس ، حين تذكر ان المرايا غير موجودة في المنامة ، وأن النموذج الوحيد منها معلق في بهو الحاكم . ولم يكن هذا الاخير مستعدا لعرضه ، ولا لاستعماله بنفسه لأنه كان قد غطاه بازار ابيض منذ تلك اللحظة المعروفة التي حطم فيها كبش الصورة التي انعكست أمامه الى الف قطعة . وهذا ما اوحى اليه بفكرة ادخال رهان الصراع بين الاكباش ذوات القرون . وسرعان ما حصل بندرشاه على مرآة أخرى ، ووضعها وسط البهو وسارع الى تغطيتها بملاءة. خشية أن يهجم عليها كبش آخر ، منتظرا أن تعود ابنته الكبرى من سيدني وتستعملها خلال التدريبات اليومية على الرقص الكلاسيكي المصحوب ببعض الشطحات الجريئة المعاصرة . وانطلق محمد عديم اللقب في العشية مع غروب الشمس دون أن يدقق النظر في لون عينيه ولا في اناقة هندامه لأنه لم تكن لديه امكانية القيام بذلك . وتذكر ، وهو في طريقه ، انه وجدت في بابل القديمة مدينة نبذت عنها المرايا لأنها تضاعف من عدد الرجال ولا تساعد على احصاء السكان . وفجأة ادرك أن ظله ليس امامه كعادته . وعاد القهقرى مذعورا فلم يعثر عليه . وبعد بضع ثوان من الدهشة ، رآه ينتشر بكل هدوء على جانبه الأيسر . وانبجست الدموع من عينيه بغزارة مثل مطر احتبس طويلا ، وعاد ادراجه ، قائلا في نفسه : « الأفضل ان اعود الى الدار لتوي ، فلسوف يحدث شيء خطير ! » .

كانت مواكب كاملة من البغايا الخارقات ذوات الجمال المتزايد باطراد تفد الى البلدة كل اسبوع ، حتى أن البعض اخذوا يتساءلون عن

حدود الكمال البشري ، ويتلقون على موضوع التوازن العقلي لدى اهل المنامة . وبالفعل ، لم يعد هؤلاء يعرفون الاوصاف الملائمة لابداء اعجابهم وانتشائهم وتيههم أمام مثل تلك الاناث . كلهن يحملن نفس الوشم الذي يفصلهن الى اثنين ، وترتسم حولهن هالات مخططة ببروق خاطفة ضاربة الى الزرقة . وعندما ينزلن من تلك العربات الهائلة المكشوفة يلقين الرعب والحيرة ، ويوقظن الشبق في نفوس المتقاعسين بمشيتهن المغناجة ، ويدسن بأرجلهن كل ما بقي متحضرا في أعماق الذكور من أهل البلدة . اطلعت مسعودة عديمة اللقب على ما يحدث ، وردت بكل هدوء على المراة المتحمسة التي راحت تطلعها على التفاصيل : « لو ان تلك المهور على الجمال الذي يزعمه الرجال ، فان الملل سيدب في نفوسهم بسرعة ، وسيبحثون بعدها عن نسوة بشعات . انني أعرف رجال البلدة . ليس هناك ما يدعو الى المباهاة بهم » . ثم عادت الى مزروعاتها وانشطتها المعتادة . وكظمت حزنها حينما لاحظت أن جميع ابنائها يغيبون عند هبوط الليل ، ولم تنبس بكلمة حول تلك التصرفات الطفولية . وفي تلك الفترة بالذات ، اعادت علاقتها ثانية بابنها البكر الذي أغلق على نفسه باب غرفته ، وامتنع عن مغادرة الدار . وفكرت في البداية أن الامر يتعلق بدليل واضح على أصالته ، فاعتزت به . وفي حين كان الناس كلهم مأخوذين ببائعات الهوى ، ظل هو هادئا في الدار ، يقرأ المخطوطات ، ويرسم النماذج الطوبولوجية التفصيلية على قطع من الحلفاء المصقولة ، بأقلام قطنية ذات مداد صفيق والوان باهرة . كان يشرف من بعيد على تسيير قطعانه من الاكباش ، ومراهناته التي لا تخطىء طريقها أبدا ، ويحتقر تلك الحركة التي تنظر اليها والدته على انها مسرفة في الغلو . وذات يوم ، دخلت غرفته ، وفاجأته وهو يغسل طيور الكاميشي الرائعة فقالت له دون أية مقدمات : « على اية حال ، ليس لهن بين السيقان الا أجهزة تولد نبضات اللذة ، لا أكثر ولا أقل . تمثل بتجربتي . الانتفاخ هو الانتفاخ والجرح لا يمكن أن يكون شيئا آخر الا جرحا ... والباقي كله مسألة ندم . ما اشد انفعال الرجال ! » . وقد تسنى لها خلال تلك المقابلة بالذات أن تلحظ لأول مرة منذ عزلته الاخيرة المتعمدة ، أن الماء الذي يبلل خضرة بؤبؤيه بدا وكأنه تجمد ولم يعد يهتز ذلك الاهتزاز الرهيب الذي كان يميزه منذ مولده . وسألته بقلق : « لست عاشقا ، اليس كذلك ؟ » . وبدلا من أن يجيبها ، آثر أن يقول لها بأنه متمسك بطيوره وأنه عاقد العزم ، حين وفاة واحد منها ، على أن يفرغه

من أحشائه ويملأ بطنه بالنخالة ، ويخيطـــه ويعلقـــه في سقف غرفته بواسطة خيوط فليونية غير مرئية . على أنه وهو يعطي هذه الشروح ، ادرك أنه يخاطر مخاطرة كبيرة ان هو كشف عن أسراره لأمه بتلك العفوية. فهي حسبما يعرفها قادرة على أن تستعير منه طيوره المصبرة لاستبدال فزاعاتها الشهيرة التي تعودت عليها عصافير المنطقة كثـــيرا . فهذه الفزاعات لم تعد تخيف شيئا ولا احدا ، وتقع متهالكة على الرغم مـــن جهود مسعودة التي تشهد خراب مزروعاتها تحـــت مناقـــير العنادل والسنونو والزرازير وغيرها من طيور أبي الحناء دون أن تقوى على القيام بشيء . وتراها وهي تأخذ بثأرها بعد أن انتبذت ووضعت فـــي المرتبة الدنيا بين الطيور الاخرى ، منذ ان ترك هؤلاء الامازيون خلال عبورهم الشهير بالمكان فصيلة من الطيور البالغة الحركة التي لا تكف عن الفرفرة والزقزقة طوال النهار ، وعلى الأخص خلال الاصائل التي تخادع الانسان وتحطمه بسرعة خارقة . كما لم يحدثها عن ظله الذي بدأ يقوم دلائل واضحة على التشوش والخلل فيه . ولم يستطع محمد أن يستقر في مكان ما بعد وصول الموكب الخامس الى المنامـــة منذ زيارته الأولى للماخور . فقرر أن يواجه مصيره ويتحايل على ظله ، بأن يزيد من حذره ويخرج من الدار بعد منتصف الليل . وقطع في طرفه عين المسافة التي تفصل بين المقر العائلي وبين دار الحنين بفضل تلك المادة الخاصة في حذائه المطاطي . وعندما دخل الماخور ، سيطر صمت مفاجيء ، وتوقف الحاكي الذي بدا وكأنه يطحن قمح الضجيج دون أن يلمسه أحد . وتحجر في مكانه وتساءل بسرعة اذا لم يكن قد نسي ارتداء سرواله . وما كاد يتمكن من التحقق من مخاوفه حتى أبصر بأجمل امـــرأة تخيلها في حياته تقترب منه وتشده من يده وتقوده نحو غرفتها . وعندما اغلقت الباب ، ضمته اليها بقوة وهمست في اذنه : « اسمي مسعودة مثل أمك ، وأنا اعرف المكان المضبوط الذي كانت تقوم به الدار التي حرر فيها ابن خلدون جزءا كبيرا من مؤلفه الشهير » .

في ذلك اليوم المشهود للقائه بمسعودة المكناة بالسعيدة ، لم يتعجب محمد عديم اللقب مما همست له به في أذنه . فهو حين تمرد عليه ظله ، ادرك أن حدثا خطيرا سيقلب حياته رأسا على عقب ، ويحول مجراها تحويلا جذريا . ولم يعرف في أي وقت قد يصادف مصيره هذا ، بل شعر بأنه سوف يحدث في يوم من الايام . ولهذا السبب ، انكمش على نفسه في الدار ، وحاول أن يهدىء من روعه عن طريق النشاط المتزايد والارهاق . وخطرت له حينذاك فكرة تحنيط طيور الكاميشي التي صار البعض منها يشيخ بسرعة . واصر على استثمار راسمال العائلة بدون اي هدف في الربح ، بل لاتقاء شر الانتظار ، أو على الاصح لتمضية الوقت والصبر على الألم . وقد كانت هناك دلائل أولية لا يدركها قد أقنعته بأن يكف عن تبذير طاقاته في مضاجع تنبعث منها رائحة الازواج ، وعن اهلاك صحته في متاهات التجارة المملة ، وعن الضياع في الحلقة الجنونية التي تخطها والدته حوله كل يوم ، بالمغالاة في تصرفاتها أو بضرب الحصار على هذيانه . وقرر خلال عزلته الطوعية ، وبعد الفشل الذي مني به ازاء ظله ، الا يكدس راسمال والدته . فقد كانت تدبر شؤونها بمفردها أحسن التدبير ، ووفرت بعض المال وخزنت كمية لا بأس بها من المواد الغذائيـــة في مبرداتها العديدة وفي غرفة الطمث لكي تعيش دون مشاكل مادية الى آخر أيامها وحتى زوال سلالة عديم اللقب . أما ابنها فضميره لم يتركه ابدا يأخذ نصيبه من الراحة ، بل ظل يدفعه الى التدقيق في عدد عمليات الابادة التي تحدثت عنها تلك الكتب التاريخية الملعونة ، التي كانت تثير ثائرة مسعودة فتجعلها تصفق بحمالات نهديها الضخمين كلما وقعـــت عليها عيناها وهي تقوم بشؤون الدار . لكنه صار شديد الحساسية

عندما طاردته نفسه ، وجعل يتساءل عن سبب السكوت على المذابح التي ارتكبت باسم الدين الاسلامي . وكان يؤجل النظر في هذه المسألة ، لأنها صعبة الابتلاع كما يقال . وكان مأخوذا بتقلبات التاريخ ، ويلاحظ بمرارة ان الفاتحين السابقين اصبحوا اليوم ضحايا لهمجية الآخرين . وهو على رقة احساسه هذا ، واندفاعه مع خيالاته العجيبة ، والفزاعات التي حاولت والدته ان تجعلها ابعث على الخوف والرهبة ، لم يلمس في نفسه القدرة على مواجهة مثل هذه المشاكل بمفرده . وعلى اية حال ، كان في مقدوره أن يعتمد على نفاذ بصيرة الاسكافي العجوز الذي هداه اخلاصه أكثر من مرة ، لكنه لمس فيه صلابة كبرى وصرامة قل ان تجتمعا لدى أمّي مثله . كان قادرا على تعجيزه بأية حال من الاحوال بجدليته الساكنة التي لا ترحم ، لكنه آثر أن يتجنبه . ومهما يكن من أمر فان سوء التفاهم ظل قائما بينهما بسبب ذلك الشيء المبهم الذي كان صديقه يطلق عليه : « فائض القيمة » . وقد كان في مستطاعه دون شك أن يعتمد على مساعدة « رشيد بناصر » ماسح الأراضي ، غير أن زواجه بكبرى شقيقاته خلق نوعا من الحرج في علاقاتهما ، ثم ان مولد ابنة رشيد أبعد الواحد منهما عن الآخر ، وزاد من حدة احساس محمد بعزلته وبشقائه . فمنذ زواج كبرى التوائم ، لم يعد يمتلك موهبة الهجوم على شقيقته بالفراشات الفوسفورية التي تكشف عن جنونه وتأثرت علاقاتهما بذلك . وبقي عليه أن يتعلق بالأمل . ماذا بالضبط ؟ شيء عجز عن التفوه به . على الرغم مما قيل عن كونه عالما كبيرا ، وما أشيع عن قدرته على التحدث الى الطيور . وانتظر أن يحين وقته ، غير أن القدر اتخذ وجهة أخرى ذات ليلة بلا ريح . فقد جاءت مسعودة . وخيل اليه انه يولد من جديد . وامتلأت عظامه بمدى العالم كله ، وحين ابصر بها وسط ذلك الصمت المفاجىء الأخاذ الذي غرق فيه الماخور ، شعر بنفس الاحساس الذي سبق أن غمره ثلاث مرات خلال حياته . أولا في اليوم الذي سمح له فيه جده بتأمل قاطرته وأعطاه درسه السياسي الأول قائلا له : « انظر الى ما هم قادرون على صنعه ، ولا يذهب بك الظن الى ان الحصان أنبل من هذه القاطرة» ثانيا في ذلك اليوم المشهود الذي أخذه فيه جده لرؤية الثلج وادرك انه موجود حقا وصدقا مثل عدد من الأشياء الأخرى التي كان أهل البلدة لا يعرفون لا سعتها ولا عظمتها ولا نفعها . وثالثا في ذلك الصباح المشرق الذي دخلت فيه كلثوم بندرشاه غرفته وطلبت منه أن يضع كاميشه في فرجها .

كان لقاؤه الاول بمسعودة محاطا بذلك الانطباع الراسخ الذي يعدي حتى عرق الآباط ، بالاضافة الى ذلك الاحساس الذي يشكل اليوم جزءا لا يتجزأ من ذاته . ومنذ ذلك الحين حل محل الثقل المنتشي المضطرب الذي يملأ عظامه ومسامه ، حرير خصب ينبت في راسه ، فيملأ جسمه برغوة شفافة ملصقة على طين الحياة الأصلي ، حيث ترسب ، زيادة على حنانه المطلق ، شعوره الكامن بالسعادة ، بتعاريجه ومنعطفاته وتخيلاته واضماراته وانطلاقاته وسقطاته . كانت كل هذه الانطباعات تتلاشى وتهوي بطريقة مميعة في الاجراف الباذنجانية والبنفسجية للجهة الاخرى من الحلم ، وهو ينقسم الى قسمين متساويين ، ويفرز غبارا مختلف الألوان والنبرات ، تختمر داخل النعاس تحت خميرة كلمات الحب المسكرة العذبة . لقد وجد توامه التي طالما بحث عنها في رائحة الاثواب الداخلية للنسوة ، وفي تحليقات اسراب الطيور التي تنهال على المنامة عند الغسق ، وفي نبرات الحوار اللامعقول مع جده المصابيحي ، وخلال السكرات البالغة الافراط ، بل وحتى في كثافة الثلج الذي التقطه في اليوم الذي تساقط فيه اول مرة منذ قرون على البلدة ، وقد حاول أن يحتفظ به في كيس من البلاستيك ، وضعه في أعماق المبرد لكي يفتته في المساء قبل ان يذهب الى النوم ويشعر بأنه محبوب .

لم يمارس الحب في تلك الليلة مع مسعودة السعيدة بل نام في رائحتها . ولم يحدثها ايضا عن اسمها الذي يشبه اسم أمه حرفا بحرف . ولا عن موقع دار المؤرخ العظيم ، ولا عن الحرب ولا عن السلم ، ولا عن سعة اطلاع الجاحظ . وموته الغريب ، ولا عن المذابح والغزوات ، ولا عن أحمد ابن ماجد ولا عن فاسكو دي جاما ولا عن تدليس الف ليلة وليلة ولا عن الحركات الثورية في الاسلام ولا عن مواهبه الخاصة ومعارفه في علم الطيور ، ولا عن يوم ميلاده ، ولا عن مزروعات مسعودة والوشم المختفي بين ثدييها ، ولا عن ظله ولا عن تقولات محيطه التي اشاعت عنه بانه تحدث بالعبرية يوم مولده ولا عن اليوم الذي راى فيه الثلج لأول مرة في حياته ولا عن مذلة جده الذي صار عبدا لمستخدمه الى حد انه اضاع اسمه الذي لم يكن اسما ، ولا عن كل الاشياء الاخرى التي عاشها أو حلم بها . لأنه كان يعلم أن مسعودة مطلعة على ذلك كله . قالت له : « انت في حاجة الى النوم » ولم يفتنه عري جسدها الفخم . نام في رائحتها. وخيل اليه انه يحوم فوق رياح عالية وأن الحياة كلها توجد أمامه لاخفاء

فحولته الخارقة في فرج مسعودة السعيدة . وعندما أفاق أحس بالغرابة في نفسه ، وقرر أن يصطحب الفتاة معه لكنها عجزت عن تلبية طلبه ، فهي حديثة العهد بالوصول الى المنامة ، وهي مدينة بأسبوع من الحب لقبيلتها التي أرسلتها على غرار الاخريات حتى تطلع على أسرار اللذة ، وتعود فتتزوج في الجبال التي شهدت مولدها ، بفضل المال الذي تكون قد ربحته خلال اقامتها . على أن محمد الذي لم يغضب الا مرات قليلة منذ مولده قبل خمس وعشرين سنة اراد ان يهدم كل شـــيء ويذبح صاحبة الدار . وشرحت له مسعودة السعيدة أن مسعاه هذا سوف يكون بـــلا نتيجة لأن الامر بالنسبة اليها وبالنسبة للأخريات يتعلق بطقوس يتعين على كل فتاة أن تخضع لها . فقد كن موشومات بنفس الطريقة منذ النشأة من أعلى الجبهة الى مدخل الفرج ، واذا حدث وتمردت احداهن علـــى القانون العام فان الشقاء سيلاحقها الـــى الأبد ، وستقتل ان عاجلا أو آجلا من طرف الجماعة اني ذهبت وحيثما اختفت . وأبصر محمد عديم اللقب بمشاريعه تنهار ، فلم يعد يفهم شيئا من هذه الحكاية العجيبة من حكايات الطقوس والملل . قالت له : « ذلك ثمن بقائنا على قيد الحياة . فأنا لن الاحق واقتل فحسب ، بل كل الفتيات اللائي سيولدن من الآن فصاعدا سوف يقسمن الى شطرين عند نشأتهن بواسطة سيف تحتفظ به القبيلة منذ السنة التاسعة عشرة للهجرة . ولكن بمجرد ما تنتهـــي مهمتي هنا في المنامة أصير حرة في القيام بكل ما يروق لي شريطة ان ارسل بواسطة احدى قريباتي الدراهم التي اربحها في هذا الماخور . عليك ان تصبر أسبوعا ... ما قيمة أسبوع بالنسبة لمن انتظر خمسا وعشرين سنة ! » . خرج محمد من الغرفة دون ان يقول كلمة وغادر ماخـــور « الكبش الشبق » وتربع في مواجهة المدخل حيث أخـــذ ينتظر انقضاء الأسبوع في جمود هائل مطلق . وكان قبل ذلك قد وضع الى جانبه ساعة مائية تسير بواسطة العرق البشري كأنما ليستثير ذلك المسكين الـــذي اسس المنامة وأراد أن يستبدل الساعات الرملية بساعات الملح ويبيع الساعات المائية للقوافل التي لم تنطل عليها مثل هذه الحيلة . وشعر بالحاجة الى معلوماته الباطنية وعلى الأخص ، الى وجود درويش ميلوى في الشجرة العائلية لأمه في سبيل انيصمد في موقفه وذلك على الرغم من ازدراء المارة وفورات مسعودة التي جاءت لنجدته وكل اخوته الذيـــن اتهموه لجعلهم موضع سخرية بجلوسه على تلك الطريقة قبالة الدار التي عودوا العربـــدة في جوها المفعم بالشهوة .. واستخلصت مسعـــودة

عديمة اللقب العبرة من عناد ابنها على طريقتها : « من الأولى به أن يتخذ مكانا له في الحديقة . لقد ادرك تهاون تلك الفزاعات الغبية التي لم تعد ترهب العصافير . كيف يمكن أن يترك حديقة والدته تتدهور بهذه الصورة في حين انه يقوى على مثل هذا التحنط ! » . وقد ذهب الظن ببعض الأجانب الذين مروا بالمكان الى الظن بأنه تحجر بسبب شروره . في حين ان بعض الزعران الآخرين اشاعوا عنه بأنه حول نفسه الى تمثال لكي يجسد العاشق المجهول على صورة الجندي المجهول في البلدان التي تخوض الحروب .

وخلال ذلك ، اغرمت مسعودة عديمة اللقب بعباد الشمس ، وغرست منه على طول الحاجز القائم بين حدود حديقة الخضراوات والبيت . وراح عباد الشمس يتنامى بصورة مفرطة ، وربما كان ذلك بسبب الدم البشري الذي يمتصه كل فجر ، والذي تصبه مسعودة بحذر شديد ولكن دون اي تقتير . كان عباد الشمس محل عناية كبيرة ، يسقى جيدا ، ويتم اخصابه بأعجوبة بفضل الأسمدة الشهيرة الكاليفورنية ، فراح يدور حول الشمس دون توقف وبسرعة تتزايد حسب تقدمها حتى تصير جنونية عندما تبلغ كبد السماء . حينذاك تفقد الزهور الهائلة صوابها ، وتهيج حتى أنها تدور مثل اجنحة طاحونة هوائية بين دبيب الحشرات وصرير الجدجد . وكانت مسعودة شديدة الاعتزاز بتلك الزهور الصفراء ، فهي فضلا عن كونها تزين الحديقة : تعطي بزرات تستخرج منها نوعا من الزيت الذي يصدر حتى الى « لابونيا » لتشحيم الزلاقات الثلجية . ثم ان تلك الزهور تسمح ايضا بتلطيف الجو في الدار كلها فتتحول هذه بفضل الطاقة الشمسية الى مراوح هائلة متعددة تسير بلا انقطاع من طلوع الشمس الى غروبها على وتيرات مختلفة حسب حدة الضوء . وهذا التشغيل الطردي لعباد الشمس كان يحدث اثناء جمود محمد عديم اللقب . فطوال الاسبوع الذي قرفص فيه عند مدخل ماخور المنامة ، اكلت الغيرة قلوب شقيقاته ، ولم يتوقفن عن محاولة التأثير في امهن شيئا فشيئا وحفزها على الغضب عليه : « كان من حقه على الاقل ان يغرم بامرأة من ارستقراطية الساحل الم تره يفعل ذلك في الوقت الذي تدور فيه شموسنا بقوة ! يا له من فظ ! » . ولم تأخذ مسعودة بعين الاعتبار تلك الكلمات الغريرة . وعلى الرغم من انها كانت دائما صارمة ازاء بهلوانيات ابنها ، الا انها لم تكن تحب كثيرا أن يتدخل افراد

العائلة فيها ويغتابونه بنذالة . حتى الشقيقات التوائم لم يكن لديهن الحق في ذلك ه ولكنها لكي تتجنب استشارتهن في هــذه الفتــرة العصيبة التي ينتظرن فياه دوراتهن الشهرية ، التي لم تكن تستطيع تأخيرها ولا ترويبها في بطونهن مثل حليب قديم جدا ، فانها كانت تتصنع عدم السماع لأقوالهن وتنهمك في تغذية الدجاج وتنظيف اقفاص الكاميشي وغسل الصــوف وفتل الكسكسي وعصر الطماطم للاحتفاظ بها الى الشتاء ، وتقديد اللحم ، وكشط الطفيليات عن نزوتها الاخيرة المتمثلة في شموسها النباتية ذات الالوان الصارخة . وعندما تنتهي من عملها هذا تجلس على رخام فناء الدار وتمد رجليها وتفسح المجال للظلال المتقاطعة لكي تعبرها ولهبــات النسيم في مواجهة الزهور الهائلة التي تكون في عز دورانها .

اصبحت الفتيات اللاتي راعهن ذلك الانتظار الجديد للابن النابغة ، يصررن بأسنانهن وينشغلن بتربية دود القز خفية عن أمهن . كن يأملن شديد الأمل ان تتبرعم الشرانق بسرعة لكي يحضنها بحرارة افخاذهن ، مثلمــا تفعــل ذلــك نســوة المنامــة ، وذلــك علــى الرغــم مــن ازمــة الحريــر العالميــة وسيطــرة الشركــات الاحتكارية ومناورات الحاكــم الــذي لــم يكــن يجعــل هــذا النشــاط عرضة للتقلبات فحسب ، بل غير نافــع أيضا . وفــي سبيل ان يتجنبن ايــة مفاجأة من والدتهن ، كن يتخذن لهن مكانا في الغرف العلوية ويغرقن في اللــذة بفضل زهرات عباد الشمس الواسعة مثل اجنحة طاحونــة هوائية ، ويجمعن بين فتحات الظل والضوء كلما غطت تلك الزهرات الشمس أو انسحبت عنها . وكانت نقرات خفيفة تهرش أعالي افخاذهن كلما غادرت دودة ما شرنقتها واصطدمت بباب انوثتهن الذي ينتظر التفتح تحــت نير ذكر قادم ، لا يكدن يذكرن هيجانه حتى يشددن افخاذهــن ويقلصن فروجهن ... وكانت لهن حينئذ رغبات جارفة ملحة في التبول ، وبما انهن كن غاضبات على أمهن كن يمسكن عن ذلك حتى تتندى سراويلهن ، ويشعرن بلذة هائلة ويضايقن مسعودة التي كانت الرائحة الغريبة تجعلها تكتشف حماقات بناتها . وعلى اية حال ، لم تكن مسعودة تشعر باي ندم في تأخير زواج عذاراها الثماني اللائي لم يكن الفارق بين الواحدة والاخرى الا ستة اشهر . فقد كانت كبراهن اكبر بأربع سنوات فقط من صغراهن . وفي الوقت الذي ظل فيه محمد عديم اللقب مواصلا كمونه قبالة الماخور ، بلغت « عتيقة » كبرى الشقيقات الثامنة عشرة في حين ان صغراهن سميكة لم تتجاوز الرابعة عشرة . وبما ان أختهن التي تزوجت بماسح

الاراضي وهي في السادسة عشرة فان الكبيرات منهن بدأن في الثورة على ذلك الاستغلال الذي كن ضحية له من قبل والدتهن ، ورحن يضفين عليها صفات غول رهيب يتعطش الى الدماء والى الاموال الطائلة . على انها كانت تسيطر بأحكام على مقاليد السلطة ولـم تكن تضطرب لمثل تلك الامور التافهة أما الفتيان الثمانية الذين مكثوا في الدار ، والذين كانت اعمارهم من نفس أعمار الشقيقات ، فقد راحوا يربون السلاحف التي تجتذب الضوء وتنسج اشكالا مهفهفة على أوراق الخس التي تقضمها . جعلوا يدربونها على عدو مسافة مائة متر ويحلمون باستبدال المراهنات حول الاكباش بألعاب التكهنات حول سباق السلاحف . وقد غادر اكبر التوائم الدار منذ زمن طويل واستقر به المقام لدى أخته بحجة تعلم مهنة مسح الاراضي مع صهره . وفي الواقع لم يكن ليقوى على التخلص من عشقه الفاسق لمليكة التي كانت تتجنب ان تكون وحيدة معه لشدة خشيتها من الجمـوح المفاجيء العنيف لهذا الذي تحبه حبا بريئا .

وبعد انقضاء الأيام السبعة ، اتضح أن محمد عديم اللقب لم يكن يعاني من مرض النعاس ، بل كان واقعا في حب جنوني لتلك الخليلة ذات الأصل النبيل التي تحمل نفس اسم أمه . وفي اليوم السابع وفي منتصف الليل على وجه التحديد ، وخلال جو رائق لا تبلبله الريح الرملية ، غادرت مسعودة السعيدة الماخور والتحقت بالرجل الـذي احبته طوال حياتها والذي ظل جالسا باصرار في نفس المكان يقظا تمام اليقظة وان كانـت قد نالت منه تقلبات الطقس وانداء الليل وقذارات الطيور العاقة التـي نسيت كل العناية التي أحاطها بها الا اذا كانت لم تتعرف عليه لأنه هزل كثيرا . نهض كأن شيئا لم يحدث ، دون أن ينبس بكلمة . وبمجرد أن انطلق في المشي ، قلدته وراحت تتبعه عن بعد ، في صمت اولا ، ثم عيل صبرها فانتهى بها الامر الى القول : « بم تفكر ؟ » ودار نحوها ونقـل لها فكرته من خلال نظرة صوبها اليها : « نذهب الى دار أمي » .

وعندما وصلا الى الدار ، تصنعت مسعـودة وبناتها النوم . أما الابناء فكانوا منشغلين بالعربدة في الماخور . وفي اللحظة التي دخل فيها عديم اللقب مع مسعودة السعيدة غرفته ، سمع كبير التوائم المقيم لدى مليكة ، أخته تئن من اللذة وتهز الفراش الزوجي . وفي اليوم الذي نزلت فيه بالدار ، ادركت القادمة الجديدة ما تتضمنه تلك الزفرات المختلطة المصطنعة من تحد صارخ لها : واعترفـت بأن للمـرأة العجوز احساسا

الضيافة كبيرا ، ولكنها كانت تخصصه بلا شك لنهار اليوم التالي . ولم يترك محمد لمسعودة السعيدة الوقت لنزع ثيابها ، بل طرحها أرضا وشمر جلبابها الى خصرها وسفدها عشرين مرة ما بين منتصف الليل ومنتصف النهار . وفي كل ثانية كانت تشعر بالرغبة في الصراخ وفي التلفظ ببعض الكلمات الفاحشة وفي التمرغ في مني عشيقها . ولكنها احترزت بتلك الليلة وأحجمت عن الصراخ من اللذة بعد ان استعادت حريتها على أثر الضريبة التي دفعتها لقبيلتها . وعرضت نفسها دون اي تحفظ . وسلمته كل وشوشات خصوبتها الفائرة ، وجعلت بينها وبين العالم الخارجي مستنقعات صاخبة من الحشائش البحرية والاسماك الثعبانية ذوات البطون الملساء التي تتغذى على حشرات المياه والاعشاب الهمجية المتماوجة فوقها مثل مطر نباتي في منطقة من هذا العالم الفسيح الذي كان محمد يقرأ رحلاته وطوافه في مخطوطاته التي تعرفها مسعودة معرفة جيدة . فهناك بين دجلة والفرات ، وقبل قرون عديدة كانت الآلاف من الروافد تخلق بعد الفيضانات بحيرات ومستنقعات كان العبيد السود الذين يؤتى بهم من زنجبار والنوبة والسودان ومن افريقيا الشرقية كلها يفرغونها من مياهها لكي يحولوها الى اراض خصبة ذات طين خارق مثل طينتها الموضوعة في فرجها الصقيل حيث خطر له ان يترك روحه . يا لها من عاشقة بارعة ، لا سيما وان رأسها كان مليئا بغليان وصخب تاريخ هذا الشرق الذي يمتد حتى الغرب وحيث قامت الحضارات بضربات الاسنان والخدوش والسيوف المختلفة في انتظار المدافع والبارود والبنادق . وراحا يقضيان الليل والنصف من نهار اليوم التالي متخبطين في مذاق ريقهما الحريف لشد ما كانت اللذة جارفة الى حد العماء والذهول . وواصلا الانتقال من لذة الى أخرى ، ملتهمين بعضهما بعضا ، متألمين غارقين في عالمهما ، بينما أزيد جنساهما وترطبا مثل فتحات تمتد بكل جنون فوق الجرف والصقيع ، وترتبط فيما بينهما بحبل يطبع ذاكرتيهما ويمدها وراء كل أسى بشري .

وأفاقا نهار اليوم التالي دون مساعدة طيور الكاميشي التي اغمضت عيونها عن تطرفهما الشبق ، وتخبطاتهما العاشقة ، ووجدا سلحفاة ميتة رافعة قدميها الى الهواء وقد طلي بطنها باللون الاصفر كانذار على هشاشة كل شيء . غير انهما ضربا صفحا عن هذا النذير الأحمق ودفنا السلحفاة تحت شجرة من عباد الشمس مصابة بداء التملق ، قبل

ان يذهبا للبحث عن الأم التي نسيت ان ولدها قد دخل مع هذه المراة التي تحمل اسما مماثلا لاسمها . كانت منشغلة بجمع حبات التين لاعداد مربى الشتاء . وعندما وقفا بجانبها خاطبت مسعودة السعيدة دون أن تراهما وقالت من أعلى شجرة التين : « ينبغي عليك ان تغيري اسمك ! لا يمكن لنا أن نقتسم الرجل نفسه والبيت نفسه والاسم نفسه دون أن تصطدم الواحدة منا بالأخرى ودون ان نحطم الكراسي بمجرد النظر اليها ! » . وهكذا دخلت مسعودة السعيدة الدار العتيقة وقبلت من طرف المراة الرهيبة التي راحت تحاصر النهار بأنشطتها المتعددة حتى انها كانت تفجر الساعات الجدارية التسع عشرة التي لم تكن تحتمل وتيرة الزمن المفروضة عليها . على أنه بقي مشكل الاسمين اللذين يتصادمان ويلقي أحدهما بالآخر في لعبة مرهقة . ظلت القادمة الجديدة على حذرها منشغلة بغسل جسدها وتعطيره وتسليمه عند خروجها من الحمام لنفحات المسك والعنبر ، بل انها ظلت محترزة ، تسمع خفقات فرجها الذي عصرته اللذة ، لأنه على الرغم من كل شيء ، كانت حرب الاسماء قائمة دون خنادق ولا جوقات عسكرية . أما مسعودة الحقيقية والوحيدة فكانت تعود الى سقاياتها ، وتقف بالمرصاد للمطر ولمنافستها . وكانت تحذر الثلج الذي قد يتساقط ويحطم من جديد فزاعاتها المطروحة بصورة مائلة أو على جوانبها او وجها لوجه . ولكنها في هذه المرة قد لا تقوى على تحمل الطلاء الاسود وهو يتقاطر على وجوه تماثيلها القماشية المشدوهة ذات القبعات القبيحة والعمائم المشرشبة . انها قد تموت كمدا !. اذ قد تجتذبها الاخرى من جانب الضعف فيها ، وتقترح عليها بنوع من الاندفاع ان تصنع لها فزاعات مرعبة حتى انها لن تنام ابدا بل ان دوار الشمس قد يفقد صوابه . وهكذا تم الصلح بينهما ! الورق المقوى العجيني . المقص . الصمغ . الثياب البالية . صخب وضحك وتواطؤ ضمني . وها هي ذي القادمة الجديدة تحيط بالتاريخ عن ظهر قلب ، وتقتطع مستنسخات الحقد . الحجاج بن يوسف ، ترسم صورته بصفة شنيعة وهذا كل ما يستحق . أفلم يسمى بجلاد العراق ؟ المعتصم وقد عرفه التاريخ لقساوته ازاء السود ومطاردته لهم . وهو الذي قضى على أول ثورة حقيقية عرفها الاسلام . ثورة الزنج . لقد دامت خمس عشرة سنة ، وهزت بغداد من قواعدها ما بين ٢٥٥ و ٢٧٠ ، حسب التقويم الاسلامي . وفي هذه الفترة بالذات ، جعلت الأمهات يرهبن أطفالهن مهددات اياهم باخفاء زنجي تحت السرير . وقد اقتنعت

مسعودة عديمة اللقب بعدالة القضية ، فقررت الا تصنع فزاعات سوداء أبدا . لقد عاشت في الجهل ، وها هي اليوم تنتشي . صور للجلادين والطغاة ، ومصاصي الدماء . ابو العباس السفاح . لقد تعود على سلخ اعدائه وملء أجسادهم بالنخالة ليضعهم داخل قفص حتى يستخدموا كلعبة للقردين اللذين روضهما لهذا الغرض . وكان من الفاطميين الذين حكموا مصر وافريقيا الشمالية ما بين ٢٩٩ و ٣٤٤ للهجرة . ابن خلدون يتحدث عنه في كتابه . وماذا عن محمود الثاني ؟ لا مجال للتشهير به . فمسعودة قد لا تفهم شيئا . اذ كان مثلها الاعلى . قد يحدث تحول في ذهنها ولكن بعد وقت طويل وتدريجيا . لنترك الامر الآن . وماذا عن مذابح « خيو » ؟ لقد ارتكبها في ربيع سنة ١٨٢٢ . تنهدت مسعودة وقد تذكرت أصولها البعيدة . وبرز تاريخ القراصنة ، وحاجب المروحة . قرصان الساعات الجدارية التسع عشرة ... وراحت المرآتان تعملان دون توقف . اما الابن فكان مأخوذا بعشقه ، لذلك فقد اوقف كل شيء ، ولم يعد يغادر غرفته أبدا . وتخلى عن طيوره المصبرة والاخرى . وكان يقرأ الشعر الاباحي للقرون الاولى . وصارت مسعودة عديمة اللقب تلميذة لأول مرة في حياتها . كانت مأخوذة بالرسوم الرهيبة ورؤى الفظائع التي كدسها التاريخ . وكانت الاخرى تتحدث بنفس السرعة التي يدور بها عباد الشمس حول نفسه . ولم تعد الفتيات في حاجة الى أذرعهن لتعليق الفزاعات على الاشجار وبين النباتات وفوق البطاطا وفوق سطح الدار . هل يكفيك هذا ؟ كلا ، بل كان يجب صنع فزاعات أخرى . العديد منها . الورق المقوى . الصمغ . المقص . الخيوط . الابر . لم لا ؟ سفيان بن معاوية : كان هذا مختصا في اغتيال الأدباء . فلقد أعدم ابن المقفع بعد اتهامه بالزندقة في تلك السنة السوداء ، أي سنة ١٤٥ للهجرة . وما أسرع ما جمدت تقاطيع وجهه . وصار فزاعا . الرسم ، التقطيع ، الالصاق ، الخياطة ، اللباس ، ولحية صغيرة حمراء . كان خجولا مع النساء . في حين ان المجنون الآخر كان يغرق ذكره في الدواء الاحمر وينطح الاناث . أصبح أغشى البصر ، تنبت بثور فوق أهدابه ، مندفعا في هواه وفي جشعه . غير أن مشكلة الاسم ظلت عالقة بينهما . ثم أن صناعة الاجهزة التي ترهب العصافير لم تكن لتستمر طول الحياة . فهناك العديد منها ، وفي كل مكان ، وقد بلغ الامر بالعائلة أن اختزنت الفزاعات في غرفة الطمث التي كانت على درجة حرارية ثابتة . كان محمود مهتما بها لأنه هو مهندسها . ولم يزاول أي

دراسة ، لكنه كالذي فعل . بل،وتفوق . أما عديم اللقب فكان يقضي كل وقته في الحمام ، ويكتب الاشعار . وعرفت مسعودة الوجه الآخر للتاريخ . لم تكن تعلم ان هناك حروبا وأعداء ، فقد انشغلت بانجاب التوائم وبتربيتهم ، خاصة بعد موت زوجها . انها مسألة حياة . « لقد انتظرت هذا الوقت كله لكي تأتي قحبة صغيرة فتعلمني كل هذا ! أين كنت ؟ ولكن اين كنت ؟ » وعاد حقدها على الحاكم يصعد الى شفتيها . فوضعت رسما أوليا له وقطعته بالمقص والصقته وخاطته وعلقته على قمة أعلى شجرة في حديقتها ، وقالت لمسعودة السعيدة : « ستعلمينني اشياء كثيرة ، وانا بالمقابل ساحني لك شعرك . ولكن يجب توضيح المسألة التالية بكل سرعة : اريد توأمين . فلقد تعذب هو كثيرا لكونه ولدا منفردا . أما بخصوص الاسم فسوف نتفق ! » وسرعان ما قضي على العصافير ، وغيرها من الطيور المهووسة بالسرقة . وكانت تنقل عند انقضاء النهار على متن جرافات كبيرة . وانتهز محمد الفرصة لكي يقذف بأكياسه الواقية التي اشتراها في سوق التهريب بسعر مرتفع . بينما كثف اخوته تدريبات السلاحف . فقد تملكتهم فكرة طرحها على السباق لأنهم في حاجة الى الدراهم . وكانت الحمى مسيطرة على المنامة . فالبغايا غاليات الثمن ، والثروة على مرمى منهم بفضل الرهان على السلاحف . وقد أعلن محمد الذي صار شحيحا بكلامه وحركاته : « انه لأمر مفرح ! » ذلك انه سمع امه تتحدث ، وازدادت خشيته منها . فكيف يمكن صناعة أزواج من جنسين مختلفين ؟ انها سعادة الانجاب . فبالاضافة الى الفزاعات ، ينبغي النجاح في انجاب التوائم . كانت القادمة الجديدة تداعب بطنها المزغب ، وتذهب في كل ساعة لكي تعمل على تدفق بحيرات فنلندة ولتوانيا . وتعود بعينين اكثر سوادا من المعتاد . أما هو ، فقد افلتت الخيوط من يده ، لكنه ازداد تشبثا برأيه ، فاما هذا او الموت !

وذات صباح وجد عديم اللقب لزوجته اسما جديدا . لقد امضى الوقت الكافي لذلك . انها معجزة حقا ، ذلك انه بدا ذاهلا عن نفسه ، تائها في المياه السديمية . وتدحرج من غرفته وقال : « فليكن اسمها شجرة الدر ! أماه ، ليس لديك ما تخافينه الآن ... » وتبادلتا التهاني . انها قصة طويلة حقا ! وهي تعرفها جيدا . لقد كانت تلك المرأة الملكة الوحيدة في الاسلام . فقد حكمت مصر وسوريا وتركيا ، وفقدت زوجها خلال الحملة

الصليبية الثامنة والاخيرة . قتله شخص يسمى سانت لويس في معركة المنصورة . واحتفظت بالسلطة خمسة عشر عاما ، من ٦٤٧ الى ٦٦١ . ويا لجيرتها المحترمة ! من جهة المعتصم الذي رسم وخلد في شكل فزاع لحراسة شجرة الزعرور . ومن جهة تخرى سانت لويس التائه بين انفه وروحانيته . وفي مواجهتها كان كل رجال الارض المظلومين المضطهدين . لقد استثارتهم وتزوجت بأحد خدمها . قالت ربة الدار : « قصة من قصص الزنوج أيضا ! يا للمساكين ! » كلا . كان أبيض وقادما من الاناضول حيث كان للناس الخيار بين رعي الاغنام او حراسة الشعوب . فاختار أن يكون عسكريا . ودخل في خدمة الملكة . وقلبها على السرير معتقدا انه قادر على قلبها من عرشها . فقطعت رأسه وخصيتيه . واتخذت الف عشيق كلهم سود . كان هذا لونها المفضل . وقبلها بزمن طويل ، فوجئت ملكة الف ليلة وليلة وهي تمارس الحب مع اثني عشر عبدا اسود . ولكنها قضية اخرى . لقد سويت مشكلة الاسمين اذن ! وتم ضمان وقاية الحديقة . ولم يدع محمد عديم اللقب الى حفل زواجه الا الاسكافي . ولم يحيد ناظريه عن صاحبه القديم الذي سكر سكرة وبكى على وفاة « جوزيف جوجاتشفلي » المكنى بالجورجي ، اما الحاكم فقد أرسل من يتسقط له الاخبار ويسجل ما حدث . ومع ذلك فقد اقتصر الحفل على الاهل : مسعودة عديمة اللقب وفتياتها السبعة عشر العزاب بالاضافة الى مليكة بناصر وزوجها وبنتهما . واعلنت ربة عائلة عديم اللقب هدنة مدتها أربع وعشرون ساعة مع اعدائها الطيور ، وانزلت بفزاعات الحرب لكي تزين القاعة الكبيرة حيث يجرى الحفل لانها كانت تراها خارقة . وشرحت للاسكافي : « لا تمثل هذه الفزاعات كل من هب ودب . لقد مزقت التاريخ ، وملأت المقابر . انني لا اتحدث عن هذا الحاكم المخصي . لقد رسمناه ، لكنه لا يساوي شيئا كبيرا . يبدو انه يريد بيع ماء النيل الى كشافي المستر براون . ليس هناك ما يؤمل منه . ولكنه لا يخيفني . اليته ضامرة . لا يجرؤ على مواجهتي ! » وقد سجل وشاة الحاكم أيضا هذا الخبر ذا الاهمية الكبرى . ولكن ما الذي كان يستطيعه ؟ كل الناس على علم بأنه اشترى بحيرة التمساح وانه يستعد لارسال الماء عن طريق القنوات لتزويد مقر الكشافة . وبالاضافة الى ذلك ، كان الاسكافي هو الوحيد في القرية الذي يعرف اصلاح النعال . ولم يكن باستطاعة احد أن يستغني عنه . ولهذا السبب تمتع دائما بحريته على الرغم من عقائده السياسية . وكان حاكم المنامة منذ فترة طويلة قد

صار محل سخرية للناس اجمعين . وقد مضى وقت طويل منذ ان لف النسيان القانون الذي أصدره ضد الكحول وصار عديم الأثر . بل ان سيارات الاسعاف المختصة في التحقين غابت عن البلدة . فالحانات وغيرها فتحت ابوابها من جديد . وكل شيء عاد الى مجراه الطبيعي على الرغم من التحريم الرسمي الذي وقع هو الآخر ضمن قائمة القوانين التي تحايل عليها الناس ولم يعد لها تأثير .

وما ان انتهى الحفل حتى عادت مسعودة عديمة اللقب الى تعليق فزاعاتها والصقت بالباب الخارجي اعلانا مفاده أن لها ثماني فتيات تريد تزويجهن . ووضعت قائمة بأسمائهن وسجل اعمارهن وفهرس خصالهن . وقررت تزويج فتاة منهن كل ستة اشهر . وجاء دور « عتيقة » وحسبت أصغرهن وهي « سميكة » أنها سوف تتزوج في سن الثامنة عشرة مثل شقيقتها التي تكبرها . وكذلك الامر بالنسبة لكل الفتيات الأخريات اللائي لم يكن لديهن سوى ان يبدين اعجابهن بحيلة والدتهن . فهي لم تكن تبعد أية واحدة منهن عن حق الزواج هذا ، وفي سن متوازية بالنسبة لهن جميعا ، ذلك لأن الفتيات مثل الفتيان كن قد ولدن كل ستة اشهر برتابة المترونوم . ولم يكن هناك من غيور ، حتى شجرة الدر نفسها حين علمت أن رسالة التهاني الأولى التي اتصل بها زوجها قد جاءت راسا من سيدني . كانت على علم بوجود « كلثوم » وبقصة الاصبع الذي يرتاح في محلول الفورمول داخل بوقال مغلق موضوع على رف بغرف طالبة في اللغة الانجليزية بالحي الجامعي للمدينة المذكورة . وفي هذا الصدد ، عبرت الزوجة الجديدة عن اعجابها بكلثوم وقالت لحماتها المتجمدة : « انها صنديدة حقا ... » ولكنها لم تكن تدري بأنه منذ وصولها لم تعد الساعات الجدارية تنفجر في الدار وان الساعات المائية الوحيدة التي اشتغلت في زمنها لم تعد تقذف بدموع الدم والعرق في كل غضبة من غضبات مسعودة . وبعد زمن طويل . طويل ، طويل . أي عندما زوج محمد عديم اللقب فتاته التوام الأولى تذكر تلك الرسالة من كلثوم التي وضعته مرة ثانية في حالة من النقص بفضل أصالتها وعفويتها .

دار الحاكم ، كانت لا تشبه في شيء قالب الحلوى المرشوش بالسكر المبلر المجروش . بل كانت تفصح عن ذوق رفيع . اذ لم يبخل رب الدار بالرجال ولا بالمواد النفيسة . فبعد اشهر قليلة فقط من تنصيبه على راس البلدة ، نزل بالمنامة المهندسون والمعماريون والطوبوغرافيون ، والرسامون والزوقة . كانوا كلهم اجانب طيعين ، يخضعون تمام الخضوع لأوامر صاحب الدار الذي يدفع لهم اجورا خيالية . وذهب به الامر الى أن يهتم بأوقات فراغهم ، واضعا في مضاجعهم راقصات مختصات في مقاومة كآبة ووحشة الرجال المتنقلين ، وراشا أمسياتهم بالمشروبات المتنوعة والخمور الرفيعة . وقد جنى الحاكم ثمرة جهوده فبمجرد انقضاء الحول ، تسلم من المقاول الاجنبي المفاتيح المذهبة لمسكنه الفخم . وكان هذا أشبه ما يكون بخلاصة اصيلة للفن العربي القديم والعمارة الاسكندنافية المعاصرة . واتضح في عيون اهل المنامة ان الحاكم لم يفرط في اي نوع من انواع المواد : فهناك رخام « كارا » وخشب « كندا » الاحمر ، وصوف الكشمير ، وبلور « بوهيميا » وزجاج « سيليزيا » ، وفولاذ اليابان اللماع ، وحديد اصفهان المزخرف ... وكانت الحديقة كثة . لكن لم يغرس بها نبات عباد الشمس . ذلك أن أهل المنامة لم يعلموا بوجوده الى أن غمدت مسعودة الى غرسه فأصبح تقليعة متبعة . وكذلك ركب داخل الدار التي لم يكن يخلو منها مكان الا وشقت فيه النوافذ الجدارية والفتحات ، جهاز قوي للتكييف . ولم تكن الخاصيات الترويحية ولا الطاقة الطرذية لبتلات عباد الشمس معروفة في فترة بناء الدار . وكانت الدار من الروعة بحيث كان أهل المنامة — حتى قبل

الانتهاء من بنائها ــ يخرجون للتنزه حول ورشتها الفسيحة . وعندما تم انجازها ، واثثت ، وزينت ، تحولت الى أعجوبة محلية ، حتى ان أهل المنامة اصبحوا يفخرون بها بدافع من الغرور والزهو . على انه بمجرد ما حاول الواحد منهم الاقتراب منها ، رد الى أعقابه دون مراعاة من قبل ازلام الحاكم وحراسة المسلحين بالعصي الحديدية . وظل الناس مشدوهين ، يذهبون بانتظام لتأملها تاركين مسافة كبيرة بينها وبينهم ، من فوق هضبة اقيمت عليها الحانات والمطابخ ودورات المياه العمومية . بل ان الهضبة صارت مكانا يحج اليه الناس ، منذ اليوم الذي استقر فيها احد المطببين منتهزا فرصة المختلفين اليها لاستجلاب الزبن . وما أسرع ما جعل الناس يصعدون اليه في مواكب متحمسة ، براياتهم وشموعهم العملاقة . وقد اصاب أهل المنامة المعروفين بدهائهم عصفورين بحجر ، واحد كما يقال ، حينما جعلوا يتأملون دار بندرشاه بخلنجياتها ، ومسبحها ، ويستغل كل واحد منهم الفرصة فأحدهم يعالج ربوه وآخر بواسيره ، وثالث تسوس أسنانه ... وكان المدرس يصطحب تلاميذه النجباء ، والأمهات أطفالهن الطيعين ، غير أن المسبح وحده هو الذي يمثل مشكلة في حد ذاته . وبالفعل ، فالماء نادر بالمنامة ، ومن وثم وجب قطعه طوال النهار للتمكن من ملأ المسبح ذي المقاسات الأولمبية . ونتج عن ذلك أن أهل المنامة لم يكونوا يحصلون على الماء الا في الليل . واضطرت النسوة الى قلب جدول اشغالهن راسا على عقب ، ونظمن انفسهن حتى يستطعن القيام بشؤون بيوتهن وغسل الثياب وطهي الطعام وتنظيف الأواني ليلا ، والنوم نهارا . وبلغ بهن الأمر الى أنهن لم يعدن يرين أزواجهن الذين لم يغيروا شيئا من عاداتهم ، ذلك لأن الادارات والمتاجر والأماكن العمومية استمرت في العمل حسب المعايير النهارية . وكان من نتائج هذا الوضع المعكوس أن انخفض عدد المواليد انخفاضا واضحا ، في حين أن المنامة كانت الى ذلك الحين ، قد عانت من انتشار ديموغرافي رهيب . ورأى البعض أن الحاكم بملئه للمسبح قد وجد طريقة جيدة لحفز الرجال على التقليل من الانجاب خاصة وأن واقيات الحمل وموانعه ، وغيرها من المعقمات الميكانيكية ووسائل الاجهاض المماثلة متوفرة في السوق السوداء . وهكذا فبدلا من أن يصدر الحاكم قانونا لتحديد النسل ، لن يحظى باحترام اي شخص ويكون مدعاة للسخرية ، آثر ــ حسب أقوال البعض ــ اللجوء الى المكر ، فقرر بناء ذلك المسبح الرائع قبل رسم التخطيطات لما صار فيما بعد اجمل دار في البلدة .

وسرعان ما صدم اهل المنامة بهذه الحيلة الماكرة التي استخدمها بندرشاه ونتج عن الحرمان الجنسي وانعدام التوازن بين الازواج وسقوط نسبة المواليد أن أجمع الناس أمرهم ضد المسبح العظيم ، فتم تحويله تحت ضغط الجماهير الى حوض ياباني لا يجدد ماؤه الا مرة في الشهر . ويزين بزهور عرائس النيل المستوردة من كوريا الجنوبية وبالسمك الطيار الذي اهداه حاكم جزيرة القمر الكبرى .

وخلال هذه الفترة بالذات ، استغفل الحمال محمد عديم اللقب وزوجته مسعودة الحاكم بندرشاه ، فجعلا ينجبان توأمين من جنسين مختلفين كل ستة اشهر ، متحديسن بذلك نواميس البيولوجيا البشرية ومضايقات الدكتاتور الصغير الذي نسي انه أرسل الى عين المكان للاشراف على مشروع خيالي لري الصحراء واستصلاح الاراضي . وكان ابنهما محمد عديم اللقب قد ولد منفردا بعد حمل طبيعي دام تسعة اشهر كاملة . ولهذا السبب ، كتب عليه أن يعاني من ذلك التمييز بينه وبين اخوته واخواته الذين ولدوا اثنين اثنين . ولكنه لم يعلم ابدا ان نقص الماء ، وانخفاض نسبة المواليد قد دفعا بوالديه الى اتخاذ قرار بالاقلاع عن انجاب التوائم . وكان ذلك منهما تحديا ووقوفا — ولو سلبيا — في وجه طاغوت اي سلطة مدنية وسياسية في البلدة . ولكن تبقى هذه الخارقة محل اثبات : فالبعض ينطلقون في الافضاء بأسرارهم ، ويزعمون ان حكاية التمرد هذه التي تكون وراء الخصوبة الخارقة لمسعودة انما هي محبوكة بالخيط الأحمر . بل يشتم منها نغزات الدعاية الشيوعية البشعة التي قام بها ضد الحاكم ذلك الاسكافي الغرير المسالم في ظاهره . على أن الاشياء اكثر جدية في واقع الامر ، وقد وجدت فعلا نواة صلبة من دعاة البلبلة وسط الجماهير . وتلقى هؤلاء تكوينهم في مدارس خاصة بالخارج ، غير أن الاسكافي لم يكن بينهم الا واجهة للتضليل . فهو بمظهره المسالم الهادىء ، يضطلع بدور سري فعال في التمويه الاستراتيجي الهائل . على انه كان من الصعب فك تلك المعضلة المنامية . ومهما يكن من امر فان الدار التي بناها الحاكم لزوجته وبنتيه اللتين تدرسان معا في سيدني ، بالغة الجمال وتكشف عن ذوق رفيع . على أن الشائعات نسبت ذلك كله الى زوجته التي بهرت سكان البلدة بجمالها وثقافتها ورفعتها ولباقتها وانزوائها . لم يكن أحد يراها ، بل ظلت منعزلة الى حد ما في دارها الرائعة كأنما هي داخل سجن خططته وانجزته وزينته ونظمته تبعا

لأذواقها ورغباتها . باستثناء مربى السمك الهائل المبني تحت قاعة الاستقبال والذي كان سقفه الزجاجي الصلب بمثابة ارضية . وهكذا فان الزوار السعداء والمحظوظين الذين يستقبلون في القاعة ، يشعرون وكانهم يمشون على الماء بين الأعشاب البحرية والاسماك والقشريات وفقاعات الهواء المندفعة من الجهاز الذي يغذى بالأوكسجين ذلك التعبير الصارخ عن وصولية الحاكم . وعندما وصف البعض ذلــك النشاز في البناية الجميلة لمسعودة عديمة اللقب قالت : « هذا الامر يدهشني ، فقد كان والده بائع سردين . ولقد رأيته دائما يدفع عربيته الصغيرة وينادي على بضاعته مثل مجنون ليبيع سمكة لسكان الحي الذي ولدت فيه ! انه يحن الى بؤسه الاصلي الآن ، لانه لم يعد يعرف ما الذي يفعله باموال ه . . . هذا أمر طبيعي ، ليس من السهل القضاء على رواسب الفقــر » . وتوقف الامر عند هذا الحد . ولم يعمد احد الى تأكيد او تكذيب هــذه الرواية ، لا سيما وانه جرى القول بأنه ليس عيبا أن يكون للانسان والد يبيع السردين . لعل الحاكم نفسه تباهى بهذه الشتيمــة التــي قدمتها مسعودة . وهي ملاحظة لم يكن لها نفس التأثير الذي احدثه بين اهــل المنامة موضوع نشاطه السابق كبراح في مواخر الساحل . وقد بادر الى كل المحاولات بخصوص هذا الموضوع في سبيل الحيلولة دون انتشار الفضيحة ، ودفع الثمن غاليا لاسكات عدوته اللدودة حيث واصل تزويدها بالاسمدة الكاليفورنية . حتى ان اخصاب بستان منافسته كان ضربا من الخــوارق اكثــر مما كــان هــو نتيجــة للعلــوم الفــلاحية ، خاصة منذ أن مكنت زراعة عباد الشمس من تكييف الدار بطريقة ذكية قليلة التكاليف . أما في دار بندرشـاه فقد حدث العكس ، ذلك ان الربو والزكام احدثا اضرارا كبيرة بسبب آلة تستخدم في تكييف الهواء وتشتغل بواسطة بطارية يحركها خدم محكوم عليهم على الدوام بتأدية تلــك المهمة ، لأن الصيف بالمنامة يدوم اثني عشر شهرا .

وعلى الرغم من كل ما قيل لشجرة الدر عن الدار وعن محيط المسبح وطريقة ملئه ، وعن أرضية قاعة الاستقبال التي تتخذ شكل حوض اسماك مائل وعن أصل خصوبة حماتها ، فانها مع ذلك لم تشعر ابدا بالرغبة في الصعود الى قمة الهضبة التي تحولت الى ساحة واسعة تحت رحمــة بائعي المأكولات الخفيفة والافاقين والمشعوذين وحواة الثعابين بالاضافة

الى عجوز قميء انتهازي يدفع بزوجين من اليمام مصبوغين بألوان الحاكم الى القيام بقفزات في الهواء . وعرضت للبيع صور الحاكم بابتسامته الغامضة ، يرتدي بزة استعراضية وكأنه يقول لكل الذين ينظرون اليه : « انني أراقبكم ! » وعندما زودت الحديقة بالفزاعات الرهيبة التي بلغ عددها عدد طيور الأذى التي يفقدها الذعر وعيها فتهوي من أعالي الأشجار وتتهشم على أرضية الحديقة حيث تلفظ الروح ، انهمكت شجرة الدر في التطريز . حينذاك أدركت انها حامل . اما زوجها فانهمك في اشغاله ، ولكنها بمجرد أن تغيب عنه اكثر من ساعتين ، ينزل للبحث عنها ويصعد معها ليمارسا الحب . كانت تحس به عصبيا ، وخيل اليها انه يبالغ بعض الشيء عندما يضاجعها عشرين مرة في اليوم الواحد . لكأنه كان خائفا من عدم انجاب توامين من جنسين مختلفين على غرار والديه قبل عشرين سنة . وعبثا طمأنته ، واكدت له أنهما سوف ينجبان توأمين نزولا عند رغبة والدته ، لكنه لم يتمكن من تهدئة قلقه . وواصل ايلاجها بنفس الوتيرة ونفس الاندفاع ، في حين انها كانت حاملا منذ شهر ، وكأنما اراد بذلك الفائض من المني اخصاب الجنين الى أقصى حد . اما والدته فانتهجت نفس السلوك مع اشجارها ونباتاتها وزهورها اليانعة بفضل دماء الطمث والاسمدة الامريكية . وكان السماط الأول من حرير المنامة الطبيعي الذي نسجته « شجرة الدر » تحفة حقيقية بشفافية رسومه ، والوانه المختلفة ، وغرزته البالغة الدقة ، حتى يخيل للناظر اليها انها مطبوعة على النسيج او هي جزء من الحبكة نفسها . وسارعت شجرة الدر الى اهدائه الى مسعودة التي كانت منشغلة بالاستحمام داخل جرة كبيرة مسخنة بخشب الحديقة على الطريقة التقليدية . وانبهرت مسعودة بذلك العمل الدقيق حتى انها خرجت من الجرة ناسية تغطية عريها . ولاحظت كنتها ان جسدها لا يزال على نضارته ، على الرغم من عشر ولادات وأن لها ثديين ضخمين يفرق بينهما وشم ازرق رائع . وفاجأت مسعودة نظرة شجرة الدر التي وقعت على عانتها فندت عنها صرخة صغيرة واخفت فرجها الذي يقطر بالماء تحت السماط المطرز . ومنذ ذلك اليوم قيل عن أي شيء تنسجه شجرة الدر بأنه « غطاء العورة » . وقد وجدت هذه الأخيرة ، على الرغم من ميلها الى التفكه ، بأن التندر دام طويلا فانشغلت بتزيين البسط . وقالت ابنة « مليكة بناصر » عندما عادت لتوها من دار جدتها خلال العشاء : « عمتي منشغلة بتطريز غطاء عورة كبير كبير » . وهذا ما اضحك الوالدين اللذين قصا الحكاية على

افراد العائلة الاخرين . وفي اليوم التالي ، اطلق على البسط التي طرزتها « شجرة الدر » : اغطية العورة الكبيرة . وبعد بضعة اسابيع ، نال السأم من تلك المرأة الفتية فقررت التحايل على تلــك الصعوبة بتطريز الملاءات . وسمتها مسعودة وهي تضحك بـــ : غطاء العورة المفرد وغطاء العورة المزدوج . على أن شجرة الدر التي تعبت بحملها وبمعاركها الفراشية لم تحتمل المزحة الأخيرة وقررت تجاوز الناس كلهم . وبدأت في تزيـــين الاكفان . في اليوم التالي ، جلست واجمة في مكانها المعتاد وراحت تعمل بهدوء على تطريز كفن من الحرير الأخضر . وتجرأ « أمحمد » عديم اللقب الأخ الثاني لزوجها حين مروره بالغرفة السفلية حيث تعودت ممارسة عملها ذاك ، وواجهها بمزحة مخادعة سائلا اياها عما تفعله ، فأجابته بهدوء : « انه كفن ! » . فوقف مشدوها كأحمق فاجأته لطمة . فابتلع سفاهته غاصا بها . خاصة وأن افراد عائلة عديم اللقب أصبحوا متطيرين منذ أن لاقى والدهم حتفه تحت رزمة من ورق الحلفاء . « آه ... اذا كان الأمر يتعلق بكفن .. » وسارع الى الخروج . وهكذا ، صدفة ومن جراء حادثة الحمام نشأت في المنامة صناعة الأكفان الحريرية المطرزة ، التي زعزعت فيما بعد اقتصاد البلدة . فتعاظم مصيرها فجأة الى حـــد انها أصبحت أكبر مصدر للاكفان الحريرية في العالم . وكان في ميسور عائلة عديم اللقب أن تنعم بالرخاء الاكيد على اثر ذلك ، لأن تلك الصناعة جعلت العملة الصعبة تتساقط على المنامة ، بل انها جرت رؤوس أموال أولئك الذين كانوا بالأمس القريب فقط يفرضون قانونهم على سوق الحرير الكاسدة .

لم يدرك محمد عديم اللقب ذلك الخطر الا بعد زمن طويل . ففـــي البداية ، كانت له نفس ردود فعل الاخرين ، وابتهج للاختراع الذي جادت به قريحة زوجته وفكر بتوسيع الصناعة المحلية عـــن طريـــق تسويق مخزونات الحرير التي تعرضت لمنافسة الأنسجة التركيبية والتجمعات الاحتكارية الضخمة ، التي تصنع اقتصاد البلدان الصغيرة وتحطمه حيث تشاء . وهذه الحمى الجديدة التي استولت على العائلة بتلك الصـــورة الفجائية ساعدته على نسيان قلقه بخصوص مطلب والدته بأن تنجب له زوجته توأمين من جنسين مختلفين . ووقع في فخ المخاوف . وركـــب الجميع موجة مسعودة المعدية بينما اشرفت شجرة الدر علـــى الادارة التقنية . وبمجرد أن بدأت هذه الأخيرة في تطريز الأكفان ، تخلت عن

وضع الرسوم للطيور والاشجار والتهاويل العربية ، وانهمكت في الخط . وكانت النتيجة باهرة حتى أن العجائز استولت عليهن نوبات هيستيريا . وتمنين الموت في أقرب الآجال لكي تحظين بالدفن في كفن من تلك الأكفان الرائعة المنسوجة بأجمل حرير في العالم والمزينة بخطوط تتحدى روعتها العنكبوتية عبقرية بني الانسان . واتضح أن شجرة الدر فنانة كبيرة بالاضافة الى جمالها وتنبؤاتها . وفي البداية ساعدتها التوائم السبع بعد أن تجافين عنها مدة طويلة . ووقعن بعد ذلك تحت تأثيرها منذ اليوم الذي ظهرت فيه بالقرب من الخابية حيث راحت والدتهن تستحم ، وأهدتها ذلك السماط الذي بدا وشيه وكأنه حلم تجريدي منسوج على الحرير بخيوط الأزل .

ولم تتمكن التوام الثانية من المشاركة في هذه العملية البهيجة لأنها انشغلت بتحضير عدة زواجها . فبعد سويعات قليلة من نشر والدتها لذلك الاعلان ، تهافتت العشرات من الخطاب على الدار ، فاختارت من بينهم الشخص الذي تحبه سرا منذ سنوات عديدة . وهو شخص يدعى « علي لفتة » ، بائع الخضراوات الذي كانت تربطه بمسعودة علاقات تجارية . والحقيقة أن لطافته ومظهره المنعش دوما قد سحراها . كان في واقع الأمر بشعا قميئا ، أميل الى السمنة . لكنه بالاضافة الى خصائل اللطافة والمسالمة جعلها تعتقد أنه رجل ذو مغناطيسية خام ليس في ميسورها أن تتخلص منها . اما الوالدة التي نسيت مزاعمها بتزويج بناتها الى أمراء أصلاء فقد قبلت اختيار عتيقة مثلما فعلت ذلك مع مليكة فيما مضى . وعندما ظهر أن شجرة الدر والتوائم السبع غير كافيات لتأدية المهمة ، استدعى التوائم الثمانية ، فأقدموا على العمل بكل حماس . باستثناء أمحمد ، ذلك لأن التوائم الفتيان لم يريدوا التخلي عن تدريب سلاحفهم التي أوكلت مهمة تربيتها الى شقيقهم الثاني ، ذلك الذي لم يعرف أبدا كيف يخيط أو يطرز كفنا . ونظرا لضيق الغرفة التي يجري فيها العمل ، بنت مسعودة فوق الدار ورشة كبيرة مزودة بكل المرافق العصرية . وكانت زوجة ابنها تراقب بطنها وتهتم بأمور زوجها بعد أن تكونت لديه عقدة بسبب خوفه من عدم انجاب توأمين ، وتشرف على تسيير ورشة الخياطة وترسم الخطوط العربية التي يطرزها بعد ذلك أفراد العائلة بخيط الحرير ذي الألوان الساطعة . كان كل واحد في المنامة يريد أن يحصل على كفنه ، ويشتريه بنفسه وهو على قيد

الحياة ، ويحتفظ به الى جانبه في حالة ما اذا داهمه الموت . ولم يكن مثل هذا التصرف ناتجا عن هوس بالاموات بل انبهار بالجمال السريالي لتلك الكتابات . وبعد ذلك بزمن طويل ، طويل ، طويل ، استبدلت التعابير الدينية والسور القرآنية بمراثي اختارها محمد عديم اللقب من بين أجمل النصوص العتيقة . وساعدت هذه الفكرة على تطور السوق الذي اتسع اتساعا هائلا وبلغ نسبا مقلقة . حينذاك اراد زوج شجرة الدر ان يحذر زوجته وامه من الخطر الذي يمكن ان يجره هذا الثراء المفاجيء على التوازن الاجتماعي اولا ، وعلى الاطماع ثانيا وكما يمكن لهذا النجاح ان يثيره لدى الاجانب . وبالفعل ، فعلى الرغم من التصديرات وتهافت العملة الصعبة ، ظل جزء كبير من اهل المنامة يعيشون في فقر مدقع . وبعد أشهر من ولادة التوأمين عديمي اللقب بدأ يفد على المنامة رجال أعمال جشعون وممثلون تجاريون ضخام الجثث وسماسرة مقامقة . وعلى الرغم من يقظة محمد فقد تمكنوا من التسرب الى كل مكان . ثم انهم حصلوا بتواطؤ من الحاكم على عقود حققوا بفضلها أرباحا خيالية بأن باعوا الأكفان المشتراة بأثمان بخسة من عائلة عديم اللقب بأسعار تفوق سعرها الأصلي بمائة مرة . وراح أصحاب الملايين من خليجية يستثمرون اموالهم في هذه الصناعة المزدهرة . وأعقبهم أثرياء آخرون من العالم أجمع . وصارت الأخطار حقيقية ، وبدأت الراسمالية التجارية تتوطن في المنامة . ولم تستطع مسعودة عديمة اللقب أن تدرك مثل هذا الخطر اذ لم يكن لها متسع من الوقت للتفكير . أما زوجة ابنها فقد انجرفت مع التيار الجنوني العارم الذي داهم البلدة بعد الهدوء الذي عرفته زمنا طويلا . وحاول علاوة الاحمر أن يشرح للناس عواقب مثل هذا الظرف ولكن كان من العسير منعهم من الانتشاء بعد ذلك الحرمان المتأبد .

دام هذا الوضع بضع سنوات حتى أن شجرة الدر نسيت أنها تسمى في واقع الامر مسعودة السعيدة . مع العلم أنها لم تتوقف عن المسعى الذي شرع فيه والدا زوجها رغبة منهما في التحدي . فنسوة هذه العائلة وفقا لهذا المسعى ينبغي عليهن ان ينجبن أطفالا كل ستة أشهر على ابعد تقدير ويضعن توائم من جنسين مختلفين . لأن العزلة كانت تجرف بأفراد العائلة الذين أذابتهم رهافتهم . أولم يكن مولد محمد عديم اللقب منفردا ليشرح تلك الغرابات والمواهب الخارقة ! فهناك الظل الذي يحركه على هواه ويخضعه لقانون يتحدى الفيزياء الفلكية .

وقد كان حذرا بطبيعته لذلك فهو لم يرد أن يتركه ينسحب وراءه أيا ما كان موقع الشمس . ونظرا لتعاظم الخطب ، عادت اليه الرغبة في الرجوع الى عربدته وتدبيج رسائل الغرام وتقسيم ضحكات الاطفال الى نصفين وتغذية طيور الساحة واجراء احاديث مطولة مع جده بعد أن يتعتعه السكر . وتفتيت الثلج المحفوظ داخل كيس من البلاستيك في المبرد ، وبتر ابهامه الأيمن مثلما فعل ذلك مع ابهامه الأيسر لكي يتصالح مع والدته . وبدلا من أن يعرف الفرح طريقا الى قلبه ، تزايدت عزلته بازدهار تجارة الأكفان الحريرية المطرزة وفوائد المراهنات المستخلصة من صراع الاكباش والاكتفاء الذاتي الذي بلغته عائلته بفضل مواهب مسعودة الفلاحية . وجعل يتساءل أحيانا اذا لم يكن في مقدوره أن يتجاوز هذا النقص وهذه اللعنة التي جعلته يولد وحيدا في حين أن أشقاءه وشقيقاته ولدوا اثنين اثنين مثل فراخ البط الذي يمسك الواحد منهم بذنب الآخر . ويعلم أنه محكوم عليه ، فيزداد احساسه ذاك بوجه أخص خلال تلك الفترة التي ازدهرت فيها تجارة الحرير المخطط بالأبيض .. فراح الناس كلهم ينشغلون بأمورهم في أماكن أخرى وارتسمت على وجوههم ملامح السرور التي تبعث على الغثيان . وواصلت والدته الانشغال بحقلها ، كما ساعدت شجرة الدر على الاعتناء بتواميها قبل الوضع ، فتصبح امعة بسبب حبها الشديد لهما . وكانت الفزاعات تتماسك هذه المرة وزراعاتها ترضيها . على أنها خيبت ظن ابنها البكر الذي شعر بها اقل حركة وأقل حماسا من عادتها ، كأن النجاح دفعها الى التراخي . ولاحظ أنها فقدت عنفها وغضبها الجارفين اللذين كانا يستوليان عليها فتفجر حبرها الأسود على الحيطان . ولم تعد تقرقع بحمالات نهديها الا لتسلية حفيديها اللذين لم يولدا بعد ، في حين انها في زمن العصافير راحت تفجّر الساعات الجدارية بالاضافة الى غضبها لأنها تصارعها على وقتها ولكن بصورة مجانية كانما تمارس لعبة مع نفسها .

كانت لشجرة الدر كل دواعي الاعتزاز . فجمالها الاسطوري راح يحدث خرابا في عقول الرجال المضببة وحبها لمحمد عديم اللقب لم يتناقص لحظة واحدة . وعلى الرغم من مشاغلها العديدة ظلت واثقة من كسب رهانها بانجاب تؤامين من جنسين مختلفين . اما عملها في صناعة الاكفان الحريرية المطرزة فقد تجاوزت كل المطامح الجنونية . لكنها سرعان ما نسيت انها استعارت اسمها من ملكة : الملكة الوحيدة في تاريخ العالم

الاسلامي جابهت العديد من المؤامرات والعديد من التواطؤات ونفخت في امبراطوريتها روح الحرية . وجعلت النساء يعرفن كيفية الاستفادة منها لكي ينقلن الثورة في كل مكان يوجدن فيه ويحاولن رفـــع السيطرة التي يمارسها الرجال على فروجهن وحقوقهن . وقد ربطن مطالبهن النسوية بمطالبات المضطهدين الآخرين من قبل السلطة . وكانت مصر في ذلك العهد تفتك بها المجاعات والأوبئة . وبلغت أحقاد العســــــاكر الأتراك يومها ذروتها . وسخر منهم الأدباء وصوروهم بأبشع الصور . ووضعوا لهم رسوما هزلية سمروها بمسامير ضخمة . وبدا هؤلاء العساكر عنيدين متصلبين دمويين مخدوعين من قبل زوجاتهم . وقال محمد في ذات نفسه : « هذا موضوع قد يكون منبع الهام لزوجتي » . وبلغ به الأمر أن يأسف على فترة الفراغات السعيدة حين كانت المراتان تمزجان بين ضحكاتهما وتلصقان الورق المقوى وتتحدثان عن تاريخ العالم ومصيره . في سنة ٦٥٠ . اقدمت ملكة مصر وسوريا بعد ثلاث سنوات من الترمل على التزوج بخادمها ، حبا منها في التحدي . ثم انها سرعان ما أرسلته الى الحرب وانتهزت الفرصة لكي تقضي حياة عربيدة مع العبيد السود . وتروي شجرة الدر الحكاية بينما تصغي اليها مسعودة بعينين مشدوهتين . لقد كانت للسلطانة بشرة حليبية ، لذلك تأففت من ذوي البشرة الصافية . وخطر لزوجها أن يستولي على العرش لكنها كانت أسرع منه ، فأمرت بفصل راسه عن جسده متخذة حذرها ، واضعة خصيتيه في فمه المفتوح على سعته . أهي الدهشة التي تسبق الموت أم اعتراف من المعذب في وجه جلاده ؟ على اية حال ، لم تدع للاضطراب من سبيل الى نفسهـــا ووقعت في غرام عبد نوبي ، مما أدى بها الى فقدان سلطتها ، فالقانون لم يكن يمنحها مثل تلك الامتيازات . وهكذا انتزع منها عرشها فماتت وهي في السبعين من عمرها في ذروة العشق ووسط أحاسيسها الصاخبة. وغضب محمد عديم اللقب على زوجته لأنها وقعت في فخ التجارة ونسيت النموذج التاريخي لتلك المراة التي كانت ولا شك تتثاءب من السأم كلما قطع أحد عليها لذتها لكي يطلب منها امضاء او توقيعا بالاحرف الاولى . على ان العزلة التي أقضت مضجع عديم اللقب من جديد جعله يقول : « اننا لم نخسر كل شيء » . وفجأة احس بنفسه متراخيا هو الآخر . وجعل يتعثر ، ولا يقوى حتى على حب طفليه اللذين أوشكا على الخروج من بطن أمهما . في حين تنبأت مســعــودة بأنه سوف يكون لهما شعر امهما وعيون والدهما .

واغرب ما في الامر هو ان الحاكم هو الذي جاء لمساعدته على غير انتظار وبصورة تهريجية كما يفعل حينما يحشر أنفه في شيء ما . لم يكن الحديث قد انتهى بعد ذلك العقد مع كشافي المستر براون لبيع ماء النيل حتى صدر قانون جديد لم يكن ينتظره احد . وعلى الرغم من ان أهـــل المنامة يعرفون تمام المعرفة ولعه بالتمويه الا انه باغتهم هذه المرة . بما فيهم محمد عديم اللقب . ناهيك بأمه مسعودة التي تملكها جنون الفزاعات من جديد ، وكذلك شجرة الدر التي شغلت كثيرا بالبحث عن الاشكـــال الخطية الاصيلة . على انه ذات صباح من يوم السبت وعلى الساعة التاسعة بالضبط تحشرجت مكبرات الصوت الموضوعة في اماكن حساسة مصدرة كريرا أرعب الطيور في الساحة وأرهب المشاركين في المسابقات الاعتيادية . ولم تكن تلك المكبرات قد تقيأت سموم المراسيم منذ صدور القانون الذي يمنع الكحول . واصطف الجميع لسماع نشيد الحاكم الذي لم يكن الا نوعا من الاقتباس الأخرق لمقطوعة « رسالة الـــى اليـــزا » لبيتهوفن . وراح الجميع يبالغ في التظاهر ، لأنهم لم يكونوا ليهتموا بشيء باستثناء الطيور بل كانوا راضـــين بكل شيء املا منهم في الحصول على الراحة والوقت لكي يستسلموا لأهوائهم بكل حرية . ومهما يكن من أمر فان محمد عديم اللقب يعلم ان بندرشاه وظّف من صنائعه ومتسقطـــي الأخبار واختارهم من بين هؤلاء المهووسين بزقزقة الطيور وشقشقاتها . وبعد الاستماع الى نشيد اليزا وسط صخب الطفيليين وجعجعة الطيور التي عادت مسرعة الى الأشجار بعد ان تعرفت على صوت الحاكم الذي لم يعد يخيفها ، أصغى الحاضرون لمضمون المرسوم بتلك السرعة في السرد التي يعرفونها عنه . ولكونه أميا ، فقد كان يحفظ خطبه عن ظهر قلب قبل التفوه بها . وهذا ما كان يمنح كلماته تلك الوتيرة المنقطعة المبهمة الشائهة المتعجرفة . وعلم الناس ايضا انه عندما يتلـــو مرسوما هاما عليهم يحزم نفسه داخل بذلة المراسيم مثلما يظهر في الصور التي تباع على راس الهضبة المواجهة لمسكنه الفخم . وجاء المرسوم موجزا شديد الابهام ، يقضي بمنع الزواج بين الشاذين جنسيا ابتداء من ذلك اليوم وعلى الساعة الصفر . وبلغت دهشة الناس الذروة ، فما كان أحد يعرف ان هناك شواذا في المنامة ناهيك بوجود من يعقد مثل هذا الزواج . وفجاة شعر كل انسان انه معني بالمرسوم . وتقلص كل رجل اليته دون وعي منه . وتفخ صدره وتقمص هيئة مصارع ثيران في الحلبة . ولكن ما كان هناك شيء ليغير الأمر . فالدودة داخل الثمرة وكل واحـــد منهم يشعر

بان المرسوم وتلميحاته تشير اليه . وسيطر التوجس على البلدة وتوقف كل نشاط ذلك ان الناس أرادوا أن يعرفوا مغزى هذه الحكاية . أما عائلة عديم اللقب فقد تلوت ضحكا بدلا من أن تفجع . كانت لمسعودة نوبات ضحك تهز الفزاعات المشدودة الى الاشجار . واضطرت شجرة الدر الى أن تشرح كلمة « لوطي » لابنة اخت زوجها . اما محمود عديم اللقب الذي شغل باصلاح مبرد قديم عاطل فجعل ينظر الى نفسه على صفيحة مصقولة وبما انه كان أمرد بعض الشيء فقد قرر ان يترك لحيته تنبت على هواها وأن يطلق شاربيه لصد أي احتمال . واكتشاف طائر من طيور الببغاء التي علّمها محمد الكلمة الجديدة فراح ينشدها بكل لغات الموانيء ، كأنما هي تهمة مضنية لسكان المنامة كلهم . وفي الطرقات أخذت ريح حذقة فاترة تزف ثانية . ولم يعد الافراد الذكور من العائلة الواحدة يتبادلون القبلات حين الفراق أو حين اللقاء ، ورفض الآباء ان تطبع القبلات على اياديهم كدليل على الخضوع والاحترام من قبل الأبناء . ولكن أدهى ما في الامر كله جو الحذر الذي استقر ثانية بالبلدة بعد ان كنسها الرخاء . ومثلما يحدث في هذه الاحوال تسببت الوشاية في خراب البيوت وهوجمت مكاتب الحاكم من قبل الوشاة الذين اتخذوا حذرهم فأخفوا وجوههم لكي لا يتعرف عليهم احد . وبما أن الهاتف لم يكن موجودا في البلدة ولا غيره من المرافق العصرية الأخرى فان ناقلي الاخبار لم يستطيعوا اغفال ذكر اسمائهم على غرار ما هو معمول به في البلدان او في المدن الاخرى التي واتاها الحظ فلم تنعزل عن العالم بمثل تلك الأسوار التي شيدتها الحضارات والعهود المختلفة . وقد رأى الناس اخوة واقارب يفضح الواحد منهم الآخر ، بينما راحت النسوة غير الراضيات عن نقص الحيوية لدى ازواجهن يصوبن نحوهم اصابع التهمة لدى السلطة الزاجرة . واختلط الحابل بالنابل ، وتكثف الجو بنوع من الذرات الملبسة بمعادن بنفسجية متآكلة ، اشد من غلاف غضري يظل معلقا على ارتفاع عشرين مترا من الارض . ولم تعد القضية تتمثل في معرفة من اللوطي من غيره ، لانه منذ تلاوة المرسوم راح كل واحد يلصق هذه الصفة في كل انسان . وعلى العكس من ذلك ، لم يكن أحد يستطيع فك اللغز حول قضية الزواج هذه . وبالفعل ، فان الناس الذين كدرهم الأمر تساءلوا كيف انهم أغفلوا من قائمة الدعوات لمثل تلك الحفلات وكيف انهم لم يسمعوا اي حديث عنها .

ولم يكن محمد عديم اللقب اقل الناس انشغالا بهذه القضية بطبيعة

الحال لأنه معروف بفضوله الاسطوري وبارادته في فهم الظواهر . وهكذا راجع كتبه ... واعادة قراءة ابن خلدون ليعرف اذا لم يكن قد اشار الى مثل هذه الطقوس المتجاوزة جدا في هذه المرحلة لتطور عقليات البلدة . سأل المخطوطات . استشار الاسكافي العجوز . ذهب يسأل حارس محطة البنزين التابعة للحاكم ، الذي ظل يستمرىء الخمر الذي سكر به قبل عشرين سنة في بورسودان والذي كان عميد المنامة وهو في الثامنة والعشرين بعد المائة . دون جدوى ولا طائل . وهكذا قرر اقحام عائلته كلها لمحاولة فك هذا اللغز الذي بدا له خاطئا أو مرقعا بخيط غليظ من قبل بندرشاه . وكان أن تدهورت تجارة الاكفان الحريرية المطرزة ، وترك حقل مسعودة عديمة اللقب على هواه فزحفت عليه الأشواك . ثم ان العصافير بدورها خربت الفزاعات الرهيبة التي بثت الرعب فيها زمنا طويلا . وعزف أمحمد عديم اللقب عن تربية سلاحف السباق التي تعود تدريبها كل صباح خارج الاسوار . وتوقف كل نشاط . وجعل كل امرىء يحاول فك اللغز حسب امكانياته . وفقدت مسعودة عديمة اللقب بهجة الحياة . وتقاذفتها الشكوك والظنون خشية أن يكون ابنها محمد مصابا بتلك العاهة ، بسبب ولادته وحيدا منفردا .

عندما حطت شجرة الدر حملها كما يقال بلغة المنامة المزهرة ، اي توأميها الأولين من جنسين مختلفين ، لم يبق الا شهران على زواج عتيقة عديمة اللقب ، التوأم الثانية من على لفتة بائع البقول . ولكن في الليلة التي سبقت العرس ، انفجرت قضية منع الزواج بين الشواذ ، وفشل المشروع كغيره من المشاريع الاخرى العديدة . وارتاح لذلك كما قيل العريس الذي بدأ الهلع يسيطر عليه بعد ما اصاب أحلافه الجدد من رخاء واضطراب وشذوذ . كان يؤمن بالخرافات ، لذلك خشي مصاهرة عائلة منشغلة ببيع الأكفان فيفقد بذلك راحة باله . ولهذا السبب قيل عنه انه الوحيد الذي فرح حقا وصدقا بالمرسوم دون أن يفهم منه شيئا . وصار بالتدريج مناصرا متحمسا للحاكم . وعندما علمت مسعودة بسلوكه قررت ابطال الزواج ابطالا تاما . ولم تر عتيقة أي حرج في مسايرة عائلتها التي لم يكن لها أن تصاهر شخصا يقدم للحاكم كل صباح ، فضلا عن كل شيء ، حبات البطاطا الكبيرة التي تزن الواحدة منها خمسة كيلوغرامات . غير أن هذا الخبر دفع بالدم الى رأس والدتها . وبما أن بستانها جعل يتدهور ولم تعد تقوى على تبريد الدار بواسطة عباد الشمس الذي تعطل هو الاخر عن النمو ، فانها لم تستطع كبت غيرتها ، وقطعت العقد بين ابنتها وعلي لفتة المكنى بالنعسان . وذات صباح عثر على جثة عتيقة داخل كفن رائع أخضر مطرز بالحرير الأبيض . لقد غابت اذن دون أي صخب أو زبد ، وتدثرت بأغطية الظروف الطارئة التي تسببت في العديد من الخرائب ضمن عائلتها . أما والدتها فقد أفلت من يدها زمام الامور . ذلك لأن عتيقة لم تقل شيئا ، ولعلها

نسيت أن تودع اهلها ومعارفها بسبب الحزن الشديد الذي انتابها قبيل انتحارها المثالي على طريقة اليرقات التي تنغلق حول ذواتها في شبكات من الحرير الناعم . لقد تأسفت دائما لعدم احتضانها لتلك الشرانق تحت جلابيبها الدافئة الملأى بصخب الحياة القوية وبالتناقضات التي تغذيها بمقدار ما كانت والدتها تزرع ثمراتها وبقولها وزهورها المروية بدم الطمث الذي يحمل في بذوره أشد العواصف خرابا واعظم الكوارث والطف اشكال الحنان الشبيهة بالندف الثلجية التي لم تتساقط على المنامة الا مرة واحدة . شخصية فذة ! أدهشت الناس كلهم حين وقع اختيارها على بائع البقول التافه النعسان ، مع انه بمجرد نشر الاعلان ، طلب يدها أجمل الرجال واكثرهم صدارة في المجتمع واشدهم حنينا وتوقا . لقد ذهبت اذن حاملة معها سرها المبطن بعد ان فصلت ثوب موتها من انسجة الغياب الاخضر . ونزل هذا الاكتشاف كالكارثة على العائلة . أما مسعودة التي تملكها شعور قاتل بالذنب فقد وقعت مغشيا عليها . وبعد أن عاد اليها صوابها بعد بضعة أيام كانت عتيقة قد دفنت خلال جنازة عظيمة ، بينما فقدت هي قدرتها على النطق . لقد صدمها ذلك الانتحار اللامعقول ، ذلك أن بنتها بدت انها موافقة على ابطال الزواج . وأدى الحداد الى افلاس العائلة افلاسا تاما في وقت أوشكت فيه على الغرق بعد الجمود الذي سيطر عليها على اثر قرار الحاكم . وبعد ان استعادت مسعودة رشدها ، جلست على أريكة في غرفة الاستقبال الكبيرة . وبرزت من النافذة الاغصان المتيبسة المعقودة لعباد الشمس الذي اثار فيما مضى اعجاب الجميع . في مكانها لاتريم ، تدير بؤبؤيها بأسرع مما كانت عليه خلال العشيات الرائعة التي تقضيها في صناعة الفزاعات ، وتسمتع الى شجرة الدر التي تدفعها الى السرور وقد جعلتها الفاجعة تتلعثم في حديثها وترغي ، كأنما ترغب في التخلص من سر عظيم يثقل عليها ، غير أنها ما كانت لتتوصل الى ذلك على الرغم من كل العناية والعطف اللذين احاطتهما بها عشيرة عديم اللقب بأسرع ما يمكن . وجمعت العائلة صفوفها في مواجهة الألسنة السليطة ونذر الشر التي زعمت بأنها وقعت تحت وطأة الشقاء منذ أن شرعت في تجارة الأكفان وتحدت تحديا صارخا ذلك المصير الذي كان من المنتظر ان يبددها ويشتتها فردا فردا . وكان الناس يحسبون حسابا لحظوظ كل شخص منها وينتظرون أن تحدث سلسلة من الوفيات العنيفة في صلبها . بل ان الكثيرين منهم راحوا يزعمون بأن الشخص القادم الذي سيخيط كفنه

ويغلق نفسه داخله انما هو امحمد توام عتيقة . ذلك انه اول من علم ان زوجة أخيه قررت صناعة الاكفان المطرزة عندما دخل غرفتها ، ولعله قال لها حينذاك : « هل تتقـــدم صناعة غطاءات العـــورة ؟ » فأجابته : « بلى انها تتقدم بصورة لا بأس بها » . على انه في واقع الامر سألها عما تفعله ، غير انها وهي الصامدة ، ردت عليه وقد فرحـــت بالتأثير الفجائي : « انها مجرد اكفان » . لقد فوجيء حقا وهو المغرم بتربيـــة السلاحف التي كرس لها وقته املا في تنظيم منافسات تشتهر عبر العالم ، وتحل محل مصارعات الاكباش التي يراها عنيفة جدا . وعلى الرغم من تلك التقولات ، فانه لم تحدث اية بلبلة في العائلة بفضل برودة دم محمد عديم اللقب وزوجته . ولم يغلق محمد على نفسه في الخابية التي تستخدم للاغتسال حتى ينجو من الموت ، ولم يعمد الى التغابي فيترك حيواناته لمصيرها . ولم تصدق اية واحدة من التوائم تلك الترهات التي تروى حول انتحار عتيقة . وفعلا ، فقد راودت محمد ذات يوم الرغبة في الاتصال بالفقيدة فسكر سكرة شديدة . وعبثا انتظرها طوال اليوم التالي في فناء الدار بوجه عبوس قمطرير . اراد أن يريح قلبه على الرغم من معارضة زوجته التي لم تعد تؤمن بالاشباح منذ أن تم في قريتها الاصلية بناء محطة وراح القطار يعبرها مرتين في اليوم الواحد . لقد لاحظت أن صخبه العنيف حال دون خروج الارواح الشريرة من قبورها بعد أن أرقها الندم ومنعها من التجول في المنطقة . غير أن القطار لم يكن قد وصل الى المنامة على الرغم من أن الحديث قد سبق أن جرى حول موضوع الوعود التي قطعت منذ عشرات السنين . وعلى اية حال ظل العديد من الناس بالمنامة يؤمنون بالظواهر الخارقة الغريبة . على أن ذلك لم يكن حال محمد عديم اللقب الذي تعود الى حين لقائه بمسعودة السعيدة أن يتحادث مع جده بفضل الرؤى الناجمة عن الافراط في الكحول . ولا مناص من القـــول بأنه منذ زواجه لم يعد يلجأ الى مثل تلك التصرفات ، بل انه فقد عادته السيئة في الوقوف موقف الحذر من كل شيء وفي عدم ترك ظله ينسحب وراءه . واعترف الناس ايضا بانه عمل كثيرا على نقل عدد كبير مـــن مواهبه نحو مناطق أخرى من احاسيسه . بالاضافة الى انه اندفع رأسا نحو السعادة البريئة الى ذلك الحين باستثناء الهزات التي عبرتها بعض السحائب المتولدة عن الثراء السريع وعن خوفه من أن يخيب ظن والدته . فقد اشترطت انجاب توامين للحفاظ على السلالة التي ازدادت هشاشتها وعرضيتها لكونها لا تحمل اي اسم مثل سائر الاخرين . ولأنها اضطرت

ان تكتفي منذ اربعة أجيال بهذين الحرفين الأولين وما ينطويان عليه من اغفال للهوية ونكران وشطب أسف بها كل الاسفاف . ولم ينج من ذلك حتى جده محمد عديم اللقب المكنى بونفوس الذي راق له ان يفقد مرتين متتاليتين وجهه وانتهى به الامر الى ان يغرسه في اللج الرخو بمصباحه المضموم الى صدره وتلك القصاصة من الورق التي سبق ان كتبها شخص آخر وانكمشت في قبضته المغلقة أبدا : « اسمي محمد عديم اللقب » . الم يترك نفسه يموت من البرد تماما مثل عتيقة التي أغلقت على نفسها داخل كفن بعد أن خاطته على جسدها ؟ لقد ماتت ميتتها فعلا . واذا لم يكن أحد من أفراد العائلة قد شك في زوجة الشقيق الأكبر ولم يتهمها بأنها جرت الشقاء على العائلة فان هذا لم يمنع من القول بأن انتحار عتيقة صار يثقل على ضمائر الجميع . بل وزاد الناس فقالوا بأن انتحار مسعودة التي ظلت خرساء انما هو دليل ملموس على الشقاء الذي نزل على هذه العشيرة المتكاثرة الشاذة المقلقة الذائعة الصيت في المنامة .

لقد جاء ذلك الموت في وقت أغرق فيه لغز الحاكم البلدة في حالة من الاختناق المستديم وأصاب عائلة عديم اللقب بالجمود ولم تراود الناس الا فكرة واحدة . من كان ماذا ؟ من كان هذا ؟ من كان كذلك ؟ من لم يكن كذلك ؟ من كان الذكر ؟ من كانت الانثى ؟ كيف يعقد مثل ذلك الزواج الغريب ؟ هل هناك من خطاب ؟ وبما انه لم يكن في مستطاع احد ان يجيب على أسئلة شائكة مماثلة ، فقد شاور الناس امام المسجد . وبين تنسك وتفسير أفلت من فيه حكمه الشوري : ان الدين الحنيف متسامح مع الشذوذ ، وحيث أن هناك عقود زواج فليس هناك اي منع مطلق . وظل الناس على سذاجتهم . وأعلن الكفرة بأن الامام واحد منهم ، وبقي الاخرون موزعين بين موقفين غير مريحين على الاطلاق . وبالفعل فان هم آمنوا به وقعوا في الورطة وان هم احجموا فان ذلك يعني انهم لم يؤدوا واجبهم الديني . وتعقدت المشكلة اكثر من ذي قبل ، وانقسمت البلدة الى قسمين : قسم يناصر الحاكم وقسم يخاصم الامام . وقاطع الحاكم صلاة الجمعة وكل الادعية الاخرى مثل صلاة الاستسقاء وصلاة الغائب وصلاة الترحم وغيرها من الصلوات التي لا تقل الواحدة منها أهمية عن الاخرى . اما الامام فأحجم عن الذهاب الى الحفلات الساهرة التي يقيمها الحاكم ولم يختلف بعد ذلك الى ديوانه حيث يدخن زواره النرجيلة ويتحدثون في الفلسفة ويستمعون الى بعض الشعراء التفهاء وهم يمدحون سيدهم بقصائد طويلة . اعلنت الحرب بين الطرفين ولكن بدون ايمان

كبير منهما ، ذلك انهما كانا يعلمان تمام العلم انه بذلك يبطل احدهما مفعول الآخر . وما اسرع ما تخلت البلدة عن تلك الحمى الجديدة التي استولت عليها بعد الحكم الذي أصدره الزعيم الديني وعاد الجميع الى طرح السؤال الجوهري : اين يوجد هؤلاء اللوطيون الذين يغالون في تحرشاتهم الى درجة عقد الزواج فيما بينهم ؟ وكرس محمد عديم اللقب وقته كله لهذه القضية . وساعدتـــه زوجتـــه بكل جدية . اما مسعـــودة فانها لـــم تتحمس كثيرا في بحثها عن الحقيقة . بل ان ابناءها ظنوا انها تبـــدد الآثار وارتابت زوجة ابنها في أمرها فشكت في أنها مطلعة على السر ولعل مسعودة ارادت حماية بندرشاه لأنها قد تحتاج اليه حينما تعمد الى تنظيم بستانها . على أنها في واقع الامر كانت تتخوف من أن تكون عائلتها على صلة قريبة أو بعيدة بهذا الصنف من الناس . اشتد قلقها بوجه خاص على ابنها البكر الذي كانت حساسيته طالما ادهشها وجودها لـــدى الرجال ، بل وأكثر من ذلك كانت تشتم من هذا القرار نوعا من التآمـــر الدنس من قبل عدوها اللدود لكي يلطخ سمعتها ويعاقبها على غـــرورها واحتقارها له . ولم تتمكن من أن تفهم فهما واضحا طبيعة هؤلاء الافراد الذين يتحدث الناس عنهم كثيرا . ها هي اذن قـــد صارت محتشمة لا تجرؤ على طرح الاسئلة التي تعبر ذهنها بعد أن كانـــت تطلق الكلام على عواهنه وتقرقع بحمالات نهديها . وجاء اليوم الذي دخلت فيه غرفة زوجة ابنها بمظهر العيي المتآمر وبعد اللف والدوران سألت بصورة مندفعة : « قولي لي ... هل يستطيع هؤلاء الناس الذين يجري الحديث حولهم كثيرا انجاب أطفال ؟ » غير أن قهقهة كنتها الجمتها . وسارعت الى مغادرة الغرفة وقد ساءها أن تتصرف بتلك السذاجة الطاغية . كان الأمر قد بلغ ذلك الحد عندما أقدمت عتيقة على الانتحار فقلبت كل شيء راسا على عقب واستقر الشقاء في الدار ، وردت الجفاف الى البستان وتهرأت الجدران ، وفقد الأثاث مساميره ، وأضاعت الساعات الجدارية اوقاتها ، وفقدت الطيور لون زقزقتها ، وسيطر الفراغ بثقله ، وأحجمت الزهور عن استخدام روائحها لتظل مزهرة خلال القيلولة الماحقة ، ولم تعد الظلال تنحت الزمن بامتداداتها الاعتيادية ، وفقـــدت الشقيقات التوائم قوتهن الخارقة في دفع دوراتهن الشهرية . بل واخطر من ذلك كله ، صار سلوك الفزاعات غريبا . فقد سمحت لنفسها بالقدوم الى المطبخ وفتح الثلاجة والاطلاع على ما اذا لم تكن بداخله زجاجات البـــيرة لأن الشمس في الخارج كانت شديدة الوقع ، ولم يعد هناك من شيء يمكن

حراسته ، بعد أن تركت المزروعات لشأنها . وخلال ذلك ظلّت مسعودة على خرسها وأدارت بؤبؤيها في محجريهما بسرعة مذهلة كأنما تريد أن تقلد عباد الشمس وخيل اليها أنها تـرى كل طغاة التاريخ يدخلـون غرفتها ويجلسون الى جانبها على الأريكة حيث تقضي سحابات نهارها ، وزجاجة من البيرة الباردة في يدها ، فيتقاطر جليدها شيئا فشيئا . وسيطر عليها خوف داحر حتى أن عينيها جعلتا تدوران دوران الخذروف كأنما تريد ان تطلب النجدة . وكانت تصر بأسنانها ، وتقرقع بحمالات نهديها ، وتحدث صخبا يصم الآذان ، ويبلغ أطراف الورشة التي كان يصنع فيها كل يوم خمسون كفنا من الحرير الأخضر المطرز بالخطوط الأثيرية . حينذاك يهبون لمساعدتها ، وما كان أحد منهم يفهم ما تريد التعبير عنه بتلك الكلمات التي تحتبس في حلقها ولا تقوى على القذف بها . وتبذل في ذلك جهودا مضنية تتضح من أعصابها وعروقها المنتفخة التي كان اعوجاجها يشوه وجهها بصفة بشعة . علـى أن صديقة احدى التوائم هي التي ادركت اسباب ذعر والدتها : « انها تهذي . ينبغي تحطيم الفزاعات » . ومـا اسرع ما عمدوا الى التقاط تماثيل تلك الشلة وكدسوها واحرقوها فـي الحديقة مستصحبين معهم مسعودة لكي تشهد تلك النهاية بنفسها . ومنذ ذلك الحين لم تعد تخشى شيئا بل ظلت جامدة وفقدت عيناها حيويتهما ؛ الى حد أن أبناءها راحوا يتساءلون اذا ما كانوا أحسنوا صنعا بالقاء الفزاعات الى النيران .

وذات يوم وصلت رسالة من كلثوم يحمل مظروفها طوابع عليها صورة ملكة انجلترا . لم يتجرأ محمد عديم اللقب على فتحها اعتقادا منه أن دارهم المنكوبة لا يمكن أن تتحمل ازمة من أزمات الغيرة من جانب زوجته . على أنها انفجرت بعد شهر قائلة : « افتح هذه الرسالة اذن ! ولا يذهبن بك الظن الى انني غيورة وأنها ستظل في البيت طول الحياة . سوف ينتهي الأ مر بالأطفال الى اكلها وقد سبق لابنك أن لعق لصاقها كله » . وفتح محمد المظروف . وبعد بضع دقائق من القراءة ، أطلق ضحكة رنانة ، حررت نفسه وجعلتها طليقة في تلك الدار التي يوجد فيها ابنها . وأرادت ان تقول شيئا ولكنها تذكرت أنها فقدت صوتها ، فتمالكت نفسها لكي لا تنفجر : « انها مكيدة أخرى من ذلك الحاكم الاحمق ! » . وفي تلك اللحظة بالذات دخل ابنها الغرفة والرسالة علـى اطراف أصابعـه وقال : « أماه ، ان اللوطيين الذيـن يتزوجـون فيما بينهم موجودون في قصر بندرشاه . هذا ما هو مكتوب في الرسالة » . وبالفعل كانت كلثوم قاطعة

في اتهاماتها تلك . فحينما استقر الحاكم قبل عشر سنوات من ذلك التاريخ بالمنامة ، وبنى داره الرائعة ، استقدم من خارج البلدة جالية من السود للعمل في خدمته . كانوا عشرة أفراد في مجموعهم ، يعيشون في الطابق الارضي ويضطلعون بمختلف المهام البيتية بالقصر ، وينتسبون الى الدين الزيدي الذي يعتبر المال والأطفال تفاحة شقاق بين الناس . ومـن ثم رأوا انه من الاصلح لهم الغاء المال والاطفال حتى يعيشوا في تناسق تام . ولم يكن اعضاء هذه الطائفة الدينية يعملون من أجل الربح . واطلع الحاكم على امرهم ، فانتهز الفرصة بأن وضعهم في خدمته . وكانوا يمارسون اللواط حتى يتفادوا انجاب الاطفال . ثم انهم يعملون في صمت وبفعالية ويعيشون فيما بينهم ولا يتسببون في اية مشكلة . وكان لهم الحق في ثلاثة أيام من الراحة سنويا لزيارة أهليهم المقيمين على الهامش ، دون الدخول في اية صراعات مع جيرانهم . ذلك أن هؤلاء قبلوا منذ فترة طويلة قواعد حياتهم وتركوهم ينظمون عيشهم على هواهم . وكان للشذوذ بينهم تشعبات طقوسية وروحية . ثم انه كان مقدسا الى حد انهم يفضلون الموت بدلا من مضاجعة النساء . وكان منهم قلة من الذكور المولدين حكم عليهم عن طريق الاقتراع بنكاح النسوة للحفاظ على نسل الجماعة شريطة أن لا يبلغوا درجة الالتذاذ والا وقع عليهم غضب الآلهة . وذات يوم خشي الحاكم أن ينكشف أمر هؤلاء الناس فتخيل أن مسعودة عديمة اللقـب مطلعة على القضية . فراح يحاول استباق اية فضيحة لصرف النظـر وابعاد الشكوك عن داره وانقاذ سمعته مع الحفاظ على خدمه . وقدمت رسالة ابنته عنصرا ثانيا حول الاسباب التي دفعت بأبيها الى استصدار قراره في حين ان ناس المنامة يجهلون هذه القضية كل الجهل : اذ كان ملك خليجية قد طلب يد ابنته الكبرى فانتعش الوالد لهذا التشريف وأراد ان يبرهن لصهره القادم الذي ينضح بلده بالبترول بانه مثال يحتذى في التطهر .

وعند تلاوة تلك الرسالة ، غابت مسعـودة عن وعيها . وحين استفاقت ، اكتسبت صوتا جهـيرا لم يعرفـه احـد عنها وصاحت : « سوف يدفع الثمن ... هناك ضريبة دم بيننا الآن ... الحمد لله على انكم لستم منهم ... لقد الجمني الذعر » . وتوجهت لابنها : « الأفضل لك أن تطلب من تلك التافهة أن ترد اليك ابهامك على متن أول باخرة . وخلال ذلك ينبغي ترميم هذه الدار المتداعية » . وعلى الرغم من مرور

فترة قصيرة على وفاة كبرى التوائم العازبات ، فان ذلك الخبر الذي ارسلته كلثوم ذوب التوتر مثلما تنصهر قطعة سكر داخل فنجان من القهوة الساخنة . وتخلصت عائلة عديم اللقب من العبء ، ولكنها احجمت عن افشاء السر حتى لا تخون ثقة كلثوم ، وتسمح لأبيها بصب جام غضبه على هؤلاء المستخدمين المساكين الذين قد يبيدهم عن آخرهم ولا شك . وأحاط أفراد العشيرة الامر بالكتمان التام . ولم تكن الأم متفقة مع أبنائها بخصوص اخفاء مهزلة الحاكم . لكن كثرة الاعمال والامور التي تود تبيانها منعتها من مجابهتهم لذلك فانها قررت اعادة بناء أسس الدار التي هزتها تلك الحوادث الفجائية ، وشوهتها نبتات الحديقة بجشعها . وكانت الجذور قد تركت وشأنها ، فأرسلت فروعها تحت الدار للهروب من الشمس ، بينما أدى نقص الظلال والرطوبة الى انفجارات مدوية في الاسمنت المسلح واهترات أخشاب الأقبية . كانت تريد أن تغرس الحديقة ثانية وتصنع فزاعات جديدة وتزرع نبتات من عباد الشمس أضخم من تلك التي زرعتها فيما مضى . فعلاوة على تبريد الدار تبريدا طبيعيا ، يمكن لتلك النبتات أن تشغل طاحونة عائلة صغيرة ، ظلت تفكر دوما في بنائها في أعماق الحديقة وبمساعدة ابنائها وتستكمل بذلك استقلالها الغذائي ولا تصير مرهونة بأهواء الرياح . لم تكن الشمس لتنقص ، ثم ان عباد الشمس يمكن له ان يسير الطاحونة بعد استبدال أجنحتها ، وهذا بفضل الطاقة الشمسية . وبقيت امامها صناعة الحرير . لقد تركتها معلقة ، غير أن زوجة ابنها سارعت الى حرق ما بقي من الأكفان والقماش وغيره من أنسجة الغياب الاخرى حتى لا تحتفظ الا ببعض النماذج على سبيل الذكرى وكشهادات على عهد زاهر منصرم . وعلى أية حال فان الناس لم يعودوا ينادونها الا باسم « الدر » ، ذلك لأن مسعودة التي ظلت تعاني من بعض الصعوبات في النطق على الرغم من صوتها الجهير الجديد ، كانت تنزع الى اختصار الاسماء واتخاذ الطرق القصيرة الخاطفة عبر الاشياء والحاجات والاحداث كأنما تريد أن تواجه اي طاريء من طواريء الأمور . ثم انها ارادت ان تتمتع بالوقت الكامل لكي تصنع كل شيء من جديد وتتجاوز هكذا ذنبها العظيم ازاء ابنتها التي توفيت عذراء على الرغم من ذلك الدم المتدفق الذي طالما روى الحديقة . واطلعت أيضا بملء الساعات الجدارية بعد ان فرغت من زمنها مثلما تفرغ اية حياة ، وأولتها عناية خاصة . ومنذ ذلك الحين خولت لنفسها حتى الاشراف على حراستها وتعديلها ثم

تسترق النظر اليها بعين واحدة حتى لا تعتد على الفتن ولا تلتهم الأيام بدون عقاب ، اذ اصبحت تلك الآلات الشيطانية ذات قيمة جوهرية بالنسبة لامراة جاوزت الخمسين .

ولم يقدر للبلدة أن تعرف خاتمة قضية اللوطيين ومر الزمن شيئا فشيئا وعفى عليها ونسي الناس هذه الحكاية التي صدمتهم زمنا طويلا وفرقت فيما بينهم وثبطت عزائمهم . غير أن نشاط مسعودة الخارق سرى فيهم سريان العدوى واستعادت الحياة مجراها بمضايقاتها الاعتيادية ومصارعة الاكباش ومسابقات الغناء بين الطيور ، وامتلأت المقاهي بلاعبي الدومينو ، وزاول الناس أعمالهم اليومية . وعادت تربية دود القز الى أحسن مما كانت عليه ، وتحدى العديد من الصناع مصائرهم ففتحوا ورشات عادوا فيها الى صناعة الأكفان الخضراء الشهيرة . ووهبت الدر رسوما وخطوطا للذين طلبوها منها ، ولكن عندما لم تعد تمتلك شيئا منها في أدراجها شعرت بالثقل ينزاح عن كاهلها واتخذت بضعة أيام من الراحة لأول مرة منذ دخولها دار عديم اللقب ، وأغلقت البيت على نفسها . ومنعت دخوله حتى على زوجها الذي تضاعفت قواه التناسلية منذ أن عرف بأنه ليس شاذا بفضل الرسالة الآتية من استراليا . على أن تجارة الاكفان تطورت بصورة تدريجية وابعد الوسطاء الاجانب بكل لطافة ، رغم مقاومة الحاكم الشرسة . فقد حاول بالمضايقات الادارية وباختلاس الاموال والتهديدات المباشرة أن يمارس ضغوطه على الصناع الذي انتظموا منذ ذلك الحين في تعاونيات مسيرة ذاتيا بمساعدة الدر . فهي التي خطرت عليها فكرة الكفن الاول حتى لا يطلق — تندرا — على كل ما تنسجه اسم : « غطاء العورة » . أما الماخور الذي أغلق ابوابه خلال الازمة ، فقد فتح من جديد ، وعادت النسوة المشطورات الى شطرين اثنين بالوشم الى الدورات الموسمية : سبع يجئن وسبع اخريات يغادرن المكان . وعاد امحمد الى سلاحفه والى التدريبات بقصد اجراء مسابقة عالمية حلم أن ينظمها ذات يوم في عين المنامة . أما محمد عديم اللقب فبعد أن حاول الحصول من زوجته على اشارة الى المكان الذي وضع فيه ابن خلدون مصنفه العظيم حول الاجتماع والتاريخ العالمي ، فقد انتهى به الامر الى استئناف تحرياته على الرغم من الوعد الذي قطعته عليه بأن تقول له الحقيقة في الوقت المناسب . وسرعان ما استعاد بعض مواهبه الخارقة واستطاع ثانية ان يتحكم في ظله على

هواه ، ويكثر ضحكات الاطفال وقوقاة الدجاج وجعجعة الرحى الشعيرية . وبما أنه جعل يساعد والدته على بناء الدار من جديد ، فانه عاد الى كتابة الرسائل الغرامية بأسلوب مزركش بالتعابير الملتهبة ثم انه اضطلع بتربية الدرر وطيور الكامشي والجنة وبعض الببغاوات التي علق أقفاصها في ورشة الاكفان الهائلة بعد أن صارت لا تصلح لشيء . وقام مرة أخرى بتغذية الطيور العادية في الساحة وباعطاء دروس في الموسيقى لغيرها من الطيور الاخرى الاصيلة ثم انه عاود التحادث مع جده بكرة كل يوم في فناء الدار . وهو بطبيعة الحال لم يكن يعمد الى ذلك الا بعد كل سكرة مع الاسكافي ومع ساكن جديد حل المنامة منذ وقت قصير . وكان هذا الاخير خبيرا ماهرا في اصلاح الساعات في حانوت معتم فتحه بالقرب من دكان علاوة الاحمر في شارع البلدة الرئيسي . وعلى الرغم من كل هذه الاشغال والخوارق فانه وجد الوقت لمطالعة المخطوطات القديمة والكتب الحديثة ، ولتربية ولديه وممارسة الحب مع زوجته كالمعتوه . وبفضل الأرق الذي يسيطر عليه على الدوام توصل الى التوفيق بين هذه الامور كلها . على عكس أمة التي عادت الى التجافي مع ساعاتها الجدارية . وظل كذلك يأمل أن يرى الثلج يتساقط لكي يعيد تشكيل مخزونه من المعطف الملموس ويحميه في المبرد الذي لا يزال يشتغل بالبطاريات . وقد عمد محمود منذ أيام الحداد الى اصلاحه ، وانشغل أيضا بترقيع عدد من الأواني والزجاجيات التي تكسرت خلال الهزة الاخيرة التي جابهتها عائلة عديم اللقب بصبر عجيب على الرغم من مرض مسعودة . أما الابناء الآخرون فقد وضعوا أنفسهم تحت تصرفها وراحوا يساعدونها بأقصى جهودهم وطوحت بهم خيالاتهم بصورة تكاد تكون مرضية لشدة ما كانوا يهوون تفكيك الواقع واقصاءه عن دواليبه حتى تتداخل أقطابه ويتراخى فيصير نوعا من الصلصال وبعد ذلك يعجنونه على كيفهم ويولدون دوائر الجنون البرتقالية . وعلى الرغم من هذه الميول فانهم كانوا ينطرحون من التعب بسرعة ، نتيجة للنشاط المفرط والعناء لأن والدتهم رفعت بينهم وبين شبح ابنتها سورا من الرمل والنسيان .

وما كاد منديل العرق والدموع ينشف آثار الكارثة حتى راح الحاكم من جديد يسمع صوته للناس . كفّ هذه المرة عن استعمال مكبرات الصوت ذات البطاريات ، فلم تكن المنامة تتوفر بعد على الكهرباء ولا

على غيرها من مكاسب العلم البشري . وعاد الى الاخذ بالتقليد القديم اي البراج العمومي . واقتضاه الامر فلجأ الى خدمات الأستاذ بربي الذي تناساه الناس كلهم . كان يعيش خارج البلدة رفقة طبله الذي يستعمله كمخدة دون أن يدري ما يفعل به ، سوى أن يحتفظ به كشاهد أخرس على النوازل البشرية . وقد طرد قبل وقت لأن ضربات طبله التي تعلن عن بداية الاعلانات العامة الرسمية ونهايتها ، كانت ترهب طيور البلدة التي ارادت أن تنتقم منه فراحت تخرب حديقة الحاكم المزهرة . وجعلت تصل ضمن اسراب متكافئة ثم تنتشر فوق الاشجار المثمرة وتنظفها بسرعة مذهلة ثم تقوم بين الشمس وبين دار الحاكم وتغرقه في عتمة حالكة مضفية آلاف الظلال عليه . وبعد بضعة أشهر ، وضع بندرشاه حدا لوظيفة البراح المتحمس رغم كونه محترما من قبل الجميع . فتحول الى سكير يثير الشفقة ويحمل معه على الدوام أداته مثلما يحمل الشهيد وزره ، وزجاجة خمر لا تفرغ أبدا . معجزة برمتها ! لقد اخطر قبل أيام بأنه سوف يستعيد عمله كبراح عمومي ، وهكذا عمد الى تشحيم طبله بزيت الزيتون ، وكف عن الشرب ، وحلق لحيته ، وارتدى بذلته الاستعراضية ووصل بهدوء الى ساحة البلدة ، منزلقا من شجرة الى أخرى . وعندما بلغ وسطها دوى بطبله فأوقف زقزقات الطيور الكامنة في أقفاصها وغيرها من الطيور التي اغترت بنفسها فاختارت العيش داخل عش حقيقي وفوق شجرة طبيعية . وكان أن تسبب التأثير الفجائي في خسائر رهيبة . واضطرت الطيور المذعورة الى أن تندفع في التحليق واعطت في البداية احساسا بأنها تسبح في السماء لشد ما كان الولع مسيطرا عليها بسبب ذلك التدوير الرهيب . على أنها تمالكت نفسها بسرعة وتوجهت صوب حديقة الحاكم . لكنها فوجئت مفاجأة عنيفة عندما استقبلها العشرات من الرماة فبددوها عن آخرها . وخلال ذلك كان الطبل يعلن عن نفسه ويزيد ويبالغ حتى انه لم يعد يستطيع التوقف لشدة ما كان مأخوذا بعودته الى آلته العتيقة والحبيبة . غير أن الاعلان لم يفاجىء أحدا وبالخصوص عائلة عديم اللقب التي سبق لها أن اطلعت عليه عن طريق كلثوم . وانتظر الناس أن تتزوج البنت الكبرى بأحد الملوك . ولكن اي ملك ؟ فهنالك العديدون منهم عبر العالم الرحب . أما خبر الزواج بين ليلى بندرشاه وملك خليجية فلم يسلب الباب الناس فحسب بل أسعدهم حقا . وبما أنهم علموا الكثير عن هواجس هذا الملك التطهرية وعن منع الخمر في بلاده منعا باتا ، انتابهم على كل حال القلق وخافوا على مصيرهم

وراحوا يشتاقون الى سيارات الاسعاف التي لم تعد تمر بالبلدة ثم زايلهم قلقهم هذا لابتهاجهم بمصاهرة رجل ثري جدا . ولأول مرة في حياتهم راهنوا على ذكاء الحاكم ، واستمروا في التفرغ لمهامهم منتظرين الحفلات الكبيرة التي تقام لهذا العرس المهول . وقد التهبت المنامة كلها بعودة النجمة الفتية التي كان والدها يتوقع أن تلقن الرقص لمحظيات زوجها الثري . واعتقد معظم اهل البلدة أنهم سوف يستفيدون من هذه الهبة التي نزلت على سيدهم ، بل ان أشدهم ايمانا بالخرافات فكروا بأنهم قد يستطيعون التخلص من صناعة الأكفان التي تضمن حياة القرية . وبالفعل كان سكان هذه البقعة اناس لهو ومجون لكي يتمكنوا من التعايش طويلا مع الاموات ، سيما وأنهم كانوا يشعرون ببعض الخجل أمام العالم اجمع بسبب صفة حفاري القبور التي اشتهروا بها والصقت بهم ظلما ... كانوا يحبون الشرب والعربدة في ماخور من أشد المواخير تسامحا عبر العالم ، بمصاحبة البغايا الجميلات اللاتي ما اتخذن المال كمعيار في علاقتهن بل قوة احتمال الزبون ومثابرته .

واستدعي الاستاذ بربي ثانية لكي يعلن هو وطبله عن مقدم ليلى بندرشاه في ظرف خمسة عشر يوما صحبة كلثوم اختها الصغيرة . وقيل بأن هذه الاخيرة تأتي لتزيد بجمالها من رونق حفلات الزواج التي تقرر أن تمدد لمدة أسابيع . ووصلت الاختان بالفعل يوم غرة ماي في عربة مكشوفة ، عليها اشرطة ذات الوان صارخة بينما راح الجوق العسكري يعزف مقطوعة « ايليزا » بطابعها الشرقي المتماوج . واتخذ الناس أمكنتهم في المقصورات الامامية ، باستثناء عائلة عديم اللقب وحلفائها . فامتنع الاسكافي لأنه رأى من العار ان يحتفل في عيد العمال بجبروت الملك واقتنع ان مثل هذه الصدف غير عفوية . أما صديقه الساعاتي فصرح بأنه لا يرغب في أن تسحق حدبته وسط المتزاحمين الذين يلقون بالياسمين وحبات الشعير على العروس وعلى كلثوم . وكانت العلاقة في الواقع سيئة بين الاختين . وظلت كلثوم تحمل على الدوام بوقال الذكريات الشهير ، مجتذبة أنظار الفضوليين الى حد أن غطت على بهرجة النجوم وصخب الموسيقى وفخفخة ذلك الاستقبال البهيج . وقيلت اشياء كثيرة عن محتوى ذلك الاناء . وذهبت المراهنات مذاهب شتى . ولم يدر أحد بأنها كانت تحمل فيه ابهام محمد عديم اللقب الذي اخذته معها الى سيدني كدليل على جبن الرجال . وعندما القي بالخبر الى مسامع محمد ، احمر

وجهه وتلعثم . غير ان زوجته علمت ان طرف اصبعه المبتور يهرشه فراحت تحكه طوال استمرار الحفلات بعودة بنتي الحاكم . اما مسعودة فقرقعت بحمالات نهديها وقالت : « لقد كررت مرارا بانه عليك أن تستعيد ابهامك ... سوف تسخر منك ! مع انك اب لتوامين في حين أن زوجتك تنتظر اثنين آخريين » . وبعد زمن طويل . طويل ، طويل ، اي في اليوم الذي زوج فيه محمد ابنته التوام الاولى ، ادرك ان غضبة أمه تلك كانت طريقة حيية خجولة منها لكي تعلن بأن زوجته تنتظر توأمين للمرة الثانية . ولم تنس مسعودة ايضا تلك التينة الرهيبة التي فقدت فيها ابنتها بسبب ذلك القانون الشهير والملعون . وكلما أرادت استعراض تلك المرحلة سمتها « سنة اللوطيين » لكنها ، الى يوم موتها ، بل الى ما بعد ذلك ، لم تدرك أبدا ما تعنيه بالضبط تلك الكلمة الفاحشة ، كما أنها لم تفهم مغزى الضحكة التي أفلتت من كنتها عندما سألتها عما اذا كان هؤلاء الرجال قادرين على الانجاب ام لا .

لم يكن الحاكم يريد لتلك النشوة التي تولدت عن اعلان الزواج بين بنته وملك خليجية ان تتوقف أو تتناقص . وعلم بفضل الاسلوب الكتوم الذي يقوم به صنائعه ان الراي العام في صالحه ونجمه يتصاعد بسرعة مذهلة . ومن ثم تعين عليه أن يبقى على البهجة الغامرة بأية طريقة كانت . وما كان له بأن يبخل بشيء وهو على وشك مصاهرة واحد من أقوى الملوك وأثراهم في العالم . واعمل الفكر طويلا ، واستشار الملك عدة مرات قبل أن يضبط قائمة بالمشاريع التي يؤدي انجازها الى قلب الوضع قلبا وجعله في صالحه . وعندها سيقضي على ترددات اعدائه الاخيرة بعد ان لمس منهم أنهم على اهبة الخضوع له ، ان هو عرف كيف يقنعهم . أما المشاريع فضخمة ورنانة . لا يقل الواحد منهم عن الآخر . واخذ ذلك الخيال الشاسع بملك خليجية نفسه الذي فرح لروح المبادرة الجامحة والعمل الخارق الذي مني بها حكم المنامة . ورغم عدم وجود الهاتف بالقرية ، الذي حظره بندرشاه لأنه اعتبره آلة شيطانية على غرار العديد من الابداعات العلمية والتقنية الاخرى ، فان المتآمرين اتصلا ببعضهما على الطريقة القديمة التي تعتمد على الاشارات الدخانية . يشعل أحدهما النيران على جبل ما ، ثم يعمد عبر شبكة متشابكة من نقاط الاتصال الى ارسال الاخبار من نقطة الى اخرى من نقاط الكرة الارضية . وكان سموه متحمسا لتلك المساعي ، وفتح للحاكم حسابا غير محدود في بنك ضخم له مقره في زوريخ . وكان المشروع الأول الذي يريد الحاكم انجازه على وجه السرعة يدور حول المطر الاصطناعي رغبة منه في اغراق البلدة حتى يحيلها الى مدينة بحيرية . وسبق له ان وضع

التخطيطات وصمم المناظر المزهرة التي جاءت نوعا من التآلف العلمي بين جنون المدارات وغزارة الاجواء المعتدلة . وقبل اسبوعين من انجاز هذه العملية الخارقة ، استدعى سرا الاستاذ يربي البراح العمومي ، وطبله . ثم أمرهما بأن يعلنا عن الحدث لأهل المنامـــة الذين سايروا طبائعهم فبدأوا في نسيان الحفلات الضخمة التي اقيمت بمناسبة عودة البنتين وراحوا يندون به . ولكن الكتبة وهم يحررون نص الاعـــلان جوبهوا بمشكل لغوي شائك : فكلمة « اصطناعي » غــير موجودة في اللغة المنامية ، اذ أن سكان القرية سخروا حياتهم كاملة منذ قديم الزمن لعبادة تكاد تكون طقوسية لكل ما هو طبيعي وخاصة منه الحرير الخام . لذلك لم يكن هناك مكان لكلمة مماثلة في بلدة يتربي فيها دود القز بين افخاذ النساء بصورة طبيعية ومألوفة . وخشي الكتبة غضب سيدهم فتحاشوا المشكل بأن خولوا الحل للبراح العمومي ولطبله . ذلك ان ثرثرة الاستاذ بربي وقدرته على الارتجال أمران معترف بهما من قبل الناس جميعا .

ووجد البراح نفسه ذات صباح في ساحة المنامة الواسعة ، وقد عاد اليه صفاؤه الذهني بعد أن استدعي لشغل وظيفته من جديد . وكان المسكين قد عبر صحراء الحلم والتراب وعرف بتجاوزها بأن زود حياته بأحلام لطيفة وكحولية وهادئة ، وبأن وقع عاشقا لطبله . وصل هذه المرة بكل أبهة الى المكان وأخذ كامل وقته حتى أن الطيــور الموجودة على قمم الاشجار أو داخل الاقفاص ، استطاعت أن تتخذ حذرها حتى لا تصاب بالذعر والرعب ، لأن تدوير الطبل الخارق تسبـــب في زلزلة احاسيسها وكأن نهاية العالم قد اقبلت فجأة . وبدأ الاستاذ بربي يعلن عن مضمون الاعلان بمسايرة مربي الطيور بعد أن اعترفوا بجميله ذاك في حين صمتت العصافير وخبأت رؤوسها تحت أجنحتها حتى تتحاشى انفجار النهار مزقا مزقا ، داخل بشرتها الهشـــة . وعندما بلــغ البراح كلمة « اصطناعي » بالنسبة للمطر ، لم يجد مقابلا لها للتعبير عن تلك الغرابة ، فانتابته الحيرة وانتهى به الامر الى أن يتحايل على الصعوبة ببناء شبه جملة مبهمة . ثم أنه ، بحركة عنيفة وبنفس واحد اطلق على ذلك المطر الخصوصي تسمية « المطر بدون رب » . وانفجر الحاضرون بضحكاتهم وهم يسمعون تلك الصيغة التي تكاد تكون تجديفا في الله . وهكذا فشلت المفاجأة التي انتواها الحاكم ، وصدم بذلك الفشل الوبيل ، وادرك الطبال انه ارتكب خطأ وأن العقاب واقع عليه . وراح الحاضرون يهنئونه على

ذلك الكشف البريء بعد أن أدركوا مغزاه وصيغته الالحادية ، وبعد أن تسلوا بتلك النادرة عن المطر الذي لا ينزله الاله سبحانه ، وعن الرجال الذين يريدون صنعه كما تصنع البيرة والليموناضة والخمور . وفرغت المقاهي من زبائنها . وبعد أن ضحك الناس طويلا من مهزلة البراح العمومي ، تفرق شملهم وعادوا الى دورهم حيث رووا تلك النادرة الطريفة على نسائهم اللواتي كن منشغلات لعادتهن داخل استكانتهن بتفتح الشرانق التي تلتصق بأرجلهن مثل علقات جعة لها نعومة الحرير .

غير أن المطر الاصطناعي لم ينزل تلك السنة ولا في السنوات التي أعقبتها . الا أن الحاكم حمل البراح العمومي مسوولية ذلك الفشل الذريع . وطرد المسكين شر طردة ونهائيا ، فراح يستعيد حواراته الكحولية الطويلة المسهبة مع طبله . ودخل تعبير « المطر بدوت رب » في اللغة المنامية المزهرة الخام . ثم تحول التعبير نفسه الى علامة سياسية وجغرافية وتاريخية في آن واحد . وأطلق على تلك السنة تسمية « عام المطر بدون رب » وصارت مرجعا لعدد من الباحثين والفضوليين ولسكان المنامة الذين لم يكفوا عن التندر حول ذلك التعبير ، منذ تلك الصبيحة التي اتخذ فيها الاستاذ بربي حذره لكي لا يرهب الطيور . وقد جرح ملك خليجية في كبريائه ، فعبر بواسطة اشارات دخانية عن عدم رضاه أمام فشل المشروع خاصة وانه أراد البرهنة لخطيبته بأنه لم يكن اقطاعيا ، ولا رجعيا مثلما قد يبدو عليه . وبطرد البراح العمومي وطبله ، صرف الخبراء الامريكيون المكلفون بالتجربة المناخية صرفا مباشرا مع عتادهم الفحم الذي كان من المنتظر أن يجعل السماء تمطر على المنامة . لكن هذا الاجراء لم يعمل الا على تشجيع البلدة في عتوها وفي البقاء جافة مغالية . وتلفظت كلثوم بندرشاه بكلمة اشفاق على الشريكين : « انهما سوف لن يتوقفا عن خوارقهما ومعجزاتهما ! » وبالفعل ، فهما لم يقتنعا بالفشل الناجم عن اهمال البيروقراطيين وانشداه الاستاذ بربي . وكان أن أعلنا هذه المرة بواسطة مكبرات الصوت عن قرب وصول جبل جليدي اشتري من بلد يوجد وراء الدائرة القطبية من قبل الملك اعترافا منه بجميل البلدة التي رأت مولد ذلك الوعد الرائع : ليلى بندرشاه ... ولم يتسلل الفرح الى نفوس السكان الا بعد بضعة أشهر من ذلك التاريخ . وانتظروا وصول ذلك الجبل المتجمد الذي كان جزءا حقيقيا من قارة تمّ سحبه بطريقة مضبوطة عبر المحيطات . كانوا قلقين فانتهى بهم الامر الى ان يقرعوا الباب على محمد عديم اللقب لكي يستفسروا منه اين يوجد المحيط

المتجمد وما هي الطريق التي ينبغي على ذلك الجبل السحري أن يجتازها لكي يصل الى المنامة . وبكل طيبة قلب اشار محمد الى خريطة واسعة مطروحة وسط الحديقة المزدهية وبين لهم موقع ذلك البحر المثلج . وبما ان أحدا لم يكن يعرف شيئا عن تلك الشروح والخطوط والاقطار والمتوازيات ، فانه توجه نحو المبرد وأخرج منه قطعة جليدية ضخمة وغلى الماء داخل طبق ووضعها فيها ، واعلن لرفقائه المشدوهين : « هذا ما سيكون عليه مصير جبلكم الجليدي حين دخوله اجواء المنامة القائضة . وما كاد ينتهي من شرحه ذلك حتى كانت القطعة المتجمدة قد ذابت تماما . وشده الناس ، فانطلقوا وهم يهمهمون وراوا أن عبقريهم العلامة هذا كان مغاليا في تبريد حماسهم بتلك الطريقة . وما كان هناك شيء يستولي على الألباب في تلك البلدة التي هجرها الله ذات يوم من أيام الغضب على حد زعمهم . فحتى الماخور لم يعد يجتذبهم لأن البغايا الجميلات اتين على شبقهم الاسطوري . وقد وجب انتظار بضعة ايام لكي يصل الى المنامة ذلك الصهريج العملاق الذي نقل الجبل الجليدي عبر المحيطات . حينذاك فهموا جنون الحاكم . وذات صباح طلبت مكبرات الصوت الجنونية من اهل المنامة أن يرفعوا رؤوسهم في ساعة محددة من النهار . ورضخوا بكل طواعية يحدوهم الحماس الشديد واحترموا قاعدة اللعب . وفي الوقت المحدد رفعوا عيونهم مثل رجل واحد ، وبحركة واحدة ، فرأوا جبلا هائلا من الجليد معلقا بين السماء والارض فوق البلدة . وما كادوا يدركون ما يحدث لهم حتى راح ذلك الجبل يذوب بعطر فاتر يرشهم رشا غزيرا ، وانتهز الاطفال الفرصة لكي يثرثروا بكل صخبهم وتشويشهم . ولكن امالهم خابت بسرعة ، فما كادت دقيقة واحدة تنقضي حتى توقف ذلك الدفق الهائل ولم يترك اي اثر على الارض التي تصلى نارا انطلاقا من الساعة السابعة نهارا . وفي اليوم التالي وقع في روع الناس انهم كانوا محل سخرية من قبل الحاكم واعتقد البعض الآخر منهم انهم في حلم ، بينما أكد البعض عكس ذلك كله . وانفجرت الصراعات في المقاهي حيث يلعبون بدون هوادة لعبتهم المعتادة . وبانتهاء النهار لقي ثلاثة من الرجال حتفهم واصيب عشرة منهم بجروح . واصدر الامام حكما بتكفير بندرشاه وهنأت مسعودة عديمة اللقب نفسها على تلك النظرة العلمية لدى ابنها الاكبر . اما كلثوم فتعكر مزاجها وهاجمت أختها بعنف في نفس الصبيحة : « كان على ملكك الغبي أن يضع ذلك الجبل الجليدي حيث تستحقين ، اي داخل فرجك . . .ولعله بذلك يكون قد لأم جرحك القمىء بصورة نهائية .

وجنب هؤلاء الفقراء مغازلة اكبر وهم في حياتهم ! » وفي هذه المرة بالفعل ، أدرك أهل المنامة شؤم الحاكم وارادته في أن يعتبرهم اطفالا سذجا غير قادرين على فهم أي شيء من شؤون الحياة المتشابكة المتراكمة حولهم . أما الانصار المتحمسون لسيد البلدة فبدأوا يقلقون ، ثم طعم الجنة الموعودة المتلألئة الجدران بالجليد احدثت بلبلة في عقول بعد الناس السذج . واتجهت الانظار كلها الى عائلة عديم اللقب ذات الرؤية الثاقبة والمواهب الثمينة وتكشفت اصالتها في وضح النهار ، فارحت تهزأ من المحاولات الدنيسة المغشوشة التي اقبل عليها الشريكان اللذان بذرا هكذا اموالا طائلة لكي يبهروا عقول الناس بالخوارق من الاعمال في حين ان البلدة تعيش وكأنها في القرون الوسطى ، دون كهرباء ودون بالوعات المياه القذرة ودون قطارات تسابق الزمن : فلا وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي . وجعل اهل المنامة يضربون المثل بنظام التبريد الطبيعي الذي وضعته مسعودة بفضل حيوية عباد الشمس العملاق الذي كانت اوراقه تلعب دور مروحة خافتة الدبيب وفعالة وغير مؤذية ولا ملوثة مستكفية بالطاقة الشمسية الرخيصة والغزيرة المتكاثرة في البلاد . وعمد محمد عديم اللقب الى سد نقص المياه والى تخفيض الحرارة التي كان يعاني منها السكان . فانطلق ذات صباح في حسابات واحصائيات معقدة وجعل يردد عن ظهر قلب جدول الخوارزميات دون ان يكون له اي علم بها فيما مضى . وكان الخوارزمي هو الذي عرف الانسانية على ذلك النظام الحسابي فضلا عن الحس باليقين بنقل البرهان القائم على رقم 9 . وذلك سنة 830 بمدينته الطيبة بغداد . وتلا محمد عديم اللقب الأرقام دون أن ينسى واحدا منها حتى أن والدته خشيت على توازنه العقلي . وندم البعض من أهل المنامة ندما شديدا على سذاجتهم حتى ان بعضهم انتحر بعد أن رسم بدمه المتدفق من شرايينه المقطوعة بموس الويل ، شعارات معادية .

وأرسل الحاكم اشارات الاستغاثة الى شريكه شارحا له حتمية الاستعداد لمواجهة أي ظرف طارىء ومنحه مساعدة عسكرية فورية عاجلة ان اقتضى الامر . ولم يتأخر الرد في الوصول بعودة الريح الشرقية غير انه جاء في شكل سؤال مقلق : « الا تزال ليلى في هواي ، رغم الفشل الذريع ؟ » وقد تحجر الاب ازاء مثل هذا السلوك العابث من قبل صهره وندم على اعطائه يد ابنته . وجعل الوقت يمر . وبدلا من ان يربح

الحاكم المزيد من المال ، ازدادت خسارته على مر الأيام ، مدركا في عزلة داره الواسعة أن التطور البناء لا يمكن أن يتحقق بواسطة الالعاب التي تقدمها البلدان الثرية مثل المطر الصناعي والجبل الجليدي المتحرك عبر المحيطات والقرات . وأدرك أيضا أن لكل انسان ولكل شيء ولكل ظاهرة موقعا مبدئيا من الصعب ان يقلبه بصيغ سحرية ويحيله أعمالا وابداعات فنية . ولكن بدلا من اتخاذ قرارات جذرية أصر على أن يأخذ بأسباب منطقه الساذج وهو أن الشعوب تحب ما يذر عليها من غبار . ويبكي حينذاك ويقول بأنه غير محظوظ ويعزل نفسه طوال ساعات داخل مكتبه يلقي بحزنه على مثال حليفه ملك خليجية . وهكذا مني مشروعاه الكبيران بالفشل المهين بعد أن ابتلعا مبالغ طائلة . وبلغ به الامر الى حد أن ينطلق على مائدة العشاء بأصوات منكرة متهما أفراد عائلته باستفزازه . غير انه يسالم كلثوم لأنه يخافها ، هي القادرة على الصمود في وجهه . لكنها ما انفكت تستثيره ، فتدخن أمامه تبغاتلفهبنفسها وتندف اسنانها مثل بحاري نيوزيلندا وتتصنع الغباوة فتسأل عن عدم وجود الخمر على مائدة الأكل ثم تصرح بأن الطهي دون المستوى وتسأل أمها اذا ما كانت تفهم لماذا لعظام التمور سرة مثل الانسان . بل انها ما كانت تضيع الفرصة أبدا ، وهكذا تطرح أمامها في كل تجمع عائلي حول طارلة الغداء البوقال الذي يسبح فيه ابهام من فض بكارتها ذات يوم عارم وعاصف بريح قوية . ويتصنع الأب بأنه لا يلاحظ تلك الاشكال من الشذوذ ، فيغضب لأتفه شيء على زوجته التي يرى فيها متنفسا لألمه بل انه يغضب في بعض الأيام الى حد انها قد تقطع رأسه بمجرد أن تصبح ملكة يغالي في بعض الأيام الى حد أنها قد تقطع رأسه بمجرد أن تصبح ملكة خليجية ، حيث لا تزال مثل هذه الممارسات جارية وعادية . ولم تكن تجهل جلسات التنفيص الصاخبة التي ينظمها ضد زوجها القادم . وبينما كانت التحضيرات تجري على قدم وساق لاعداد العرس ، كتبت ليلى لخطيبها رسالة باللغة الانجليزية الرومانسية تقول له فيها بأنها تشتاق اشتياقا شديدا لكنغورو استراليا وزعمت أنها تتيبس وتهمل تدريبات الرقص الكلاسيكي والمعاصر . وبعد أسبوع واحد تسلمت هدية منه تتمثل في المئات من تلك الحيوانات وكلها من الاناث . ولم تحتفظ الا بواحدة منها وأطلقت الباقيات في البلدة . الا أن أهل المنامة عرفوا كيف يروضونها بكل سهولة . ثم ان الطيور استفادت منها فبنت أعشاشها في جيوبها العميقة ، على أن الملل سرعان ما دب الى نفس ليلى فطلبت من أبيها أن

يدخل لعبة التنس حتى تستطيع تنظيم مقابلات تمكنهـا مـن الاحتفاظ برشاقتها ، بالاضافة الى انها ستخلب لب زوجها وتجعله في خدمة مصالح عائلة بندرشاه . وتلبية لرغبتها بنى لها والدها بسرعة عشرة ملاعب من العشب الصناعي والمستورد من الخارج وفتح قائمة لتسجيل المرشحات المحتملات . وكانت الهوة التيتفصله عن المواطنين تزداد اتساعا ، ذلك لأن النسوة اللواتي اعتبرن دوما كحاضنات لشرانق دود القز كن أبعـد من أن تصرف انظارهن ولو ساعة واحدة في اليوم عن وظيفتهن الطبيعية . وفكر الأزواج بأن الحاكم يريد ابادة بشرية تحت غطاء رياضي ، لأن كل واحد منهم اعتقد بسرعة بأن النسوة سـوف يذبـن بسرعة تحت الشمس التي لا ترحم ويمتن بمرض النحافة على ملاعب التنس لارضاء ليلى وشطحاتها لا أكثر ولا أقل !

على ان كلثوم لم تتردد باتهام اختهـا بأنها تعانـي بما سمته بعقدة المضرب ، التي تكشف الكثير عن استيهاماتها الجندية . وساعدت نساء المنامة فثرن بزعامتها على ذلك الاذلال الذي تعرضن له في دعتهن وهدوئهن . وارادت أكثر من خمسمائة منهن أن يهجمن على دار بندرشاه ، غير أن هذا استسلم بسرعة . وقبل بداية المقابلة التي توجهها ابنته ، أعلـن بأنه لن يرغم احدا على ممارسة التنس وان في امكان النسوة مواصلة حضانة الشرانق . وسرعان ما انتشر الخبر على اثر هذا التراجع والفشل المرير واشيع عنه بأنه ينوي مغادرة البلدة للاستقرار بخليجيـة حيث تسنح له الفرصة لابراز مهارته في الاعمال وحبه للربح السهل . وقلما كذبت المنامة الاشاعات التي تروج بها ، ولم يغادر البلدة بل فكر في احسن طريقة يروض بها ترويضا نهائيا هذا الملأ المضعضع الجامد لا سيما وانه رفضه وعبر له عن عدائه . مع انه ظل يزعم بجلـب العيش الرغيد لأهل المنامة ، دون أن يتوقف عن التفرغ لشؤونه الخاصة . وتغير غيظه الى غضب جارف . وكما كان يمتلك بمكتبه تمثالا للمنامي النموذجي راح يبصق عليه ويقذف بفواحشه الذميمة ، وبحقد واثارة متزايدين لم يحدث له ان فعل ذلك من قبل بصورة حليفه الملكي ، وأفدح ما فـي الامر هو انه لم يتمكن ابدا من نقل احاسيس مثل هذه الى زوجته وبنتيه اللتين تشفقان عليه من وقت الى آخر أو تحتقرانه وتكرهانه كراهية ظاهرة وقد تأسف خلال ذلك على نقص الحس السياسي لدي ملك خليجية . وراح يتماوج من وحدة الى اخرى من افراط هيام ، في حين أن قصره يفيض بالنسوة

اللاتي لا تقل الواحدة منهن روعة عن الاخرى . وقال بندرشاه بانه ينبغي التعود على مثل هذا الامر لأن الملوك أنفسهم اخذوا بأسباب المعاصرة في أيامنا هذه . وسوف يراهم الناس عما قريب في منطقتنا وهم يتسوقون على متن الدراجات . هذا حكم لا مرد له . سوف ينتهي بهم الامر جميعا الى تقليد ملكة هولندة والى عشق الزهور ونبذ ورود شيراز . اما هو فقد رغب كثيرا في هذا الزواج لكي يملأ خوابي محطته البنزينية دون ان يدفع سنتيما واحدا . وادرك قبيل اسابيع قليلة من العرس انه لم يحصل بعد على اي ربح ملموس . وبما انه كان يحذر تدليس الملوك وشحهم ، فقد آثر الحصول على ضمانات قبل الزفاف . والا انطلت عليه الحيلة مثل أي انسان يخطو خطواته الاولى في الحياة . واغتاظ لذلك المال الذي بدده في مشاريع المطر الاصطناعي والجبل الجليدي المنتقل وقد كلفه كل ذلك مبالغ طائلة . وندم على عدم استعمال الجبل الثلجي لتزويد داره بالماء الرطب وحوضه الياباني بالقطع المثلجة حتى يسبح حوته العزيز بين زهور النيلوفر وسلاحف الماء . وعلى اية حال ، تعين عليه ان يطمئن حليفه على الحب الذي تكنه له ليلى . استنشق من البرقية ذلك القلق الذي يجتاح نفس العشاق وشرع يرسل نحوه اشارات دخانية ملونة تعبر عن الفرح الطاغي مبرقا ما يلي : « ليلى مجنونة بك كل الجنون . تطلب التعجيل بالزواج . وهي تهدد بالانتحار ان لم تلب جلالتكم رغبتها . ولم يطل الرد : « لتفرح راقصتي . ملكها يلغي زيارته الرسمية للخارج . سوف يأتي لأخذها على بساط الريح خلال الاسبوع القادم » . وفاجأ هذا الرد السريع الحاكم الذي لم يتوقع مثل تلك الاستجابة الخاطفة ، لا سيما وأن عدة الزواج لم تنته بعد . وقد ود لو أنه حصل على بعض الفوائد قبل أن يتسلم العروس السلطاني بضاعته . فقال في ذات نفسه انه سوف يحصل على ليلى دون ان يرد حتى ثمن تكاليف الدراسة في سيدني ... يا له من لعين شحيح ! وعلى الرغم من هذه الصعوبات كلها أراد أن يعرض عليه مشروعه الثالث لكي يتدارك الاخريين الذين منيا بالفشل واضرا باهل المنامة كثيرا . ادرك اذا تماما ان مشروعه هذا لا يزال غامضا جدا ، رغم جديته وخطورته ، فلا علاقة له بالمطر الاصطناعي ، أو « المطر بدون رب » ولا بالجبل الجليدي . صار يحادث نفسه مثل الطبال وظل يحلم في واقع الامر بالانفصال عن الحكومة المركزية واعلان مملكة المنامة الذي يصير امبراطورا عليها ، اذ شعر بأن صفه قد تعزز بفضل المساعدة الاخلاقية والمالية الممنوحة من قبل

صهره وحاميه . ولكن مثل هذه العملية تتطلب وسائــل ضخمة لشراء السلاح وتنظيم جيش قادر على مقاومة كل هجوم من الجمهوريين وظن أن مثل هذا القرار قد يخدم النزعة الجهوية لدى أهل المنامة ، فيحملونه من بعد على الاكتاف وينظرون بعين التمجيد الى المقالب التي لعبها على ذقونهم والى أنواع الخيبة التي تسبب فيها والمراسم التي فرضها عليهم الى حد ذلك اليوم . فكانت المغالطة ! وضاق حاله بذلك الزواج المفاجيء ، في حين أن عدة ابنته لما تزل في طور التحضير . ولو انه كان على علاقة طيبة مع مسعودة لاستطاع الخروج من المأزق . فامرأة مثلها قادرة على تبريد بيتها بعباد الشمس ، لكفيلة بحل مشكلة تافهة مماثلة .

ولم تكن لمسعودة عديمة اللقب نفســـ الصعوبات التــي تواجه عدوها . ورغم الصراع المستديم استمر في تزويدها بالأسمدة الكاليفورنية. وجعلت تتخبط في مشاكل الحياة ، فقررت ضبط ساعاتها الجدارية التسع عشرة بفضل الساعاتي الذي نزل أخيرا بالمنامة واجتذب العائلة كلها بطرائفه اللطيفة . وكانت مسعودة قد جاءت بتلك الساعات من بيت أبيها واستصحبت معها السلاحف والحمائم . وطفقت تفاخر بذلك لا سيما وأن أجدادها احتلوا مناصب هامة ومارسوا مهنا تخرج عن المعتاد . وهكذا كان في عائلتها أحد اسلافها شغل وصيف حاجب المروحة في عهد مراد الاول وفي عهد محمود الثاني ، وأسلاف أخرون عملوا مهنة القرصنة مثل ذلك القرصاني الذي نقل من صقلية الساعات الجدارية الفضية التسع عشرة ، وقد ورثتها من والدها كهدية بمناسبـــة زواجها . واستدعي الساعاتي جيلالي بوحدبة لمساعدتها على تسوية شكـــل الزمن بصورة نهائية ، خاصة وأن المراة لم تكن تتفق دائما مع الوقت الذي تشير اليه الساعات الجدارية ، رغم رنتها الموسيقية المضبوطة في كل ربع ساعة . ورات انها دائما متفاوتة الوقت الحقيقي ، غير مدركة أن ذلك كله ناجم عن تاثير نشاطها الصاخب . كانت مسعودة تطلق همهماتها كل يوم ضد هذه الآلات الزمنية ، لذا أرادت أن تطمئن قلبها حـــين جاء الساعاتي ليستقر بالمنامة وهكذا آل بها الامر أن تطلب خدماته . وقضى جيلالي بوحدبة عدة اشهر يفكر في آليات الساعات وتنظيفها وفحصها، لأن مسعودة تمتلك منها ما يساوي عدد الاطفال الذين أنجبتهم . حينذاك ادركت ولأول مرة انه من المحتمل أن يكون زوجها قد انتحر لكي يتجنب انجاب أطفـــال آخرين ويمكن كل واحد من ورثته التسعة عشر من الحصول على ساعة

جدارية فضية . وبذلك لم يخلف ورائه مشكلة شائكة من مشاكل الوراثة قد تشتت شملهم وتدفعهم الى كراهية بعضهم البعض . وقالت مسعودة في ذات نفسها بأن الحياة تفعل الاعاجيب . افلم يعوض صوت عتيقة بتلك التي جاءت واطلق عليها اسم الدر ؟ أو لم تستعد صوتها وراحت تختصر كل شيء ؟ وكانت تكرر للناس حولها : « لقد علمني هذا المرض ان اطرق مباشرة الى جوهر الموضوع » . وبما أن الساعاتي جعل يقضي ايامه في العمل داخل البيت فقد انجذبت بلطافته ودقته ورزانته . وعلى الرغم من حدبته فقد سحرها بسبب ذلك التناقض بين بشرته الشديدة البياض وسواد عينيه ولون شعره الفحمي . وفي ظرف ايام قليلة أدرك محمد عديم اللقب انه أمام شخص مولع بالآليات بالاضافة الى انه مبدع في صناعة الأوتوماتيكيات . ودعاه الى العشاء ذات مساء حين أطال معالجته للساعة الجدارية الصقلية الثانية . وكان من عادة الرجل ان يخلد الى الصمت حين يجلس الى الطاولة ، غير انه برهن على امتلاك ، زيادة عن براعته ، ثقافة فلسفية وعلمية واسعة . اما علاوة الاحمر الذي كان يشاطره العشاء العائلي تلك الليلة فقد انتهز الفرصة لكي يحدثه عن ستالين وعن صراع الطبقات وعن نموذج الانتاج الآسيوي وعن الفائض كما يروق له أن يقول عندما يريد ان يعبر عن فائض القيمة وغيره من الاشياء الاخرى التي تعالج نفس الموضوع . على أن الساعاتي باجاباته المحددة المضبوطة ، أوحى الى محمد والى الاسكافي والى الدر التي كلفت أثناء العشاء بتبسيط المفاهيم لمسعودة واعضاء الاسرة الآخرين ، بأنه قرأ « راس المال » اكثر من ثلاثين مرة . وعندما تطرق الحاضرون الى الحديث عن علم ابن خلدون ، اظهر الساعاتي معرفته واصبح عينا لا تنضب ، اذ كان على علم بأن العلامة الاجتماعي كتب جزءا من مقدمته ومن ترجمته بالمنامة . واشتبه الكل في امره ذلك المساء بأنه قد جاء الى القرية ليفتح دكانا بها حتى يقوى على العيش في نفس المكان الذي تم فيه تحرير ذلك المصنف العلمي العظيم . وتأثرت رشيقة بتلك المعرفة الموسوعية والغزيرة حتى انها تناست حدبة الساعاتي البارزة ولم تقع عيناها الا على عينيه اللتين تحملان ذكاء العالم كله ولطافته . اما الأم فقد لاحظت بدورها اضطراب ابنتها وادركت أنها أمام فنان بارع وأصيل وعالم علامة عريف ورجل من طراز خام ورفيع ، فقررت استدعاءه في نفس المساء للبقاء بالدار حتى ينتهي من

عملية الفحص . اتخذت قرارها ذاك على الرغم من خيبتها حين سمعته يقول وهو يعمل بأنه لم ير أبدا آليات بمثل تلك الصلابة والدقة . واكد بنوع من الفرح الداخلي الذي يبرز صفاء بشرته الناصعة البياض : « انها تبلغ حد الكمال حقا ! » وهكذا استقر المقام بجيلالي بوحدبة في ورشة الاكفان السابقة . واصل الرجل بكل صبر وولع تفكيك وتركيب الساعات الجدارية الصقلية . جعل ينظف الغبار الذي تراكم عليها في الداخل منذ ثلاثة قرون كاملة ، ذلك لأن تلك الآليات الخارقة استجلبت من مدينة باليرمو سنة 1700 . ومنذ ذلك التاريخ ، لم يفتحها أحد لشدة ما كانت نفيسة ودقيقة في وقت واحد . ولولا هياج مسعودة الذي تنقله الى السلاحف نفسها ذات الطبيعةالمسالمة الهادئة لما جاء الساعاتي الساحر ويفتحها ويخرج احشاءها ليزيل الغبار عنها ويزيتها ويركبها ثانية بكل حذق . وبعد زمن طويل . طويل ، طويل . أي في اليوم الذي دفن فيه عديم اللقب والدته . وتذكر هو الآخر ان كلثوم بندرشاه نزلت بالدار في تلك الفترة ومعها بوقالها المليء بمحلول الفورمول وطلبت أن تتحدث الى زوجته التي اشتغلت بتنظيف تواميها في جرة الاستحمام ، في انتظار التوامين القادمين . وادخلت الدر ابنة الحاكم الى غرفتها وهي تدري بأن أم زوجها تمر في حديث مستمر مع الساعاتي في ورشة الأكفان السابقة الموجودة بالطابق الثالث . وطفق بوحدبة يصغي اليها طوال ساعات دون انقطاع ودون أن يقاطعها او يتوقف عن عمله وهو يمارسه بالدقة المعروفة عنه . وعندما وجدت المرأتان نفسيهما وحيدتين ، ظلتا صامتتين فترة طويلة تنظر الواحدة الى الاخرى . واخيرا نطقت الدر : « انك جميلة ، وأنا واثقة من أن محمد يفكر فيك كثيرا ! فمن الصعب أن ينسى مثل هذا الوجه » . واصغت اليها كلثوم دون دهشة ، ولكنها ظلت محايدة ازاء تلك البشاشة كلها ، ثم انها اسرت اليها بقولها : « انني اتيت لأعيد اليك ابهام زوجك ... فهو لا يكف عن الاضطراب في الفورمول . وفي بعض العشية حين يستبد بي السأم ، أراه يضرب جدران الاناء ويحول دوني ودون التركيز والتأمل . بصراحة ، لم اعد استطيع الاحتفاظ به ، وأنا لست في حاجة اليه لأبرهن لنفسي بأن الرجال كلهم جبناء يلعبون دور الابطال بحجة أن لهم عضلا زائدا علينا ... » وادركت زوجة محمد بأن تلك الفتاة الجريئة التي لم تبلغ بعد الثامنة عشرة ، ارادت ان ترد الابهام الى أول عشيق عرفته لكي يستطيع اعادته الى مكانه ويستعيد استعماله . وقد لمس هذا المسمى شغاف قلبها ، لا سيما وانها

اطلعت على الحرب التي تخوضها ضد والدها وعلى تضامنها مع اهل المنامة خلال صدور المرسوم حول لعبة التنس واحيطت علما بغرابات هذه الفتاة التي تقلب حياة البلدة على محاورها . لكن الدر رفضت الهدية ، لأنها تعودت على ذلك البتر المتعمد الذي يشكل جزءا من سحر زوجها وأصالته وجنونه . وأدركت أنها سوف لا تقوى على حبه بابهاميه ، مثلما ما هو معروف عند جميع البشر . وفهمت أن كلثوم ، في واقع الأمر ، تريد اهداء الاناء الشهير لتسوية حساباتها مع الماضي وللاتصال بها . وفعلا ، طلبت منها المساعدة في ما يخص حملة الدعاية التي تريد شنها وسط النساء لتحريرهن من دور حاضنات دود القز . ودامت المحادثات طويلا ، وعندما هبط المساء ، انطلقت كلثوم بانائها وقطعت وعدا على الدر بأنها قد تعتمد عليها في انتشال النسوة من جمودهن والقيام بنشاط سياسي كبيرة على مستوى البلدة . أما فيما يخصها هي فقد ضمنت عدم تدخل ابيها الحاكم لأنه لن يجرؤ ابدا على معارضة مشاريعها . ثم انها اطلعت صديقتها الجديدة على قرارها بعدم الذهاب الى أستراليا ، بعد زواج شقيقتها المتوقع في يوم الجمعة القادم . وقالت : « باستثناء الكنغورو فالانسان يموت من السأم كما هو الأمر السائد في المنامة ... ! »

واحتفل بعرس ليلى بندرشاه بملك خليجية بسرية تامة لأن والدها خشي غضبة الشعب بعد أن كان محل سخرية ثلاث مرات في ظرف اشهر قلائل . وبالفعل فهنالك خرافة المطر الاصطناعي والجبل الجليدي والقانون الخاص بتجنيد نسوة البلدة في مدارس التنس بطريقة ماكرة ، بدلا من أن يتركن منشغلات بالانجاب وبحضانة الشرانق . ولم يستطع الملك أن يفي بالوعد الذي قطعه بالقدوم الى المنامة لاصطحاب خطيبته على بساطه الطائر لأن آليات الهبوط لم تضبط بعد ضبطا تاما . وبما انه أطلع على عداوة أهل المنامة له ، لم يرغب في الهبوط حيثما اتفق بالبلدة وفي اية بطحاء ومنبسط . ووصل أخيرا على متن طائرة عمودية متنكرا في ذي قائد عسكري ، وهبط بالحوض الياباني الهائل وقد أفرغ من مائه بهذه المناسبة . وقضى العشية كلها مع أصهاره ثم انطلق في المساء نفسه مع راقصته الرائعة بدون أن يعلم احد بذلك . ولم يتسن للحاكم ان يتحادث مع صهره حول الانفعال الذي يعمل من اجله ويرغب في تحضيره . أما وقد تعين عليه حضور الحنلات التي تدوم شهرا كاملا في عاصمة خليجية ، فوعد نفسه بتسوية المشكل في ذلك الوقت بالذات . وسرت كلثوم بانصراف شقيقتها ولم تتوقف طوال مأدبة الزفاف عن همز

قدم نسيبها حتى تعطي لهذا الاخير طابعها الخاص . واضطربت جلالته وماجت وامتاجت وحاولت من حين الى آخر أن تضع يده الكريمة بين فخذيها ، تحت الطاولة . بيد أن الملك بدلا من أن يقع على اللحمة الطرية، لم يصطدم الا بالقنفذ الاسترالي ذي الاشواك المدببة. وكانت كلثوم المتشيطنة قد روضته لكي يدافع عن باب فرجها كلما حاول متهجم أن يقتحمه . ودامت اللعبة الدامية هذه بضعة ساعات ، فوجد الملك في نهاية العشاء يده اليسرى مليئة بثقوب حادة شديدة الايلام . واحتفظ بها مخضبة بالدماء في ثنايا ثوبه التقليدي الذي فصله عند أحسن خياط بروما . واذ أدرك بعد لأي أن كلثوم ارادت أن تسخر منه ، انتهى به الامر الى أن يهدىء نفسه ورغب في أن يقول شيئا فسألها عما يحتوي الاناء فقالت دون أن تتخلى عن هدوئها المعتاد : « انها قلفتي ! » . عكست هذه الاجابة كل التقاليد التراسيمية فتضايق الملك كثيرا وصدم بتلك الجراة والوقاحة ، فكاد يختنق نفسه . ورغبة منه في اخفاء هزيمته أمام الناس ، أرسل ضحكة مجلجلة حتى أن طيور الساحة ذهبت للاختباء في جيوب الكنغورو وراحت ترضع في أثدائها خلسة في حين أن رباعيات الاقدام هذه جعلت تذرع الأزقة المغبرة المتعرجة كعادتها وهي ترضع عصافير السماء .

ولم يطلع اهل المنامة على البذخ الذي تميز به زواج ابنة الحاكم مع ملك خليجية ، الا بعد بضعة أشهر . وتم ذلك بفضل المجلات الأجنبية الممنوعة التي كانوا يعثرون عليها متأخرة في السوق الســـوداء . لقد تضايقوا حقا بسبب الاهمال الذي جوبهوا به ، فضلا عن انهم لم يستدعوا الى الحفل ولم يخبرهم احد بما حدث . على انهم في واقع الأمر شعروا بالغيرة لأن العجلات المذكورة تضمنت صورا من الورق البراق الفخم ، ذي الألوان المعبرة والموحية التي تبين فستان العروس وحليها المتعددة وتاجها المرصع باللآلىء ، بالاضافة الى المدعوين ذوي الألقاب البراقة والذي لا يقل الواحد منهم ثراءا من الآخر . أما العريس الجديد ذو الوجه الممتلىء الناضج صحة وشبقا ، فقد احتل الصدارة . ولعل المصور اراد أن يبرز بشاعة تقاسيمه ووحشية نظرته وشهوانية شفتيه . الا ان ذلك لم يكن شيئا بالقياس الى صورة حاكم المنامة ، فقد ظهر متصلبا صغيرا واقفا على كعبيه كأنما يريد ان يستفيد الى اقصى حد من ادنى سنتمتر من قامته القصيرة . وتمنطق في زيـــه الاستعراضـــي الشهير ، وحمل سلسلته الذهبية الشهيرة التي أبصر بها اهل المنامة في الحلم ، وسيفه الذهبي المتوهج الذي لم يعرفوه عنه ابدا . على أن الاسطورة تروي بأن هذاالسيف أهدي في اليوم نفسه من قبل صهره ملك خليجية ، أغنى رجل في العالم . وعلاوة على الغيرة التي نشرت الصفرة في وجوه اهـــل المنامة ، فانهم اخضروا ذلك اليوم من الفزع . لأن معنى السيف لم يغب على احد . وفي الليلة نفسها احسّوا جميعا وفي نفس اللحظة بكابوس مماثل يعتريهم ، فرأوا في نومهم الحاكم منشغلا بفصل راس كل واحد منهم

بتلك الاداة الجديدة المفزعة . وكلما عاد رأس الضحية للالتصاق بالرقبة بادر الحاكم الى قطعه ثانية وهكذا دواليك الى أن يستيقظ النائم ، وهو يصيح ويلتصق بزوجته فيصيبها الذعر بدورها . آنـذاك تنهال عليه بالسباب وتصرخ بقوة فيستيقظ الاطفال بدورهم وتعم الضوضاء الليلية في ديار المنامة كلها . ولم تكن النسوة على اي معرفة بشؤون السياسة ، فرأى الرجال الا تعرض أمامهن صور المجلات الاجنبية الممنوعة التي تباع في السوق السوداء . بل انهم امتنعوا عن شرح مضامين وخلاصات هذا الوضع الجديد . وكان بندرشاه حتى تلك الساعة في انظار الشعب رجلا تافها أو بيدقا صغيرا ينفعل انفعالا طفوليا بالظواهر . وقد امتلك حكرة على بحيرة التماسيح الواقعة في اعلى الشلال الثاني من ثاني نهر في العالم من حيث الطول . وانتهى بهم الامر الى الاشفاق عليه فشكوا سوء حظه وشعروا في بعض الاحيان بالذنب ينتابهم من التصرف الذي يسلكونه معه . لقد تعودوا على جنونه وشطحاته وحوضه الياباني وبنتيه وسمعوا الكثير عن حكاية المطر الذي لا علاقة له البتة بدموع الرب الاعلى ، وعن جبل الجليد المستورد وهو عبارة عن قطعة مفصولة عن قارة لم يعرفوا بوجودها ابدا ولا بأية قارة أخرى على كل حال ، لأن معلومات الجغرافية غابت عنهم غيابا كاملا وكليا . ولكن بفكاهتهم استطاعوا أن يسووا مشكلة خلق بلدتهم بأن نسجوا قصة فاحشة وقحة تعبر عن عشقهم للخالق وباحساسهم بما هو فوق الطبيعة وقرروا للمرة الأولى والاخيرة بأن المنامة ليست الا برازا اطلقه الله ذات يوم وهو في شدة الغضب . ولهذا السبب بالذات لم يصدقوا ابدا تلك الاسطورة التي اشاعها محمد عديم اللقب بأن البلدة بنيت من قبل تاجر في موقع تتقاطع فيه طرق تجارة الملح والذهب . ولم يكن هدف هذا التاجر سوى ان يجمع ثروة ببيعه لرجال القوافل ساعات رملية قادرة على قياس الزمن في الفراغ وساعات مائية تشتغل برغوة الجهد البشري ، وموازين ومثاقل نوعية اخترعها البيروني ذلك النابغة المجنون في القرن التاسع لقياس كثافة السوائل والعرق الذي تضمنته امثال الساعات التي اراد التاجر بيعها للبدو غشا وتدليسا قبل زمن طويل . في حين كان هؤلاء الرحل يقيسون الوقت حسب حركات النجوم ليلا ومن خلال تعاريج عروقهم المضطربة عندما يطلع النهار . وادرك اهل المنامة ان المستبد الصغير الذي امتلأت أذناه طنينا كلما ترقمت مسعودة حمالات نهديها الاسطوريين، لا يخفي احتقاره لهم ويستهجنهم ويراهم دون المستوى لحضور زواج ملكي

تحدثت عنه صحف واذاعات العالم بدهشة وانبهار كبيرين لشدة ما كان بهيجا ورائعا . وكلف رشيد بناصر بقراءة تعليقات المجلات ذات الـورق الصقيل لكي يدفع الجماهير المحرومة على الاحتلام . فكان ان وقع على صورة الحاكم وقد فغر فاه كأنه افتقر الى ماء او تذكر على حين غرة بأنه نسي قبل مغادرة المنامة تشغيل نظام تغذية حوض السمك بالاكسجين ، وكان السقف الفوقي من هذا الحوض يشكل في نفس الوقـت أرضية زجاجية لبهو الاستقبال تتحرك فيه الى جانب الاسماك النادرة الجميلـة الخارقة ، اسماك طفولته الزرقاء وقواقع كوابيسه الورديـة وقوالب هواجسه الشاحبة . ولم يتضايق أهـل المنامة امام ذلك التملق فحسب بل فقدوا نومهم وراحتهم بسبب تلك الهدية المشحونة بالرموز والالغاز التي قدمها ملـك خليجية الـى مسؤولهم السامـي . وآثر البعض منهم الا يناموا أبدا حتى لا يقعوا في ذلك الكابوس الرهيب المتكرر فيتعرضون لتوبيخات زوجاتهم ويوقظوا أطفالهم الشديدي الحساسية . أما عائلة عديم اللقب فلم تفكر حتى في شراء احدى تلك المجلات الملونة التي تتضمن صورا متعددة متكررة باختلاف جوانبها وزواياها عن الزواج . ولكن لوحظ غياب كلثوم غيابا مطلقا عن تلك الصور ، فتأولوا أنها قد تسببت في احدى الفضائح أو استقرت جمسة أو صدمت الناس بشطحاتها التي مهرت في اخراجها فجأة وبصفة مسرحية مثل بوقالها مـن حامض الفورميك وتنفذها الاسترالي المروض . وعلى عكس العامة راح محمد لا يهتم بغياب كلثوم بل يحسب تكاليف الحفل الملكي اعتمادا على عناصر زوده بها صهره ماسح الاراضي رشيد بناصر وصديقه العجوز الشيوعي علاوة الاحمر . وأدرك وهو يمارس بعض القياس الاقتصادي المقارن أن هذا الزواج قد كلف ما يوازي الميزانية السنويـة لبلـد فقـير طوال عشر سنوات . وكان ماسح الاراضي حتى ذلك الحين غير مبال بالامور السياسة ، فكسر أدواته الثمينة من اليأس والتمرد عندما بلغه الخبر . اما علاوة الاحمر فراح يثير شبح ستالين ويؤاخذه مرة أخرى على هجرانه للانسانية التعسة ، ويلومه على هاوية الموت التي وقع فيها وفي غوايتها في حين أن الثورة يعبث فيها ، خاصة والكل يعلم ان مثل هذا العملاق قادر على الخلود : « أجل ، هذا ما يحدث بالضبط . نعم ، عشر سنوات مضروبة في عشرة من ميزانية كاملة لشعب بائس بجمهرته الكثة ، وأنت تهجرنا . هذا ظلم يا ستالين ! ظلم وظلم ! » الا الساعاتي الذي لم يحرك ساكنا وبدأ صمته يقلق عديم اللقب الـذي يبصره وهـو يعمل مـن الفجر الى

ساعة متأخرة من الليل في معالجة الساعات الجدارية ، مقحما المكبـــرة العينية في محجره الأيمن وكأنها امتداد شيطاني لعينه وضعت هكذا لايجاد التوازن مع بروز حدبته . ولم يعد هذا الرجل الذي كان رفيقا بطوليا خلال السكرات الخارقة ، يشرب منذ أن كلفتـــه مسعـــودة بساعاتها الجدارية التسع عشرة . كانت تقضي ساعات طويلة تحاور نفسها أمامه وتطلعه على أهم الاحداث البارزة خلال النهار السالف . وتخبره عن معجزات عباد شمسها والمحافظة على حرارة معينة في غرفة الطمث وزواج ليلى بندرشاه وطبيعة الاسكافي ومرض عميـــدة السلاحف وزعرورها الهائل وفزاعات الدر التي تصنعها معها وبطن زوجة محمد الذي ينتفخ كل يوم تحت تأثير تحركات التوامين الذين تسمعهما يضحكان عندما تمر بالقرب من بطن الحامل ونتائج المراهنة الرياضية الاخيرة على الاكباش واستمرار محمد في تدريب سلاحفه لكي يجعل منها بطلات في المائة متر وطبخة الكرشة بالكمون وهي تغلي على القدر وقلقها الميتافيزيقي العابر وانتحار ابنتها اللغز ورعبها أمام الخراب الذي أحدثته الديدان فـــي أساس بيتها وموت زوجها الفقيد الذي انسحق تحت رزمة من الحلفاء وتخوفاتهـــا مـــن موضـــوع ابنهـــا البكـــر الـــذي جـــاء الـــى العالم بمفـــرده يتخبـــط فـــي عزلـــة مزعجـــة فكـــان أن ورث مـــن هذا التناقض حساسيـــة مفرطـــة واحساسا حـــادا بالحنـــين والسحـــر بالاضافة الـــى حديثها عـــن الاشياء اليوميـــة العاديـــة الاخـــرى وعن رؤياها التهريجية للعالم . لكن كل هذا الكلام لم يكن في واقع الامر الا مدخلا لحديث معه عن الساعات الجدارية ، لأنها تعلم أنـــه يكره قلقها واضطرابها بشأنها . فلم يكن يغفر لها حذرها من تلك الآليات المضبوطة الوفية للمعيار الزمني الكوني نفسه ، منذ أن صنعت من قبل صناع مهرة ذوي الفظاظة الابداعية لا يوازنها شيء لديهم الا ذلـــك الجنون العارم الذي اكتسبوه لدى ابن الجزار نفسه وهو سيد آلية الساعات جدارية كانت أم لا ، وأرهب هذا العالم الكبير القرن الثالث عشر بآلياته المتفصلة المشنجة ، بالاضافة الى الخزيني الذي ابتكر اول نظرية علمية تتعلق بالساعات والراقصات خلال سنة 1100 . وكانت مسعودة عنيدة وتعرف كيف تستعيد براعتها بعد كل توبيخة مضمرة من الاحدب ، حتى تحصل منه على بعض المعلومات حول الساعات الجدارية الجنونية. ولم تكن تشك في أنها تسببت في موت زوجها فحسب بل اقتنعت أنها تسرق منها زمنها ، وتبالغ في السرعة حتى تذبذب وتيرتها هي ، بل وتقلب الطقس

بالمنامة راسا على عقب ، الذي تمخض في آخر الأمر عن ثلج ندف لأول مرة منذ خلق العالم . أما الساعاتي نفسه فلاحظ أنها تخاف من الموت وتتحول عنالحديث عنه بأن تصب قلقها كاملا في الساعات الجدارية التسع عشرة . وكان يحدث لها ان تؤخرها ساعة خلسة وهي تستيقظ ليلا ، فيغرق الساعاتي المسكين في اليأس وهو المسؤول المضطلع بامور الزمن . وكثيرا ما كانت تتحسس شخـيره وهو نائم في الورشة السابقة لصناعة الاكفان ، الى أن يشعر بوجودها على عتبة داره من خلال نعاسه فيأذن لها بالدخول ، مغمض العينين ، منهمكا في سباته . ودون أي شعور بالحرج ومن غير أن يترجاها تجلس على حافة السرير وتأخذ في سرد كل تفاصيل وقائع حياة وموت جدها الذي كان حاجـب المروحة لدى السلطان مراد الاول . فتدحرجه عبر مضائق التاريخ في قارب يتلوى وفق منعرجاته ، مستعرضة حياة آخر سلف لها مارس القرصنة في شطآن صقلية ، في بداية القرن الثامن عشر ، واتى بتلك الساعات الجدارية التسع عشرة التي وقع الاحدب في هواها ولم يعد يضن بجهده من اجلها . وظل منطرحا في فراشه يستمع الى مسعودة وهي تسرد ذكرياتها المفتتـة التي تسوقها دون أن تكون قد عاشتها فعلا وكأنها تبـدد حبات مسبحة خيالية . وتضخمت حكاياتها ايما تضخيم حتى انها لم تعد في نظر ذلك المعتم الجميل المنكوب بحدبته الا ساحرة حقيقية منشغلة باستعراض شياطينها استعراضا طقوسيا . أما محمد عديم اللقب فدون أن يعيد النظر في صدق ردود فعله تجاه مشكل الزمن جعل يشك في انها تناوش الساعاتي المسكين لكي تتفحص وجهه وتحاول تخيله دون حدبته الرهيبة. كانت مسعودة تجده جميلا وعلى الرغم من ذلك التشويه الخلقي وقـد خشيت من أن تقع احدى فتياتها في هواه . واضطرت حينما راودتها الفكرة بأن ضيفها ذاك قد يصاب بعدوى الضجيج المعروف عن كل فـرد من عائلة عديم اللقب الذي يسري في شرايينهم ونخاعهم . وخشيت أن يترك الساعاتي الآلات لمصيرها مع انه لم يفحص الا جزءا منها ، ثم يحطم نفسه بعد ذلك في جرف الغرام . وانتهز جيلالي بوحدبة الفرصـة خلال تلك السهرات الطويلة الطارئة والتي لا مفر له منها فراح يشرح لها مبادىء آليات التدقيق ويحدثها عن العلماء العرب الذين صححوا علم البصريات لبطليموس في القرن العاشر ، وعن اشغاله حول قياس الزمن في القرن الحادي عشر ، بل انه حدثها بوجه خاص عن ابن شاكر الـذي صنع العديد من الآلات ووضع كتابا قيما سنة 806 بعنوان : « كتاب الحيل

والابداعات » . وكان بوحدبة قد جعل منه مرجعا يعود اليه دائما وابدا بالاضافة الى قائمة من المراجع الاخرى تساعده على التدقيق في الساعات الجدارية وضبطها بصفة محكمة . اما السر الكامن وراء غياب كلثوم عن صفحات المجلات الاسبوعية المثيرة والتي تخصصت في أعراس الملوك وحفلات العرش ، فسرعان ما تبدد عندما توجهت في زيارة طارئة لصديقتها الدر التي اوشكت على الوضع . وقبل أن تقدم أية شروح طلبت منها أن تبرمج مقابلة مع مسعودة حتى تتصالح معها : « ليس هناك مجال للنقاش ... فيكفي انها وضعت هذه الصورة الصارخة من الجمال البشري ... ولا حاجة الى القول بأنني أضرب صفحا عن جبنه ، اما ابهامه فهو تحت تصرفك دائما ... انني أخشى أن يعمد القنفذ الذي جئت به من استراليا الى ابتلاعه ذات يوم وانا منشغلة بتبديل محلول الفورمول » ... وبذلت الدر جهودا كبرى لكي لا تنفجر بضحكة امام هذا الخطاب الغريب لأنها خشيت أن تنقل مرحها هذا الى تواميها المنهمكين في القيلولة داخل بطنها بعد الصخب العام الذي ضجت به عروقها والذي دام طيلة الصبيحة وقد قضتها في قص الورق المقوى وطلائه بألوان صارخة . وما اسرع ما قررت تقديم يد العون الى تلك الفتاة التي سحرتها بجمالها وعقوقيتها وغرابتها أكثر مما اثارتها ، وذهبت تبحث عن حماتها بينما انشغلت كلثوم بمداعبة القنفذ الاسترالي الذي عشش في أعذب فجوة من سروالها ، وانطرحت على نفس السرير الذي فضت بكارتها عليه من قبل عديم اللقب قبيل سنوات . وتذكرت حينذاك انه جعلها تكتشف ماضي المناميين المثير . وبالفعل لقد ادخلوا ثلاث منتوجات صينية الى الغرب هي : الحرير والبرتقال والورق في القرن الثامن ! والحقيقة انها ارادت التسويف واحست بأعصابها تزداد توترا حين بلغ مسمعيها وقع خطوات مسعودة الجنونية وهي تقترب من الورشة التي تجمدت فيها وظلت على حذرها وشعرت برعب داهم لأنها كانت ترهب الناس كلهم بدءا من أبيها بل وحتى ملك خليجية الذي دفعته الى ان يخدش يده اليسرى واضطر بعدها الى اخفائها تحت جلابيته الحريرية عندما أخذت له صورة الزواج التقليدية . وحين دخلت مسعودة ، أحست الفتاة ذات البوقال بكل فوضوية عمرها وهي تتصاعد الى ابطيها الفاحمين وبعظامها تمتلىء بالضباب حتى أن كل شيء صار صفيقا أمامها ، واضطرت حين قيامها الى الاستناد الى جدار الغرفة . وقد اشفقت عليها مسعودة وتركت

حنفيات العطف واللطافة تتفتح لأول مرة . حدقت في وجه ابنة عدوها على الرغم من شبح عتيقة الذي راح يجول في الرواق ويدفع الباب وكأنما يريد الدخول . غير ان الدر كانت يقظة وهكذا أدارت القفل مرتين لكي تجد نفسها صحبة امرأتين تثيران اعجابها . وسألت مسعودة وكأن شيئا لم يحدث عن عدم حضورها العرس الباذخ الذي جرى تحت الثريات المتلألئة المستوردة من جزر القمر . وقالت أنها تشبه الدموع البشرية عندما تنهمر بكل صدق . فأجابت كلثوم كعادتها بطرافة وقالت بأنها نسيت نفسها في دورة المياه حين كانت العائلة تغادر المنامة لكي تلتحق بخليجية . ونسيت الدر تواميها وضحكت لتلك الاجابة الساخرة ، وأثارت في نهاية الامر عدوى الضحك في نفس مسعودة التي لم تكن تعرف كيف تتوقف اذا هي بدأت. وعاد محمد في المساء بعد يوم قضاه في استخلاص عينات طوبوغرافية حسب مخطوطات ابن خلدون . وفاجأ النسوة الثلاث وهن يضحكن ملء اشداقهن تحت تأثير تهريجات كلثوم . وأبصرت هذه لأول مرة بوجه محبوبها الأول وبطيور الكاميشي البرازيلية وبالاقفاص المغطاة بأستار الحياء وجولة الامازونيين بالمنامة وبالآلات الضاغطة التي بددت نتوءات تضاريس فرجها الشائك . وفي بضع ثوان رفعت كل انوثتها الحريرية الى عينيها فاستحالتا الى فج بلا قرار ولكنها سرعان ما اعادتها الى مكانها دون أن يعلم أحد بمدى انفعالها وقالت بصورة مبهمة : « ليس هناك رجل واحد يساوي قيمة قنفذي ! » ولم تفهم الاخريان شيئا من تلك الاثارة الطفولية الملغزة والجريئة ، وعادتا الى الضحك من جديد ، بينما أحس محمد عديم اللقب بأنه ضحية اعتداء شجن فآثر ان ينصرف لكي يجنب نفسه نكهة الحنين وما يمكن ان يحدثه في احشائه. لقد ادرك جيدا ما تعنيه صديقته كلثوم بقصة ذلك الثدي ذي الاشواك لا سيما وأن الشك سيطر عليه ثانية حول قدرته على انجاب توامين مثلما اقتضت ذلك أمه . أما المصالحة بين مسعودة عديمة اللقب وكلثوم بندرشاه فقد أرسلت نسيما رائقا على الدار العابقة برائحة الكافور الذي يبالغ بوحدبة في استعماله لدهن حدبته . وكان يعتني بها ويصونها بكل عناية ، فيخصص لها وقتا كبيرا أثناء الاغتسال في الصباح وقد انبعثت من الدار أيضا روائح مخلوطات الزيوت المختلفة التي يستعملها الساعاتي لتشحيم دواليب الساعات الجدارية الصقلية التسع عشرة . وكانت كلثوم دارية بأن غياب أبيها سيطول حتما ، لذا قررت بدعوة من الدر الاستقرار بدار عائلة اللقب بصورة مؤقتة . وأشاعت الاخبار

المروجة بان الحاكم قد يعود على متن سيارة « الرولز رويس » ، غير ان اهل المنامة الذين لم يروا قط سيارة في حياتهم ، تصنعوا عدم التصديق وتركوا الحمير تتراكض صحبة الكنغر والكلاب ، وهم يحرسون في ذات الوقت باستمرار المدخل الوحيد للمنامة ، عبـــر الاســـوار حيث جاءت حضارات متعددة لكي تنطح أنفها على الرمال . ولم يدرك احد ما اذا كان وجود كلثوم قد أثار حوافز الاخرين غير أنه في هذه المرة تنوسي حداد عتيقة ، واستولى فرح الحياة الغامر على الناس كلهم في البيت وتظاهــر الساعاتي برفع راسه عن عمله برهة قصـــيرة وترك ابتسامـــة خجولة ترتسم على وجهه . وانتهزت الأم الفرصة وسط هذا الحماس لكي تستقر مع الدر ومع كلثوم في الحديقة لاستئناف صناعة الفزاعات وتفصيلها . كانت تنظر بين الفينة والاخرى الى نبتتها الكثة الغزيرة وتواصل درس التاريخ بعد أن تخلت عنه منذ ذلك اليوم البائس الذي أعلنت فيه مكبرات الصوت عن قانون منع الزواج بين اللوطيين . وهكذا ازيل التراب ثانية عن الجلادين والطغاة . وعدت مسعودة والاخريان الـــى قص الورق بمقصات اللهفة . خربشة لرؤوس مرعبة وأقنعة للويس التاسع المسمـــى بالقديس وقد تأكلته ديدان الرحيل والاغتيالات المقننة . ثم بدأت كلثوم الشرح مستهلة الفصل حول حملة الاطفال الصليبية . آلاف الاطفـــال المعمدين من سائر المدن وآلاف الاطفال القادمين من الريف البائس ، قد ذبحوا عن آخرهم . على حد الموسى . او بدمل الوباء . ولم يكن هناك من خيار ، فبكت مسعودة لذلك واضطر الجميـــع الـــى التوقف عن العمل لتعليلها . واعيدت السدادات الى أواني اللصاق . وفي المساء اجبر محمد عديم اللقب على التحدث عن كشافي المستر براون الذين ارسلوا ذات يوم . كانوا قد شبوا عن الطوق وتضاعف عددهم باللجوء الى الحيلة عند أطراف المنامة . أما الساعاتي فكان خلال العشاء عبوسا بعض الشيء بسبب انتحاب ربة البيت . فأقام علاقة بين هؤلاء الكشافين وبين أصحاب الحملة الصليبية القدماء . ولم تفهم مسعودة شيئا من الامر ، بل انها لم تحاول أن تبحث ذلك ، فبكت طويلا عندما أصغت الى الاستعراض المدهش لاستشهاد هؤلاء الصليبيين الصغار حتى انها أصيبت بدوخة حادة طوقت راسها . وعندما جن الليل ، انتهت الدر وصديقتها من صناعة فزاع القديس لويس ، وعلقتاه سرا اثناء نوم مسعودة على اعلى شجرة في البستان . ومنذ ذلك اليوم وقفت مسعودة موقفا عدائيا من الحروب الدينية ولم تتخل عنه ابدا الى يوم وفاتها .

وبعد وقت طويل . طويل . طويل . اي في اليوم الذي دفن فيه محمد عديم اللقب والدته تذكر تلك الظهيرة التي تعين فيها على النسوة ان يصنعن صورة لويس التاسع . واحتفظ رهن عينيه ذلك المشهد المتواطىء الذي بدأ أحسن بدء وانتهى وسط الدموع وكارثة اللصاق الذي ساح على فخذي كلثوم. وتذكر بدقة رائحته الجيلاتينية وكيف ايقظت القنفذ الذي كان يقضي وقته في النوم ولا يغادر فجوة الفتاة الحريرية الفاترة . على ان رائحة عطر اللصاق النباتي اجتذبت القنفذ الاسترالي ذلك اليوم . وعندما غزت الدار ، كانت مسعودة قد انطرحت وانطلقت في انتحاب طفولي شوه جليد عينيها المتأجج ، وغشت قلبها سحابة رمادية . فعاقبت كلثوم القنفذ وحرمته من أنوثتها طوال النهار . وقضى الحيوان يومه بمشقة محاولا أن يطمئن ذاته برائحة التربنتين وغيرها من الاكاسير التي تدخل في صناعة اللصاق الاصطناعي . وعاد الجميع الى العمل في اليوم الثاني ، ذلك أن الحديقة انطلقت مع أهوائها في حين أن الزعرور كان في حاجة الى حماية شديدة على وجه السرعة . ووعدوا بأن يراعوا احاسيس الأم ، على أن الامر لم يكن يتعلق بصناعة العرائس . فالطيور صارت تهدد الحديقة بقدوم الشتاء ، وجعلت تفذ من كل مكان هاربة من الصرد والضباب ، وكانت المنامة هي بلدة الصيف الدائم . وما أسرع ما راح الناس يتحادثون في كل مكان بأن الثلج لم يتساقط على بلدتهم الملعونة ابدا وانه مجرد حلم يقظة فقط . وندم محمد على قذفه لذلك الثلج الذي احتفظ به زمانا طويلا في الثلاجة لأنه أراد أن يقدم تكذيبا قاطعا لتلك الترهات ويعارض بحجة قاطعة تحرشات الحاكم الذي حاول بث البلبلة في وعي الناس المستنيرين . لكن هؤلاء لم يغمض لهم جفن منذ أن شاء لهم حظهم الاسود ان يشاهدوا صورة السيف البلاتيني الخالص الذي أهداه ملك خليجية الى بندرشاه . وعاد الناس اذن الى تداول القصة . وجعل الزمن يسير سيرا عاجلا في حين ان القمر ساعد الطيور على الابصار في الحديقة بكل صفاء . واقتطع الورق المقوى ، وفتحت من جديد أواني اللصاق واتخذت كلثوم حذرها فتخلصت من القنفذ الذي بدأ يبعثها على القرف الآن وقد حصلت على تعاطف عائلة عديم اللقب كلها . حتى الساعاتي انتهى به الامر الى الخروج من دواليبه وبدأ الجميع في صناعة مزاع مراد الاول لكي يروقوا في ناظري مسعودة ، وهو السلطان الذي استدعي لخدمته أحد اسلافها للترويح عنه في ساعات القيظ ! صفقت مسعودة بكلتا يديها وخصت نفسها برسم شاربين رقيقين له وطلبت

معلومات بشأنه . اتراه كان طيبا أم شرسا ؟ مكروها من قبل الشعب أم محبوبا ؟ كانت الدر مختصة في تاريخ الدولة العثمانية فروت بأنه كان يعشق آلات الاسطرلاب لكنها لم تتحدث عن غزواته ولا عن حروبه . أية علاقة يمكن اقامتها مع فزاع الامس ؟ سوى تلك القرابة العصبية وذلك التمعش . لقد أراد أن يحصر الزمن ويشطبه في سبيل العلو والخلود . لقد واجه السلطان مراد الاول اعداء كثيرين ولم يتنازل لهم عن أي شيء . لا حاجة للحديث عنه اذن ! وكانت مسعودة في أوج سرورها ، فراحت تنقل نظراتها بين الواحد والآخر . وفي غمرة اندفاعها طلبت ثلاثة نماذج لذلك السلطان العظيم لا لشيء الا لكي تخط رسما لشاربيه الفاتنين ، ثلاث مرات متتابعات . وسر محمد وهو يراها راضية مع انه كان يرتعد خوفا من أن لا ينجب تواميه . وأرقه شغفه بالأدب فدخل اللعبة بدوره ، واقترح أن يرسم سرفانتس الذي كان يشبه الدون كيشوت بيد ناقصة وهي اليد اليسرى التي فقدها في معركة « ليبانتي » وكان قد انتصر خلال تلك المعركة على أحد احفاد مراد الاول الشهير الذي كانت له فكـــرة توظيف سلف مسعودة عديمة اللقب واعطائه لقب حاجب المروحة . 1571 . تمت العودة المظفرة وفجأة برز القراصنة في عرض البحر ، فوقع سرفانتس سجينا كفأر في مصيدة . قضى تسعة أعوام في السجن بالجزائر ، وفقد حبه للتباهي وغطرسته الحربية لكنه ربح مقابل ذلك عبقرية فذة . 1606 . الف تصنيفه الكبير دون كيشوت لكي يسخر من نفسه . كان رجلا مبدعا حقا . وسألت مسعودة التي استمعت الى قصة الصراع ضد طواحين الهواء : « ما معنى هذا ؟ » وقطعت الفرحة بقولها : « لا يجب أن أنسى طاحونة التويجات . عباد الشمس ينبـت الآن أحسن من المرة الاولى ... » الهواء عليل في البيت على الرغم مـن ان دوار الشمس يدور بالمعدل حول محور مركزي محترق . وسرفانتس استقر على الشجرة الزعرور بمعلاق يعوض يده المبتـورة . وختمت مسعودة قولها بانفعال : « انه يساوي مملكة برمتها ! » لقد اولعت الآن بهذه اللعبة ، ومن ثم فهي لا تريد أن يتوقف الناس . انها ترهقهم كلهم وتتجاهل حالة الحمل المتقدمة عند الدر وتردد الجميـع في رسم صورة سفيان بن معاوية على شكل فزاع . كان شرسا جدا ، وخشي الحاضرون ان تعود مسعودة الى الانتحاب . واخيرا وجدوا حيلة للورطة . كان ياما كان ... هناك مرة عالم يحب الاطفال ويكتب لهم باستثناء الكبار ، وكان اسمه ابن المقفـع . ووجد الطاغية كتبـه خطـيرة فحكم عليه

بالاعدام ، فقطعت اطرافه طرفا طرفا والقي حيا في فرن ملتهب سنة 145 هجرية . كان لم يتجاوز السادسة والثلاثين . وكفى بالله رسولا ! ولم تبك مسعودة بل تمالكت دموعها ، فأسرع من حولها واعطيت لها صورة تبرز كتاب المعدوم . فدهشت لروعة المنمنمات الفارسية . وعلق مزاع القاتل فوق شجرة التين ذات يوم وقد عصفت فيه ريح رملية ، وحكم عليه أن يصلى نارا بدوره . وخشيت مسعودة من أن يكون لها سلف عاش الحياة الخاصة للملوك والسلاطين ، حتى وان كان الامر يتعلق بمراد الاول ! وبدأت تباعد بينها وبين حبها له .

على ان الحب المتولد بين بوحدبة ورشيقة ثالثة التوائم أخرج العائلة من سباتها المغناطيسي التاريخي . كانت صناعة الفزاعات قد صارت مسرحا سياسيا . واستخرجت كلثوم الاحقاد المتقادمة ، بينما فقدت رشيقة حسها بالواقع وطفقت تهيم في الدار وتضع اذنها على باب الورشة حيث استقر الاحدب ، لكي تسمع خفقان قلبه . اما هو فقد دهش ان يحط عليه حب امراة ما ، فاضطربت الساعات بين يديه ، وصاحت مسعودة : « كنت اعلم ذلك جيدا ! لقد انشغلت الساعات بصورة مذبذبة منذ اليوم الأول » وتلعثم الساعاتي ، وعبثا حاول اقناعها ، غير انها اشهدت العائلة كلها وطلبت من ابنائها ان يصعدوا من الحديقة حيث كانوا منهمكين في اصلاح اسس الدار التي اعمل فيها الزمن أنيابه والديدان والنباتات ، فرضخوا لعزيمتها القاهرة . والحقيقة أنها كانت مسرورة بتزويج ابنتها لذلك الساحر المداهن . واعلنت بأن امر الحدبة لا يهم وحاصرت قومها . ومن جديد ارادت أن تدور بمثل سرعة عباد الشمس . وعادت فكرة الطاحونة التي تخدم بواسطة الطاقة الشمسية ، بفضل تويجات عباد الشمس ، تطرق راسها وتزداد رسوخا . اما محمد فاختبأ لاقتراب موعد الوضع الثاني . وخافت كلثوم الا ينجب توامين من جنسين مختلفين مثل المرة الاولى فتجافيه والدته ويضع بعدها ابهام يده اليمنى تحت سكينة الخباز بحجة انه قصد حانوته لشراء الخميرة ... اما أهل الدار الذين توزعوا بين نيران الفزاعات واعلان الزواج العاجل عن زواج رشيقة وبوحدبة ، فقد اجتمعوا بضع ساعات في انتظار الخلاص . وحين أفرزت الدر سائلها الاميني وقذفا جسدها بتوامين من جنينين مختلفين ، تنفس الجميع الصعداء . وتنسمت مسعودة ذروة الفرح وخشيت الحروب التي لم يسبق لها أن سمعت

عنها والحروب التي يتنبأ الناس بوقوعها في المستقبل العاجل واوقفت الساعات الجدارية من قبل بو حدبة الذي غرق في عشقه ، لكن العملية كانت مؤقتة لا تتجاوز فترة الزواج . ولا شك أن مسعودة افتقرت بعد ذلك الى ساعاتها الجدارية التي تدق كل ربع ساعة ، ونصف ساعة وساعة : ولعلها تطلبها ثانية ...

وتم العرس في اليوم السابع لميلاد التوامين الجديدين ، وهو اليوم الذي يوافق ختان التوأم الاول . وجرى الحفل بكل بساطة وسترة بسبب ذكرى عتيقة ولم يستدع احد ما عدا كلثوم التي تبنيت مثل أي فرد من العائلة والاسكافي لأنه قبل أن يلعب دور المطهر ، على انه امضى يومه في الدوران حول مسعودة لكي يعرف سر قدرة عائلة عديم اللقب على الانجاب اثنين اثنين . لكن محاولته باءت بالفشل . وقال الاب السعيد انه لو استمر على الانجاب بنفس الوتيرة فانه سيغرق بين جحافل الاطفال . وقرر الحصول على خارقة جديدة حتى يتمالك نفسه ، ولعله فعل ذلك لكي يخلب عقل كلثوم . وبمجرد انتهاء الحفل العائلي الخفي ، انطلق نحو الصحراء كعادته قبل أن يتخذ اي قرار . واستقر الساعاتي مع زوجته الفتية في الورشة السابقة التي أعيد تنظيمها في شكل غرفتين : ورشة للعلوم الآلية المدققة وغرفة للنوم . ووشوشت مسعودة في اليوم التالي في اذن بو حدبة لكي تكشف له عن وجود غرفة للطمث ، وعن اصل خزينة الدم الاحتياطية وعن غايتها من وراء ذلك . وما كان منه سوى أن قام بحركات وئيدة مدللا على أن ذلك أمر بديهي . وأكد لها انه جزء من العائلة بل اعرب لها عن استعداده لتقديم دمه هدية وقربانا . واشفقت مسعودة على سذاجته وبراءته وتساءلت فجأة وبعد دهشة اذا ما كانت ابنتها قد صارت امراة خلال ليلة دخلتها . لكنها لم تنبس بكلمة لأنها تعرف يقينا من نفسها كيف تتحايل لتشعل النيران في صدور اكثر الرجال بلاهة . ولهذا السبب احجمت عن فحص حتى الملاحف التي قضى عليها العروسان ليلتهما . لم تكن المسألة تتعلق في الواقع بالسماح لأصهار عائلة عديم اللقب بانجاب التوائم . فهي حارسة السلالة المتيقظة على الدوام ! ولا يهمها اي شيء آخر ... وقالت في ذات نفسها انه ينبغي دائما تعويض عدم وجود الاسم العائلي بهذه الحركة الدؤوب والتوالد المستمر . وعاد محمد بعد غياب دام يومين

وهو يكتسب موهبة القضاء علـــى كل المنعطفات التي قد تواجهه كرها منه في الملتويات والاشياء التي تفتقر الى الصراحة والى الشفافية . وقال لامه : « من يدري ! ليس هناك الخونة وحدهم الذين يجـــب الاحتراز منهم ... » وانتظرت مسعودة نزول المطر لكي تملأ حوضها بالمـــاء العذب وتدفق فيه قنطارا من الملح وتضع فيه حوينات السردين التي ما انفكت تتمتع بكسلها على الدوام ، داخـــل وعـــاء السمـــك الزجاجي المستدير . وجعلت تحلمَ بتحويل المنامة الى أضخم ميناء مختص في صيد أكبر أنواع السردين في العالم !

في ذلك الصباح الصقيعي المذهل من يوم 9 اكتوبر 1010 ، راحت الجحافل العربية تغادر مدينة فيينا بدون استعجال ولا اضطراب كبيرين . ولم تكن تلك المرة الاولى ولا الاخيرة التي تفشل فيها في محاولتها للاستيلاء على المدينة . مر الفرسان وهم يرتعشون من البرد قبالة فرن المعلم « بيبنهورست » الذي انكمش وراء كوتـــه يتأملهم وهم ينطلقـــون بأحصنتهم الرائعة ذات المناخير التي بحلقات حلزونية من البخار . وسر الخباز سرورا هائلا لانسحاب الغزاة الاجانب ، لعدة اسباب . ووقفت زوجته « دوروتي روثمان » وراءه على أطراف قدميها محاولة الا تضيع شيئا من ذلك المشهد الجديد الذي يمر امام عينيها . وبمجرد أن ابتعد وقع حوافر الجياد بصخبها المولع ، ضمها زوجها الى صدره وشعر بأن يومه ذاك سيكون يوما مشهودا ، ففاض فرحة من كل جانب . واسرع مندفعا نحو الحوض الخشبي حيث يعجن العجينة ، ودون ان يقـــول كلمة لزوجته ولا لصانعه الذي خرج من نومه متثائبا حتى بدأ يقطع العجين وهو يدندن بكل مرح . اما زوجته التي تعرف فتور شعوره ازاء المسائل الوطنية ، فقد دهشت وهي تراه سعيدا مغمورا بهزيمة العرب . لكنها حين لاحظت ان شكل الحلويات الصباحية غير عادي ، ادركت دهاءه والقت بنفسها عليه وقبلته على شفتيه امام انظار صانعه العبوس الذي جعل يخرج بمشقة من نوم حامض كان له مذاق الخميرة . كان انذاك زمن الراسمالية التجارية المتهيجة والمنتصرة . وكادا يختنقان من الفرح . لكنهما سرعان ما عادا الى العمل . وقع بيبنهورست هذا على فكرة عبقرية في ذلك الصباح المقذع من يوم 1900 اكتوبر 1010 . وبدلا من تطع

العجين الذي يصنع منه الحلويات قطعا صغيرة دائرية ، آثر أن يعطيها شكل هلال . وهكذا ولدت حلويات « الكرواسان » بفيينا . ووجد الشعب غايته فيها حين راح يلتهم رمز العدو بنهم وافراط . ودخل الخباز مسرح التاريخ واكتسب اموالا طائلة. وعظمت شعبيته الى حد انه انتخب بعد بضع سنوات على رأس المدينة من قبل مواطنيه الذين جعلوا من « الكرواسان » الناضج نشوة وطنية ومتنفسا لحسرتهم ايام الاحتلال العربي . وهكذا بلغ استملاك الحلويات المصنفة على شكل هلال الرامز الى راية الاسلام ، نسبة مرتفعة ، وعلم الناس أن هناك منافسين للمعلم « بيبنهورست » في براغ وفي بودابست وفي هامبورغ ... وظهر « الكرواسان » في كل أرجاء العالم ، لكن استهلاكه أثناء فطور الصباح ظل مقتصرا على طبقة معينة وضئيلة جدا . خاصة وأن هذا النوع من الحلويات لم يجد أي صدى في الامبراطورية الاسلامية ! وكانت هذه الاكلة الصباحية تعبر لا فقط عن رمز سياسي ملصق بالراية الاسلامية ، بل كان له بعده الماورائي وجذره الروحية . قالت كلثوم في هذا السياق : الهلال هو مفتوح ومغلوق في نفس الوقت » . واجابت الدر : « لا هو اتساع ولا هو تركيز » . واضاف محمد : « انه الخط الدقيق الذي لا يكاد ينغلق على نفسه حتى يتوقف فجأة ويترك فجوة يمكن لها أن تكون خرقا من الخوارق وباشاراتها وتلميحاتها الخبيثة » . ولكن ما مغزى كل هذه الحكاية ؟ من هو هذا الخباز ؟ ولماذا يقبل زوجته بمرأى من صانعه الذي لم يستفق من نومه تماما ؟ سوف نشرح لك الامر فيما بعد يا مسعودة ! انك تتظاهرين بعدم الفهم ، ليس الا . اما نحن ، فلا نجهل سنة 1010 ولا سنة 830 ولا سنة 1700 ولدينا البرهان على ذلك بواسطة الرقم 9 . وبعد وقت طويل من ذلك اليوم ، حفظت مسعودة عن ظهر قلب تلك التواريخ . في سنة 830 ، طرد العرب من فيينا . 1700 : هاجم جدك مصطفى قرصافي مدينة بالرمو واستولى على تسع عشرة ساعة جدارية من الفضة الخالصة . 830 : وضع الخوارزمي البرهان بواسطة الرقم ٩ . اما جيلالي بو حدبة المطلع على علوم القرون الوسطى ، فقال عن موضوع الهلال ورموزه الاسلامية : « فلنرجع الى لب الاشكالية ! من حيث الشكل فهو ينغلق وينفتح ثم يختنق ثم ينفلت فجأة وينطلق في الفضاء اللامحدود . وواصلت الدر قائلة بأنه علامة على المبدأ الانثوي . فهو سلبي — تعثرت عند هذه الكلمة — ومائي في زمني الوقت. وبدأ الفهم يغمر مسعودة، فهي لم تكن ترى من أول وهلة العلاقة بين

الهلال والسمك ونظرا لارتباطها ارتباطا مباشرا بشؤون الحياة الملموسة ، عادت الى المعلم بيبنهورست والى عبقريته في شؤون التجارة . وأكدت بسرعة أنها تكرهه . وبحثت عن الكلمة الملائمة فصاحت أخيرا : « يا له من وحش ! » شدت مقصها وأقحمته في الورق المقوى وبسرعة أحدثت فتحة هائلة في المادة الخام واتخذ الرسم معنى شرسا قبيحا . 1010 . أكتوبر . اليوم العاشر منه . صباح جليدي ووقع حوافر الخيل العربية ذوات المناخر المنتفخة بكآبة الهزيمة وها هو الخباز يحمل عوض بطنه جبلا جليديا وما أسرع ما يمر عليه اصبع أحمر الشفاه الذي تملكه الدر . لقد حاولت أن تضع له وجها محمــرا تربلا ، بعينــين زرقاويــن باردتين خنزيريتين . وهكذا تكتمل الحلقة ! ثم يأتي دور زوجة الخباز الداعــرة الهولاء المنفوشة الشعر ذات الفرج المنكمش الذي تنعكس صورته على صفحة عينيها الصفراوين . مسعودة القاسية ! تجهل فحوى الرموز وتبالغ وهي توجه الكلام الى كلثوم: «أنا متيقنة من أن الحاكم يفكر بالكرواسان كل صباح » ... والجواب بديهي بطبيعة الحال . تاريخ ملموس . نوع من الانتقام بخبزها المحمص بالزبدة الزنخة والمحشو بالطماطم والفلفل الحار . انها الطليقة بمثل هذه الامور . وهذا الطبيخ من اختصاصات البلدة . أكلة الفقراء ، بالتدقيق ... أما عن كيفية تجنب البواسر فثمرات الصبار دواءها . لكل واحد اختصاصه وتفنينه . والانسان لا يصنــع الحلويات ولا يطبخ دون أي عقاب . التاريخ دليل على ذلك . المعلم بيبنهورست هو الاخر مشدود الى دوروثي زوجته بحبل السرة من الورق الوردي ينطلق من فمه وينتهي داخل فرج المــرأة . ووضعت اللمسات الاخيرة وعلقت الفزاعات النمساوية فوق شجرة المشمش العتيقة ، عقابا على تحايلها وعلى سخريتها واستهزاء بالراية المرسومة بهلال الرسول المقدس ...

كانت أشجار المشمش التي تملكها مسعودة ثلاثا . الاولى طاعنة في السن وهي مغروسة بالحديقة قبل أن تستقر بالدار . والثانية أصغر من الاولى بقليل وغرستها بنفسها . أما الثالثة فثمارها مرة تستعمل غب المرارة المبطنة في ثمرات الاخريين . وكانت مسعودة تمد كل ربيع حبلا بين الاشجار الثلاثة وتنشر عليه حبات المشمش المرة بواسطة مساكات الغسيل المصنوعة من خشب الزيتون . وهي ثمرات قادرة على حسب صنفها وتطيرها على ابتلاع الحموضة التي قد تنتشر في الثمرات السليمة العذبة ، بما في ذلك الحموضة التي قد تغزو قلوب سلالتها الثمينة ، وحضر

حلواني فيينا وزوجته تلك الاعجوبة الفلاحية ، على طريقة عرش عديم اللقب ، وهما صامتان ومضطربان في نفس الوقت . ولعلهما ابصرا بدون شك بعصارة المرارة المنبعثة من الثمرات الحلوة والمرة وهي تسيل على حبل الفسيل ومعجزة الاستطراق هذه كانت عادية ومعمول بها في المنامة ، لأنها تمكن أشجار المشمش من ضخ حلاوتها كلها عبر جذورها السخية . وظل الناس بالقرية يستخدمون نفس الطرق الكيماوية التي استعملها آنفا جابر بن حيان ، ذلك الخيماوي الكبير الذي قضى حياته في تحويل الحديد الى الذهب والذهب الى الحديد . اكتشفت سنة 721 طريقة سبك هذين المعدنين وبهر بعمله سحرة سرقسطة واحبار امستردام ، وابتدع الحبر الفسفوري ، وصنع أصلب وأجمل زجاج بلوري في العالم بدءا من أوكسيد لم يكن يعرفه أحد في ذلك العهد . واغرب ما في ذلك الامر هو ان عمله ذاك بلغ المنامة وهكذا ولدت صيغة نقل المرارة من ثمرة الى أخرى ويرجع الفضل في ذلك الى مخطوط منتحل ، استخرجه من تحت التراب محمد عديم اللقب الاب ، أي زوج مسعودة المنتسبة الى عائلة القوصاني ، حين قلب ارض الحديقة التي حولتها زوجته بعد سنوات طويلة الى حقل فردوسي . وبمجرد ما تم الاطلاع على تلك الحقائق البسيطة ، حصلت مسعودة على أحسن انواع المشمش في البلاد . لهذا السبب فان اقدم شجرة واخصبها كانت محمية الآن من العصافير والسنونو وطيور الفردوس والفردوسيات والكاميشي واللقالق والكاكاتويس والببغاوات والكوكسيرج والكوليبري والطواويس والرغول والسرران والبنغال والكوليس والتنغال . ويعود الفضل في ذلك الى اندفاع حارسة السلالة الآخرة لعائلة عديم اللقب ، الى صنع أدولف بيبنهورست وزوجته دوورتي . لكن البستانية الساهرة المتطيرة لم تكن على حقد متأصل بل كانت ذاكرتها ضعيفة نوعا ما ، فسارعت بالندم تجاه هذين الزوجين النمسويين الكافرين . وهكذا وخلال يوم كانت ريحه ساخنة ورملية فاجأها أحد توأميها وهي تنزع فزاعي الخبازين المنتقمين من اعلى الشجرة . فارتبكت ولم تدر ما تقوله امام نظرة ابنها المستفسرة والمشككة في آن واحد ، وهو الذي يدري ضعفها ! وافلتت منها كلمة بنوع من الاثارة : « انهما غريبان آتيان من بلاد البرد والصقيع ولم يتعودا على قيظ المنامة الشديد ... » أما ابنها وهو حميد التوأم الرابع المعروف بحيائه وخجله فأصيب بالدهشة أولا ، ثم تأثر كثيرا بذلك الحس الفطري الحاد للضيافة لدى مسعودة . والحق أن طبيعتها كانت ابعد

من ان تكون اسطورة . ذهب حميد نحو اخوته واخبرهم بقصة الاحترام التي نكنه مسعودة لأعدائها ، وكانوا منهمكين كعادتهم منــذ فترة طويلة باصلاح اسس الدار القديمة التي رات مولد الجد عديم اللقب المكنــى « ببونفوس » المصباحي السابق لدى شركة السكك الحديدية المختلطة . وهكذا صار التاريخ الذي أعيد صنعه بواسطة الفزاعات وبفضل تدرج وتداخل عوامله مع معطيات الحياة اليومية مفهوما من قبل الأم بصفــة جيدة . وعندما كانت مسعودة تجد نفسها وحيدة في ذلك البيت المكتظ بالناس ــ وهذا نادرا ــ تردد بصوت عال : 752 . اغتال معاوية بن سفيان ابن المقفع . 830 . اكتشف الخوارزمي البرهان عن طريق رقم 9 1700 . خرب مصطفر فرصاني بالزمو واستولى على تسع عشرة ساعة جدارية . 1010 صنع ادولف ودوروتي بيبنهورست حلويات الكــرواسان في الكــون . 758 . اكتشــف جابــر بــن حيــان حبــر الفــدفوري . 1375 . بدأ ابن خلــدون كتابة مصنفة حول تاريخ المجتمعات العالمية بقرية نائية ملعونة سماها أصحابها بالمنامة .

كانت اللقالق قد هجرت البلــدة باكــرا ذلــك الصباح . وخلص الساذجون العاديون الى القول بأن مفجعا وخارقا على وشك الحدوث . وبما أن الناس كلهم اطلعوا عن طريق عائلة عديم اللقب على هزيمة العرب بفيينا 1010 ، فقد ساد بينهم نوع من التوتر بسبب وجود القرية ابدا على هامش الاحداث التاريخية الكبرى . ولولا الاسكافي الذي لعب دور همزة الوصل بين عائلة مسعودة وبقية الناس لما علم احد بأمــر تلك المهانة المدوية ، ولكنهم لم يقطعوا براي حول هذا الموضوع . فها هي اللقالق قد بدات تهجر المنامة جماعات وزمرات كأن نفس الكابــوس الذي عاشه أهلها خلال نومهم لا يكفي لكي يقضوا عيشهم بســلام . ونقموا على المصدقين بالخرافات والمتطيرين الذين لاحظوا مغادرة البلدة من طرف اللقالق . اما الصمت الذي ساد بعد ذلك فقد وقع فجاة على البلدة مثل غشاوة من رصاص . واستبدت الحمى بهم ، فراحوا ينتظرون بهدوء متكلف حدوث الكارثة التي تسحقهم جميعا . وما كانوا في حاجة الى انتظارها مطولا : فحين انتصف النهار وخزت كلثوم اصبعها خلال انشغالها بالخياطة صحبة الدر ورشقت قطرة حمراء على الصدار التي تنسجه للتوام الثانية من توائم صديقتها . وقالت وهي تلعق اصبعها الجريح : « لقد عاد أبي وفي نفس اللحظة ظهرت سيارة الرولزرويس الاولى التي لم ير الناس مثلها ابدا في المنامة . فالى حد ذلك اليوم كانــوا

ينتقلون راجلين او راكبين ظهور حميرهم بما في ذلك بندرشاه نفسه ! كان سائق العربية الفخمة يرتدي زيا صارما ، شديد الزرقة . والحاكم يجلس وراءه وقد ابتلعه مقعده الى النصف ولم يعد تظهـر الا عينيه الموقدتين . وكانت زوجته الموقرة تجلس الى يمينه وهي ذاهلة عما يحدث حولها . ورغم حركة المعركة الخافتة وطواعية دواليب السيارة ، فان الطيور اصيبت بالروع وكذلك الكنفر والحمير . وحاول كل منها أن يجد ملجأ لنفسه في أعماق البلدة . وظل اهل المنامة مشدوهين بذلك الوحش الفولاذي الذي تسبب لمعانه في صداع رهيب ، في حين قا ل البعض من المشهوريـن بدهائهـم بأنهم سوف يتأملـون وجوههم على صفحاتها اللماعة ويعوضون بذلك عن عدم وجود المرايا بالقرية . وأحيطت السيارة في ومضة البرق بالعاطلين الذين راحوا يجرون وراءها . وفجأة استبد بهم أكبر رعب عرفوه في حياتهم عندما وقفت السيارة لكي تتجنب دجاجة الحلاق التي انهمكت في التقاط الحب في قلب الساحة الخالية من الطيور . وغطت سحابة من الغبار العربية فغابت بضع دقائق عن انظارهم ، على انه ما أسرع ما سرى الخبر بأنها طارت مثل ما فعل البراق أيام محمد عليه السلام وحمله الى الفردوس . لكنها مجرد أقاويل ... ومن يدري ؟ أما أول من ارتبك عندما هبطت السيارة ثانية ، فهم الراجلون ! وظهرت الاعجوبة التاسعة عشرة في العالم من جديد . ورأى الناس بندرشاه يبرز من مقعده الخلفي ويضغط على شيء ما ، واذا بنشيده يتردد صداه في الاجواء بقوة مائة الف ديسيبيل مزقت طبلات اذان العديد من المتفرجين الذين حضروا في المكان عينه . وفي ظرف ثلاث ثوان ، خلت الساحة منهم ، وأغلقت المقاهي أبوابها ، وظنت النسوة أن نهاية العالم تصلهن مـن تحت جلابيبهن حيث تعود الشرانق للتجمع . وسعد الحاكم بالتأثير الذي مارسه منبهه الموسيقي ، فتلوى من الضحك في مقعده . وبعد بضعة سنوات من ذلك التاريخ حكى السائق المفصول عن عمله قصة السيدة بندرشاه التي لم تظهر في أي يوم من الايام اي هيجان ولا اي مزاج من الامزجة . وقال بأنها خرجت عن تحفظها المعتاد وصفعت زوجها مرتين فتلوى أمامها مثل أرضة . وزعم نفس السائق أنه توقف فجأة وأصدر أمرا بانزالها امام باب القصر . ولم تصدق كلثوم هذه الاسطورة ، لكنها لم تطرح أي سؤال على أمها . والشيء المعروف عن هذه القصة هو أن سكان المنامة المساكين انكمشوا طوال أيام عديدة في أعماق فراشهم ولولا شجاعة مربي الطيور الذين تجرأوا على رفع انوفهم خـارج أعشاشهم

لما وجد احد منهم الشجاعة الكافية من نفسه لمواجهة مزمار الحاكم . وعلى أية حال ، فان اهل المنامة اجمعوا رايهم ولم يقتربوا أبدا من الوحش الذي أهداه ملك خليجية الى حاكمهم . وأطلقوا عليه اسم « الصوت الرباني التاسع عشر » . ولم تغرهم نفوسهم على الاقتراب مـرة ثانية والى الابد من الوحش المغني اما اشدهم حيلة ممن حلموا بتأمل وجوههم على صفحة الابواب البراقة فقد اعترفوا بسذاجتهم المفرطة . وكانت السيارة الثمينة تحمل الرقم 19 . اما اللقاء بين كلثوم ووالدها فكان فاترا . وأسرعت الفتاة الى مهاجمة ابيها وجها لوجه : «لماذا تخفيهما في صندوق الرولز ؟ هل تريد أن تبرهن بأنه قادر على احتواء العديد مـن الجثث ؟ » وأذهل الأب في البداية ثم عاد الى غضبه ثائرا : « الظاهـر انك عائدة لتوك من دار عديم اللقب ! لقد أفلحوا والصقوا مرضهم القذر في معرفة كل شيء قبل أن يحدث وقبل أوانه ... اذهبي الى غرفتك واستعدي للعودة الى سيدني ، فلقد انتهت العطلة التي طالت اكثر من اللازم ! » ولم ترفض كلثوم تنفيذ هذا الامر فقط ، بل وأرغمت أباها على أن يفتح صندوق السيارة الرائعة ، فنزل منها بالفعل رجـل وامـرأة اجنبيان ومسنان ، منكمشان على نفسيهما ، يثيران نفور من يراهما على الرغم من حركاتهما المتملقة العذوبة الظاهرة على ابتساماتهما . وغادرا صندوق السيارة وأرادا أن يصافحا كلثوم فردت عليهما بثباتها الاسطوري المعروف عنها ، والقت نظرة قاسية على والدها وقالـت : « هل هما رساماـن حقا أم يخيـل الـي هما جاسـوسان عالميان ! » ووصفها ابوها بالغباء ولخص لها حياة الرسام في جملة ارادها واضحة ومقنعة بالنسبة لابنته العنيدة ، فقال : « انه الرسام السابق للامبراطور باوداي نفسه ! انك تعلمين انني ابحث منذ سنوات طوال عن فنان كبير . أو لم يقصر كل الآخرين الذين توالوا الواحد بعد الواحد قامتي وشوهوني ... » وفعلا كان الرسام الاخير الذي وصل الى القرية في نفس الوقـت مع جيلالي بو حدبة ، لم يمكث طويلا بالمنامة . اختفى ذات يوم دون أن يودع احدا . أما القادم الجديد فكان له تملك الاسيويين وسمنة الأوروبيين وعين من زجاج . وكانت له عادة التجول مجلجلا بعيونه الزجاجة الاحتياطية في جيوبه ، ذلك انه كان يستهلك الكثير منها ويلقي بها علـى الارض كلما غضب أو فشل في رسمه . لقد عاش طويلا في سايغون وكان حقا رسام الامبراطور باوداي الرسمي الى حين اقصائه عن الحكم . وانتهى به الأمر على غرار العديد من المغامرين الى اللجوء الى البلدان النفطية .

وجد نفسه في خليجية حين زواج ليلى بندرشاه ، حيث التقى بحاكم المنامة الذي وظفه على الفور . وقد استمر هذا فعلا في مداعبة مشروع الانفصال عن الحكومة المركزية والمطالبة باستقلال هذا الاقليم حتى ولو اقتضى الأمر ان يطلب يد المعاونة من كشافي المستر براون الذين ما زالوا مستمرين في نشر الرعب والولع والخراب والدمـــار في المناطق المجاورة ، وهذا في حالة ما اذا رفض صهره الجلف المساعدة لأسباب السياسة الداخلية . واستقر الوافد الجديد مع زوجته في جناح منعزل عن دار الحاكم ، وانطلقا معا في العمل .

راح يضع الرسوم التخطيطية الاولى وكانت امراته تضطلع بخلط الالوان وبمد قماش اللوحات وبالتقاط أجزاء الزجاج المحطم الذي يأخذ الكثير من وقتها . ذلك لأن زوجها كلما غضب ، أقحم سبابته في محجره الايسر ويقذف بالعين الزجاجية الملتصقة به ويرمي بها بعنــف عرض الحائط ، فتتهشم على الجدار . وجعل يردد هذه الحركة مرات عديدة في اليوم الواحد ، دون أن يشغل باله هذا التبذير لأنه كانِ حذرا ولا ينفصل أبدا عن حقيبته الملأى بكريات احتياطية ، وبهـــذه الطريقـــة لا تقهره الحاجة طوال سنوات عديدة . التزم الزوجان الهدوء في البداية وراحا يقضيان حياة كلها انتظام وانضباط ، رهن اشارة بندرشاه الذي كان يستدعيهما الى بهوه المائي كل صباح قبل الابتداء في عمله اليومي ، فيجلس طوال الساعات والرسام منهمكا في تصويره بالالوان الملتهبة . وفيما عدا ذلك ، كانت كل عائلة تعيش منفردة وتتناول غذاءها على انفراد . ووضع رب الدار تحت تصرف الزوجين فردين من اللوطيين من خدامه للقيام بشؤونهما من طبخ وغسيل وترتيب . وعلى الرغم من نغزات كلثوم المزدرية ، فان المصور الرسمي لبندرشاه كان يعيش في ظل حاميه حياة رغيدة ومطمئنة ، رغم أن الحاكم لم يكن راضيا كل الرضى عن انتاجه . وسرعان ما استيقظت الشياطين الآسيوية الحنين والشاهية في نفس الرسام فرغب في طهي المتبل المعهود لدى الامبراطور باو داي . طغت عليه الرغبة في أكل طبخة خاصة بالهند الصينية تطهى بألسنة الطيور المحضرة بمرق من الكمون والفلفل الاحمر . وعرف في البداية كيف يتحكم في نفسه بفضل نصائح زوجته ويلجم شهوته ويكبح رغبته ، خاصة وأن مشهد الطيور التي تملأ سماء المنامة قبل هبوط الليل اعطاه تقلصات رهيبة في البطن . وذات يوم لم يستطع أن يتمالك نفسه ، فطلب من خدمه ان يحضروا له في اليوم التالي طبخة السنة العصافير ، على الطريقة

الباودية . ولبى الخدام الزيديون أوامره وبكروا بالنهوض خلافا لعادتهم وفاجؤوا العصافير الغارقة في نعاسها واعملوا فيها تذبيحا رهيبا . وعندما انتصف النهار قدمت الطبخة المفضلة لرسام الحاكم بندر شاه رب المنامة وسيدها ، وذلك حسب الاسلوب المعمول به في عهد الحكم الباودائي البائد . وسر الفنان سرورا فياضا بالوليمة ، وخاصة بالسرعة التي لبيت بها رغبته الجنونية ، فشعر بأنه يحلق في الهواء كما حلقت عصافير المنامة قبل أن تصبح ضحية المجزرة التي تسبب فيها من فرط نهمه وحنينه ... ونتيجة ذلك الفرح الذي غمره بعد اكلته المفضلة بدأ يعمل على تحسين فنه بأن حسن المظهر الجسدي لسيده ومولاه . وبعد محاولات قليلة انتهى الحاكم الى الرضى الكامل عن تلك اللوحات التي كانت تنجز يوما بعد يوم ، حتى أنه قرر أن يتخلص من مرآت بهو الاستقبال واستبدالها يوميا بلوحة كبيرة جديدة . واستطاع حينذاك ان يتلذذ بالنظر الى نفسه كانت امام مرآة حقيقية . وزاد من عجبه أن الرسام الداهية راح يصغر عمره بسرعة مذهلة لكي يخدعه عن نفسه. وابصرت كلثوم باللوحات تتواتر دون أن تقول كلمة . جعلت تتعاقب بايقاع سريع وبتغيرات جذرية حتى انها لن تستطع ضبط لسانها ، فانفجرت أمام الطاولة ذات يوم : « لو استمر في العمل بنفس السرعة ، فانه سوف يضطر بعد بضعة أسابيع الى أن يرسمك في صورة رضيع ! » وحدجها والدها بنظراته ، وغادرت والدتها غرفة الطعام حتى تتجنب مشاهدة معركة بينهما . وامام مثل تلك الصراحة العنيفة ، آثر الحاكم بدوره أن يبتعد عن الطاولة ، فبقيت كلثوم وحدها قبالة اناء الفورمول الذي تطفو عليه قطعة من لحم وظفـــر كانا فيما مضى الابهام الايسر لذلك الرجل الذي احبته حبا شديدا حتى انها طلبت منه ذات صباح رائع الاشراق أن يضع كاميشه في فرجها . يا للجراة . حدث ذلك في وقت كانت فيه العذرية أثمن شيء في عين المراة المنامية . وبكت من الغيظ ، وقذفت بالاناء على آخر لوحة لأبيها فتحطم عليها ، وسرعان ما اكل حامض الفورميك تقاسيم وجهه الطفولي الساخر . وجمعت كلثوم الحطام وذهبت الى غرفتها لكي تملأ اناء آخر بالسائل الواقي ، وغطست فيه ابهام محمد عديم اللقب ثم بكت من الوحدة والندم والتمرد . وظل الرسام غزير الانتاج لانه لم يكن يتغذى الا بالسنـــة الطيـــور التـــي يصطادها الخادمان في الحديقة ، ويقتلان الآلاف منها بقذفات من حصيات الكوارتز . ثم يستأصلان السنتها واحدة واحدة ، ويطهونها علـــى نار خفيفة بعد اضافة التوابل المستقدمة من تلك البلاد التي نزل بها ابن ماجد

صباح الثامن والعشرين من شهر مارس 1498 . وهو الذي قاد فاسكو دي جاما ، وسجل رحلته تلك شعرا رديئا جدا حسب قول محمد عديم اللقب .

كانت مسعودة هي اول من دق ناقوس الخطر حين لاحظت ان الطيور تقل في سماء المنامة المحمرة عند الاصيل . واستدعي ابنها لكي يشرح هذا اللغز ، فأجاب بأنه منهمك في تحويل المنعطفات الى خطوط مستقيمة واوضح بأن هذا العمل الذي يفوق الجهد البشري يتطلب منه تركيزا تاما . وخاب ظن امه ، لكنها وهي التي لم تعد تخشى شيئا على حديقتها المكتظة بالأجناس وبمختلف العهود ، اضطلعت بمسألة ندرة الطيور في فضاء المنامة . وطلبت من كلثوم ان تتداخل بدورها لدى ابنها لأنه ما كان ليرفض اي شيء للتي تحتفظ بابهامه . واكتفى محمد عديم اللقب بأن قال لها : « الخونة هم الذين لا يحذرون المنعطفات ، ليس الا ! » وبما انه لم يكن البتة خائفا في يوم من الأيام ، اتخذ قراره بالبقاء على يقظته لأنه اكتشف الوسيلة في الغاء المنعطفات حين مروره بها . وادركت هي أنه يعاني من ازمة وأن الثلج عاد يفعل فعلته في جسده ، لكنها لم تتمسك بالشكليات كعادتها ازاء مثل تلك الاجابة المربكة ... حينذاك قررت توضيح المسألة لأنها ظلت حائرة بدورها بسبب جمود فضاء المنامة عند غياب الشمس وراء الاسوار . وظنت لفترة طويلة ، ان ذلك عائد الى انتشار الصدى القوي الملتصق بمنبه اعجوبة العالم التاسعة عشرة . ولاحظت ان الوضع لم يتحسن حتى بعد انتزاع اسلاك المنبه بوقت طويل . وعيل صبرها ، فأخذت تهتم بالرسامين الأجنبيين ، وبعد مجاملة طويلة تمكنت من انتزاع دعوة للعشاء لديهما . وعندما قدم لها الطبق المتبخر الذي تنبعث منه رائحة الزعفران والقرنفل ، استبد بها الجوع لأول مرة في حياتها ، غير ان الخادم رأى ان ينبهها بقوله : « حذار ، يا آنسة ، انها السنة طيور الكاميشي البرازيلية الممزوجة بالسنة طيور التروبيال المحلية ! » وتقيأت ما في جوفها وحزنها في الطبق ، وذهبت لتلتجىء بانائها . وتوصلت الى ان تخرج محمد من حيرته المتشابكة بفضل مسعودة التي صفقت حمالات نهديها بغيظ قاتل وبفضل الدر التي زرفت دموعها على الطيور المفقودة . وتمكنت أيضا من شن الحرب الى جانب حلفائها الاعتياديين منذ ذلك اليوم المشهود الذي قررت فيه عدم العودة الى « سيدني » والزواج ان عاجلا أم آجلا بواحد من افراد عائلة عديم اللقب . ولاحظت أن له نفس رائحة اخوته الذين اشتقت اسماءهم

من اسمه على الرغم من ولادته منفردا . ومهما يكن الزوج الذي تتخذه من بينهم ، فانها سوف تنام في رائحته بين العسل البري والقمح المحمص ، وبين التبن والقش وبين الزعرور والمشمش . وأعلنت الحرب رسميا عندما سرقت كلثوم أنابيب الالوان والكتان الأبيض من جناح البيت الذي يسكنه الاجنبيان وحملتها الى مسعودة حيث لا تقع عليهما اية عقوبة . وتحايل « بندر شاه » على هذه الصعوبة فأرسل في طلب شحنة من الألوان والكتان لدى صهره . لقد علم بالأمر ، ولكنه تصنع عدم الفهم لكي يداري عدائية كلثوم وتقولات مسعودة التي لم تفض بشيء عن عمله السابق في ماخور من مواخير الساحل .

ولم تقف ابنته عند هذا الحد . بل سرقت الحقيبة التي تحتوي على الأعين الزجاجية لذلك الذي أباد الطيور عن آخرها . وفي هذه المرة ايضا ، قدمت مملكة خليجية مساعدتها ، واضطر الرسام الى ان ينتظر ثلاثة أيام، ظل خلالها بعين واحدة، قبل وصول كمية من الأعين الزجاجية . ولكن ، كيف أنتهى تذبيح الطيور ؟ أولا بموت الباز « يوبا الثاني » الذي يتغذى باللحم النيء . والحقيقة انه المخلوق الوحيد الذي أحبه حاكم المنامة حبا حقيقيا . كوت كلثوم عنقه عندما كان يحلم بأنه يوشك على التحليق . ثم بإبادة السردين الذي سيمحق بالزرنيخ من قبل الفتاة المتشيطنة صاحبة البوقال . وقد اعطت مسعودة النصيحة التالية لكلثوم : « السردين يمثل طفولته ! ان نحن قتلناه أصبنا أضعف نقطة في نفسه ولن يعط الأمر للخدم بالاقلاع عن مطاردة العصافير الا بعد هذه الهجمة العنيفة . وانتهت الحرب باستسلامه استسلاما تاما وبانصراف الجاسوس الذي ذهب ليستقر في الصحراء ويتحول الى رسام فولكلوري ليخفي نشاطه كجاسوس في خدمة بلد أجنبي . بل انه بالغ في المداراة حتى انه اعتنق الاسلام ، وتملق احاسيس المتعصبين ، فصار مرابطا محترما لا يزال يحتفل الناس الى يومنا هذا بقداسته وبذكراه ....

كان حميد في نفس السن التي بلغتها كلثوم اي في الثامنة عشرة وكانت له عينان خضراوان صافيتان كأخيه الاكبر . وقد انسحق بخوارق هذا الاخير وبشخصية امه المتقلبة ، فبقي مدة طويلة في انتظار خجول يساعد على تادية مختلف مهام البيت ويتجنب ادمان الشرب عندما يستصحبه اخوته الى المواخير . وعشقت كلثوم رائحته التي تماثلا مطلقا رائحة محمد . ولاحظت عمره فاندهشت حين علمت بأنه ولد مثلها في اليوم نفسه.

واحبت عينيه وخجله اللذين جعلاها تنتقم من صلف أخيه الأكبر وسيطرته على الناس الآخرين بفضل قدراته الغريبة ومواهبه المتعددة ، على أن الموهبة الاخيرة التي أضافها محمد لنفسه لم تكن بالضرورة احسنها واقواها. وبما أن كلثوم كانت واثقة تماما من جمالها الذي ما زال يتسبب في اقتتال البعض بالسكاكين في الحانات المشبوهة « المبورن » ، راحت تؤاخذ « حميد » على افتقاره الى العبقرية والاصالة . وحدثته بكل صراحة ووعدته بأن تقوم بعمل يكذب مخاوفه . على أنه وهو الذي لم يعرف الا حنان البغايا المخيب للنفس شعر لأول مرة في حياته بما يشبه رغوة الصابون تتسلق جسده الى ان تبلغ رأسه متخذة طريقها عبر اروقة عظامه حين قبلته كلثوم على شفتيه في غرفة الطمث . لقد نصبت له حينذاك كمينا ذكيا . ارادت أن تتأكد من تلك الرائحة التي تتراوح ما بين الزعرور والمشمش والعسل البري والقمح المحمص . وهي الرائحة التي تنتشر في أجساد هؤلاء الاخوة وفي آباطهم . وأغلق حميد على نفسه في الغرفة التي يتقاسمها مع اخوته التوائم العزاب مثله . وبعد وقت قصير قرر أن يحترف مهنة الالصاق . واستقر عند مدخل الوكالة البريدية التي فتحت أبوابها أخيرا بالمنامة . وراح يقضي سحابات نهاره مترصدا الزبائن ، مقترحا عليهم ريقه لالصاق طوابعهم ومظروفاتهم مقابل سعر معقول . وانجرف مع هواه ذاك ، فلم يدر أبدا من أين جاءته تلك الشجاعة للحديث عن مخاطر اللصاق على الجسم الالصاقي واستطاع ان يقنع معظم الزبن . وفي نهاية اليوم الاول ، عاد الى البيوت بجيوب مليئة بالقطع النقدية ، ولكن بلسان منتفخ حتى انه لم يقو على الكلام . وما كانت كلثوم في حاجة الى الكلمات لكي تدرك الطرافة الكامنة وراء تلك المهنة خاصة وانها تعلم ميل المناميين الى الحذر من كل شيء . وهكذا طلبت يد « حميد » من والدته . وفوجئت هذه كل المفاجأة بذلك المسعى الغريب وبروح العبث التي عمدت اليها كلثوم لكي تقلب الأدوار كلها . وخشيت على الأخص من ردود فعل الحاكم الذي تعرف مدى حبه لصغرى بنتيه . فهي تمثل في ناظريه المخلوق الوحيد الذي يمكن ان ينال منه بمجرد الامتناع عن التحدث اليه بضعة ايام . وكبت مسعودة ، واعتزت في نفس الوقت بالاختيار الذي وقعت عليه الفتاة ، فخافت مع ذلك ان تجد نفسها وحيدة أمام فزاعاتها ودروس التاريخ المموس . وخشيت ان تردد الحوادث والتاريخ مثل امرأة مهووسة ، وتعيد كل شيء من البداية فيتخذ الناس بعدها قرارا باعتبارها مجنونة ، بالاغلاق عليها داخل

كفن اخضر مطرز بالحريـــر الأبيض . وعلمـــت ان « الدر » احتفظت بالعدد الضروري من الاكفان لدفن سلالة كاملة من عائلة عديم اللقب حتى يعثر الجيل القادم على اسم حقيقي بدلا من حرفين رمزيين هما مدعـــاة للسخرية والعار . ألصقهما المشرع الاجنبي بالعائلة حتى ينتزع شخصيتها ويحرمها من هويتها . وحاول الا يجعلها تتخذ مكانها من المدارج التقليدية بين الناس بل منعها من ان تدرج في سجلات التقلبات اليومية العادية . فراحت تسعل من فرط حنقها بسبب حذرها الشديد حتى انه يكفيها ان تنظر الى واحدة من ساعاتها الجدارية التسع عشرة لكي تفرغها من وقتها. واضطرت ايضا الى توجيه احد ابنائها للتخصص في التبريد لكي تخـــزن موادها الغذائية حتى لا يفتقر اي واحد من افراد عائلتها الى أي شيء من الحنان . وشعرت فجأة بأنها صارت عجـــوزا امـــام جنون كلثوم وحيويتها ، وبدلا من ان ترد عليه بالايجاب مثلما رغبت في ذلك ، قالت لها : « اريد اولا تركيب الطاحونة في أعماق الحديقـــة . عباد الشمس رائع هذه السنة وينبغي الاستفادة منه ! »

كان أهل المنامة على علم بأن الحاكم لا يزال يجتر مرارته على اثر فشله في استنزال المطر الاصطناعي الذي أراد أن يغرق به البلدة ويحولها الى مدينة بحرية ، وفشله في استخدام الجبل الثلجي الذي كان من المنتظر ان يصقع ذاكرة رعاياه وينسيهم خيبة أمورهم وشقاءهم . وحدسوا ان المبادرة المقبلة سوف تكون لها بالضرورة علاقة بالسيف البلاتيني الخالص الذي أهدي لدكتاتورهم الصغير . ومهما يكن من أمر ، فان هذا السيف قد غاب عن أنظارهم منذ ان تعرفوا عليه عن طريق المجلات الاجنبية المشتراة في السوق السوداء . وخلال هذه الفترة استقرت هذه السوق فوق الهضبة قبالة قصر الحاكم بالذات ، وصارت قلب البلدة النابض ومكانا للجدل السياسي . ولم ينس أحد أعجوبة العالم التاسعة عشرة ولا بوقها الرهيب . لقد اختفت تماما . على أن « بندرشاه » كأي وصولي مطابق لنموذجه غطى سيارته الرائعة بقطعة نيلون وأغلق عليها داخل المرآب . وظل الوضع وشيك الانفجار . حتى مروض الحمام العجوز غير قناعه . فقد استمر في العابه البهلوانية بحمائمه ، وراح يبيع خفية وصفات لصناعة قنابل تقليدية مكتوبة بالأرقام ، أي برموز مشفرة سرا . والتي بلغته بواسطة أعضاء طائفة تدعى جماعة القرامطة . وكانت هذه الاخيرة قد بدأت نشاطها الارهابي والثوري سنة 289 من التقويم الاسلامي ، وصمدت في وجه كل الامبراطوريات العربية الى أن سحقت سحقا كاملا ولكن غير نهائي سنة 740 . ووشوشت السنة السوء بأن مروض الحمام كان حبرا في العلوم الخفية ، وأنه جاء الى المنامة ليبث دعواه ويجند أكبر عدد من الانصار في جماعته . وبرهنت السنة السوء

تلك على دعواها المغالية بأن القرامطة كانوا يتراسلون بواسطة الحمام الزاجل وكررت أمام الذين اجهدوا نفوسهم في الاستماع اليها داخل المقاهي بأن طيور العجوز لم تكن تمارس القفز البهلواني الا لتنويم حراس الحاكم . وقد اتفق أشد المؤرخين موضوعية على أن الحركة الثورية القرمطية التي دامت من القرن الثالث للهجرة الى القرن الثامن من نفس التقويم القمري قدمت للعالم اول شيفرة سرية ، وكلمة صفر التي شوه معناها كل التشويه ، كما ادخلت استعمال الحمام الزاجل . وكان محمد عديم اللقب مولعا بتاريخ الثورات في العالم الاسلامي منذ صدر الاسلام الى يومنا هذا ، فاستشير من قبل بضعة أشخاص من اصحابه ، لكنه ظل متحفظا كل التحفظ حول قضية مروض الحمام لأنه انشغل هو الاخر بسيف الحاكم الذي بدا له أنه يمثل في وقت واحد رمزا مثقلا بالطوايا السيئة ولعبة باترة بين يدي مجنون . وازداد انشغاله لا سيما وان الحاكم لم يعد وحيدا وان تحالفه مع ملك خليجية ينبغي ان يؤخذ بعين الاعتبار . ومن ثم ، كان من المتوقع ان تحدث ردة فعل عنيفة من قبل « بندرشاه » لذي لم يهضم بعد مرارة فشله في استنزال المطر الاصطناعي وفي استقدام الجبل الجليدي بل حمل في نفسه ثقل الخيبات التي أذلته ايما اذلال : اخفاقه في حضور حفل زواج أبنته بالمنامة ، وهو الحفل الذي تم على عجلة من امره ، وتوقف في النصف مما اضطر الملك الى الوصول على متن طائرة عمودية بدلا من ان يستخدم افضل وسيلة من وسائل النقل اي بساطه الطائر الذي يشتغل بريح الشرق . وخيبة امله في فقدان ابنته الصغرى الى الابد . وهي التي يكن لها حبا ابويا جارفا ، بل ويحبها اكثر من اي شيء آخر في العالم بالاضافة الى الباز الذي يغذيه بنفسه باللحم النيء عدة مرات في اليوم الواحد . وهل من أمان مع رجل تهالكت نفسه بعد مقتل طائره الكاسر خاصة وانه مات مخنوقا بين يدي حبيبة قلبه التي استقر بها المقام الآن لدى عدوته اللدودة ؟ على انه مني ايضا بخيبة أخرى حين أجبر على طرد احسن رسام حصل عليه . والذي صار قديسا يمجده سكان احدى القرى المجاورة منذ ان اعتنق الاسلام في سبيل لقضية التجسس والاستعلامات بين القارات .

وبعد عودة الحاكم على متن سيارة الرولز رقم ٨٩ ببوقها الطوفاني ، انتهى الأمر باهل المنامة القلقين بطبيعتهم الى أن يستأنفوا عاداتهم الليلية ويناموا ثماني ساعات دون اية كوابيس تعتريهم بسبب سيف

« بندرشاه » . لم يعودوا يستيقظون هلعين في نفس الوقت ، ولا صاروا يشيرون صخبا شيطانيا يصم آذان البلدة طوال ساعات . خاصة وان صرخاتهم القلقة كانت ترعب الاطفال وتخرج النسوة عن أطوارهن . ومن المعلوم انهن كثيرا ما وبخن ازواجهن متهمات اياهم بتعمد اخافة الصغار البريئين الذين قدر لهم ان يولدوا في هذا الثقب بأقصى العالم . وما علم احد بما يخفيه الحاكم في جعبته داخل مكتبه ولا بالبرقيات التي يتبادلها مع صهره حول موضوع الانقلاب الذي يريد القيام به لا لشيء الا رغبة منه في أن يفاجىء الحكومة المركزية وابنته كلثوم ومسعودة عديمة اللقب على حد سواء . وزحف النسيان تدريجيا على ذاكرة السكان لان الحاكم خبأ سيفه جيدا وسيارته لأسباب مختلفة . ومع ذلك ، فهو لن يحرم نفسه من التبختر ومن تدشين معارض الزهور وقطع اشرطة اللاجدوى والظهور على لوحات الحاسوس « الباودائي » دون سيفه البلاتيني الخالص الذي عفن رقادهم وعلاقاتهم الزوجية . وآلوا الى القول كعادتهم بأن السيف لم يوجد أبدا . وان المسألة لم تكن الا كابوسا مفزعا ! وسرعان ما جعلوا يلومون أنفسهم على قدرتهم على الحلم كأن الأمر لم يكن يكفي بتجميع كل الأوهام التي يمكن لصحراء قاسية ان تنتجها مثل الصحراء المحيطة بالمنامة عدا عن الشمس اللافحة المحرقة التي لا تترك الراحة للانسان ولا للنبات بما في ذلك نبات الحرض المعروف بكراهيته للظل . وبعد زمن طويل . طويل . طويل . ادرك اهل المنامة انه من المستحيل عليهم ان يبينوا الاشياء على حقيقتها ولا أن يعددوا بدقة ما هو واقع ملموس او حلم وما هو سراب أو تخريف . واختاروا حينذاك الحل الذي في متناولهم وقرروا دون التشاور فيما بينهم بأن الحياة ليست الا حلما وأن لا فائدة من ان يتعب الانسان ذهنه أو يحرج الحراذين التي تتقاعس تحت شمس أدمغتهم . ولفترة طويلة ، راح المنامي النموذجي حين التقائه بواحد مثله يلمسه ويقلبه بعناية لكي يتأكد من انه ليس شبحا او بقية من حلم او أثرا من آثار الكوابيس المفزعة . ولا يحييه الا بعد ان يقتنع من كثافته كانسان . وهذا ما يتطلب وقتا طويلا ويعطي للناس عادات سيئة ، حتى ان الواحد منهم جعل يداعب الاخر دون اي حرج وبكل بساطة لكي يبرهن عن وجوده ولكي يستجلب بعد ذلك بعض اللذة البريئة . على أن الناس كلهم لم يكونوا من نفس الرأي . فهناك دائما أناس يريدون التميز عن الآخرين ... وخلال فترة الشك هذه في واقع الاشياء والظواهر حدثت مشاجرات دامية عديدة ولم توضع قائمة محددة عن عدد القتلى

والجرحى فيها . وبعد بضعة اشهر ، أجمع اهل المنامة على الاعتراف بأن بندر شاه لم يتسلم من ملك خليجية سيفا من البلاتين الخالص . ووجد كل واحد مبتغاه في هذا الاعتراف ، ولا سيما المعني الأول بالأمر ، فقد تصاعد نجمه بصورة مذهلة مما اثار حفيظة مسعودة التي قرقعت بحمالات نهديها بأقوى ما تستطيعه حتى انها أقلقت « الدر » اللطيفة وتصادمت معها لأول مرة تصادما حقيقيا . وضايقتها بقولها : « عندما تسرق المرأة اسم ملكة ، فان عليها ان تعرف التحكم في اعصابها ! » .

واصيبت « الدر » في كبريائها فأعلنت بأنها ستستعيد على الفور اسمها الحقيقي « مسعودة السعيدة » . وارسلت في طلب الداعية المتنكر في زي مروض الحمام وامرته بأن يرسل احدى حماماته الموهوبات الى قبيلتها ليعلن لها بأنها تستعيد اسمها وليخبرها أيضا بميلاد أربعة توائم ولدوا اثنين اثنين في ظرف اثني عشر شهرا . وراودت الشكوك محمد عديم اللقب في أمر البهلواني على اثر رفضه خاصة وأنه تسلى كثيرا بالصراع بين والدته وزوجته . وساير الاشاعات المنتشرة بين أهل البلدة فشك فيه بأنه آخر داعية ينتظره انصار القرامطة منذ القرن الثامن اي منذ هزيمتهم على ايدي الفاطميين في معركة الخندق وفي سنة 740 على وجه التحديد . وقد وعدته « الدر » بمبلغ كبير من المال ان هو حمل احدى حماماته رسالة الى عائلتها . وعلى الرغم من هذا الرفض ، قررت استعادة اسمها الأول ، وما اسرع ما لاحظ افراد العائلة أن التوامين الأولين يشبهان أمهما وجدتهما والعكس بالعكس ، بل لاحظوا أن التوامين الثانيين يتشبثان بثديي مسعودة عديمة اللقب لرضعهما لأن مواهبهما الخارقة المتوارثة او لأن قدراتهما على التقليد قد دفعتهما الى الخلط بين المسعودتين على الرغم من أن ثديي أمهما اقل حجما بكثير من ثديي جدتهما . وعندما ادركت الجدّة الانقلاب الذي تسببت فيه حين طلبت من زوجة ابنها استعادة اسمها الأصلي ، أصيبت بالأسى العميق وازدادت رهبتها خاصة وان ابناءها كلهم جعلوا يسخرون من ولعها الأخير ويبرهنون في نفس الوقت عن طواعيتهم وحنانهم فقرروا فيما بينهم على تسميتهما بمسعودة الاولى ومسعودة الثانية . على أن ربة الدار لم تعجب بتلك التسمية التي تفيض بالسخرية . وخيل اليها في بعض الاحيان انها لاعبة كرة قدم . وكان أولادها مولعين بهذه الرياضة وتعودوا التحدث عنها أمام طاولة الغداء ، وهذا ما دفعها الى أن تطلع اطلاعا دقيقا على هذه

اللعبة التي استخلفت في المنامة بصراع الاكباش . ويخيل اليها حينا آخر انها ملكة بدون سلطة ، تضطلع بدور ثانوي حسب مقتضيات الدساتير ذات الطابع الديموقراطي البورجوازي . وكانت ثائرة في كلتا الحالتين لانها تكره كرة القدم التي يمارسها ابناؤها في حديقتها سرا وحسب المناسبات فيخربونها بأحذيتهم ذوات المسامير ، كما انها تمقت كل ما له علاقة بالملكية المتوارثة منذ أن تسببت دروس التاريخ التي القتها عليها « الدر » في حساسية طاغية لا مرد لها . على أن مسعودة الثانية باسمها البراق اللامع فقدت حيويتها وخشيت ألا تنجب توائم لشد ما صارت تتوق الى تلك الفترة التي مارست فيها ملكة الاسلام الاولى سلطتها بكل عفوية واطلقت العنان لهواها مع الفحولة الزنجية . حينذاك اعلنت دفعة واحدة لزوجها المنشغل في مداعبة فرجها المتوفز : « خسارة الا تكون لك بشرة سوداء ! » وادرك محمد تلميحاتها الى زوجة السلطان ايوب الذي قتله سانت لويس في معركة المنصورة في شهر جوان 1246 من تقويم الكفار . وسحب نفسه عن فرج زوجته ، والتحق بأمه المنشغلة فوق سطح الدار باستخلاص دم الطمث . وطلب منها ان ترجع عن قرارها حول موضوع اسم مسعودة 2 وهددها بقطع ابهامه الثاني ان هي لم تلب طلبه ذاك فورا . ونزلت مسعودة عند رغبته ، وقد سعدت بألا يكون لها بعد ذلك مظهر قلب الهجوم او ملكة فاسدة . ونزلت من السطح لتتصالح مع زوجة ابنها وتعلن بصوت جهير بأن الغموض والاستخفاف طالا زمنا طويلا خاصة وأن الأمر يتعلق بسلامة الدار وبتوازن احفادها وسعادة زوجة ابنها التي دك جمالها الاسطوري الاسوار كلها .

واستطاع محمد عديم اللقب مرة ثانية ان ينادي زوجته باسم « شجرة الدر » واستعاد طمأنينته والاعيبه وتحكمه المحير في ظله ، ومواهبه في قطع الضحكات الى اثنين وقوقأة الدجاج وجعجعة الرحى على مسافة مائة وستة وستين مترا . وتمكن من استخدام قدراته في الغاء المنعطفات بعد ان قرر تركها للخونة والكذابين ، واستأنف محادثاته مع طيور الكاميشي والكورليس والكوكسيرغ ، ومقابلاته السرية مع جده المصابيحي ومطالعاته لمخطوطات ابن خلدون ... وكان أن علم بأن هذا الرجل الذي أولع به والذي روى قصة غرق عائلته كلها في خمسة أسطر بائسات يمقت السلطات السياسية التي يخدمها . على أن خيانته وتواطأه صارا اليوم مضرب المثل ، وهو ما أدهش دانمار ابن مسعودة الى اليوم

الذي فهم مفتاح اللغز . فابن خلدون هذا جعل ذكر المنامة يطبق الآفاق حين قضى بها أربع سنوات لكي يتنصل من أيدي الملوك المستبدين الذين حيرتهم فترة الانحطاط والفرار متوجسين دمويين تتقاذفهم الاهواء . كان ابن خلدون يحتقرهم جميعا ويتحرش بالواحد ضد الآخر ويتصرف ازاء مطالبهم وأوامرهم بنفس الخسة التي يعمدون اليها . وكان حقده عظيما، فهو لم يعرف جده الذي خنقه ملك اشبيلية حين كان وزيرا لخزانته . ونشأ الطفل في جو الحقد والطغيان ولم يغتفر أبدا ذلك الاغتيال البشع الذي راح جده ضحية له . ثم انه بعد ذلك بزمن طويل اضطلع بدور المنظر ، وفهم بأن رجال الحكم يحبون احاطة أنفسهم بالعلماء والمثقفين لا حبا في العلم أو الفن ، بل لأنهم قلقون منعزلون ، ومن ثم فهم في حاجة الى الحماية . ويقال بأن موت جده ترك بصماته عليه الى الأبد ، فضلا عن انه شهد تدهور الممالك وخرابها فتظاهر طيلة حياته بأنه في حاجة الى حماية الحكام . وقد اضطلع بالوزارة الاولى ، وصار قاضي القضاة وطبيبا ملكيا وجاب بلاد الاسلام شرقا وغربا ، واتخذ ما بين فاس وبغداد موقف الحقد والاحتقار ولم يتخل عنه أبدا . وعلم أن الاوضاع تؤول الى الخراب وان الانحطاط الذي لم يكن الا في بداياته سوف يدوم زمنا طويلا . وكان همه الوحيد كلما دخل بلاطات الملوك أن يتمكن من الوثائق لكي يكتب تاريخه العالمي ، ويحلل العناصر الملموسة في السلطة السياسية ويقيم العلاقة ما بين شخصية الامير ونشاطه السياسي ، لم يكن لديه الوقت اذن ليهتم بالمشاعر والاخلاق . غرقت عائلته كلها في عرض البحر بالاسكندرية في شهر مارس (آذار) ١٣٩٨ . وبعد سنتين من ذلك التاريخ ، قابل تيمورلنك الذي يحاصر دمشق وأعلن له ولاءه . وتساءل محمد عديم اللقب : اتراه كان خائنا ؟ كلا ! ليست هذه هي المسألة ! الاسلام ، الوثنية ، تيمورلنك المغولي (الناصر) التركي ، لا فرق بينهم جميعا . فالجوهري في نظره هو المعرفة ، هو شرح دواليب التاريخ السياسي . وفي شهر جوان 1400 فرغ من تحرير مصنفه حول المغرب وسلمه لذلك المغولي . ومحمد عديم اللقب لا يجهل بأنه سلمه أسرارا عسكرية أيضا . انه يفضل الا يسهب حول هذا الموضوع . وماذا عن احراق دمشق سنة 1401 ؟ لقد كان موجودا بها الى جانب الغازي . واكدت « شجرة الدر » انه يمكن شرح عبقرية الرجل انطلاقا من مقتل جده . وعرف زوجها عن تجربة ما تعنيه . فجده هو الآخر أرقه دائما . ولولاه لما فهم بكيفية ملموسة ما صار احتلالا اجنبيا وظلما استعماريا .

لقد اخطر حينذاك : « انظر الى ما هم قادرون على صنعه ولا يذهبن بك الظن الى ان الجواد أجمل ! » ثم ماذا عن الثلج ؟ هذا التعبير عن الحنين والحنان والندرة ! لقد ملأ جيوبه ، غير ان الشيخ سخر منه قائلا : « انه لا يؤكل ! » كان مطلعا على الحقيقة ، في حين راحت القاطرة تسبح في الليل داخل دواماتها الدخانية . يا للمصائر المتقاربة ! المنامة تتأرجح بين الملح والذهب لتجد نفسها بعد عشرات السنين بين الهوان وصرعات الشمس . لم تكن تلك الا مرحلة بالنسبة لابن خلدون . فقد هرب من تلمسان وبذخها ليختبىء في هذه الصحراء المنكمشة حول نفسها داخل ثلاثة أسوار عنيدة . في سنة 1375 لاقى أعز أصدقائه مصرعه خنقـا بين أيدي جلاديه في السجن . وهذا ما ذكره بشيء ما . وتظاهر بالخروج الى الصيد ثم انطلق خببا نحو الصحراء ، المنامة ! وعاش فيها في فقر مدقع بعد أن كان وزيرا أول في بجاية سنة 1365 . سفيرا متنقـلا سنة 1364 . عميدا لجامعة تونس سنة 1363 . قاضيا كبيرا في غرناطة سنة 1370 . المنامة ورياحها الرملية ، المنامة وحصارها ، المنامة وغيرها الذي يتساقط بصورة عمودية من السماء . اربع سنوات كاملة قضاها في العمل . وضع مصنفه وأعطى للانسانية اول منهج في علم الاجتماع التاريخي . وهكذا ثأر لجده وصديقه العزيز اللذين لقيا مصرعهما خنقا على يدي الملك . الليالي المحمومة . الصراع بين شجرة الدر ومحمـد عديم اللقب . لم يعد ينبغي الاكتفاء باسم الدر فقط ! اتراها كانت معاصرة لابن خلدون أم ضده ؟ أما محمد فقد وجد نقطة ضعف وحيدة عند هـذا الرجل بعد ان أطلع على نفسيته الآن . وهي أنه كان شاعرا رديئا . غير أن الزوجة وقفت منه موقفا متشامخا وقالت : « لم يكن يريد تقريظ الملوك . ولعلك تعلم أن التاريخ يبرهن على ذلك ، ففي فترات الانحطاط يزدهر فن المديح ! » .

لاحظت مسعودة عديمة اللقب التوتر بين الزوجين . فلم تتدخل ، وشعرت بالذنب ، وخشيت أن تعود زوجـة ابنها الى القول : « انت جميل ولكن ، يا خسارتاه ! وددت لو أنك كنت أسود البشرة . مثـل النوبيين الذين عشقتهم شجرة الدر زوجة السلطان ايوب ! » غير أن المسألة لم تكمن في هذه النقطة بالذات . فالامر يتعلق بجد ابن خلدون . كان من المحتم ان يلتجىء بالمنامة ، فقد سجل ذلك في بنيته الوراثية . يتشابك التاريخ مع البيولوجيا . وجعل محمد عديم اللقب يهذي ، يسكر

يوما ويصحو آخر ، ويتواعد على اللقاء مع جده بين الحين والآخر . وكان لقاؤه مع جده امتحانا عسيرا ، خرج منه مكهربا ، قادرا على تشويه العالم لأن التاريخ ارهقه ولم يعد يكف عن اقحام ذاته في طلبه ليدفعه على الفيضان . وتوصل أخيرا الى اقامة العلاقة بين موت جد ابن خلدون وجده هو . وبما انه لم يكن شديد الطموح قال لنفسه بأنه ينبغي اقامة علاقة اخرى بين موت الجاحظ وموت أبيه . فكلاهما مات بالورق . كل على طريقته بطبيعة الحال . وتدخل القدر هنا ايضا في البنية الوراثية . كان الجاحظ مجنون الى حد أن استقر به المقام لدى احد الوراقين بالكوفة ليقرأ ليلا نهارا . وكان من المحتمل ان يموت منسحقا تحت كتاب . وقيل انه في مقدور الانسان ان ينظر الى اثر جسده على الارض بعد أحد عشر قرنا . اما والد محمد عديم اللقب فكان يحب العمل في ورشة الورق . وكان من المحتمل عليه هو الآخر ان يقتل برزمة من الحلفاء المصنعة . على انه لم يبق منه اي اثر على الارض في المخزن الذي وقعت فيه الحادثة ... انه الفرق بين المصير والموت . لعله ترك نفسه يموت بتلك الطريقة بسبب الساعات الجدارية الصقلية التسع عشرة ....!

وعلى الرغم من هذه الانشغالات التي حاصرت محمد يوميا ، فانه لم يحد بناظريه عن بندرشاه . لقد خشي انتقامه بعد ان استقرت كلثوم في دارهم واغرمت بأشد اخوته خجلا ولطافة ، الذي لم يجد أحسن من ان يتعاطى حرفة الصاق طوابع البريد منذ أن فتحت أبواب الوكالة اليهودية التي مولها خليجية ولا شك لمساعدة الحاكم على التمويه . ذلك انه ما كان احد يدري لم يعمد المناميون الى التراسل ، اللهم الا لانفسهم أو لجيرانهم الاقربين أو لأصدقائهم الذين يلعبون معهم الدومينو في المقاهي . وجعل حميد عديم اللقب يحقق مكسبا يوميا معتبرا بالصاق طوابع الآخرين ومظروفاتهم الفارغة . وكثيرا ما سمع الناس رجلا ما يقطع على صاحبه لعبة الدومينو ويقول : « لقد بعثت اليك برسالة . وأرسلتها هذا الصباح بعد أن الصق طابعها حميد عديم اللقب نفسه . اياك ان تتفاجأ . لن اقول لك محتواها » . على ان الرسائل لم تكن لتصل ابدا . بل تمر بالرقابة لدى الحاكم . وكانت زوجته تسلي نفسها وتدفع كلثوم الى قراءتها مرة ثم اخرى مثل رواية شيقة . وعلم محمد عديم اللقب ان قلق الطغاة دليل شؤم على الشعوب بفضل التجربة التي اكتسبها من خلال قراءته لكتب التاريخ . وبما أن الحاكم فقد بنتيه ولم يشغل نفسه ، واضاع زوجته

التي اغرمت برسائل اهل المنامة الى بعضهم البعض حبا في التباهي وعملا بالموضة المنتشرة ، فقد كانت هناك حظوظ كبرى في ان يعمد الى الترويح عن نفسه . على أنه ظل حزينا منذ موت الباز الذي أعطاه اسم يوبا الثاني ــ ذلك البربري الخائن الذي سلم نوميديا الوسطى الى الرومان ــ . ولم يعد يرغب حتى في الخروج لصيد الغزلان . وراح محمـــد عديـــم اللقب يترصده ، ويراقب حركاته بواسطة ابله القرية المسمى « فكرون » الذي يتمتع بمواهب شرطي عبقري وبذاكرة خارقة على حفظ الارقام . وبما ان الناس كلهم اعتبروه ناقص العقل فقد كان في وسعه ان يذهب الى حيث يشاء وان يغزو حتى حمام النسوة دون أن يتلقى اي عتاب . واستطاع بذلك التسلل الى حديقة الحاكم بل الى بيته حيث سرق الاحتياطي مـــن المواد الغذائية . غير ان بندرشاه الذي يؤمن بالخرافات تركه يتصرف على هواه لظنه انه قديس أخبله عشق الله .

وفي تلك الاثناء انشغل محمد عديم اللقب بتعليم أطفاله . وعلى الرغم من انهم لم يزالوا رضعا فانه قام بمساعي لتسجيلهم لدى المعلم الذي يكرهه بسبب مناقشته في كتابة رسائل الغرام . وقد وجب تسجيل الاطفال قبل خمسة أعوام من دخولهم الى المدرسة . فما وجد بالمنامة سوى قسم واحد مكتظ بالتلاميذ ثم ان نسبة المواليد ارتفعت بشكل غريب بعد ان انخفضت نتيجة لملء حوض السباحة . وكان على التلميذ حينما يتوجه الى المدرسة لأول مرة في حياته أن يصطحب معـــه كرسيا لأن الخشب غير موجود بهذه البلدة الواقعة في اطراف الدنيا ثم ان الحاكم قرر الا يزود القسم الدراسي الا بالطاولات ! أما الكراسي فتقع على كاهل التلاميذ . وكان محمد عديم اللقب موجودا حينذاك عند نجـــار البلدة ، طالبا منه اربع كـــراس صغـــيرة لتوائمه عندما بلغه الخبر : انشأ الحاكم جيشا وعمل على ايوائه فبنـــى ثكنة فاقـــت أبهتها افخم القصور في البلدان الثرية . وبعد عهد طويل . طويل . طويل . اي في اليوم الذي دفن فيه والدته تذكر تفاصيل تلك الصبيحة حين ذهب الى التجار لشراء الكراسي الاربع وكيف غادر محله على حين غرة لكي لا يعود اليه أبدا .

ووظف بندرشاه سلكا من المتطوعين واعترف آل عديم اللقب بان مسعاه قد حقق النجاح لأن الجنود لم يكونوا ليسكنوا دارا فخمة فحسب

حيث لكل واحد منهم غرفة وما اليها من قاعة استحمام ، بل ان اجورهم بلغت أرقاما خيالية . وهب صعاليك المنامة كلهم لانتهاز الفرصة . على ان كراهيتهم لكل ما هو عسكري وافتقارهم الى التقاليد الحربية وولعهم بالتناقض والمفارقات جعلهم يحيدون عن هذا الهدف . ولم يقبل بارتداء البزة العسكرية في آخر المطاف الا المعتوهون والعجـــزة والمنبوذون ، وتجندوا في جيش الحاكم الذي يموله ملك خليجية بطبيعة الحال . وتنصيب هذا الجيش كان مرتبطا بمشروع بندرشاه المبهم الـــذي أراد ان يعلن الاستقلال وان يمنح نفسه لقب امبراطور مملكة المنامة الواقعة في مفترق الطرق بين الملح والذهب . وخشي محمد ان تحدث امور لا تحمد عقباها على الاطلاق نتيجة لهذه البادرة الجنونية من قبل بندرشاه : فقد تسنى له ان يرى لأول مرة في حياته نجاح مسعى من مساعيه ومن ثم فان هذا النجاح بالذات بالاضافة الى المساندة التي يتلقاها من صهره قد تجعله يتجرأ على ارتكاب حماقة وخيمة العواقب على شعب المنامة بالدرجـــة الأولى الذي تناسى سيفه البلاتيني الخالص وراح يتأرجح ما بين الحلم والسراب . ومارس محمد ضغوطه على تلك التي تستحوذ على ابهامه الايسر لكي تلتحق ببيت أبويها مؤقتا . على أن الاعمال التمهيدية تعطلت كثيرا بسبب حب « حميد » الجارف لكلثوم . وراحت هذه تحاول أن تعوض هذه العلاقة الغرامية بحبها العنيف الذي لا تزال تكنه لمحمد . وكان « حميد » في تلك الاثناء قد ذاع صيته بأنه أحسن من الصق الطوابع البريدية بأصغر كمية من اللعاب ، وجمع ثروة صغيرة خبأها تحت فراشه خوفا من ان تحتجزها أمه ، لأنها كانت في حاجة ملحة الى الدراهم وتتمنى دائما ان تبني طاحونتها التي تشتغل بزهرات عباد الشمس العملاقة . على ان العاشقين أدركا أن مسعودة لن تسمح لهما بالزواج الا بعد انجاز المشروع . وبالفعل فقد اختلقت الاعذار حين تقدمت كلثوم لخطبة حميد وقالت بأنها لن تجيب بشيء الا بعد تسوية شكل الطاحونـــة وضمان الاكتفاء الذاتي في العائلة . وفي تلك الاثناء زايل الانتفاخ لسان « حميد » . وجعل يعود الى الدار كل مساء ، بعد ان تغلق الوكالة البريدية أبوابها ، ويتلقى العلاج من كلثوم التي تنشر مرهـــم ريقها علـــى لسانه المكدود باللصاق . واستطاع مع مرور الايام ان يعاود الحديث كسائر الناس أجمعين ، والاكل بصورة طبيعية . ونتج عن ذلك أن محمد لم يستطع القيام بمساعيه حسب ما يأمل ، لأن كلثوم ظلت تعتني بخطيبها ، الوحيد الذي يقوم بأوده بين أشقائه التوائم . فملأها هذا فخرا .

كان « حميد » هذا هو الذي عاد ذات مساء من الوكالة البريدية فلقي في طريقه تلك القافلة الطويلة من الشاحنات والسيارات التي تحمل ارقاما أجنبية . وابصر بها تندفع صوب ساحة الطيور مثيرة كتلا من الغبار وجعجعة من زعيق المنبهات . ولن يتأخر طويلا ... بل سارع الى الدار ظنا منه أن الامر يتعلق بغزو لا اكثر ولا اقل . وشاهد المناميين يطلقون أقدامهم للريح مثله ، والتجار يغلقون حوانيتهم ، والمقاهي تتقيأ زبائنها بدفعات متقطعة والطيور تقذف بنفسها في جيوب حيوانات الكنغورو التي راحت تتسلق الاشجار ، بل انه ابصر بجنود بندرشاه المشلولين الكتع ، العور ، المسلولين يهربون نحو ثكنتهم الفخمة كل حسب مقدرته واقفرت الطرقات من الناس ، واطلعت كلثوم على الامر لكنها عجزت عن شرح المسألة وذهبت تتسقط الاخبار عند امها . ورجعت بعد بضع ساعات وهي تشد بطنها بسبب نوبة ضحك طاغية دامت عدة ايام حتى ان مسعودة فاجأتها وقرقعت بحمالات نهديها بقوة غريبة . حينذاك قفزت كلثوم من الرعب وتوقفت دفعة واحدة . واعتراها الفراق فسقتها مسعودة وضربتها على ظهرها وأدارت مفتاحا تحت ابطيها حتى تتوقف عنهزاتها الجنونية . وخشي « حميد » على حياته فألقى نظرة عدائية على والدته جعلتها تدرك بانها سوف تفقده ولا شك ، لأن العشاق من سلالة عديم اللقب مندفعون في هواهم . وكانت البلدة كلها قد اطلعت على ما وقع حين استرجعت كلثوم لسانها . فالشاحنات والسيارات لم تكن تنقل الا السينمائيين الامريكيين الذين جاؤوا لتصوير فيلم ضخم مأخوذ عن الف ليلة وليلة . واصطحبوا معهم قصور بندار وحوريات الفردوس وعلاء الدين وفانوسه السحري وملاحي البصرة ، وعوالم الجن ، والخواتم السحرية والعبيد السود وقصور الجليد واقزام هارون الرشيد ، واجمل الشقيقات السبع في الدنيا ، وخصيان الحريم ، وجبال النحاس ، والعور السبعة ، وملك التتار ، كسرى فارس والأطباء الهنود ، وعلماء الرياضيات السريانيين ، والحجر الفلسفي ، ومدينة النحاس ، وخيماويي الكوفيين ، ومنجمي القاهرة . وفلكيي الصين ، وسماسم الانفتاح الكوني، وغلمان بخارى وكهوف المهاوي ، والبسط الطائرة ، واللصوص الاربعين ، وجرار الزمرد وأهلة ابن البيطار والحكيم ما شاء الله الذي اختار الموقع والوقت المؤاتي لتشييد بغداد والتصانيف الطبية الستة والثلاثين التي

وضعها الرازي ، واليهودي حنين بن اسحاق الطبيب الشخصي للمأمون ، والمخطوطات العربية المائتين والخمسين بعد الألف المبعثرة في مكتبات اوروبا وأمريكا ، وكتاب المجسطي للشيرازي ، والجداول الفلكية الاخيرة لابن معشر ، وقرود السند ، وأول ضرس اصطناعي أنجزه الزهراوي بعظم ثور ، وصانعي الزجاج بدمشق ، ومنمنمات بهزاد ، واسطرلابات البيروني ، والاعداد الكاملة والمفرطة والصديقة التي وصفها ابن قرة ، وبراق النبي ، والسجناء القرامطة ، والعبيد الزنج لبلاد ما بين النهرين ، والطائر الازرق الذي تتحدث عنه الاسطورة والببغاوات المنشدة وجاؤوا — بطبيعة الحال — بالملك شهريار وبنصف أخيه شاهريناه وبزوجتيهما الخائنتين وبدينار زاد وأختها شهرزاد الرائعة .

التبست المنامة في اعين الناظرين اليها ذلك الصباح . وبدت وكأنها سيجت بالالات العملاقة التي نصبت عبر ارجائها او حوصرت بالجرارات وسلك الترافلينغ ، والاسلاك الضخمة التي انطلقت عبر منعرجاتها على طول كيلومترات عديدة . حبال اسفلتيـــة . براميــل خضاب الدم . صناديق الجليسرين . ديكورات الورق المقوى المتراصة طبقات ، طبقات في شرائح متوالية . تشابك المصابيح الساطعة . سماء مغزوة بالاسلاك المعدنية والسقالات المتداخلة . خوابي المياه الضخمة القادرة على احداث طوفان عارم . فلائك مصنوعة من الباغة . رافعات ذات صفراء تخدش وجه السماء . رياش زاهية مكللة بألوان بين وردية وبرتقالية . قوالب حديدية عجيبة تحصر الفضاء مقربة بين ابعاده في وقت قياسي . تثبيت خطوط الربيع والخريف الاعتدالية المصطنعة . صفائح معوجة ومنتفخة مغطاة بالورق الذهبي . اقمار من ورق الالومنيـــوم المشرشة بأسلاك التنغستين .

اكياس مساحيق التجميل . مطر اصطناعي ، حقيقي هذه المرة . اقوى مراوح العاصفة . ادوات الخداع التي تصل حد الكمال . آلات مركبة على سيقان القيامة . اجمل نساء العالم . اقوى رجال الدنيا . اسمنهم وابعثهم على القرف . اقصر الاقـــزام . ملكات جمال ما عرفن كيف يزدن عريا لشدة ما نضون عنهن من ثياب . اكثر الازياء ابتكارا ، الع السيوف حدا . انبل الجياد العربية على الاطـــلاق . ليال مسيرة آليا . ايام سرمدية . شهب محشورة في اكف . سماوات مطاطية لدنة . بواخر سارية على عجلات . بسط الريح الطائرة على ارتفاع خفيض.

ساعات مائية لقياس اللذة . ساعات جدارية لا قرابة لها بصقلية . قارات من الطين ، جبال الكليمنجارو المصنوعة من السكر . بق ذو عقل . جمال ذات سبعة سنامات ، اشجار تنزف زرقة . اقــواس قزح محشوة داخل مفرقعات . قصور من الجص . قردة ناطقة . ببغاوات سباحة . سمك طائر ... انتصبت كل هذه المشاهد العارمة قائمة في ظرف ليلة واحدة حين كان اهل المنامة يغطون في نومهم هادئين . وعندما اسفر الصباح فتحوا اعينهم على سعتها وتناخزوا ورددوا اسماءهم والقابهم وتواريخ ميلادهم ومهنهم دون جــدوى ! فقــد عجزوا عـــن التعرف على بلدتهم وعلى بعضهم البعض وعلى انفسهــم بالذات . وسرعان ما انطلقت الشائعات دون قيد أو ضابط ، وزعم ذوو الحيلة ان البلدة انقلبت سافلها على اعلاها خلال الليل وظهر منها وجهها الذي كان مخفيا تحت الارض الى ذلك الحين . وذهب البعض منهم الى اتهام الحاكم بأنه نوام قويتهم مع مدينتين اخريين : بغداد وشيكاغو بعــد ان حملهما اعماق نفسه املا منه في الاضطلاع بالامور على احسن ما يرام . وقيل بأنه انطلق بعد المراسيم التقليدية لكي يضع هاتين المدينتين فوق عرينه وفي المكان الذي اراده . لكن المسألة كلها لم تكن الا مجرد تقولات ساذجة . والحقيقة الحقيقية تنحصر في كون البلدة قد تحولت الـــى ديكور هائل من الورق المقوى بعد ان الصقت مختلــف اطرافه باللبان المستورد من الولايات المتحدة . وفجأة ، زحفت على المنامة المفتقرة دائما وابدا الى المطر روائح الزنخ والماء الراكد ، فتراخى لها مناخير المناميين بعد ان صاروا اقلية في موطنهم . اما السماء التي تتحجر كعادتها بدءا من السادسة صباحا بفعل الالتهاب الجهنمي فقد كشفت بدورها عن وجه انسفحت عليه زرقة هادئة صافية . وتغطـــت صفحـــة الشمس بالسيلوفان ففقدت سطوعها . وبرزت ارصفة من العدم وقد غصـــت بالبشر . ونصبت حواجز حول قلاع براقة فتوهــم الناس انهــم امام بحيرات ، في حين ان البحر كان يبدد قواقعه على الاطراف . والتوت الثعابين حول الاذرع الموشومة التي اشتهر بها ملاحو البصرة . اما السندباد فراح يدخن سيجارة من التبغ المعطر بينما انطلقت نداءات جهيرة من صدور الملاحين فطغت على ما دونها . وتأرجحت الارصفة بالعوارض الخشبية العتيقة . والصخب عجيب عندما يصدر عن مشخصين ذوي نبرات هوليودية محضة ! والحموضة خانقة عندما تنتشر فوق الفضلات المصنوعة من الالياف !. الازقة كلها تحولت الى اقنية تشبه تلك التي

كانت في بلاد ما بين النهرين . وفي الخارج ، وضعت تصميمات على مرمى البصر لكل من دجلة والفرات وللالاف من الروافد التي تتقاطع فيما بينها فوق مدينة بنيت في رمشة عين خلال صبيحة واحدة . والصقت بتلك المدينة لوحة هائلة كتبت عليها كلمة : البصرة . وكانت هذه واقعة في نقطة الالتقاء بين نهرين ، بين طين وماء ، بين يابسة وبحر ، بين مياه راكدة ومستنقعات ، بين تربة مبللة وطمي . وقام احد العمال المهرة برتق جوامع دمشق وبغداد على انه ظل هو نفسه مشدوها بطرق المخادعة والتمويه الفنية . اما طرقات الكوفة القديمة فراحت تتلقى اخر لمسات الخياطة تحت انظار اهل المنامة الطائفين في تهويماتهم المدوخة والزائدة عن الحاجة مثل بقية الديكور الذي نصب في طرفة عين من قبل الاجانب الذين حلوا بالمنامة خلال الليلة الفارطة ، واضعين بين شفاههم سيجارا يهتز بغطرسة الجبروت ، بينما انطلقت من حلوقهم لهجات اشبه بوقع الحصى في شلالات امريكا الهائجة السرعة . وندت عنهم حركات جعلت الناس ينفرونهم من اول وهلة . وذاقت عيونهم بفعل الخيال الجامح الذي يكشط الواقع ويجعله تافها وهميا من خلال جعجعتهم واستبدادهم وتعاليهم واحتقارهم ونبذهم لاهل المنامة ورفضهم رفضا قاطعا ارجاع البلدة الى اصحابها الاصليين . واغرب ما في الامر هو ان المناميين لم يوضعوا في محل للاعتبار ولم يستشرهم احد في امر بلدتهم . وما كان من محمد عديم اللقب سوى ان قال للاسكافي الذي قذف به الاجانب خارج حانوته ليحولوها الى منطاد : « لقد احتجزوها منا ! » اما رشيد بناصر ماسح الاراضي فتساءل متعجبا : « اهذه هي السينما ! سوف تسحقنا عن آخرنا .. ها نحن تحولنا الى صعاليك تافهين مع اننا لم نشاهد قط في حياتنا ولو مصورا واحدا من المصورين المتنقلين ! »

سيولة الواقع تجعله يلوب امام الانظار ويتلعثم فيرسل من الرعب اشارات برتقالية وبنفسجية مثل كابوس انقسم على شطريه لكي يتمكن من تشرب الالوان والانطباعات المنبثقة عنه . ويختمر هذا الواقع وكل ما يحتوي عليه من اشياء وحاجات يختمر داخل النعاس تحت الصور وقد تهشم بعضها وهز بعض اخر وشطب ما تبقى منها في ذاكرة الالام والشراسة . وتتجزأ معاني هذا العالم المصنوع في اعين المناميين دون ان يقوى احد منهم على التخلص من شقائه او حتى من نفسه . فيعجز الجميع عن استباق العناصر المتناقضة ويبدون كأنهم زنابير تكاد تنسحق

تحت نخاريبها التي ولدت بها وضربت اصولها فيها ، ويحدث ذلك كله على الرغم من النزعة الجارفة في نفوس المناميين الى حب التمعش والتأمل ولعل ذلك راجع الى ذلك الاحتراق الرهيب عندما تتربع الشمس في كبد السماء وتزحف على البلدة زحفا وتغرقها بقيظها الطاغي ، ويختفي وجه المنامة وراء الاشياء الصفيقة والحركات الضيقة ويندلح انذاك كل شيء في شكل لوحة تجريدية تتقاطعها الوان الحبر والصدأ ويلطخها الزعفران والحمرة الشديدة . وكل هذا المشهد يظل منغلقا على ذاته بشطحاته الخيالية ويندفع نحو الماضي ، لكن لا يكاد يبلغه او يساويه بل يتعثر ويلعثم لان الخوف اخذ بتلابيبه ولان التحدي لا يجدي نفعا اذا ما انسحق تحت وقع الكلمات والخطب المتكررة . وتزداد المنامة ذهولا عن نفسها عندما يعمد العدد العديد من الحشرات الجشعة الى محاصرتها من كل صوب وهي بين نوم ويقظة ، او تتصنع النعاس ، او تتطفل وتريد السيطرة عليها وافراغ المنطقة كلها من ثرواتها ... جعل محمد عديم اللقب ينتقل داخل هذا الديكور العجيب وقد انطبعت على ذاكرته وعلى بشرته احاسيس اغرقته الى حد الاشتباه في الامكنة والحركات والعهود التي تمتزج بعضها ببعض ، قائلا في ذات نفسه : « ها هم يحتقروننا فنصبح مجرد ديكور بالنسبة لهم ! وماذا عن الف ليلتهم هذه؟ خديعة لا اكثر ... يجب الاطلاع على الوجه المخفي للامور والاشياء المستترة ... » ، والافعال وردود الافعال ، كأن ذهنه المهشم قد جهز الى الابد بما يشبه المصابيح المستخدمة في ارسال الاشارات ، وشعر بنفس القوة التركيزية التي يتمتع بها عباد الشمس والهزات الارضية العنيفة التي تصدر عن العواصف العاتية بعد مرور الاعاصير . واحس باحديدابات متلوية تتنامى في رأسه وتتطامن وقد امتلأت بشحنات كهربائية، سريعة ، متقطعة ومتواترة . وعاد التاريخ من جديد ينحبس في رئتيه واستبدت به الرغبة في الانفجار كرغبة في تفجير بطن شجرة الدر عندما يشعر بالدافع الشديد الى ممارسة الحب ، فتطلب اليه هي ان يصبر قليلا بحجة ان لها فزاعا يجب ان تنتهي من صنعه . كان الوضع قد بلغ هذا الحد ، في حين ان الاجانب اجتاحوا المنامة متنكرين في ازياء فرقة مكونة من افراد ظلهم خفيف ومرحهم بليغ وحركاتهم عفوية جاؤوا لخدمة قضية السينما الكريمة . وادرك محمد عديم اللقب ان عليه ان يعرف اقناعهم ويتحدث اليهم بوضوح ويبتعد عن التقعر في كلامه . بل ادرك ايضا انه ينبغي اطراح السحر وغيره من الخوارق والطلاسم لانه لم يكن

يجهل بأن السينما مرآة لا ترحم في امكانها ان تبهر القبرات الناميـة بصورها . ولم يعلم الناس بالضبط اذا ما كانوا موجودين حقا أم مجرد صنائع جيء بها من قبل الاجانب كغيرها مـ نالالات وزجاجات الوسكي . واخطر ما في الامر كله يكمن في غياب الشمس بصفة نهائية . لقد طارت هي الاخرى ولم يعد يسمع للعصافير صوت وتردد على المنامة نوع من الصفير المرهق المختلط بالصرير والوشوشة واحتكاكات الورق وظلت تلك الهمسات مبهمة متباعدة كأنما تحمل في طواياها اصداء نهاية العالم . وطفق عديم اللقب ينظر الى الاجانب بسراويلهم القصيرة وهم عراة الصدور يزرعون ساحة الطيور ويهزون اكتافهم وينادي بعضهم البعض بأصوات جهيرة ويتضاربون ويثيرون الصخب كيفما شاؤوا . وبدوا وكأنهم بديارهم ، يتصرفون في المجال على هواهم ويدفعون بحدود الجدران خارج محيطها المعتاد ويهدمون الاسوار الصامدة ويبدلون مواقع الساحات ويحولون الطرقات ويمزجون الحوانيت المعتمة فيما بينها ويوسعون المنازل وينقلون الاثاث كيفما اتفق ويغيرون هويات الناميين المساكين المشدوهين ويوزعون الادوار من جديد ويفسدون طبائع البغايا في الماخور ويشترون الهواء الذي ينتشر في المنامة ويوقفون الريح ويستنزلون المطر على خاطرهم . المهم في الامر هو ان تلك الفرقة الجهنمية انجزت في ظرف ليلة واحدة ما لم يستطع الحاكم ابدا تحقيقه في ظرف سنوات عديدة وطويلة من الجهود والتهديدات والحرب الباردة والقمع الدموي والتضرعات المنافقة والخيانات الكبرى والحيل التي لا تخطر على بال احد من البشر . ووسط هذا الخراب الذي حل بالبلدة ، بقي عنصر فريد يشجع الناس ويدفعهم على الامل والتشبث به . فأهل المنامة الذين لم يخرجوا بعد من مرحلة السحر والتطير والتدجيل ، اصيبوا بالروع من جراء تلك الفنيات المتفننة الخارقة وانبجست في ارضهم دفعة واحدة ، ولم تتقبلها عقولهم لشدة تعقدها وتشابكها . وعلى الرغم من انشداههم امام تلك التقنية المتقدمة الطاغية التي تحمل في طياتهم مختلف المستحدثات ، فانهم ظلوا على حذرهم مع ان الاحساس راود نفوسهم بأن مستقبل العالم مرهون بها .

لم تكن لهم نزعة تطهرية ضيقة ، ومع ذلك فقد نظروا بعين الريبة الى تلك الفتيات اللواتي تخلصن من حمالات النهود تحت قمصانهن الدوارة المهفهفة ، واحترزوا كل الاحتراز من النسوة المتبرجات اللواتي

ارتدين جلابيب من التفته البنفسجية ودفعنهم على الشبـــق ، وكذلك السيدات المغناجات القادرات على استثارة اشد الرجال برودة ، وغيرهن من الاناث المغريات اللائي زادت لامبالاتهن في عزلتهم وحرمانهم . وانبهر اهل المنامة بالامكانيات العديدة التي ينطوي عليها عالم المبتكرات دون وعي منهم ، فلم يعرفوا اذا ما كان يتعين عليهم ان يدهشوا او يغضبوا . طوقتهم الحيرة من كل جانب ، فراحوا يقضون ليالي كاملة في تأمل الانابيب المشعة وهي تنير دنياهم كلما مروا بالشوارع الاصطناعية التي علقت بها . وقد حدث في مثل هذه الاحوال ان كان بعض المناميين من ذوي الحيلة يعمدون الى قذف انابيب النيون بالحجارة ، وهذا ما كان يتسبب في ردة كهربائية عامة ان لم يؤد الى نشـــوب النيران . وما كان جنود بندرشاه العجزة ليقدروا على شيء بل تركوا المخربين يتصرفون كيفما شاؤوا لان اصحاب السينما جاؤوا معهم بحراسهم المسلحين بالمسدسات وبآلات الارسال والاستقبال اللاسلكية . واكثر من ذلك حيث قيل بأنهم استصحبوا كلابا دربت خصيصا لمهاجمة اي منامي تخول له نفسه الاقتراب من تلك المخلوقات الخرافية التي كانت مع ذلك اقل جمالا من بغايا الماخور وموسساته . وانما كانت ميزة تلك النشوة تتمثل في قـــوة الجذب لديهن وفي بياض بشراتهن وفي ذلك الاتجاه الذي يكشفن عنه في اثوابهن . ومهما يكن من امر فان مثل هذا الســـلوك كان مماثلا بالتشبه مختلـــف الاجهزة . وهكذا ادرك اهل المنامة ان الكاميرا الهائلة التي افزعتهم ليست آلة لصناعة الجبن المثقوب مثلما قيل لهم على سبيل التندر ، بل جهاز لالتقاط الصور المتحركة . وسرعان ما اعترفوا بأن الصورة التقليدية المتحركة لا تستطيع ابدا ان تخلف مكان عداء حقيقي قادر على الجـــري بأسرع من ظله المندفع وراءه . وكذلك الامر بالنسبة لالة التقاط الصوت التي ظنها البعض في البداية حقيبة مملوءة بالحيل ، واتضح لهم بعدها انها مجرد مسجلة اصوات اضحكت اشدهم احترازا . ومع ذلك فانهم وجدوا ان تلك الالة ليست اجدر من صوت بشري يتذبذب في الهواء ، دون مساعدة اي شيء ، ويحتفظ شديد الاحتفاظ برنته ونبرته المتميزتين الفريدتين . وبمجرد ان زايلتهم الدهشة نظروا بعين الشك الى كل ما جاء به هؤلاء الاجانب . وكان هناك بطبيعة الحال مصروفون علـــى الدوام وبهلوانيون تافهون باعوا ضمائرهم منذ الوهلة الاولى وساذجو خلقة وطبيعة ومربو الطيور العملاء في خدمة الحاكم ، بل واكثر من ذلك كان من بين هؤلاء المتعاملين المترددين من يحن الى السيرك ومن يسحق

تحت هول تلك الالات والمتغطرسون الذين يدعون بأنهم على اطلاع بأسرار السينمائيين ، بالاضافة الى اولئك الذين يغدرون بذاكرتهم واللقطاء المثرثرين المستعدين حتى لمسح احذية الاباطرة الصغار وغيرهم من ضعاف العقل والعزيمة . ولكن خابت امالهم امام اضواء الليل الامريكي الساطعة وقد راحت تستنزل الليل عندما ينتصف النهار بالضبط . اما عن الاعمال السحرية ، فان أهل المنامة كانوا يعرفــون طرفا منها وقد اصبحــوا عريفين مهرة بمثل هذه الامور والخوارق المماثلة . لذا لم يقعــوا بين ايدي البهلوانيين وبعيدين كل البعد من السقوط في شباكهم المزخرفة، خاصة وانهم متمرسون بخوارق محمد عديم اللقب وقد صنعوها الواحدة تلــو الاخرى بخيالهم الشاسع ، وبشطحات مسعودة الفريدة من نوعها والتي يطغي عليها طابع الاندفاع ، وبغرابات كلثوم بندرشاه المتمردة على كل حال وكل ظرف . وقد تملكهم السرور حين علموا بوجود واقع كاذب، غير ان ميلهم الى التناقض وحبهم للمفارقات دفعا بهــم الى ان يمطوا شفاههم من الاستخفاف في ظرف ايام معدودات . وقال محمود عديم اللقب متعجبا : « ان كانت هذه هي السينما ! فانني افضل احلامــي الملونة التــي لا تتطلب كل هذه الجهــود والوسائل ... » وكــان قد رشح للعمل على احدى الالات مقابل اجر زهيد ، ثم احجم عن ذلــك قبل التقاط المشهد الاول من الفيلم بعد ان شك ان للحاكم ضلعا في حكاية السينماتوغراف الذي لم يكن له من هدف اخر وراءه سوى استعمار البلدة مرة ثانية بطريقة ماكرة . وعندما علمت مسعودة بسلوك ابنها صرخت قائلة : « اننا لم نتخلص من السماسرة في تجارة الاكفان لكي تفتح ايادينا واسعة لهؤلاء المهرجين ! » ثم انها ذهبت تبحث عنه بنفسها، وفي المساء قدمت عرضا من الخيالة في الحديقة . فمدت ازارا ابيض واسعا استخدم لجمع دم رشيقة ليلة عرسها . وتمكن جيلالي بوحدبة من التخلي بعض الوقت عن الساعات الصقلية ليحضر العرض المثير ويضحك حتى كادت حدبته تطير . واضطلع مسؤولية الخلاصة بعــد العرض فقال : « انه طبيعي ولا يكلف شيئا ! »

على ان الاتهامات التي وجهت لبندرشاه كانت ملفقة الى حد ما ، لانه لم يكن ، والحق يقال ، على علم بذلك النزول الاجنبي . ولم يعرف الا في الغداة بواسطة الاشارات الدخانية ان فريق السينما في طريقه الى المنامة مبعوثا من طرف صهره ملك خليجية . وكان هذا منتج الفيلم الذي

يدور موضوعه حول قصة الف ليلة وليلة الرائعة حتى يبين للعالم اجمع مدى ما بلغته الحضارة الاسلامية من ذوق رفيع . وقد استحال عليه انجاز الفيلم في بلاده حيث النزعة التطهيرية والتأخر مسجلان في الدستور، فرأى ان يعتمد على صهره في الاضطلاع بالمشروع وتقديم كل العون ورفع العراقيل امام الفنانين الاجانب . وكان من المقرر ان يتسلم حاكم المنامة مقابل ذلك عمولة كبيرة كأجر على معاونته وتفهمه . وكان يعلم في قرارة نفسه ان هذا النزول الاجنبي المفاجىء يحرجه كثيرا ويعطل مشروع انفصاله عن الحكومة المركزية ، هذا في الوقت الذي استعد فيه للاخذ بزمام المبادرة ودفع المناميين على نسيان فشله الذريع في استنزال المطر الاصطناعي واستقدام الجبل الجليدي . واضطر الى التخلي عن المخطط الذي سلك عليه قلبه والدخول في اللعبة مع حليفه . وكان هذا مهووسا بالسينما الى حد ان بادر الى تحويل ذلك الانتاج الذي يطمح الى تعريف العالم الاجمع بلؤلؤة التراث الثقافي الاسلامي . وسرعان ما اعفي « فكرون » من مهمة التجسس على الحاكم ، واستعاد دوره السابق كأبله وديع في البلدة . وراح جلالته ، ملك خليجية في مراسلاته مع الحاكم يلح على ان فكرة الف ليلة وليلة تحفة ادبية جماعية كتبها شعب الامبراطورية الاسلامية العظيمة خلال العهود السابقة . وقال محمد عديم اللقب عن هذه القصة العجيبة الاسطورية بأنها من وضع فلاحي البصرة عندما بدأوا رحلاتهم صوب الهند والصين . لقد بهرتهم تلك الحضارتان ، فتخيلوا قصتهم تلك وهم في طريق العودة ، ولهذا السبب فهي تحفل بجنيات البحر والاسماك الخرافية العديدة . وما كان مثل هذا الشرح ليثير اهتمام بندرشاه ، بل ادرك انه عليه التحمس للفكرة والنزول عند رغبة قرينه وصهره . وكان القرار الاول الذي اتخذه في صالح فريق الاجانب هو انه اسكنهم في داره الخاصة لان المنامة لم تكن تتوفر على الفنادق بعد . لم يتردد المدعوون في تلبية تلك الدعوة ، وبادروا منذ الليلة الاولى الى سحق العشب بجزماتهم ، وقطعوا الزهور لكي يهدوها الى الممثلات وغيرهن من المختصات في الملابس والتجميل . واحدثوا شقوقا في الارضية الزجاجية ، وبثوا الرعب في السردين والقواقع التي حلت مكان تلك التي بددتها كلثوم بالزرنيخ ، واغتسلوا في الحوض الياباني بعد ان مزقوا زهور النيلوفر بل انهم اكلوا الاسماك نيئة على سبيل التندر ـــ وكانت مهداة الى بندرشاه من قبل حاكم جزيرة القمر الكبرى ـــ ، وعرضوا اجسادهم للشمس وهم عراة تماما ، وتناكحوا فيما بينهم ، وصبوا البيرة

الباردة في فروج النسوة الشبقات بعد ان عجزوا عن ارضائهن . والتزم بندرشاه الهدوء بل عمد الى الاصطبار وهو يرى تلك الهمجية وذلك التخريب ، ولم يبد اية ملاحظة . وبلغ به الامر ان ارسل في طلب البغايا السبع ، ووهبهن لهؤلاء القادمين الجدد الذين تقيأوا في افواههن من شدة سكرهم . على ان ذلك كله لم يمنعه من ان يكون فجر اليوم التالي في المقدمة لكي يشرف بحضوره تصوير اللقطات الاولى من الفيلم . وقد اهتم بذلك اي اهتمام لا سيما وان ذلك المشهد يصور في اعماق جنانه الواسع الذي لم يعمل فيه الاجانب يد التخريب احتراما لمتطلبات التصوير .

وقبل تصوير احد المشاهد الجريئة ، وجب ابعاد كل الذين يتدافعون في عين المكان وكل من لا حاجة اليه في العمل . كانت زوجة ملك التتار داخل القصر المبني بالورق المقوى على شكل قصور « سمرقند » تسلي نفسها مع احد ضباط الحرس الملكي . والحقيقة ان الممثلة التي اضطلعت بالدور كانت شديدة الجمال ، وتضفي من ذاتها على المشهد لكي تنجح في الاداء لا سيما وانها واقعة في حب شريكها في التمثيل . وذهلت عما حولها حتى انها بلغت ذروة اللذة ، ودفعت بالمخرج الى ثورة جنونية عارمة . المسكين ! لم يكن يريد آثارا واقعية في فيلمه ، لذلك وجب اعادة التصوير ثلاثين مرة انتهى الامر خلالها بالبطلين الى بلوغ قمة التلذذ ، ففي كل مرة يدخل عليهما الملك « شاهزينان » لكي ينتقم لشرفه ، يقومان بقفزات جانبية ويحولان دون الاستمرار في التصوير بصورة عادية . واخيرا ، فرغ المخرج من المشهد بعد ان صب مساعده مضمون الكيس المليء بخضاب الدم على العاشقين القتيلين وانتقل الى المشهد التالي . هذه المرة ، تطلب التصوير عددا من الناس . وكان على « شاهزينان » ان يفاجىء زوجة اخيه ملكة فارس وهي في ذروة العربدة مع « مسعود »، عبدها الاسود بحضور عشر من وصيفاتها انشغلن بارضاء جشع عشر عبيد سود اخرين مزودين بفحولة اسطورية تدفع اشد النسوة شبقا الى الذهول عن الواقع . وراح « شاهزينان » يتأمل ذلك المنظر من نافذة قصر اخيه التي التجأ اليها بعد ان وقع له ما وقع ! حينذاك صاح المخرج : « انتهى التصوير ! » . وعندما تقضى النهار تهاوى الجميع من التعب ، وعلم الحاكم ان خادميه الزيديين غادرا الدار حتى لا تقع انظارهما على النسوة الخليعات وهن يتقصفن بين سيقان السود ذوي العضلات البارزة . واسعفه الوقت ، فلحق بهما خارج المنامة بفضل

سرعة سيارته التي اخرجت لاول مرة من مخبئها . وكانا قد عقدا العزم على العودة نهائيا الى اهليهما .

وعرفت المنامة في ذلك المساء نوما مضطربا ، وتنهدت «شجرة الدر» قائلة لزوجها : « واخسارتاه ! لقد وددت كثيرا ان لو كنت اسود ! ولكن ، اياك ان تتضايق ، فأنت الذي اهوى » . حينذاك ، طلب منها محمد عديم اللقب : « حبذا لو رويت لي حكاية الف ليلة وليلة ! » فكان ان بادرت « الدر » الى ذلك . هل ينبغي الاشارة الى ان الملوك مخدوعون دائما وابدا من قبل زوجاتهم ؟ وان النسوة اشد ذكاء من الرجال ؟ هل ينبغي القول بأن السود اقوى واجمل ؟ لعلك تدري انها مجرد خرافات. عدني فقط انك ستروي لي بدورك الوجه الاخر من الاسطورة والجانب الاخر من المرآة في حالة ما اذا سلكت مسلك شهرزاد . عدني ان تقوم بذلك الى اخر حياتنا التي سوف تنتهي في الساعة نفسها . أريد ان اعرف حياة الشعب ، والعبودية والاستغلال ، والقصور الشامخة التي تطل على العدم ، والجلادين في الساحات العمومية ، والجوامع ذوات القباب المتداخلة وبؤس احياء الكوفة حيث ولد المتنبي . سوف نتحدث عن كل هذا فيما بعد !

لقد عرف كيف يوقف المطر بمجرد بسط يده ، وفتق اللغة العربية . الم يرد أن يكون آخر الانبياء ؟ بلى ! لقد اخضع اللغة ... كان الفرات في ذلك الزمن يندفع اندفاعا خطيرا . وكذلك كان دجلة . وعندما يتلاقيان بالبصرة يحدثان طوفانات لا ترحم احدا . من ذا الـذي ارسل لتسخير النهرين يا ترى ؟ زنوج من الحبشة وحرار وزنجبار ومدغشقر وموباسا ومن اماكن اخرى . ولهذا السبب بالذات ، فأنا اعشق السود . كان عليك ان تكون اسود البشرة . سوف اصبغك ذات يوم بآلام العبيد التي تراكمت طوال قرون . كان يا ما كان رجل تخدعه زوجته ، وكان لـه شقيق . كلا ، بل نصف أخ . وكان هو الاخر مخدوعا من قبل زوجته . هذا هو الجانب الاخر من الاسطورة ، أليس كذلك ؟ لا ، ليس بعد . اريد فقط ان اشرح لك دور الفاسقين من السود . لقد كانوا الاستثناء حقا ! ينبغي الاعتراف بأن الملوك كانوا قبيحي المظهر ، وبما انهم يمتلكون محظيات عديدات فانهم ما كانوا ليرضوا واحدة منهن . وكان السـأم يستبد بالنسوة في الحريم ، وتتنامى الرغبة في هتك المحرمات في نفوسهن.

ورأين ان مجامعة عبد اسود ابعث على الاهتياج . خطيئتان في خطيئة . وانتقامان بانتقام . ينبغي الحذر من الاساطير . اتريد الوجه الاخر من المرآة ؟ انه لا يعدو ان يكون حكاية اعتيادية من حكايات الحكم . كانت الممالك تغلق على نفسها داخل تناقضاتها . هل لاحظت ذلك ؟ القصور الملكية مبنية فوق الاهرامات دائما . وبينها وبين المناطق المأهولة لا يوجد سوى الفراغ . كذلك كانت بغداد ، ودمشق . كل حلقة مركزة تمثل طبقة . وما انفكت حدة التناقض عن الازدياد . وحدثت انفجارات وتمردات ، وحدثت ايضا ثورات بالمعنى الحقيقي ! ثورات منظمة ، مهيكلة وناجعة . ولم تكن تطلب الصدقة من احد . بل اخذت السلطة بحد السيف . اتريد امثلة على ذلك ؟ حدثت خمس منها ما بين القرن الاول من التقويم الاسلامي والقرن السادس منه . ثورة في كل قرن . هذا ما وقع بالذات ؟ اسمع ، وسجل ! لقد توقفت مسعودة عديمة اللقب عند الدكتاتوريين والمستبدين والقراصنة . وينبغي ان تضع يدها على الحقيقة . الفيلم الذي يفوز هنا هدية من السماء . حدثت خمس تمردات مسلحة بين سنة ٢٠٠ وسنة ٧٤٩ . اولا . تمرد السندباد غرب فارس ودام سنتين . ثانيا تمرد المقنع في خراسان ودام عشر سنوات . ثالثا تمرد « بابك » بالعراق ودام سبع سنوات . رابعا : تمرد الزنج في بلاد ما بين النهرين ودام خمس عشرة سنة . خامسا : تمرد القرامطة في ارجاء الامبراطورية الاسلامية ودام اربعمائة وخمسين سنة. الف ليلة وهي الغربال الذي يغطي الشمس . لو أن مسعودة علمت بالحقيقة لاستهلكت المئات من حمالات النهود ... على التوائم ان يطالعوا ولكن ليس قبل ان يبلغوا الاربعين . انه لامر رهيب ، ونحن لا نعرف انها الروايات المهذبة ، اما المخطوطات الاصيلة فهي تحت الحجر. استلبها الغربيون ، واعاد اخر الملوك شراءها . لا هم لهم الا ذلك . التلصص على الاخرين لجلب اللذة . على فكرة كان يا ما كان شقيقان مخدوعان من قبل زوجتيهما . تمعن جيدا في الحكاية . احدهما فارس والاخر تتري . وكان الحكم بين ايدي العرب . لا مساس بالعقيدة في مثل هذه القضية . وعلى اية حال ، كانا مخدوعين معا . ارادا الخروج للصيد . هل يورد سيناريو الفيلم هذا الجانب ؟. واية اهمية في الامر ! نحن امام فيلم ضخم من اخراج ماضغي اللبان المنعنع ، تتداخل فيه المشاهد على الطريقة التقليدية . لنعد الى الصيد . فلقد ابصر كل واحد منهما بزوجته تغرز في جسدها اداة سوداء جميلة شديدة الانتصاب.

وما اسرع ما استؤصلت شأفة المذنبين ، ثم جاءت شهرزاد . وعندما نامت مع شهريار المخدوع ، روت لاختها دنيازاد صولات اللذة والجماع. وقد وجب عليها ان تصمد ١٠٠١ وليلة . تأمل هذه الارقام جيدا . امرأتان اغلق عليهما بين رجلين . انها قصة اللذة والالتذاذ حقا ، من البداية الى النهاية . وفي امكانك ان تلاحظ بأنها قصة من نسج خيال البحارين . ينبغي عليك ان تقرأ ما بين الاسطر كما يقال ، ورغبت مسعودة ان تقص فزاعا على صورة الملك شهريار ، هذا الذي يكره النساء . البقية كلها عبارة عن الاحلام التي تراود الفقراء . وهي اشد ثراء من احلام الاغنياء دائما . علاوة الاحمر يرد الامور في مثل هذه الاحوال الى فائض القيمة . الحديث عن الجنس في كل صفحة من صفحات الف ليلة وليلة ، والبسط الطائرة ، وهارون الرشيد متنكر في زي متسول . ولا حديث عن بؤس الجماهير على الاطلاق . ستار . ارغب في النوم . البقية غدا . سوف تعلم كيف ان الشقيقين المخدوعين اغتصبا من قبل امرأة . وضعت جنيا في فرجها فخضعا لاوامرها . وصار كلاهما في منظور هذه المرأة المسترجلة مجرد رقمين : ٩٩ و ٩٥٥ ! وهما رقمان كانا ينقصانها لاستكمال جدول مآثرها . التاريخ لا يقول اذا ما كان كل واحد منهما رأى الاخر وهو يسعى الى شؤونه . النساء وحدهن هن اللاتي لا يعرفن الاحتشام . اوقفوا التصوير ! اشياء كثيرة يمكن ان تقال حول هذا الموضوع . ثلاث وقائع اجملت في واحدة . الف ليلة وليلة ، والزنج والقرامطة . لقد تشابكت الايام والليالي فيما بينهما . ففي سنة ٨٩٩ بادر متفقد مياه دجلة والفرات الى انشاء ثلاثين حاجزا ، تعين عليه ان يضبط مقدار اندفاعها . وسرعان ما استجلب العبيد السود وراحوا يردمون اطراف النهرين ويبسطونها . ولم يغضب مصب النهرين بعدها . وكانت النتيجة ان ٨١٦ عبدا جرفتهم المياه وقتلتهم حمى الملاريا والمستنقعات والجوع والسياط . الفرات ليس نهرا كغيره من الانهار الاخرى ، وهو يروي بلاد ما بين النهرين . هذه البلاد التي كانت اهراءات للقمح ايام الامبراطورية العربية . وعند مغيب الشمس يصير المشهد بالغ الروعة بالتقاء النهرين فيما بينهما . وانتشرت قرى الصيادين هنا وهناك ، على ان الناس ظلوا يخشون الفيضانات على الرغم من وجود متفقد شؤون المياه . وكان « النيلومتر » مستعملا في ذلك الوقت . وهو قياس عجيب لا مثيل له . ولهذا السبب بنيت بغداد بعيدا عن الكوفة والبصرة وبعيدا عن المياه الجارفة . قلت لك ان الف ليلة وليلة ليست

الا وهما من اوهام الملاحين الذين افتقدوا النسوة ما بين الصين والشام ! ستار ! البقية غدا . ينبغي القيام بعمل ما حتى نمنع الاجانب عن فرض قوانينهم . اهل المنامة ناس لطاف جدا . سوف يقعون في احابيلهم . لقد قالت كلثوم بأن هؤلاء الاجانب خربوا بيت والدها وان قاعات الاستحمام صارت زلقة بانتشار المني فيها . غير ان الشعب موجود على الهامش والعربدة ليست الا في يومها الاول . واحتجزت حيوانات الكنغورو . احرص جيدا على طيور الكاميشي . فبعد البودائيين ، سيهتم بها السينمائيون . لدينا مجال للتحرك . سوف يحتاجون الى ممثلين ثانويين ان عاجلا ام آجلا !

ولم يطلع محمد عديم اللقب على البقية . وفي وقت متأخر من الليل ، سكر السينمائيون كلهم وارادوا ان يخرجوا للعشاء في مطعم شعبي . وكان المطعم الذي نزلوا فيه مزودا بجهاز تلفزيون ذي بطاريات. يتعين على كل من يتناول العشاء ان يدفع مبلغا محددا لكي يكون له الحق في مشاهدة المسلسل الامريكي . وقال مدير الانتاج ان مثل هذا المبلغ غير وارد في قائمة المأكولات . على ان الطباخ كان تاجرا ذكيا فقبل ان يناولهم العشاء دون دفع الضريبة الخاصة . شريطة الا يعمدوا الى الخداع باستراق النظر الى جهاز التلفزيون الموضوع على رف يكاد يلامس السقف ، والمزين بستار من المخمل القرمزي يرفع عند بداية العرض . وتمت الصفقة ، وكلما فاجأ صاحب المطعم احد الاجانب وهو يصوب عينه نحو الجهاز ، اعاده الى مكانه بنقرات خفيفة على ظهره بعصا طويلة من الزيتون . ووجد الزبن هذه الحيلة مسلية فدخلوا اللعبة . تنظر واضرب . وبادر الطباخ وقد اهتاجت اعصابه بعض الشيء الى عصاه ، ووضع طرفها بين ثديي ممثلة اضطلعت بدور كاتمة اسرار زوجة الملك شهريار . وغضب عشيقها ، فكسر عصا الطباخ . واطلع الزبن من اهل البلدة على الحادثة ووقفوا الى جانب صاحب المطعم . وحدثت المجابهة ، ثم ان الاجانب اشهروا مسدساتهم ، وقتلوا عددا منهم واطلقوا النار على جهاز التلفزيون فانفجر . كان ذلك اول اشتباك من نوعه . وفي نفس الليلة لقيت سلاحف « محمد عديم اللقب » مصرعها بعد ان كان يدربها على خوض بطولة العالم . فقد زحف عليها وباء غريب . وبعد وقت طويل من تلك الحادثة ، اكتشف محمد عديم اللقب سر اللغز ، ففي اليوم الذي دفن فيه والدته ، علم ان هؤلاء الاجانب

كانوا قد جاؤوا بجرائيم راحت سلاحف اخيه ضحية لها . اما سلاحف والدته فقد سلمت من العدوى لانها كانت طاعنة في السن وبالغة العناد على غرار مالكتها .

كان اليوم الثاني من التصوير مقصوراً على مشاهـد خارجية . واستخدم المناميون الذين اغتيلوا في المطعم لمتطلبات الفيلـم وذلك بأن اضطلعوا بدور اموات يتعفنون في الصحراء . وقد ظن الناس لوقـت طويل ان الامر لا يتعلق الا بنوع من التشبيه ، وان الجثث المعنية ليست الا شخوصا ثانوية عرفت كيف تجيد ادوارها . واعتقل الطباخ من قبل فرقة مراقبة الاسعار بتهمة رفع الاسعار بطريقة غير شرعية . وبما ان شهود المأساة قد اغلق عليهم الى الابد ، فان احدا لن يطلع على الكذبة الهائلة . لكن رائحة الجثث بدأت تعفن الجو ، بينما راح المتسكعـون المعتادون يستفسرون بعضهم البعض . حينذاك عمد عملاء المحاكم الذين توزعوا على اماكن استراتيجية من البلدة الى بـث شائعات مفادها ان السينما الجديدة الحديثة ليست الا ما يراه الناس امامهم . وهـي لا تقتصر على لذة العين والاذن بل تشمل الانف ايضا . وما قال احد شيئا. فقد جاء الشرح محتملا ، لان السينما قادرة على اتيان العديد من الخوارق والسحر حتى ان كل شيء صار ممكنا بهذا الابتكار الشيطاني . ولم يكن احد بالمنامة قد راى فيلما في حياته . ناهيك بأن يكون قد حضر اعمال التصوير من قبل . ووقف الناس كلهم عند هذا الحد . وعندما بـدات الجثث تنتفخ بفعل الحرارة ، وتثقبت بشراتها بكريات صفراء انفجرت بصفير مخنوق ، صفق بعض المتفرجين لذلك التفنن الذي لا يبلغه الا الممثلون العباقرة . وكان احد هؤلاء قد لقي مصرعه خلال الليلة الفارطة ويسمى « الاخضر السكة الحديدية » ، لانه الرجل الوحيد الذي ركب القطار في صباه حينما كان يسكر باحدى المدن الكبيرة . وعندما جعل جسده يتقيح بفجـوات صغيرة من سائـل اصفر ، وقـف اخوه بين الفضوليين ، واراد ان يعبر له عن فخره واعتزازه ، فحمله بكل سرور قائلا : « انك احسن من بيرت لانكستر . ولكن توقف عن صمتك هذا ! سوف تموت موتا نهائيا ان واصلت هذه اللعبة . وسوف تلومني امي كعادتها كلما ارتكبت حماقة من الحماقات ! » . على ان جيرانه الاقربين اسروا له بالسكوت ، لانه يحرجهم في تجليهم ذاك . واوقف مهندس الصوت مسجلته ، واندفع نحو الجاني ، وانهال عليه بالصفعات حتى افقده وعيه

وحمل من قبل جنوده بندرشاه الكتعان . ثم غاب عن الساحة كل الغياب . وعند عودته الى اهله روى بأن اخاه ذهب مع احدى نجوم الفيلم ، ولن يعود بعد ان ذاق الان حلاوة السينما . حتى وان كان قد استطاع بدور جثة متعفنة فقط . اما الجثث الاخرى ، فقد ترسمت خطواته ، ولامها المناميون على مغادرتها البلدة ، في حين اصبح عليها الان بعد ان برهنت على موهبتها في التمثيل ان تنشىء فرقة مسرحية ، وتنشط الحياة الثقافية . خاصة وان هذه الحياة لا تكاد تتجاوز اشكال الترفيه البالية مثل مصارعات الاكباش والعاب الدومينو . ومهما يكن من امر فان المنامة لم تعد هي المنامة . فبالاضافة الى الازقة التي تحولت الى بحيرات ، والصحاري التي صارت مستنقعات ، نصب المختصون في الديكور والمهندسون في ظرف ليلة واحدة جبلا هائلا من المغناطيس داخل بحيرة من الورق الصقيل ، وراحت سفائن من الاسفنج المركب تسير عليها وتتفكك كلما اقتربت من الجبل . لقد توفر الجبل على خصائص لاجتذاب المسامير وغيرها من الشهمذ والزنك والنحاس والصلب ، وبمجرد ان صورت السفائن المفككة ووضعت في الصناديق تنوسيت تماما . اما عربجيو المنامة ، فقد نظروا الى دواليبهم وهي تنفصل عن عرباتهم ، في حين ان الاطفال وهم في طريقهم لشراء الحليب ، اصيبوا بالروع حين ابصروا بمواعينهم الملأى والفارغة على حد سواء تطير من بين ايديهم بقوة اعصار . وسيطر الرعب على اجراء الحدادين جين لاحظوا ان سلعهم من القدور والاواني قد غابت كأنما بمفعول السحر . ولم يكن للشكاوى التي رفعت للحاكم اي تأثير ، لان كل واحد اجيب بأنه لا يمكن هدم الجبل المغناطيسي بأي حال من الاحوال . فالمصورون سوف يحتاجون اليه في الربط بين اجزاء الفيلم . ونال السأم من اهل المنامة اي منال ، فاثروا التحايل على التوحش . واضطروا الى ان يتخذوا طريقهم خارج الاسوار لكي ينتقلوا من مكان الى اخر . وفرضوا على انفسهم تحويرات مذهلة لان المنامة محاطة بأربعين كيلومترا من الاسوار القديمة تنتمي الى اساليب وعهود مختلفة . وعثر ذات صباح على عجوز ذي رجل حديدية وقد التصق بالجبل حيث لفظ روحه لانه اصيب بدوار عنيف . وبعد بضعة ايام ، توجهت طفلة الى المدرسة ، واذا بعقرب يلدغها خارج البلدة . كانت البلدة محصنة تماما ضد ذلك النوع من الآفات فاضطرت الى القيام بانعطافة وراء الاسوار . وتلقى والدها تعويضات من قبل مدير الانتاج ، وما اسرع ما تنوسيت القضية مثلما

حدث للعجوز . على ان مسعودة عديمة اللقب وحدها هي التي مزقت اثنين من حمالات النهود لشدة ما قرقعت بهما عندما بلغها نبأ هـؤلاء الاموات جميعا . وصرخت قائلة : « لو سرنا على هـذه الوتيرة لكان مآلنا الموت ! اتمنى الا يجيئوا فيطلبوا مني الاحتياطي من دم الطمث ... انهم قادرون على كل شيء ! » .

اما محمد عديم اللقب ، فبعد ان استشار زوجته وامه وصهره ماسح الاراضي وصهره الساعاتي وصديقه الاسكافي والتوائم الاخرين فقد عقد العزم على ان يدع الامور تتعفن . ومن البديهي الان ان اهل المنامة منبهرون ومصابون بالروع امام تلك الايادي التي تعمل في الواقع تشويها وتحريفا على الرغم من البسمات التي ترتسم على شفاههم لا سيما وانهم وجدوا ان الطقس قد تحسن ومال الى الرطوبة ، وان الرياح الرملية صارت نادرة بالاضافة الى ان وجود النسوة الاجنبيات بينهم جعلهم يؤملون تذوق البشارات القادمة من جهات اخرى . وزعم بعض المتغطرسين انهم نالوا حظوظهم منها ، وان فروج تلك المهور القادمة من الشمال مزودة بما يشبه السلالم . واعلن « فكرون » احمق البلدة الذي يتجسس لصالح عصابة عديم اللقب : « لا يبذل الرجل اي جهد مع تلك النسوة فسرعان ما تصعد الى قمم اللذة ! » وتضخمت الاسطورة على مر الايام بتقدم عملية التصوير . غير ان محمد عديم اللقب كان يتوجه بدوره بتعداد الاموات خلال اليوم الواحد . ولاحظ ان ذلك كله ناجم عن اهمال المسعورين . وروى البعض عن تلك المخلوقات العجيبة ان كل جزء من اجزاء اجسادهن منبع للذة القاتلة . في حين كانت الاخريات تحب لعق ذكور الرجال . وهي ممارسة تكاد تكون نادرة في المنامة حتى لدى نزيلات الماخور . وهمس البعض منهن انهن يحببن شرب بول العشاق بعد التلذذ . وذهب احد الناس الى حد التأكيد بأن نجمة الفيلم التي اختطفته من الزقاق لها فرج في الظهر ، وتحمل بين ساقيها ذكرا صغيرا . على ان اشدهم ذكاء وتوقدا علموا انه ما كان احد ليجرؤ على الاقتراب منهن . وهن على الرغم من جمالهن واجسادهن الرائعة لا يساوين جمهرة الباغيات البابليات اللائي نشأن على تقدير وتقديس اغـرب الممارسات الجنسية واقدم الطرق الاباحية واجـرأ اشكال السحاق ... وقد ظللن يأتين سباعا ، ويقضين سبعة ايام بالمنامة ثم ينطلقن من حيث جئن بعد ان تأتين على قوى كل زبائنهن . ويحملن معهن روعتهن ووشمهن

الذي يفصلهن الى جزئين اثنين بدءا من اعلي الجبهة الى مدخل الفرج . وفي اليوم العاشر من التصوير ، التقطت مناظر المدينة النحاسية التي تغرق كل غريب يريد الدخول اليها . وهي المدينة التي روت شهرزاد قصتها للملك شهريار في الليلة الواحدة بعد المئة . وظن محمد عديم اللقب وانصاره ان الوقت قد حان لجماهير البلدة لكي يستيقظوا من سباتهم ، ويدركوا الاضرار التي تسبب فيها الفيلم . فهم لم يفقدوا الحس بالواقع فحسب ، ولكنهم لم يعرفوا ابدا من اين يتعين عليهم ان يبداوا الهجوم . وظلوا غير مكترثين بالناس الذين لاقوا مصرعهم عرضا او عمدا . ولم يبدوا اي قلق بشأن فقدان عشرة من مواطنيهم اشتهر عنهم انهم مصارعون اشداء ولا يقهرون في لعبة الدومينو والمراهنات على السلاحف التي دربها امحمد عديم اللقب . ولم يعودوا يشهدون صراع الاكباش ، واحجموا عن تنظيم مسابقات غناء الطيور ، وعن تشريف اجساد زوجاتهم او بغاياهم اللطيفات . وامتنعوا حتى عن فهم الحقائق اليومية ، ولن يدركوا انهم ضحايا تزييف يخفي وراءه مقلبا من مقالب الحاكم الذي حلم على الدوام بأن يمنح نفسه لقب امير المؤمنين . ولكنهم ظلوا معجبين بتلك المدينة النحاسية من مدائن الف ليلة وليلة ، وصدقوا تصديقا قويا انهم اذا دخلوها ذهبت اعمارهم الى الابد في حين ان المدينة ليست الا بناء من اللبنات الاسمنتية والورق المقوى الذي ما كان قادرا على اغراق اي انسان . على ان الطليعة المتسيسة في البلدة ادركت ان الامر لا يتعلق الا بمزاج المناميين المتوخز الملتهب ، وعرفت انهم بالغو الحساسية لكل ما يقال لهم الى حد الذهاب الى الموت محمولين على اجنحة كل ما هو اسطوري خرافي . وكان هذا المشهد اقتل المشاهد كلها. اما الاجانب بقيادة المخرج الرهيب ، ومدير الانتاج السادي فراحوا يوظفون الشخوص الثانوية التي تفننت في التمثيل حتى انها تعالت فوق قوانين اللعبة السينمائية والمسرحية ، وعاشت ادوارها قلبا وروحا فكان ان لفظت ارواحها بمجرد اجتيازها حدود المدينة النحاسية . فمن لقطة كبيرة قاتلة الى مشهد امريكي مميت . وادركوا انهم يحطمون حدود الاصالة ذاتها وان فيلمهم ذاك سيتوفر على عجينة الواقع التي لا يمكن استبدالها بأي حال من الاحوال .

ومع ذلك ، فان محمد عديم اللقب قد ذهب به الظن ان واجهة تلك القصة في مثل لمعان البلور ، ومن ثم فانها قد تغلب الامور راسا على

عقب ، ويمكن حينذاك لمواطنيه ان يستعيدوا حدة وعيهم الاسطوري وتحيزهم المتزمت وولعهم بالمتناقضات . وكانت اسطورة مدينة النحاس التي تغرق كل غريب يريد ان يفض بكارة امنها تنطوي على بعد سياسي. فالعلاقة بين سلوك السينمائيين ومحاولتهم السيطرة على البلدة ظاهرة للعيان . ولكن الاشياء لم تبلغ النضج بعد . كلا ! ثم ان اهل المنامة لم يعرفوا الى الراحة من سبيل ، وعاشوا انذاك تمزقات داخلية ، وتناقضات مؤلمة . لقد تارجحوا بين وطاة السحر التقليدي وذلك السحر الحديث . ولم يدركوا اين ينبغي عليهم التوجه ولا كانت لهم ردود فعل ازاء تلك السيطرة الماكرة على ارضهم وحياتهم واستقلالهم . ومن ثم وجب ترك الامور على حالها لتزداد تعفنا . ورأى الاسكافي العجوز أن هناك اموانا كثيرين وانه ينبغي القيام بعمل ما لايقاف التصوير ، وطرد الاجانب ، وكسر العناء ، على ان الساعاتي كان على راي صهره : فالتاريخ يصنع بالدم ! والا فان الثورات التي لا تأخذ بأسباب الحزم تنتفش بسرعة وتزول . وتم الاتفاق على شحذ المتناقضات في أوساط الناس وعلى استثارة حماسهم لان الامانة والاخلاص سوف يؤديان بهم ذات يوم الى نفض غبار الخمول عن انفسهم « سوف تحدث القيامة حينذاك ! وسوف ننظف عتبة دارنا ... » . وارادت مسعودة الاطلاع على هذه المدينة النحاسية . وعندما اقحمت أصبعها في احد جدرانها ، فرغ البناء البلاستيكي المنفوخ من هوائه ، وتهاوى ارضا امام اعين الحاضرين المشدوهين . وقالت متعجبة : « يا للغرابة ! الدي سبابة أم جرار .... » ولم يتجرأ احد على مقاطعتها خوفا من عنفها . عندما غادرت المكان ، بادروا الى اصلاح الخسائر . على ان السذج منهم تجنبوا الوقوع في الفخ مرة ثانية . فكان ان دخلوا تلك المدينة منذ ذلك الحين للقيام بدور الشخوص الثانوية . ولم يعد احد يفكر في الموت بها.. وحققوا بذلك انتصارهم الاول . أرو لي حكاية مدينة النحاس ! استطاعت الدر ان تستعيد اسمها المصغر اللطيف . وانطلقت قائلة : « كان يا ما كان ، دولتان تتصارعان على السلطة . الامويون ضد العباسيين او العكس . وقد انتصر الاخيرون ، وسرعان ما خانوا مبادئهم واخلفوا الوعود التي قطعوها على الشعب . فوجب حينذاك التمويه : لهم القصور والاماء الجميلات والقمر والشمس والفتيان المستوردون من اسكندينافيا. اما الشعب فله الحلم . تلكم هي الف ليلة وليلة . لقد كتبت ولا شك من قبل الشعب لكن ليس في مجموعها . استعملها العباسيون كاشهار

دعاني . وخصوا انفسهم بالدور الاجمل فيها . وراح كتابهم يقومون بالتشذيب والتهذيب ، فاستعيدت القصة ، وصار جانب الاعاجيب فيها يلعب دور الكلوروفورم . الواقع ان الحياة كانت في الجانب الاخر . سوف احدثك عن الزنج العبيد . وسوف تفهمين ، يا مسعودة ، السخية ... ولكن اياك ان تبكي ! اتعدينني بذلك ؟ كان يا ماكان بنت لاحد الوزراء تدعى شهرزاد زوجت بملك كان عليه ان يقتلها بعد ليلة العرس اسوة بما فعله بالفتيات الاخريات منذ ان خدعته زوجته مع عبد اسود . غير ان هذه الزوجة الاخيرة ارادت ان تتنصل من الموت ، فاستعملت شلالات لعابها وروت اي شيء خطر على ذهنها . ذلك ان اباها رباها على ان الملوك اطفال كبار يحبون القصص العجيبة . وهكذا شقت طريقها راسا نحو مبتغاها ، ونسجت من خيالها قصصا جيدة حتى انتهى بها الامر الى استلطاف الملك ، فرجع عن قراره بقتلها وبابادة غيرها من النساء الاخريات اللائي يقضي معهن ليلة العرس . ذلك هو درس الانوثة الاول . وانقذت شهرزاد بنات جنسها من الذلة والابادة. ولم ترو للملك شهريار الا ما راق في ناظريها : رحلات السندباد الخارقة. المدن التي تمشي عندما يدفعها الانسان . الجبال التي تحيد عن امكنتها. الامراء وهم ينظرون الى الشعب من ثقب الباب . العشق الفاسق . البيوت ذوات الجدران من الذهب الخالص . المصابيح القادرة على اضاءة العالم . الصيادون الذين يكتشفون اجمل لآلىء الكون . الفقراء الذين يهبون اثمن ما لديهم للملوك . القرود التي تمتلك فن الحظ . الببغاوات التي تبيض بيضا ذهبيا . النسور التي تحمل مدائن بأكملها على مخالبها.. على ان الشعب لم يكن موجودا في تلك القصص او هو يوجد بها للتدليل على كرم السلاطين والاثرياء . كان يا ما كان ، عبيد سئموا الاضطلاع بالادوار الثانوية في الف ليلة وليلة ، وتجفيف المستنقعات ذات الروافد المتفرعة عن دجلة والفرات . فقرروا الاخذ بزمام المبادرة ، وتكذيب ترهات الطائر الازرق . كان ذلك عام ٢٥٥ من التقويم الاسلامي . وشنوا هجومهم فبددوا الامبراطوريات . على ان اغرب ما في الامر هو ان رئيسهم كان ابيض البشرة . سوف اروي لك فيما بعد وقائع الزنج واعمال علي بن محمد . اما الان فهناك هذا الفيلم الذي قلب احساسنا بالواقع راسا على عقب . لم يعد اهل المنامة يدرون الى اين يسيرون . لقد صاروا يتمايلون في مشيهم ويمضغون الشوينغوم . سألت مسعودة : « ما هو الشوينغوم ؟ » انه رمز . مثل . بل هو يشبه اللصاق الذي

يتعثر عليه الذباب .

وماذا عن قفا التاريخ ؟ المنامة ترزح تحت نير الاجانب ، ولم يعد لمسعودة الوقت للتفكير في طاحونتها ، غير انها ما زالت تتابع سقي حديقتها ، وتقليب ارضها ، وتشذيب الاشجار ، ومراقبة الساعاتي الذي انشغل بفحص آليات الساعات الجدارية العقلية . هو ايضا يروي الجانب الاخر من الاسطورة . كان هناك رجال حاولوا مقاومة الخرافة والسحر بل وحتى الاديان . كانوا في غالب الاحيان مرتبطين بالحركات الثورية . واستطاعت مسعودة ان تعلم الاشياء الكثيرة عنها فيما بعد . اراد المتنبي ان يبرهن بأن الله لم يكن الا فزاعا اشهره الاقوياء للابقاء على الرعاع بعيدين عنهم . ونجح في ذلك. وبدأ ينظم اشعارا قلبت قوانين الشعر راسا على عقب رغبة منه في البرهنة على آرائه تلك . كان يعشق الخيل . والليل . والبيداء . والسيف . والرمح . والقرطاس. والقلم . ثم انه اوقف المطر ذات يوم حينما راح يتساقط بغزارة . فحبس في مستشفى عقلي يشرف عليه الرازي . وكانت لهذا ايضا افكار اصيلة حول مسألة الله . فلقد اعتبر ان الانبياء مشعوذون . وفي سنة ٣٢٢ استطاع ان يقابل الشاعر في سجنه . من اثر على الاخر يا ترى ؟ كان الطبيب منشغلا بأموره ، في حين ان الاخر ظل يتمتع بكامل وقته ، يكتب كما يتنفس بجودة وسرعة . وكان الرازي قد فتح اول مستشفى جدير بهذا الاسم . وفهم أن مرض « بوحمرون » لا علاقة له بالحصباء . وابتكر علم الصيدلة كعلم ، واستخرج الزنجار وغيره من انواع الاوكسيد والرصاص والزنك والنحاس وكبريت الزئبق والصودا الكاوية وغيرها من انواع كبريت الكالسيوم . لا دخل للخرافة في هذا المجال ! وكان الاثنان منتسبين الى حزب ثوري يعمل في اطار السرية انذاك . لكن كان هناك عالم اخر هو الكندي الذي حمل قوس قزح في راسه . واعطى شروحا علمية عنه سنة ٧٣٧ هجرية وهي السنة المصرية التي رأت اندحار اخر الحركات التمردية اندحارا نهائيا . ذلك هو نقيض كل ما يمت الى المعجزات بصلة . لقد اعاد الجميع خلق العالم . وصار الساعاتي معينا لا ينضب . وماذا عن نظرية الارتفاع الشمسي المرتبطة بحركة النجوم ؟ لعلها تكون قد وضعت في الوقت الذي راحت فيه شهرزاد تروي خرافاتها على مسامع الملك شهريار . ومهما يكن من امر، فان الاجانب قد عجزوا عن فهم اي شيء . وهم على اية حال ما كانوا ليصوروا الشعب وهو يصطخب ويلفظ انفاسه تحت نير القمع والضرائب

وحق الليلة الاولى والعبودية ويواجه مختلف انواع المشارين . كان والد المتنبي سقاء بالبصرة ، ومن ثم فانه من الطبيعي ان يوقف ابنــه المطر ، ويحمل حياته محمل الجد . لا نبي بعدي . انا الاخير ! وزج في السجن ، حيث جعل يستقبل الكندي الفيلسوف الملحد ، مبتكر نظرية المرايا المحترقة والوجود المادي للضوء . ذلك هو الوجه الاخـــر من الصورة . الف ليلة وليلة رائعة ! لكن ليس كل شــيء موجودا بها . وانشغل السينمائيون بقلب واقع التاريخ وتشويهه . لا يعدو الامر كونه تهويما من تهويمات البحــارين الذين أفرطوا في الشــرب . أما ما هو جوهري فيوجد في مكان اخــر .

وأطلع آل عديم اللقب على حقائق كثيرة . وهي نفس الحقائق التي ادركها جيلالي بوحدبة ورشيد بناصر وعلاوة الاحمر الذين انضم اليهـم المعلم علي الفقيه بعد أن نسي خصامه مع محمد حول الرسائل التي يكتبها للاميين من اهل البلدة . والواقع ان مسعودة حين اقدمت على تنفيس مدينة النحاس انما ضبطت الامور كلها . وخرج اهل المنامة من حالــة الغيبوبة ، وادركوا انهم ذهلوا عن انفسهم طوال اسبوعين الى حــد الا يكترثوا لغياب افضل لاعبي الدومينو والمتراهنين علــى السلاحـف الاولمبية . وجاءت ردود فعلهم عنيفة ، فخربوا الديكور . وتخلصوا من اوهامهم ، ولم يعودوا يرغبون في العمل بلا مقابل ولا الموت حبا بالسينما؛ وادركوا هول الانشقاق والخصام الذي نشأ بينهم منذ وصول فــريق السينما . فهم الذين لم يهتموا الا من بعيد بالدراهم ارادوا ان يربحوا اكبر حصة منها . وهم الذين عرفوا بعزتهم على بعد فراسخ من حولهم ، تحولوا الى سماسرة . لقد نسوا نساءهم ، ودود القز ، والحاكم الذي يمضي حياة هنية ، وينتقل من حضن اجنبية الى اخرى ، ويسقي حديقته بالويسكي حبا منه في التباهي . لم يحدث رد الفعل فجأة . وبعد بضعة ايام شعر المخرج بالحاجة الى الف من الشخوص الثانويين . وما كانت تلك الشخوص لتتلقى أجورا مقابل عملها ذاك ، بل يكفيها فخرا ان تظهر اسماؤها على الشاشة في قاعات السينما عبر العالم . غير ان هــذا الاقتراح وضع النار في الفتيل . ولم يكتف المناميون هذه المرة بتخريــب الديكور ، بل اغتالوا الممثل الرئيسي في زقاق مظلم عند هبوط الليل . المجابهة الثانية . وتوقف الفيلم مؤقتا ، وتعثر التحقيق . ثم ان بندرشاه قرر ان يتخذ رهائن من اهل المنامة ، ويعدمهم ان هم لم يكشفوا عن

القاتل في ظرف ثلاثة ايام . ووضعت مسعودة حجابها وقصدته . وسألته عن عدد الناس الذين ينوي اعدامهم اذا لم يكتشف الجاني . فكانت اجابته واضحة : عشرة . قالت مسعودة : « انني افهم . فلا داعي ان تضع رسما لذلك . ابنائي لم يقتلوا احدا . ولكن لو مسست ادنى شعرة من واحد من اهل المنامة لافشيت السر الذي بيننا » . ونطح مكتبه براسه ، لانه كان قد نسي كل النسيان هذه الحكاية او الوصمة التي لا تمحى ابدا . « هذا ثمن عملك كبراج في احد المواخير . اخطاء الشباب لا تذهب سدى ! » وفي نفس الليلة ، اعلن بواسطة مكبر الصوت ان تشريح الضحية اثبت انها انتحرت بمسدس في زقاق مظلم . واسكن ملف التحقيق ادراج النسيان . وسرت مسعودة عديمة اللقب ايما سرور . وقرقعت بحمالات نهديها من الفرح ، وقالت : « تصوروا ما كان سيحدث لكم لو انني لم اكن موجودة ! » واستؤنف تصوير الفيلم ، ولكن الشخوص الثانوية طلبت ان يدفع لها حسابها بالعملة الاجنبية . وبالسعر النقابي المعمول به في البلدان الثرية . وتعجب مدير الانتاج من مثل ذلك الطلب ، وقال للحاكم : « لقد وعدنا بأن الناس طواعيون جدا بالمنامة ولا يختلفون الى النقابات ، ولا يتعاطون السياسة . ولولا ذلك لكنا ذهبنا الى بلاد اخرى ، حيث اليد العاملة رخيصة جدا » . فسرد الحاكم بأن الازمنة قد تغيرت ، وان اهل المنامة لم يعودوا ناسا مؤاتين ، ثم انكمش على نفسه وقد استبدت به كآبة بنفسجية . واستشير ملك خليجية ، فقرر انه ينبغي تلبية الطلب في اطار من السرية التامة والعمل على الا تنتشر الفضيحة . وامر بمواصلة التصوير بأي ثمن كان ، وعدم القلق مطلقا لما قد يتطلبه الفيلم من تكاليف ، فالاموال لا تقدر والحمد لله! لكم يتمنى بندرشاه ان يرى في الحال مبلغا كفيلا بتغطية احتياجاته كلها في حسابه ببنك زوريخ . وكان ملك خليجية يستخدم شيفرة سرية ، فأرسل اشاراته الدخانية الى نسيبه قائلا : « سوف نوجه لهم الضربة ذات يوم . ليلى رائعة ! وهي حامل الان ! » .

يوم الجمعة هو يوم الراحة بالمنامة ، بما في ذلك الطيور التي سلمت من ايدي الاجانب . وكان هؤلاء قد راوا طيورا غيرها وامتلكوا دائما فصائل عديدة من الطيور النادرة الجميلة . اما « الدر » فقد جرت وراءها في بداية الظهيرة فزاعا ممزقا ، وخطت دائرة وسط الحديقة وجلست داخلها . ثم راحت تصلح الفزاع بعد ان احاطت نفسها بتوائمها

الاربعة الذين انشغلوا بأكل كليتي ثور مليئتين بالثآليل . ولم يكن ذلك الفزاع الا على صورة بندر شاه . ولم تمر عليه يد الاصلاح منذ ان علقته « مسعودة » قبل زواج محمد عديم اللقب . وطفقت النباتات تعطر الجو، فيما راح ابناء مسعودة يبنون الطاحونة التي رغبت فيها امهم منذ زمن بعيد . وانشغلوا بمعملهم ذاك ايما انشغال . وكان احمد ماسح الاراضي صاحب نظرة ثاقبة ، وعلى نفس الحب الفاسق لشقيقته مليكة على الرغم من زواجه بأخت رشيد بناصر وانجابه لعدد من الاطفال . أما « أمحمد » فكان شخصا موهوبا متفننا في الكسل والتقاعس منذ ما عاد له سلاحف يعمل على تدريبها . في حين أن « حامد » ما كان يغادر حجر امه ، واكتسب عادة مداعبة اعلى رقبتها . وظل « حميد » مفتونا على الدوام بكلثوم ، وتخلى عن طوابعه البريدية مؤقتا . ولم يعرف « حمده » اين يضع نفسه ، ولا اين هو ، في وقت تقاعس فيه «حمدان» مثل اخيه « أمحمد » مع فارق ضئيل وهو انه لا يحب السلاحف . وكان هناك « حمود » الذي يؤثر المقاهي والماخور على الدار و « محمود » المهندس الحقيقي الرئيسي في العائلة كلها و « حمادي » اخر من في السلالة ، هذا الذي واصلت امه ارضاعه بكل سرية على الرغم من انه بلغ الخامسة عشرة . « محمد » وحده هو الذي كان لا يضطلع بأعباء العمل المادي لانه اعتبر مثقفا ، ثم انه بحكم مولده منفردا غير قادر على العمل الجماعي . وبعد الفراغ من تمتين دعائم الدار والقضاء على الديدان وغيرها من القوارض ، بدا الجميع ، بأمر من والدتهم ، يركبون اجزاء الطاحونة ، التي كان من المقرر ان تعمل بالطاقة الشمسية ؛ وان تكون لها تويجات هائلة من زهر عباد الشمس بدلا من الاجنحة . وحينما راحت « مسعودة » ترتق فزاع الحاكم بعد ان انهالت عليه طعنا وتمزيقا ، صوبت « الدر » نحو توائمها نظرة رؤوفة ، وانتقلت من الظل الى الشمس تبعا لتحركات اخوة زوجها الذين انهمكوا في اعمالهم ، وجعلوا يتخطون بين الفينة والاخرى سلحفاتي امهم الهرمتين . ثم انهم خلطوا الاسمنت والحصى ، ونادوا الطيور ، وتحدثوا عن تصوير الفيلم، وعرضوا لقضية تبريد البيت ، واطالوا الكلام عنها لان حرارة ذلك اليوم كانت شديدة في الحديقة . في تلك الفترة ، راح الزمن يغلي اكثر من المعتاد . مع ان اهل البلدة راوا ان الهواء صار اشد رطوبة منذ وصول فريق السينما . فقد هبت نسمات عليلة نادرة من نوعها في المنطقة . وقالت مسعودة وهي تنزل من ورشة الساعاتي المنهمك في

« لقد خربوا الطقس . يوم حار يتلوه يـــوم بارد ! ولكـــن اين أخوكم الأكبر ؟ اتمنى الا يقتل خفية على سبيل الانتقام ! كل شيء ممكن مـــع بندرشاه المجنون ! » . وفي الواقع ، كان الزمن يقفز قفزا ! الحرارة تطفو بغيمات غليظة متكتلة متماسكة ، وتثقب الجو بكريات مـــن الغبار . وجلست كلثوم بمعزل عن الانظار في مكان مـــا من دار عديم اللقب ، وراحت تكتب رسالة عن انتهاء العلاقة بينها وبين حميد . قالت بأنها لا تجن على الرغم من الجهود التي بذلتها في هذا السبيل . وأنها لا تزال تميل اشد الميل الى الأخ الاكبر ، وتخشى حين زواجها منه أن يقع في روعها ذات يوم بأنها تنام مع الرجل ذي الابهام المقطوع . ورأى حميد ان مشاكل الفيلم قد أثارت أعصابها ، لكن هذا لم يمنعه من أن يظـــل وحيدا . ولم يعد يتمتع برعاية أمه بعد ان وعدته بأجمل بنت في المنامة كزوجة . وضعفت بنيته ، وصار حساسا مشاكسا ، ولكنه أحسن صنعا حين راح يدفىء نفسه بحرارة ذكرياته الجميلة مع كلثوم . كان يمارس العادة السرية في المراحيض ويفكر في القبلة الوحيدة التي منحتها اياه . والحقيقة هي انها لطخت قلبه على الدوام بزرقة النيلة . وظـــل يحلم بلعابها الذي بسطته على لسانه المنتفخ في تلك الفترة السعيدة من فترات عمله في ابصاق الطوابع البريدية . وانكمش على نفسه ، واقسم الا يتزوج أبدا . وشارك ، وهو المسالم ، في صراعات الازقة التي دامـــت عدة اشهر بين الاجانب واهل المنامة . اما كلثوم التي تنسمت خطورة الحالة التي آل اليها حميد فقد بررت سبب تراجعها ذاك بقولها : « لا قوة لي ازاء مثل هذا الامر . حبذا لو انه توفر مثل أخيه الاكبر على كاميشي مكان القضيب ! »

ولكنها ظلت تحب محمدا . فمن ذا الذي يستطيع ان يتحايل على حله بتلك الطريقة ، ويقاوم السيطرة الاجنبية ، ويقطع ابهامه لجـــذب الاهتمام ، ويعطي دروسا في الموسيقى لطيور البرازيل ، ويتحدث مع جده حين يتمتعه السكر ، ويحطم الضحكات والقوقعات الى اثنين ، ويتسامى على قوانين الفيزياء الفضائية بالقضاء على المنعطفات التي تضيق حين مروره ثم تنطلق في خط مستقيم نحو الافق ؟ من ذا الـــذي يقوى على ذلك ؟ ثم من ذا الذي يتوفر على معارف العلماء كلهم ويتحدث السريانية والآرامية والكلدانية ومصريـــة البردي والعبرانية والبابلية والبربرية وهو يخرج من بطن امه ، ويقوم بأبحاث حول الطريق التي

سلكها ابن خلدون ، ويمارس الحب بطريقة عجيبة حتى يخيل لشريكته ان شجرة سيكويا من خمس وعشرين مترا تنبت في رحمها ؟ محمد عديم اللقب دون سواه ! وقد عاد ذات مساء ، وأعلن بأن الاضراب انتهى وبأن التصوير سيستأنف في اليوم التالي .

وبعد بضعة أيام استقر « حميد » بالماخور لكي ينسى الفشل الاخير الذي مني به . وافرط في الشرب حتى انه راى أمامه معازا ونعاجا وسلاحف ويمامات وهي تخرج من بالوعة دورة المياه حيث تقيأ امعاءه ويأسه . واحس بأحشائه تتكور في اعماقه وتلتوي على نفسها . والحقيقة انه منذ ان سمع ذلك الخبر من كلثوم نفسها وهو لا يستطيع التغلب على خيبته، لا سيما وان الآمال التي كانت على مرمى يده انطوت مع صفحة النسيان وتقلبات الحياة الخاطفة . وهو على اية حال عاش حياة هنية في ظن امه العظيمة ذات القلب الضخم ضخامة ثدييها الموشومين اللذين يجعلان النسوة يفغرن أفواههن اعجابا في الحمام . وقد تعودت مسعودة ان تحمل ثدييها بيديها وتقول من عل بكل ترفع وكبرياء : « لقد أرضعا تسعة عشر طفلا . المسوهما ! ان لهما صلابة العنب الطازج الذي ينبت في بلاد النوبة ! » وواصل حميد عديم اللقب الشرب ، واكتشف بين الجراذين المحصورة بين الساعات الجدارية وفراشات دود القز الزعفرانية التي تنطح برؤوسها ابواب السعادة النسوية ، مجموعة السينمائيين وهم يشبعون شبقهم مع البغايا الاصيلات اللائي يبغن اجسادهن من الياس والقرف . وسرعان ما طرد من الماخور . لقد اراد الاجانب أن يضربوا الفتيات ، ويكسروا الاثاث ، ويمزقوا الفونوغراف الباعث على الحنين والنحس . وعاد اليه وعيه فجاة ، وتقيأ ما في جوفه مرة ثانية ، ثم انه اندفع نحو الماخور ، تحدوه رؤيا عجيبة ، وصرع الرجل الذي لم يكن الا مدير التصوير ، وعمل الشيء نفسه مع الرجل الثاني الذي اراد اخراج مسدسه . وقال لنفسه وهو يطرح بهم الواحد بعد الآخر : « من ايـن استمد هذه القوة ؟ أنا الذي لا أتوفر حتى على كاميشي ملائم ! » وعندما صرع خصومه العشر ، عادت الفتيات الموشومات القهقرى عبر سراديب الدموع المضيئة نجو الفرزدق الذي حدثه عنه اخوه . وكان هذا قد ولد سنة 47 من السنة الاسلامية واشتهر بصعلكته وبعبقريته الشعرية ، وبحبه للعدالة . وبلغ الامر ان اشترى الفتيات الصغيرات لكي يجنبهن الوأد من قبل آبائهن عملا بالتقاليد الجاهلية . واحتذى به الناس بعد

ترون طويلة من ذلك التاريخ ، لأنه مكن النسوة ذوات الجمال الخارق من ان يفعلن على سبيل الرمز بوشم ما لكي يدخلن عن جدارة الى عالم اللذة الاسطوري . واعطين بدورهن احساسا بأن الحياة موجودة حقا وصدقا في هذه الحاضرة التي نشأت من أوهام تاجر مهووس بالساعات المائية والساعات الملحية .

وعندما جيء بحميد الى الدار ، عملت كلثوم على تنظيف جروحه ، وغسلت قياه ، وجففت دموعه ، واضجعتـــه وهـــي تـــروي له بعض الأقاصيص العجيبة المستمدة من كتاب الف ليلة وليلة . واحس بوخزات الألم وشهقات العويل تهزه هزا . فطلب منها ان تروي له وقائع الزنج بالبصرة . ولم يكن ذلك منه الا لأنه رغب أن يقحم نفسه في عالم الرعب .

قلق الحاكم من ازدياد مظاهر العداء تجاه فريق السينما . وزاد مساعدوه من عندياتهم . واستفسر كل صباح عن مقدار ما تم تصويره من الفيلم . وقد رأى أن العمل بطيء جدا ، وانه قد يستغني عن تصوير الجبل المغناطيسي والمدينة المصنوعة من النحاس الخام . ولكن لم يكن في مقدوره شيء . فالمخرج قاطع في رأيه ، وهو لن يتراجع عن تصوير اي مأثرة من المآثر . فلقد طلب ملك خليجية انجــاز عمل فني خارق ، ومن ثم وجب ارضاؤه . ودفع لذلك اموالا كثيرة . وكان على فيلم الف ليلة وليلة ان يعيد الى الوجود حضارة مسخت كل المسخ ، والسبب في ذلك ان الامر يتعلق بمجد العالم العربي . حينذاك سيجد المستر براون نفسه في موضع السخرية بكوميدياته الموسيقية التي تتناول موضوع العروق . الدعاية تشق طريقها بكــل يســر ان أضيفــت اليها توابل الأعاجيب والمعجزات . وسوف يتلقى الرأي العام اكبر صدمة في حياته . لقد ترك الكشافون يحتلون المكان على هواهم ، غير ان بندرشاه أصغى بسامعيه . الاوامر هي الاوامر ! والمسألة تتعلق بفيلم مضاد لكــل السموم .

وماذا عن اكون الذي يبتلع مدينة كاملة في بطنه ؟ سوف نصور هذا المشروع أيضا . الحروب الكلاسيكية مضى عليها الزمن ، يــا سيادة الحاكم ! حروب الأعصاب هي التي يحسب لها حساب في عالم اليوم . ولا شك أنكم تتوفرون على أعصاب ! اقصد اعصاب الحرب .... اي المال . ولديكم الكثير منه . ان فيلما مماثــلا يوازي بدون شــك عشر مستشفيات ، وخمسين مدرسة ، وستا وثلاثين قرية مكهربة واثنين

وعشرين سدا صغيرا . ثم ماذا ؟ انتم في حالة حرب ام لا ؟ لا شك في ذلك ! الف ليلة وليلة . خضاب الدم . الجلسيرين . عشرة من البطون المستديرة التي تدور مثل اسطوانات للتدليل على الاجواء الشرقية . شموس رقطاء . نخيل تهزه الرياح ، واسواق صاخبة بالكوفة والبصرة . الحوت الذي يتغذى من قرى الصيادين . السندباد ضد ميكي ، الفوانيس السحرية . ضجعة او ضجعتان مع نسوة هربن من الفردوس وبعض الزنوج المصنوعين من الابنوس . القيامة ايضا ، وعلاء الدين بالاضافة الى ذلك . العقدة معقودة . سوف تسيطرون على العالم . وسوف يتحدث الناس بالعربية الى حدود نيوزيلانده . وهذا لا يمنعكم من ان تبيعوا لمن شئتم امتيازاتكم التي تمتلكونها عند بحيرة التماسيح . لا تهذروا ! اذن ماذا تخافون ؟ هؤلاء الاموات القليلين ؟ لدينا الامكانيات لتعويض العائلات . سوف نفتح نوافذكم ونصور حريمكم وحورياتكم وخصيانكم وصناديقكم الملأى بالذهب واللآلىء الثمينة ، واسماككم التي تتحدث ، وطيوركم التي تعرج ، وصناديق العجائب ، واحجاركم الفلسفية ، وغلمانكم ، وشعراءكم الذين يحولون الحليب الى خمر فيجعلونه يحمر خجلا ، واياحيكم الذين لا يرعوون ، وعشيقاتكم الشهيات ، وقصور قرطبة ، ونسمات الياسمين ، والمعارك ضد الكفرة ، ووزرازيركم المليئة بالحيل ، والتاريخ الزاخر بالتقلبات ، وساعات هارون الرشيد المائية التي اهداها الى شارلمان ، والرعب الذي سيطر على شارلمان عندما راى اول ساعة جدارية تغني ، والسفارات العظيمة ، والمحفات المتهادية، والحرير الهفهاف ، وحقول اصفهان وشيراز واسطرلابات البيروني ، والفرح بالحياة ، والابهة واللذة والحياة الحقيقية ، بل وسنصور حتى علماءكم ورسامي المنمنمات عندكم . لا تقلقوا لهذه التفاهات ! هل من اهمية كبيرة لبضع عشرات من الاموات ؟ لقد سبق لي ان صورت فيلما في كلكتا . كنا نلتقط الجثث من المزابل ... هيا ، لا تضطربوا . سنصور اليوم مشهد الحوت الذي يبتلع مدينة بغداد باكملها ، وغدا ، امبراطورية السند المشعة التي غزوتموها بالقاء قبضة من الفلفل في عيون اعدائكم . اننا نعرف ان ذلك قد تحقق قبل ان يعمد ابن ماجد المشدوه الى فتح الطريق البحرية نحو الهند امام فاسكو دو غاما . لا تشغلوا بالكم بشيء ! المستر براون ينتج افلاما هو الآخر . وهي بالغة التكاليف . ضعوا حدا للرقابة . وسوف يهب اليكم هواة السينما الاباحية من كل صوب . والمناضلون الذين يناصرون الجانب الآخر سوف يعطفون ثنايا سراويلهم في الليلة نفسها .

وتم تصوير مشهد الحوت الذي ابتلع مدينة بغداد . وروت كلثوم البقية على مسامع حميد عديم اللقب . المسكين ! لقد تشوه وجهه وانغرزت شظايا من الزجاج في قلبه . اسمع قصة الجانب الآخر من هذا العالم العجيب ! الوجه لآخر للواقع . كان الفرات فيما مضى يندفع بمياهه اندفاعا خطيرا . ولم تكن قرى الصيادين تخاف من الحوت . بل لم يكن هناك حوت . غير ان الصيادين ظلوا في خشية من تلك الفيضانات الرهيبة . الف قرية جرفها السيل حسب ما يرويه المؤرخون . وقد وجب ترويض النهر . كانت البلاد ملأى بالمستنقعات الموحلة التي تنتشر فيها الاوبئة . لذلك جيء بثلاثمائة الف عبد اسود كلهم من الذكور . اصطيدوا مثل سمك ساذج . وحفروا الانفاق ، ورفعوا السدود ووسعوا مصبات النهر . ولكن ، كان هناك دجلة في الجانب الآخر . فجيء بثلاثمائة الف سجين جديد من دومبا ساوس النوبة ومن زنجبار ومن أماكن أخرى . وحفروا بدورهم انفاقا ، وبنوا السدود وروضوا الانهار ، وخفضوا نسبة الفيضانات . وارغموا على وجه الأخص النهرين اي دجلة والفرات على الا يتلاقيا ويتصادما ! ولفظ العبيد انفاسهم في عين المكان . واستبدل الاموات بالاحياء . وهلم جرا . ولكن كان ما هو اخطر من ذلك ، اي الآلاف من الروافد التي تتشعب الى ما لا نهاية . في ذلك الوقت ، ابتدع الطوسي ، التحليل التوافيقي ، وقام ابن شاكر باكتشافاته الاولى في ميكانيكا الري . ماذا وراء ذلك كله ؟ فائض القيمة ، كما يقول صديقنا الاسكافي ، وجشع التجار بالبصرة الذين اكتشفوا أخصب الاراضي في العالم ، والراسمالية التجارية . وقد تعين قبل ذلك تطهير المستنقعات ، وتجفيفها ، واغتراف ماء النهر كله بالأيادي . وراحت الملاريا تفتك بكل شيء وكذلك الجوع . مائة غرام من البرغل المغلي لكل انسان يوميا ، بالاضافة الى الصراع بسبب التجاور في العيش . ووضع العبيد جماعات جماعات من خمسة وعشرين الفا في محتشدات ضيقة ، يلتحفون فيها السماء والمطر والريح والشمس . ومن الافق الى الافق ، كان النهران يجريان أسرع من الشموس الغاربة ، وأسرع من هؤلاء الذين يستندون الى عكازاتهم ، ويتقوسون في المستنقعات وينتقلون من كثبان الرمل الى الطمى وما الى وراء ذلك . عندما كان النهران يتلاقيان ، يحدث نوع من الشق في قلب القشرة الأرضية ، أو شيء أشبه بدوامة هائلة تفتح فجوات في خيال البحارة المبهورين بانعكاسات الماء وطيور الكناريا التي ترسم على صفحة البحر ظلالها الرشيقة . على أن هذا المشهد المرعب كان

يتبدد بسرعة في بخار الحرارة الصاخبة ، ساحقا أعصاب الزنج وعضلاتهم، وهم يشقون طريقهم بين نباتات الأسل التي تخدش أجسادهن حتى ينجبس الدم منها . ثم تتقيح جروحهم هذه بفعل الماء الأجاج والوحل والطمى . في تلك الازمنة . لم يكن الانسان قد عرف بعد كيف يعالج الكزاز . وعندما تغرب الشمس ، يصطبغ النهران بالخضرة الحانئة ، المبقعة باللون الوردي . ويقوم حينذاك كل شيء في مواجهة الانسان ، فلا يجد هذا حينذاك سوى أن يزعم بأن الله قد خدعه . وكانت الحواضر تتشابك فيما بينها على مرمى البصر ، في حين تنزلق على سكة الجحيم ، وتدور على أجنحة الطواحين الهوائية . مسعودة عديمة اللقب مجنونة كل الجنون ! من يدعي بأن عباد الشمس يمكن ان يبهر السماء ؟ دجلة تسيل وينتهي بها الامر الى ان تتداخل مع الفرات . وتزداد البصرة ثراء بين النهرين ، وتجن وتصير جشعة . تلك هي غريزة الارض . والعبيد السود يعملون على استصلاح الطمى فتنبت الذرة ، ويتنامى الارز ، ويضطرب عباد الشمس عند هبوط نسمات الشرق ، ويتماوج قصب السكر . ها هم العبيد يتعثرون في الطين ، ويهاجمون بين الوقت والآخر رب العمل المتوحش ، ويغطسون رأسه في الماء ، وينتظرون تحليق القبرات قبل ان يتركوه لينزلق نحو القاع وينغمر في الطين . ينبغي الاعتراف بأن مثل هذا الامر نادرا ما كان يحدث . ولكن الوقت قد حمل نبضاته ، وراح صخب المياه يزحف على عروقهم زحفا ، تشرب نخاعهم مثل ورق حريري انكمش بوشوشة الدم ، ثم انه تضخم وصار قادرا على تحويل الافق الى غبار يتصادم بجزيئات الضوء المثقلة برائحة النهر . تسألني عن الزنج ؟ من ذا الذي تحدث عنهم ، حتى القبرات لم تكن تريد الاقتراب منهم . وفي بعض الاحيان ، كانت جثة احد الحراس تنزلق مع الماء ثم تطفو فوق النهر . حينذاك ، يلقى القبض على عشر زنوج ، ويطلب منهم ان يضعوا رؤوسهم بكل هدوء على الوخم لينهال السيف عليها بضرباته الباترة . وبدا الناس في ذلك العهد يعرفون الفولاذ بفضل ابن قرة ، والمبضع بفضل الزهراوي . واذا كان هذا قد ابتكر أول ضرس اصطناعي من عظم الثور ، فانه لم يفعل ذلك في صالح الذين يحولون مجرى دجلة والفرات ، ويروضون بلاد ما بين النهرين . ومع ذلك ، ظلوا يفقدون أضراسهم وشعرهم وجلدهم وخصياتهم ورؤوسهم . الحق ان الجو لم يكن صحيا بالنهرين ، بل كان عبارة عن مناظر مستنقعية تعقبها أخرى . بالاضافة الى ذلك البخار الذي يلوي الاعضاء كأنه غسيل غطس في ماء

مغلي فهو لا يعرف الى الجفاف سبيلا . وقد حدث بين الوقت والآخر ان لقي بعض الملاكين مصرعهم خنقا بين حقلين من حقول قصب السكر . وما أسرع ما كان ينفذ حكم الاعدام في مائة من الرهائن ، وتفصل رؤوسها عن اجسادها . وتنقى ادمغتها وتفرك بالمنغنيز ، ثم ترسل الى الخليفة لكي يغرس فيها نباتات الجاكاراندا وغيرها من الشجيرات البيتية .

هل حدث ذلك كله حينما كان الملاحون ينسجون الف ليلة وليلة ؟ بالضبط . وفي نفس الفترة . لقد وجدت قصور البلور ، والنساء ذوات الفروج الثلاثة ، والبسط التي تندفع بضحكات التماسيح ، ووجدت مقابلها التماسيح التي تقضم أعضاء الزنوج وهم أحياء ، وحتى الحيوانات ، والعبيد الذين يدفعون الى اللواط دفعا ، والتذبيح . المساكين ! لقد اضاعوا كل شيء حقا ! ولم يبق لهم ما يمكن فقدانه . كانت الخدوش تصير حكة رهيبة . والقماش المرقع بالحلم ينتفش أمام اعينهم . وهل كان ذلك الا كابوسا مخضبا بحمرة المستنقعات وبخار الضباب الملون بالشمس وهي في كبد السماء ؟ في حين أن الدم يجف بفضل تراكم البزاق الذي يفرز ما يشبه مرهما رطبا فوق الجروح النازفة. وكانت القذارة والطمى في شكل طبقات تتدرج عليها بنية هؤلاء المضطهدين وكفاحهم . أتتساءل عن الف ليلة وليلة ؟ انها الحمال المسكين ، والزنجي العبد ، والاجير الدمشقي . انها تنطوي على كل من يسد جروحه الفاغرة بروعة الايام الخارقة ؟ يا للاكتشاف السعيد ! اليس كذلك ؟ وانبهر « حميد » فترك القصة تتصاعد الى سماوات الموت . وينبغي ان تعلم بأن الحكاية تسمى نسيجا في لغة أهل المنامة . العبد وخيالاته من جهة ، والسندباد ومواهبه العجيبة من جهة ثانية . ولكن السادية موجودة بالف ليلة وليلة . اليس كذلك ؟ انظر الى الارقام العربية . لا اقصد أرقام القرامطة . فهي عبارة عن شفرة سرية ، انما اقصد الاعداد التي نستعملها اليوم في البورصة أو في الاسواق المكشوفة . 1001 ، أنثيان مسجونتان في منطادين ذكرين . وهناك أيضا العمالقة الذين يضعون البشر على السفود لشوائهم . والثعابين التي تجفف الانهار ، والطيور المنطرحة التي ترتوي من مشاهد القيامة ومن الطوفان الاخير ... وشيئا فشيئا تمتليء السطحات الخيالية بمعاني واضحة . وتتحول الى فضة خالصة . على ان الزنوج العبيد المحشودين في بلاد ما بين النهرين كانوا في حاجة الى زعيم قادر على اخضاعهم . وقد نزل عليهم

علي بن محمد ذات صباح عاصف بارد من سنة 255 مسبوقا بسمعته كمروض للأنهار . كان أبيض البشرة ومع ذلك عرف كيف يقبل بينهم . وتحول العبيد الى جيش جرار زحف على المدن ونهبها . حتى النهران اللذان بددا العديد منهم صارا حليفين لهم . كانــوا يعرفون فروعهما وتعاريجهما ودوراتهما وانعطافاتهما . وارسلت السلطة عساكرها ومــا اسرع ما أغرق هؤلاء في النهرين . وكان للعبيد أمران اسياسيان فــي صالحهما : أرضية المعركة ، واحتقار الموت . ثم انهم راحوا يوجهــون ضرباتهم بعيدا عن قواعدهم ، فوقعت بلاد ما بين النهرين بين ايديهم . واقاموا البنيات الشيوعية الاولى في العالم . لكل حسب حاجته . ستة اشهر من العمل في الارض وستة اخرى في الحرب . وفي سنة 260 استولوا على « عبدان » المتقطرة بالبترول . غير ان الناس لم يعرفوا ذلك في تلك الفترة . وفي سنة 262 احتلوا الاهواز ، وفي سنة 265 سيطروا على البصرة التي كانت خابية قمح وميناء نهريا في مصب السماء والارض ، ونقطة انطلاق لاحتلال افريقيا وآسيا بالاضافة الى انها كانت مدينة تجارية مزدهرة ومدينة انطلــق منها السندباد . لم يصمد امامهم شيء . مزقوا الف ليلة وليلة واعدموا الاثرياء بضربات الساطور واحرقوا القرآن الذي شوهــت رسالته مــن قبل الملــوك العاشقين للشرب والجنس . والغوا الصـــلاة والصــوم والصدقـــة وتقاسموا الثروات وحرروا الرجال والنساء . ولم يعد السندباد الحمال في حاجة الــى استخدام خياله . هيا ، تابعي قصتك ! اضطرب الملوك امامهم طيلـــة خمسة عشر عاما . وصارت بلاد ما بين النهرين جمهورية خصيبة لمدة خمس عشرة سنة . وتجووزت المحرمات الجنسية ، ولكن الحكاية لم تدم الا ما تدومه الافلام . خمس عشرة سنة ونيف . فقد وقع تحالــف عظيم ضد جمهورية الزنج في بلاد ما بين النهرين وبرز احد الملوك ممن يعرفون مصالحهم فقضى على المتمردين . انتصر « الموفق » عليهم ، وقتل علي بن محمد سنة 270 . وانهارت السعادة دفعة واحدة ، فقررت مسعودة الحداد لمدة ثلاثة ايام ، وامرت بأن يصنع لها فزاع على صورة « الموفق » ، وانتقل عباد الشمس الى منطقة الظل . وقالت « الدر » لزوجها : « اتفهم الآن لماذا تمنيت أن لو كنت اسود البشرة ! » الحق ، انها كانت ملحمة انقلب فيها الواقع . وكان الزنوج يستعملــون ادمغة الامراء العباسيين للتغوط داخلهـــا على سبيل الانتقام . وتخلى التوائم عن بناء الطاحونة . ولم تتوقف « مسعودة » عن البكاء ، فقررت ان

الذكر القادم من سلالة عديم اللقب سوف يسمى علي بن محمد . ما هذا الاسم ، يا اماه ؟ وفي مساء الجمعة الاولى من سنة 270 القمرية ، انطلقت المذبحة على قدم وساق في حين تعطرت الاروقة الملكية بروائح الألوة والسولان . ويا للحمرة القانية المصطبغة بالزرقة الرمادية حين انطلقت لتبلغ عنان السماء قبل أن تحدث هزتها في العالم الذي ظل بين أيدي الخلفاء ! كانت أعين هؤلاء تشرب من الدم المتفجر ، في حين أن ذكورهم جعلت ترشف من الانداء الصباحية في الحدائق المعطرة . لقد بدأت قصة الزنوج قبل ذلك بوقت طويل . وتابعت « الدر » الحكاية بعد أن حلت محل « كلثوم » الى جوار « حميد » الذي ظل جامد الاوصال . والحكاية تعود الى تلك اللحظات التي تعمد فيها الزنوج بالعذاب والزجاج المفتت ، وانهالت عليهم وخزات الرماح والمضايقات العصبية ، واندفنوا احياء . حقا ، البداية تعود الى توصل النسوة الحاملات في مني الغزاة ، والى جيوش الاطفال وهم يتعمدون بطقوس الدماء بالاضافة الى المواشي التي ذبحت في جو من القسوة الطاغية ... وكانت مدارك السجناء قبل تمردهم قد اضطربت بقطع النحاس التي الصقت ببشراتهم . وتشققت اجسادهم من الجوع في حين أن فيضانات دجلة والفرات والالوان الصاخبة جعلت المعالم من حولهم معوجة شائهة وذات اشكال محدبة ناتئة . وجعل القلق المبطن يزداد صفاقة حسب وقع الغناء الطويل المهموس الذي لا يكاد يخرج من بين الشفاه . وما اسرع ما كان الحراس يأتون بعصيهم ذوات المسامير وبسياطهم وبفؤوسهم . وكان العبيد ينتظرون علي بن محمد وطلاقة لسانه وشجاعته . وراحوا ينظرون الى دم اخوتهم وهو يندفع نحو السماء والى رؤوسهم وهي تنفصل عن اجسادهم بضربات الجلاد الذي يكرر حركاته بلا توقف . وتفجرت الحناجر وسط الصمت ، وصار الموت صوتا طبيعيا بدت فيه البلاعم والمادة الصفراوية التي يفرزها الكبد كنوع من الدنتيلا المزخرفة بزرقة السماء .... اما الناس البيض الذين حضروا تلك الاعدامات فاطلقوا صرخات الحرب تمجيدا لله ، وترددت الاصداء بين النهرين المخضبين بالدم الذي راحت الاسماك تلعقه في المياه العكرة . وقبل ان يهوي الساطور على رقبة كل محكوم بالاعدام يترك بذرة تنطلق منه فتتنامى بيضاء متماسكة لشدة ما كان منبهرا بمشهد مقتله بالذات . وتمازجت الالوان والايقاعات والصخب وسط الموت الذي راح يصبغ الحياة بلون الزعفران ويسجل الثغرة التي تحدث في الواقع . ويكشف عن أساليب

الهمجية لدى الاباطرة . حينذاك تآكلت اطراف كل ما هو بشري وانفتحت في ذاكرة السجناء الآخرين ثغرات هائلة لتطل على عوالم الجنون .

ذلك ما حدث في اقليم من اقاليم الخلافة في حين ان السندباد الحمال استند الى سور القصر الملكي ليأخذ بعض الراحة وابحر مع خيالاته . وكانت النتيجة واضحة كل الوضوح ، فقد تقاطرت جيوش علي بن محمد من كل صوب . وهذا ما دفع بساعات مسعودة الجدارية الى ان تستقر على الوقت الحقيقي . وكان عنف المقهورين اقسوى واشد من عنف مضطهديهم . على أن هذا ليس الا امـرا عاديا . فالشبق والبـذخ من جهة والطاعة والولاء من جهة ثانية . والمؤرخـون يضيفون مـن عندياتهم باستثناء المسعودي الذي كانت له مواقف مناصرة للحركة . وعلى اثر هزيمة الحركة الثورية ، انطلقت أعمال القمـع دون قيد او ضابط ، وفتحت حنفيات الهذيان على سعتها . ولم يخش القادة علـى حياتهم بقدر ما خشوا أن تصير أدمغتهم أصصا ليلية في تاريخ العبيد . ودامت ثورة الزنوج خمس عشرة سنة . ولم تكن مجرد حادث عرضي .

وقد توفرت الشروط الموضوعية كلها . وسبقتها ثورات اخرى ، أقصر منها مدة ولكنها كانت قاتلة مثلها ، متعطشة الى العدالة ، وحاقدة كل الحقد على الملوك وأذنابهم . وكان محمد عديـم اللقب قـد روى حكايات تلك الثورات وأحصاها . وتقول الروايات بأن الفلاحين الذين قادهم السندباد صمدوا ثلاث سنوات في وجه الحجاج بن يوسف ذلك الذي يقوم الآن بحراسة برقوق « مسعودة » . وتزعم نفس الروايات ان المقنع لم يكن سوى امرأة حجبت وجهها دائما وصمدت حوالي عشـر سنوات بين حدود العراق وايران الحالية . أما « بابك » فخاض معارك البروليتاريا بالكوفة واستولى على العاصمة ، غير أن الزنج اقامـوا دولة حلموا أن يجعلوا منها جمهورية مثالية . وهدمت مدينة « المختارة » من قبل الموفق . هذا فزاع آخر ينبغي تعليقه . ودام الحداد ثلاثة أيام بالفعل ، ثم غادر حميد فراشه ، وزايله حزنه . لا يمكن للانسان ان يموت من الحب والتاريخ . يجرف ذلك العدد الهائل من الجثث . ووعد نفسه بزيارة « المختارة » العاصمة القديمة الزائلة للجمهورية الحمراء والسوداء التي أقامها زنوج علي بن محمد . وشعـرت كلثوم بالعبء ينزاح عنها . لانها استطاعت منذ ذلك الحين ان تعـد العدة لحياتها

ـمـسس . « سوف اشغل وقتي بتنظيف اقفاص الكوكسيرج وطيور الفردوس . لكنني سأحتفظ بابهامك . آه يا حبيبي ! اتمنى ان يكون للرجال اجمعين لون عينيك . لا تتضايق . علي بن محمد اجمل بكثير منك ، فلقد رايته في الحلم . اراد ان يتزوجني . لكنني لم اتجرأ على التخلي عن البوقال الذي يسبح فيه ابهامك في بدار والدي . لعله يكون قد أعطاه للسردين .. لم يعد لدي قنفذي لاضع المرتاج على باب انوثتي ...... »

كانت البلدة في عز الفوران . وسقط المناميون في طفولتهم مرة ثانية عندما أبصروا بشدق الحوت الهائل وهو ينفتح ليبتلع مدينة بغداد . ولم يستطيعوا تمالك أنفسهم فسارعوا الى التحصن في دورهم . حتى الممثلون الثانويون اقتنفوا خطاهم . واختبأ البعض منهم تحت أسرتهم . وعلى الرغم من تلك الجرارات ، واجهزة نفخ البلاستيك والرافعات التي تشمخ بأنفها في السماء فانهم قالوا لبعضهم البعض بأن الامور حقيقية ولا يمكن ان تكود مجرد سينما ، وآثروا التنصل لأن الشك ظل آخذا بتلابيبهم . واختفى البعض منهم تحت جلابيب زوجاتهم فأرهبوا اليساريع التي خرجت من شرانقها قبل الاوان . اما البعض الآخر منهم فكانوا اشد حيلة فانتهزوا الفرصة لكي تلتبس عليهم الظلال . واندفعوا نحو جاراتهم اللائي ما نبسن بكلمة . فالاستثناء يؤكد القاعدة كما يقال . وكان ان ولد لهم أطفال تداخلت الوانهم . ظهورهم زرقاء كخوف آبائهم ووجوههم صفراء بلون شراشف أمهاتهم . ولم يشعر المخدوعون من الرجال بالغيرة . فقد علموا بفضل تصوير الفيلم بالمنامة ان الملوك والسلاطين والاباطرة والخلفاء وسادة الارض كلهم يمكن ان تنطلي عليهم الخديعة . ودهشوا لذلك كل الدهشة . فلم لا يخدعون بدورهم ؟ وتسبب تصوير مشهد الحوت في توتر جديد . على ان اصحاب الادوار الثانوية الذين تلقوا اجورهم مسبقا وبالعملة الصعبة رفضوا استئناف العمل لشدة ما خافوا من تلك الآلة العظيمة . انها ملأى بالهواء ومصنوعة من البلاستيك ، ولكن من يدري ؟ فهي قد تتحول الى وحش حقيقي نابض بالحياة . وعبثا وضع المخرج راسه بين شدقي الوحش ، لكن الرجال وجدوا فيه في واقع الامر مكانا دافئا ينسون فيه ارقهم وخيالاتهم الرهيبة . ثم انهم اعلنوا الحرب على الشرانق واستمعوا الى حكاية علي بن محمد دون ان يغادروا جلابيب زوجاتهم وجاراتهم . وازدادوا

رعبا عندما علموا أن عبيد بلاد ما بين النهرين القديمة كانـــوا كلهم من السود . حينذاك خرجوا كرجل واحد من تلك الظلمة الفاترة المؤاتية للحنان حيث طاب للنساء أن يحضنن الشرانــق وعـــادوا الى مكان التصوير . ونمت النزعة العنصرية في نفوسهم ، وارتبطت في اذهانهم فكرة الخوف من السواد بالخوف من الموت وبالفترة التي تسبق ذهاب الاطفال الى فراشهم . واستؤنف تصويـــر الفيلــم . وابتلع الحوت بغداد . وبادرت مسعودة عديمة اللقب والدر وكلثوم الى صناعة فزاع على صورة « الموفق » الذي اباد الزنج . ولم تتجــرأ الأم على طـــرح التساؤل التالي : « اتعتقدون انهم أناس طيبون ؟ لقد قيل دائما وابدا بأنهم متوحشون ! » وتغلبت عاطفتها على احكامها المسبقة . ولم تعمد الى المبالغة مثلما حدث لها مع الفزاعات الاخرى ، بل اقدمت على عملها ذاك بكل شجاعة . ووقفت الى جانب المضطهدين على الدوام ، وهكذا ، مارس التاريخ الملموس تأثيره عليها . ثم ان الاطار العقائدي كان جيدا . فهناك الاخوة التوائم ورشيد بناصر ومحمد عديم اللقب بطبيعة الحال و « الدر » وكلثوم بالاضافة الى علاوة الاخمر . أما التوائم الشقيقات فقد اجتهدن في ضبط مواعيد الطمث ، أي في اليوم التاسع عشر مـــن الشهر القمري في هذا القرن الرابع عشر . وبقي جيلالي بو حدبة الذي هده الهزال ولكنه ظل منضبطا واضطلـــع بامور العلـــوم والتقنيات والاكتشافات في مجال الكيمياء وجغرافية الظواهر .

من ذا الذي يريد أن يعرف ما آل اليه مصير عميد البلدة وحارس محطة البنزين الغربية التي يمتلكها الحاكم ؟ اذن ، هاكم قصته ! لقد غاب ذات يوم . وكان سادس من يغيب منذ وصول فريق السينما . ولم يبق الا قطه الابيض في عين المكان ليحرس المحطة . وظل قابعا في مكانه لا يريم على الرغم من معجزات السينما التي غيرت الزقـــاق المجاور للمحطة وحولته الى رافد من روافد دجلة . وراح يتأمل المـــاء المندفع طوال ساعات طمعا في أن ترفع سمكة ما خيشومها فيخطفها ويبتلعها بنفس السرعة التي ابتلع بها الحوت عاصمة العباسيين . ولم يعرف أهل المنامة أن العجوز قد اغتيل في المطعم حيث يفترض في الزبائن أن يدفعوا مبلغا اضافيا للتفرج على التلفزيون . وكان له من العمر مائة وثمانية وعشرون عاما بالضبط . ولم يسأل أحد عنه بل تناسى الناس انه سكر سكـــرة العمر في بورســـودان وهو في طريقه الى مكـــة . حتى القط لـــم يعد

يفقه شيئا مما يجري عليه مذ ذأن جرفت التجويفة الفراتية الى هذا المكان من الصحراء ، وأغرقت البلدة بشلالات صاخبة مزبدة ، ونصبت الطواحين الهوائية وجيء بجياد « نهاوند » وأرسل الحارس الصموت الى مكان مجهول . لم يكن موجوداً حتى بين اصحاب الادوار الثانوية الذين قاموا بأدوار الجثث المتعفنة في صحراء « نجد » . على أن المحطة ظلت محروسة من قبل ذلك القط السمين الماكر الذي انبهر بالماء المندفع امامه وبانقلاب التضاريس الجغرافية حواليه . وذهب البعض الى حد التلميح بأن الحارس علق كفزاع في حديقة مسعودة عديمة اللقب . ولم تكن مثل هذه المزاعم الا مبالغات مفرطة غضبت لها مسعودة ولم تتوفر على الوقت للرد عليها . وراحت تبحث عن ابنها الذي ذهب من جديد ليتحاور مع الريح خارج المنامة . وهذه هي طبائع البشر ! يقحمون انوفهم فيما لا يعنيهم . وها هم يقعون مرة ثانية وسط خليط من العوالم المضطربة . ولم يعودوا يعرفون ما اذا كان الممثلون المتنكرون في زي خصيان خصيانا حقيقيين أم لا . وكثيرا ما يحدث لسكير عائد الى بيته ان ينزلق في الخنادق المليئة بالماء . وعلى الرغم من ذلك كله ، فان صنائع الحاكم الذين يقدمون له تقاريرهم كل صباح ، راحوا يرددون نفس الكلمات : « لا شيء يذكر ايها الكولونيل ! حمالات مسعودة هادئة ! »

على أن بندرشاه سرعان ما يصاب بالحيرة فيترك الامور تسير على هواها . وكان يتجنب رؤية ابنته كلثوم وهي تأتي الى الدار بين الوقت والآخر لتقبل والدتها الغارقة في صمتها بعد أن تاهت بها الطرق منذ زمن طويل . وكانت ابنتها هذه اذ تراها لا تطلب منها شيئا ، تحدثها عن التوافه من أمور الواقع اليومي وترد عليها في كل مرة بأن تتخذ حذرها من اجنحة المروحة الصغيرة التي تميل الى الاقتراب منها . ذلك ان السيدة بندرشاه راحت تقضي حياتها جالسة على كرسي هزاز قبالة ذلك الجهاز الذي يروح الهواء الحديدي الخانق . وما كانت تبدل هواء غرفتها ابدا بعد أن أوقفت المكيف الهوائي . وجعلت الاجنحة الحديدية تسحق بين الفينة والاخرى الفراشات البراقة التي تخرج من تحت فستانها الحريري مع انها ما ربت دود القز ولا حضنت الشرانق في اي يوم من الايام . وكانت تشبه بعض الشبه مليكة عديمة اللقب التي تزوجت ولم تعد جلابيبها منتفخة بالتحويمات الفوسفورية التي تضيء ظلمة أنوثتها . وانكمشت على نفسها في انتظار الموت ولم تعد تأبه بزيارات ابنتها وارتسمت على وجهها دلائل الغياب عن الواقع بالاضافة

الى محنات العزلة التي انتهى الامر بكل المناميين الى أن يحملوها على وجوههم . لكأنما لم تكن من هذا العالم . ومع ذلك ، فقد ظلت جميلة بالغة الجمال ، تغتسل كل صباح وترتدي أثوابا فضفاضة زاهية وتقضي ساعات طويلة في وضع المساحيق على وجهها ثم تجلس قبالة مروحتها ، لا تقول شيئا ، ولا تعطي أمرا للخدم ، ولا تنفض أثوابها الموصلية بل لا تكاد ترى حتى أجنحة المروحة . ثم انها تسمر عينيها في الجدار المقابل وتحدق في شيء ما عاد في حوزتها . وتتركها ابنتها وحدها وهي تعرف انها تغادر كرسيها الهزاز في أوقات الاكل وتعبر بهو الاستقبال المائي حيث تسبح الحيتان من تحته ، وتتخذ مكانها من الطاولة العائلية قبالة زوجها الحاكم المستبد بندرشاه ، وتجعل تنقب بعض ما في انائها من الاكل وهي ساهية تماما ، ثم تغادر القاعة كلما أمكن لها ذلك لكي تلتقي ثانية بشخير مروحتها الصغيرة ذات الاجنحة الملفوفة بجثث الناموس وحشرات أخرى من هذا القبيل . ورغبت كلثوم أن تروي لوالدتها وقائع الزنج وقصة قائدهم الجريء علي بن محمد بعد ان غادرت حميد عديم اللقب الذي كان طريح الفراش . لكن سحنة والدتها المتجمدة وغيبوبتها الوجدانية وأناقتها الرائعة دفعتها الى أن تقلع عن رغبتها تلك . فلقد عرفت أنها انزلقت داخل المستنقعات المعشوشبة لكراهية ذاتها والقرف منها ، لكن لم يكن قد وقع في روعها بالمرة انها قد تموت عما قريب على الرغم من جمالها وفساتينها الموصلية وهيبتها ووقارها وعزها ونبلها . اذ كانت قد انطلقت في عالمها هذا لتتنصل من تفاهة زوجها وسذاجته . وعادت كلثوم الى منزل عائلة عديم اللقب ذاهلة عن نفسها كل الذهول وأعلنت أن والدتها قد توفيت وجاءت بدليل قاطع لتبرهن عن قولها هذا وتحدثت عن الرائحة العفنة التي تنبعث من جسدها ، وعن تلك الفراشات الزعفرانية المتكاثرة المتحطمة على أجنحة مروحتها الصغيرة . غير أن افراد العائلة علموا انه لم يحدث شيء من ذلك القبيل وأدركوا أن هواجس كلثوم بالنسبة لموت أمها ، ناتجة عن زخم خيالها الفياض . لأن عدوى المستنقعات قد سرت فيها حين روت لحميد عديم اللقب الذي يئس من حبها وقائع العبيد السود الذين استصلحوا أراضي ما بين النهرين وتاريخ ثورتهم في سنة 255 . وهي الثورة التي دامت خمسة عشر عاما الى ان مات قائد العبيد . وتقول الاسطورة بأن علي بن محمد هذا اجمل من محمد عديم اللقب لأن خضرة عينيه المائية صارت تجول فيها أسماك الخيال وعدم الانصياع والجعجعة .

وفي تلك السنة لم ترفع زهور البيغونيا هاماتها في حديقة مسعودة لان « رشيقة » زوجة الساعاتي كانت حاملا ومـا عادت تفرز عادتها الشهرية فتناقضت التركيبة العلمية التي تعرف مسعودة اعدادها . فكان ان فتحت النوافذ من الغيظ وارادت ان تنطلق نحو السماء لولا أن خطرت على بنتها « حديقة » تلك الفكرة التي أنقذتها . وادرك من في الدار ان زهور « البيغونيا » لا دخل لها في المسألة ولا عباد الشمس ولا اشجار المشمش التي ظلت تفرز مرارتها وتبعثها نحـو الثمار الجافة المتيبسة ولا اي شيء آخر في الحديقة . غير ان ثلاثة أمور راحـت تؤرقها وآثرت الا تفضي بها وهي : غياب ابنها البكر الذي خشيت عليه اشد الخشية نتيجة لمولده منفردا وبسبب مواهبه الاستشراقية الخارقة . وظلت متخوفة من ان يلعب على نفسه مقلبا خطيرا . ثم هناك تصوير الفيلم الذي ما انفك يتسبب في ضحية وراء أخرى ويهز سكان البلـدة هزا ويزيد الحاكم ثراء ، هذا الذي انتهز الفرصة وقطع عنها أسمدته الكاليفورنية . وهناك وقائع الزنج الذين ملكوا عليها قلبها ودفعوها الى الاخذ بأسباب الحذر على الدوام لأنها حين كانت صبية في بيت والديها نشأت في أحضان خادمات زنجيات اعتدن على سرقة قطع السكر . وأنصتت اليها « الدر » ، ولم تستطع ان تكتشف في قصتها تلك اية شطحات . وتصنعت اقرارها على آرائها تلك لبعض الوقت حتى تهدىء طبيعتها العدائية . حينذاك روت لها كيف هرب السود نحو الآجام مختفين وراء شجيرات القطلب والصبار الهنـدي . وقد لفحتهم شمس لا تقل عن خمسين درجة . وحدثتها كيف انهم حاولوا ان يجعلوا بينهم وبـين مطارديهم اكبر كمية ممكنة من الضباب عبر قنوات الصدفـة وتعاريج الرعب . وكيف أنهم تحدوا الزمن والمجال واتبعوا الممـرات المسجلة في عوالم الدوار والانبهار . وهدأ بال مسعودة ثم خف التناقض الـذي تحمله في اعماقها بسبب لون العبيد . و في الخارج ، كان الحوت يتحرك على هداه ذلك انه حينما أريد تنفيسه صمد في وجـه كـل المحاولات والتقنيات الحديثة وظل على حاله معلقا فوق المياه المتيبسة مـن ورق الالومينيوم ومشدودا بحبال تهدد بالتقطع في كل لحظة . على ان الرعب عاود مسعودة وقررت ان تحصي بناتها واولادها ، وفاجأت الساعاتي وهو ينظف فرج « رشيقة » بزيت القطن وقـد حسبه ساعة جدارية صقلية . ولم تشعر بأية صدمة بل واصلت العد . ولم تستطع تجاوز الرقم 15 ، ودون ان تدري السبب حدثت نفسها بأن هناك من ينقص

في دفتر المناداة . حينذاك تذكرت محمد عديم اللقب الذي غادر الدار منذ بضعة أيام . ورو‍حـــت عنها « الـــدر » بقولها : « اسمعي ، يا مسعودة ، سيعود بموهبة جديدة حتى يقوى على مقاومة الاجانب . سوف اروي لك خلال هذه المدة ملحمة القرامطة . كانوا من البيض !... »
ذلكم هو الجانب المختفي من الجبل الجليدي العائم لقصة الف ليلة وليلة ، كان يا ما كان ...

كان يا ما كان ، شاعر يعرف كيف يوقف المطر عندما يرغب في ذلك . وهل في الامر من غرابة وقد كان والده سقاء ؟ ففي كل صباح يذهب الى النهر للاتيان بالماء ويوزعه في قرب من جلد الماعز خيطت من الداخل وطليت بالقطران . كان مستقبله محددا مسبقا . سيشتغل هو الآخر بنقل الماء . وباستثناء الامطار التي يستنزلها على هواه ، ولد شاعرا وأحدث فتحات فاغرة في بنية اللغة النائمة في ظل الحريم المتثائب من السأم . وكان محمد عديم اللقب الذي يعرفه من خلال قصائده يغار منه في قرارة نفسه . وحين قصت « الدر » لأم زوجها ملحمة حمدان بن قرمط ، ابرزت التنافس القائم بين بعلها والمتنبي الذي يعد اعظم شاعر في كل العصور، وردت كل شيء الى الشغف الجموح (الهوى) ؟ وكان لعديم اللقب عذر في غيرته تلك فلم يكن المطر ينزل بالمنامة ابدا . من المؤكد أن الثلج تساقط ذات يوم . ومن المؤكد ايضا ان تقنيات السينما الهائلة اغرقت البلدة ذات يوم من الظهيرة الى امتدادها الشبيه بالليل . ولكن هل نزل الثلج بها حقا ؟ وانقسم أهل البلدة حول هذه القضية . في حين أن مهرجي الفنون السمعية البصرية كانوا واقعا رهيبا امامهم . وكان الحوت الذي ظل معلقا على طريقة طيور محمد عديم اللقب المحنطة يسبح في الفراغ زمنا بعد وصول فرقة المهرجين وغيرها من البهلوانيين الاجانب دليلا قاطعا على صحة تلك المزاعم . ولم يعرف النوم العميق سبيلا الى عيون المناميين مدة طويلة خاصة وان غياب محمد بدأ يطول . وروت « الدر » ملحمة القرامطة . استمعي جيدا ! كل مسعودة آذان صاغية ، مسعودة مستمعة جيدة . تتبنى نفس الموقف الذي اتخذه ابنها حين جلس قبالة

الماخور طوال اسبوع كامل منتظرا أن تلتحق به زوجته . ربما اقل . ولكن للطيور ذاكرة ضعيفة ونقرات مذهلة . فلم تتعرف عليه ، وذرقت فوقه . هذه بطبيعة الحال قصة أخرى . وظلت مسعودة جامدة تستمع الى قفا الامور . وكانت قبل ذلك هادئة . فألف ليلة وليلة هدهدت طفولتها وروتها بدورها على اطفالها التسعة عشر قبل النوم . ولكن ها هو الواقع يتبدد حولها الآن ، ويتفتت بين أصابعها . وها هي الريح الدوارة الرملية، وها هو الغبار يكسو كل شيء من جديد . ويشوه الاشياء الى حد العجز عن تبين القدر من الاناء ولا يقوى معلم البلدة ، فيما يقال ، على التمييز بين النجباء من تلاميذه والكسالى منهم . هكذا كان الامر . فالمنامة لم تعرف أبدا كيف تختار وقتا ثابتا . وصدرت عليها أحكام قاسية في القرى الاخرى . « انها التذبذب عينه ! سوف تطير ذات يوم ، ولن يقوى أحد على ارجاعها الى الارض . وحينذاك سيكون الخلاص منها . فأهلها كفرة ، صعاليك ! » ليس هذا لب المشكل أيضا . وروت « الدر » كيف ثار القرامطة للزنج ، وكانوا من البيض في أغلبهم ، وعرفوا كيف يجندون كل المقهورين . ها أنت ترين كيف أن اللون لا علاقة له البتة بطيبة الرجال . لا تقلقي يا مسعودة ! فالحديقة على ما يرام . وزهور البيغونيا تعود الى النمو بأقوى مما كانت عليه . وهناك العدد الكافي من النسوة في الدار لري الصحراء . الدم لم ينقص أبدا . اصغي جيدا : القرامطة احسن تنظيما من الزنج . لقد مهدوا لثورتهم منذ زمن طويل . وابتكروا العمل السري ، والاوراق المزورة ، والعملة المزيفة واستخدموا الزينة والجراحة التجميلية لاستغفال العدو ، والارقام المشفرة والحمام ذا حاسة الاتجاه ، والهويات القابلة للتبديل ، والصفر ، والحرية الجنسية المطلقة والشاملة ، والمظاهر المخادعة ، والتنصل ، والصرامة ، والبيوت ذوات الابواب المضاعفة ، والحيطان التي تنزلق على سككها ، وأجبروا الرجال على غسل الاواني مرة في اليوم ، واحدثوا فن الدعاية دون التظاهر بذلك ، ووزعوا الاراضي ، والغوا الملكية الخاصة والعبودية... فكان المتنبي ! الاعظم ! الاكثر جنونا وعبقرية ! الاكثر دراية بأمور الغيب. عريفا بمسائل الفن . لا يعرف التعربد بالكلمات . زنديقا . ملحدا . حاقدا على كل الارباب والانبياء . ذلك الذي أعلن بعد ان أوقف ذات يوم المطر عن النزول وقد انفتحت صنابير السماء .. « لا نبي بعدي ! » وكان ينطق باسم الحركة ولا يخفي ذلك . اما زعماء الدعوة فلم يكن يعثر عليهم ، اطلاقا . وكانت لهم ، زيادة عن كل هذه الصفات ، خاصية

التواجد في كل مكان ولا يسافرون الا على البسط التي تحركها الرياح . كان لكل واحد منهم تسعة عشر اسما . توقفت الدر فجأة عن سرد تاريخ القرامطة والقت نظرة ملؤها الشك في اتجاه مسعودة وقالت : « هذا الرقم يتعقبنا على الدوام . فما رأيك ؟ » ثم انها شعرت بالحرج فحولت أنظارها عنها « أكملي ولا تتركيني أفكر في زوجك الغبي وقد مر أسبوع عن غيابه » ... كان رئيس تسعة عشر اسما مستعارا . وكان ينتخب من قبل الشعب ، على عكس حاكمنا ... يا للمهزلة ! ويتعين على كل مرشح لتلك الانتخابات ان يحمل الدكتوراه في الاقتصاد السياسي واجازة في الرياضيات . وقيل ان « الرازي » ذلك الذي ابتكر طب المستشفيات وفيزياء المواد الصلبة ، وعالج « بو حمرون » الحصبة واكتشف البوراكس ونترات المنغنيز ، هو الذي تراس الحركة طيلة خمسة عشر عاما . ليكن في علمك بأن السلطة القرمطية دامت أربعمائة واحدى وخمسين سنة . وامتد اقليمها من اليمن الى مراكش . بينما كان الخلفاء في تلك الاثناء يستمعون الى قصة الف ليلة وليلة من أفواه اماء بالغات كن يغسلن مؤخراتهم بماء زهر البرتقال ! « كلا ، يا مسعودة ، لست وقحة . انها الحقيقة عينها . لقد علمنيها ابنك » . وتأكدت من أنه سيعود بموهبة جديدة تكنس مشرحة السينمائيين الاجانب الذين قضوا وطرهم بعد أن قضوا على أدنى مظاهر العداء وسلبوا عقول المناميين . وجعلت تنظر الى الاحداث من زاوية الخيال والقصة . وهكذا ، كان يا ما كان . لا اقصد شهرزاد ولياليها الالف بل حمدان — ما العلاقة مع حمدان عديم اللقب سابع فرد من افراد السلالة ؟ — قرمط وايامه 164615 . تسعة عشر عاما بعد هزيمة الزنج ... قالت مسعودة : « كفي عن ذكر هذا الرقم ! لست أخشى عين السوء ولكن ... » في سنة 289 من التقويم الاسلامي تقاطر اشباه البروليتاريا من بلاد ما بين النهرين على المدن بقيادة حمدان قرمط واقاموا عاصمة حصينة تسمى السواد . كانت قلعة منيعة حقا ، تحطمت عندها جيوش الخليفة . وصعقت الحركة الثورية الامبراطورية العباسية الغارقة في عبير المسك . ولم يرحم القرامطة أحدا . توزعوا في كل مكان . في العراق وسوريا وخراسان واليمن والبحرين . وبنوا مدائن مزدهرة مثل السواد والاحساء والكوفة وسلمية . واستولوا على بغداد ثم أعادوا الاستيلاء عليها . واقروا الشيوعية . وكانت هذه في مراحلها الاولية بطبيعة الحال . واستعادوا التقاليد الوثنية الجيدة وطقوس الماء والحب . وسحقوا المحرمات

وعاشوا اللذة الى اقصى حدودها دون ان يكون لهم من هدف آخر سوى السعادة فورا وللجميع . وكان لهم فلاسفتهم العقلانيون من امثال اخوان الصفاء وعلماؤهم من امثال الرازي ومؤرخوهم من امثال المسعودي وشعراؤهم من أمثال المتنبي . وقد أعلن هذا في فورة جنونه العارم وخياله الجامح بأن صياغة القرآن غير جيدة .

على ان الناس كانوا بعيدين عن الف ليلة وليلة التي لم تتجرأ على ان تبرز شاعرا قادرا على ايقاف المطر !. وجاوز الحادي ذاته . فقد ولد محرضا سياسيا واجبرت كلماته الباترة كل نظامي القصور والكتبة على الصمت . وأحدث شرخا في اللغة واقتحمها ولونها بألف لون ، وجعلها تنزلق من فراشها ونفخ فيها من روح الجنون والهذيان . وكان رجل مبادرات أيضا ! فقد تزعم فرقة من القرامطة وصال وجال في بادية السماوة . ولم يكن يقسم الا بثلاثة أشياء : قوسه وقلمه وجواده . وقاوم جهرا وعلانية لكي يحسن تغطية القادة السريين . والقي عليه القبض سنة 322 واتهم بالزندقة . غير أن التعذيب زاد من حقده على السلطة . وبعد سنتين من الموت البطيء استسلم واطلق سراحه سنة 324 . واجتذبته السلطة اليها وهو منهوك القوى . وصار مادح الامراء الصغار والبورجوازيين الكبار قبل ان يعين شاعرا رسميا ببلاط مصر ! وخابت آمال مسعودة في المتنبي وصاحت قائلة : « لقد خان الثقة ! » اجل ! ولكن القرامطة استمروا بأقسى وأصفى مما مضى مثل حجر الصوان والنار . غير أن المتنبي أنكرهم سنة 354 عندما احتلوا الكوفة مسقط رأسه . واستعدت كلثوم لتخلف مكان « الدر » حتى تواصل جذب أنظار مسعودة التي قلقت لغياب ابنها العاق ، وعملت على شد أنفاسها اليها لأنها أولعت بالحكاية . وكان محمد عديم اللقب قد عاد لتوه الى الدار ، فقالت الام لزوجة ابنها : « تحققي من سلامته » فأجابت كلثوم : « ابهامه الايمن لا يزال في مكانه ! — لو تعلم ما روته لي زوجتك . لا تحدثني أبدا عن الشعراء . فكلهم خونة . ما عليك الا ان تنظر الى متنبيك هذا . كان من الافضل ان يستمر في ايقاف المطر بدلا من أن يعير صنيعة ملك زنجي ! » وتوقفت مسعودة فجاة وقد تذكرت طفولتها والخادمات الزنجيات والسكر المسروق ! وطيور السادسة مساء وهي تحلق فوق الفناء المفتوح على سماء الله ! « لن تتغيري ابدا ! » انني احاول ذلك . ولكن حدثني عما فعلته خلال كل هذا

الوقت بالصحراء ! انت خائن أيضا . لقد فقـدت البلـدة صوابها . والفراشات تولد ميتة . اختك حامل والحاكم يتبختر . والسينمائيون يخربون الماخور كل مساء . وفضلا عن ذلك فقد عثروا علـى سندباد مسكين يريد أن يمتطي بساطا طائرا . لقد مات بطبيعة الحال وهوى قطعة قطعة . كل هذا يذكرني باليوم الذي جيء فيه بوالدك ملفوفا في ازار متسخ . وامتنع محمد عديم اللقب عن الرد . لقد كان على علم بكل شيء لكنه لم يضيع وقته . وقد توصل بفضل التركيز من الحصول على موهبة جديدة ، وصار قادرا على قراءة اية كتابة بأنفـه سواء أكانت آرامية أم منامية أم عبرانية أم كلدانية أم سريانية ام بربرية ام مصرية . وكان انفه قادرا على ادراك الروائح التي تبعثها الحروف كلها . وعقد العزم على التمويه بهذا المكسب الخارق لكي يحول انظار المناميين عن سراب السينما توغرافيا ويدفعهم على الانشغال لبعض الوقت الى أن يستطيع تنظيم مقاومة مسلحة حقيقية ضد الغزاة . وكان أن استقر به المقام في اليوم التالي على مقربة من مكان التصوير حيث تواصل اخراج مشهد السندباد وهو يحلق فوق المدائن والبلدان والقارات بما في ذلك قارة القطب الجنوبي التي تركت جزءا منها يباع في شكل جبل جليدي الى ملك خليجية ليرطب به جو المنامة الخانق . واحاط محمد نفسه بأكبر قفص صنع في العالم كله وقد ملأه بالعصافـير والببغـاوات والكناريا والكوكسيرج والكاكاتويس والباباغاي والكاميشي والزرازير وبالعشرات من انواع الطيور الاخرى ، وجعل يتلـو وسط جعجعـة تصم الآذان مخطوطا نبطيا جاء به اليه أحد الماكرين أملا منه في أن يفضحه ويضعه موضع السخرية . وجلس ابن مسعودة الاكبر معصوب العينين وراح يشم كل حرف وكلمة وجملة ، فأثبت انه صادق في مزاعمه . وسـرت الاشاعة في البلدة في لمح البصر . وان هي الا دقائـق معدودات حتى تزاحم أهل المنامة حول هذا الرجل ذي الانف الحساس . وخلا مكـان التصوير من العمال . في حين ان الممثلين الثانويين انبهروا كل الانبهار فضربوا بجذورهم في الارض لا يبرحونها ابدا . حتى التقنيون والممثلون الاجانب تدافعوا وسط الخلق ليشهدوا هذا النابغة الذي لم يتنبأ بزوال البلدة فحسب كما تدعيه مسعودة بل بنهاية العالم أيضا . وهي النهاية التي تحدث عنها مفسرو الاسلام وزعموا انها واقعة فـي مطالع القـرن الرابع عشر . ولم يبق في مكان التصوير الا المخرج ومدير الانتاج لأن

المهندس الرئيسي انتهز الفرصة لكي يلتقط بعض الصور لعديم اللقب حتى يكون له السبق في بيعها للوكالات الدولية .

وتوقف تصوير الفيلم ثانية . ووصل الحاكم الى عين المكان ، على متن سيارة الرولز التي اخرجها من غلافها وزينها بفوانيس كهربائية تشتغل بغاز المستنقعات المنتشرة في بلاد ما بين النهرين . وتفنن في تزيينها فزود كوابحها ودواساتها المختلفة بمصابيح صغيرة مشعة تضيء لأدنى ضغط وتمكنه عند سياقتها بألا يشبك ما بين رجليه . وقد عرف عنه بأنه أرعن ومهووس كغيره من الاثرياء الجدد ، بالالعاب والاشياء التافهة . ولجأ الى التهديد فما أعار اي واحد من الحاضرين اهمية للسيف البلاتيني الذي يحمله لأول مرة في حياته . وهو السيف الذي لم يسبق لأحد أن رآه الا على صفحات المجلات ذات الاهتمامات بحياة الملوك . وجعل يهز كتفيه الى أن اقترب من محمد عديم اللقب الذي شغل بتلاوة رسالة كتبتها احدى الممثلات خلال الليلة السابقة بنية ارسالها الى زوجها . وما ان وقع نظره على القفص الهائل بطيوره المتعددة التي سمع الكثير من الاحاديث عنها ولم يرها أبدا حتى وقع تحت سحر الاوركسترا الخارقة التي سالت نفخاتها الربانية بمختلف النبرات لكل نوع منها . وخيل للناس انه سيطير بفعل الموسيقى الساحرة والالوان لكنهم فوجئوا لأول مرة بالدموع تترقرق في مآقيه . ثم ان المناميين المطبوعين على المروءة والرحمة صفقوا له . وتأثر ايما تأثر ، ثم وقع في شباك محمد عديم اللقب غير آبه بنظرات المخرج الحاقدة وبمحاولاته لاعادته الى رشده . وأخرج من جيبه رسالة قديمة من ليلى تعود الى الفترة التي كانت فيها طالبة بسيدني والصقها تحت أنف ذلك الذي فض بكارة ابنته المدللة . واشتهر بمواهب اخرى رائعة مثل ظله الذي يحركه على هواه ، وجسده المغنط القادر على كسر ضحكات الاطفال وقوقعة الدجاج وجعجعة الرحى على مسافة اقصاها مائة وستة وستون مترا ، بالاضافة الى قدرته على استغفال والدته بتحويل هوية وجنس اشقائه وشقيقاته الثمانية عشر ، وامكانية التحاور مع جده الذي مات قبل عشرين سنة ، وطريقته في سقي العذارى بالانداء الليلية دون حرمانهن من ذلك الكنز اللائي يحملنه بين المخمل والزغب ، واحساسه بالشرانق وهي تبلغ مرحلة النضج ... واسفرت القراءة الانفية التي قام بها محمد عديم اللقب عن النص التالي : « ابي العزيز . استراليا كبيرة والصحراء اوسع

ما فيها . دعاني استاذ الرقص الى العشاء في مطعم رفيع لكنني رفضت تناول الخمر المستورد من غير المنامة . اعمل عشر ساعات يوميا ، وقد حققت تقدما مذهلا حسب أقوال رفيقاتي اللائي يفرن من جمالي أولا ولأن أبي حاكم ثانيا . لا ينبغي ان ترسل لي هذه المبالغ من المال فأنا لا أدري ما افعل بها . يجب عليك أن تضعها جانبا في حالة ما اذا أبعدت من منصبك ذات يوم . انك لم تعد تعطيني أخبارا عن يوبا الثاني وآمل ان يكون في صحة جيدة وأنت أيضا وامي العزيزة . مع قبلاتي وحناني الكبير . ليلى بندرشاه . طالبة في الرقص الكلاسيكي عند الاستاذ فاسيلي فاسيلييف » . وانبهر الحاكم ، فأراد ان يطبع قبلة على عديم اللقب لكن هذا قفز من مكانه وأزاح العصابة التي تغطي عينيه وقال : « لقد سبق لوالدتي ان اتهمتني بالخيانة لأنني تغيبت عن الدار اسبوعا واحدا . فما الذي يكون عليه أمرها ان هي علمت بأنني سمحت لبندرشاه بأن يقبلني ؟ ودار الحاكم حول نفسه وغادر المكان وهو يبكي بدموع حرى . وعاد الى بيته وانطرح في الفراش . ولأول مرة في حياته أبرق بواسطة الاشارات الاعتيادية الى صهره طالبا منه أن يرسل له عشر أنابيب من اقراص الاسبرين . ذلك أن هذا الدواء غير موجود بالمنامة حيث اعتاد الناس على مثل هذا النقص .

ولم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بأوجاع في الرأس ، منذ أصيب البعض من المناميين بالانبهار ، واغمي على البعض الآخر . ولم يحدث ذلك بسبب المعجزة التي شاهدوها لتوهم بقدر ما كان بسبب الصخب العجيب الصادر عن طيور محمد عديم اللقب . وظل هذا يعرض طريقته الجديدة في تحسس الكتابة واستثارة طيوره بالصوت المنبعث من قراءاته الانفية . وتحولت البلدة كلها الى قفص سحري هائل يضم موسيقى العالم اجمع . وضم مربي الطيور جهودهم الى جهود عديم اللقب ذي الخوارق المتعددة حتى لا يظلوا على هامش التاريخ المندفع قدما الى الامام على الرغم من جموده الظاهر . ثم ان سمعة المنامة كصندوق موسيقي عجيب حلت محل سمعتها كبلدة وصف فيها ابن خلدون عظمة وتدهور الامبراطورية التي بلبلت رقعتها الواسعة مواقيت الساعات والاجواء والخطوط المتوازية . وكان البيروني العالم النابه قد تمكن من قياس تلك العناصر كلها بواسطة اسطرلاباته ، ثم انه كان أول من كشف عن ذلك الخط الوهمي المسمى بخط الهاجرة . وانهالت الدعوات

على محمد من كل جانب فلم يعد لديه حتى الوقت لحلق لحيته . على انه ، وهو الذي أبى الا ان يكون انظف الناس ويحافظ على سمعته أمام فتيان الفريق السينمائي ، لجأ الى معارف الاسكافي المتعددة ، فنزع عنه هذا شعره بواسطة موسى دون أن يستخدم اي صابون . واغتاظت مسعودة لذلك : « لم يعد لديه حتى الوقت لكي يأتي ويتناول طعامه في البيت . أيظن بأنه يحمل البلدة كلها على كتفيه ؟ اذا كان هؤلاء الناس قد رضوا بأن تنطلي عليهم الحيلة ، فانني لا أريد لابني ان يتغذى بأطعمة اشك في كونها طازجة . أيلعب دور المهرج وأنا أمتلك أجمل حديقة للخضراوات بالمنامة ؟ » . وعبثا حاولت ان تثنيه عن رأيه ، فما عاد الى البيت . بل قبع في نفس المكان وأراد ان يدفع السينمائيين على القرف متهما اياهم بأنهم قدموا الى المنامة عمدا لمساعدة الحاكم على انجاز مأثرته في وقت يفغر فيه الناس أفواههم أمام خوارق آلاف الابطال من ألف ليلة وليلة . على أن الحاكم كان خارج الحلبة ولكن بصورة مؤقتة . ثم ان اقراص الاسبرين التي طلبها من ملك خليجية قد تكون مجرد حيلة اضافية او اسما مشفرا لتعيين شيء آخر . وعلى اية حال ، توقف اخراج الفيلم ، وظل الاجانب مشدوهين بخوارق عديم اللقب الذي كان في البداية مولعا بابن خلدون . واحس اشد افراد فريق السينما تعنتا باقتراب العاصفة . واستعدوا لمجابهة المخاطر ، بل انهم ارادوا تبين الحقيقة فما انفكوا عن تقليب صفحات التقارير السرية التي ارسلها الحاكم الى مسؤولية أيام كان الرسام البلوداني موجودا في قصره . وقالت بعض الاشاعات بأن ذلك الرسام قد مات ودفن في مقبرة اسلامية في حين قالت أنباء أخرى بأنه لا يزال على قيد الحياة وهو يضطلع بمهمة جديدة في مكان آخر . وواصل الامريكيون مضغ كميات ضخمة من الشوبنغوم ، وانتووا اغتيال ذلك المهرج الجريء الذي بدأ يقض مضاجعهم بحجة أنه ولد منفردا في حين ان اخوته ابصروا النور اثنين اثنين ، وبحجة أنه ذو حس خارق مكنه من التحايل على ظله وجعله امامه دائما وابدا بفضل معرفته بقوانين الفيزياء الشمسية . ولم تعد بالمنامة سلطة ، في حين ظل الحاكم ينتظر دواءه . وانهمك عديم اللقب في اشغاله على هواه . وتعطل اخراج الفيلم . بل ان بكرات عديدة منه فقدت منه الى الابد . وفرضت الطيور أهواءها . ولتستكمل المهزلة فصولها غادر المشعوذون المعتادون والذين يزعمون التطبيب ومروضو الحمائم والمجانين بحب الله والقوالون منبسط الربوة والقوا رحالهم الى جانب

عديم اللقب . وبايعوه على الوفاء والولاء . وانتخبوه دفعة واحدة ملك الحيلة والعبقرية والتحايل . حتى النساء المتوفزات توقفن عن حضن الشرانق في سراويلهن . وهب على المنامة نسيم قادم من عالم آخر ، وريح جنونية لطيفة بالغة اللطافة . وجعل الحوت المعلق يتماوج وانتفخ ورق الالومينيوم وبرزت احديدابات وثقوب على صفحة الورق الصقيل . وفجأة احسست كلثوم التي غمرها السرور بذلك النصر بمنطقة من الصفاء ترتسم في اعماق اضطرابها . وجعل ابطاها يتأكلانها ، وعلى الرغم من أنها كانت تزيل الشعر عنهما يوميا ، فقد زحفت عليهما جزوة سوداء في نهاية النهار وتدلت على جانبيها . وانتبهت مسعودة للامر فتذكرت الفترة التي ازدرت فيها بالحاكم فتركت شعر فرجها ينمو بسرعة اضطرت معها الى ان تضفره كل يوم . على ان ذلك لم يكن كافيا بل اضطرها الى ان تلبس عددا من السراويل الفضفاضة من الكتان البحري ورثتها عن سلفها مصطفى قرصاني . وعرفت « الدر » كيف تؤول هذه الظاهرة : « اننا ندخل منطقة اللايقين . وهذا دليل بأن العاصفة وشيكة الوقوع . وعلى أية حال ينبغي استعمال مبيد ناجح من مبيدات الحشائش الطفيلية » . وارسل « حمدان » لشراء كلورور الحامض الكبريتي وتم خلطه بمستخلص الكبريت الاميني ونجح الدواء المستقطر في التخفيف على كلثوم فورا وفي وضع حد لجزوتها التي بعثتها على الخجل .

لم يختر المعلم « بربي » الا فترة الازمة والجنون لكي يدلل على وجوده . جاء ليودع طبله العجوز المعلق ، وقد جفت عيناه وقست نظراته . واستعد لمغادرة المنامة بحثا عن عمل في مكان آخر . فما عاد احد يحتاج الى خدماته ولا الى طبله الذي صار مزقا مزقا دون ان يتمكن من اصلاحه . المهم في الامر هو انه كان بصدد الاغتراب . وتذكر المناميون وهم مأخوذون بخوارقهم وسحرهم ان هناك عالما خارج المنامة يمكن للانسان ان يعيش فيه وباستثناء هذا التصحيح الذي بدر عنهم ، فانهم عارضوا مشروع البراح السابق والصقوا به تهمة الخيانة دون ان يتجرأوا على التلفظ بها . على أن مسعودة اقرته على رايه بقولها : « سوف يوجد شخص على الاقل ليشهد ذات يوم بأن هذه البلدة وجدت حقا ! سوف يغرقنا الطوفان . انا اعرف دخيلة الحاكم على الرغم من دموع التماسيح التي ذرفها يوم ان قرأ له ابني بأنفه رسالة ابنته . انه

منشغل بتبييت شيء مع الاجانب . ادنى ملاحظة منا تدلنا على ان الحيلة تنطلي دائما على الناس الشرفاء . حتى هؤلاء القرامطة الذين حدثتموني عنهم لكي تخففوا من حيرتي ، صمدوا اربعمائة واحدى وخمسين سنة لا اكثر ولا اقل » . ذلك هو السؤال بالذات الذي راود عقول الناس . كم من الوقت سنصمد . وتم تأويل ذهاب المعلم «بربى» على انه بداية هروب ومشروع تمهيدي للهجرة الجماعية . غير ان الطليعـــة السياسية فـــي البلدة راحت تقرع الابواب . ثم ان علاوة الاحمر ورشيد بناصر وجيلالي بو حدبة وعلي الفقيه وتوائم عائلة عديم اللقب من جهة و « شجرة الدر » وكلثوم بندرشاه ومليكة بناصر المولودة عديم اللقب والتوائم الاناث فـــي عائلة عديم اللقب من جهة ثانية انبثوا في اماكن حساسة مـــن البلدة . البعض منهم لدى الرجال والبعض الآخر لدى النساء . وقدموا شروحا عن الخطر الذي يتهددهم والهبوا مشاعر المناميين ، وحولوا الحمامات الى فرن سياسي وجعلوا المساجد تغلي بالثقافة الثورية بموافقة من الامام الذي ضم صوته من حيث لا يدري الى الافكار التقدمية ، وصارت ساحة الطيور مهرجانا دائما نوقشت خلاله مسألة بقاء المنامة على قيد الحياة ، بالاضافة الى ضرورة وضع حـــد للاغتيالات اليومية ولحـــوادث العمل المتعمدة والحيلولة دون تحقيق الحاكم لمشروعه وتوطين الاجانب . وأدرك الجميع ان شقاءهم ذاك ، راجع الى تلك الفكرة الجنونية في استنـــزال المطر الاصطناعي ، واستقدام الجبل الجليدي عبر بحار الشمال والجنوب والمحيطات وهو الامر الذي يعجـــل ايضا بحـــدوث التقهقر في المستقبل القريب . وعلم اهل المنامة ان فتحة واسعة توشك ان تحـــدث في هذا العالم الغافي الذي يحملونه في دخائل نفوسهم وان ثغرة الصفاء ما انفكت عن التوسع . غير انهم سمروا ابواب الشك ونوافذ الخوف والندم . وعلى الرغم من الرغبة التي استبدت بهم في اتباع المعلم « بربي » فانهم عقدوا العزم على البقاء بالمنامة والصمود وعدم التنازل عن موقفهم قيد انملة . ثم انهم قرروا حماية محمد عديم اللقب من الانتقام والقمع والثأر والشرور . وانتشرت في البلدة ملحمة القرامطة التي روتها « الدر » ذات يوم على مسامع مسعودة لكي تخفف قلقها على غياب ابنها المتواصل ، وبادر نحات مجهول الى نصب تمثال من الجبس لحمدان قرمط في قلب ساحة الطيور ، ونصح المعلم علي الفقيه تلاميذه في اطار من السرية التامة بأن يمتنعوا مؤقتا عن مطالعة الف ليلة وليلة ، واضطلع بدوره في حراسة خصمه السابق الذي نافسه طوال سنوات عديدة في التجـــارة

برسائل الحب والغرام . ولم يعد الماضي يلقي ظلاله عليهما وتآخيا من جديد . وأرادت كلثوم ان ترى الحركة منظمة على الدوام بعد مرحلة العفوية والاضطراب . فدرست كتب اخوان الصفاء دراسة جدية وتحليلات حمدان قرمط حول حركته ، والوقائع التي أوردها المسعودي والطبري وكبار الاختصاصيين في تلك المرحلة الثورية . وأبدت « الدر » موافقتها فبعثت رسالة سرية الى محمد عديم اللقب بواسطة حمام مختم تخبره فيها بأن الوقت قد حان لحصر هذه الحركة الشعبية وتنظيم شعب المنامة والانتقال الى العمل السري . وذكرته بأن عليه في حالة موافقته على تزعم الحركة ان يعد اطروحة في الفلسفة السياسية مثلما يقتضيه العرف عن القرامطة وان يفكر في عشرة اسماء مستعارة قد يحتاج اليها للتمويه على مصالح الشرطة .

وعندما فرغ عديم اللقب من فك رموز البرقية المشفرة وقرأها بعينيه لأنها مكتوبة بعلامات ضبطتها زوجته لأول مرة ، أدرك أن كل ما هو مكتوب سوف، يخدم الاجيال القادمة على الدوام والاجيال التي تليها وهكذا الى ما لا نهاية . اذ جاء في تلك البرقية ان الثورة ليست لعبة ولا قضية عرافين حبتهم الطبيعة بمواهب خارقة ، بل هي ضرورة تاريخية رهيبة تحتاج الى الصرامة والى الوضوح الليلي لكي تنتصر انتصارا نهائيا . ويشترط فيها أن تعيد النظر بنفسها باستمرار وتفحص اعماقها بانتظام وتراقب ذاتها بالدقة التي يعمد بها الساعاتي الى تنظيف وتشحيم ساعات مسعودة الجدارية الصقلية . وازاح الابن الاعجوبة تلك العصبة عن عينيه ، وطوى كرسيه الصغير المصنوع من الكتان وعاد الى بيته . وكان قبل ذلك قد طلب من مريديه الا يهونوا واوضح لهم بانه عائد عما قريب لأنه أحس بالحاجة الى التأمل والى استشارة اصدقائه . ومضغ المخرج قطعة السوبنغوم بأعنف من ذي قبل ، اما مدير الانتاج فأكل سيجارتين مشتعلتين دون أن يتخذ حذره فيطفئهما . وتوقفت الف ليلة وليلة كأن الكواكب تحجرت، وروى جيلالي بوحدبة في نفس العشية بأن مسح الله المنجم الذي اختار موقع بغداد كمدينة قد زاره في الحلم ووعده بأن يديم اللبل على المنامة الى أن يغادرها الكفرة . ذلك أن صلب المشكلة انما يتمثل في ذلك الضوء الذي اشتهر عنه بأنه انشط ضوء عاكس في العالم كله . وأرسلت كلثوم الى أبيها لتطلع عما اذا لم يكن مرضه مجرد خطة فوجدته طريح الفراش ، يتقيأ العقارب وغيرها من الزواحف السامة . اما والدتها

فكانت تتعشى وحدها ، وقد جلست الى طرف الطاولة المستطيلة التي اقتلع حراس الحاكم رخامها من قبور الجبانة الامريكيـــة عندما طوى المستعمرون عدتهم وعديدهم وتركوا وراءهم امواتهم الذين لم يعودوا يخشون شيئا ... عدا ان يعمد الحاكم المهووس بالاشياء القديمة الى اقتلاع شواهد القبور ويضمها الى حاجاته الاخرى من أحواض السردين والسمك الطائر ، وزهور النيوفر المصنوعة من الزنك والورق وأقبية الاموات الرخامية التي تأكلتها أيام الارواح الشاردة ولياليها . « انه مريض حقا ! » تلفظت الام بتلك الكلمات وهـــي توقـــف لأول مرة في حياتها مروحتها الشخصية الصغيرة التي تحطم عليها العديـــد مـــن الحشرات الليلية . « يعذب نفسه لأن صهره رفض ان يرسل اليه أقراص الاسبرين. فهو الآخر يعاني من اوجاع الرأس حسبما تقوله رسالة أختك » . وجعلت تنقب صحنها دون ان تكف عن الحديث . وتنبش ذاكرتها كأنما هي تولد من جديد لا في الحياة بل في شيء مماثل . « ابقي معي قليلا . فلن يموت ابوك بهمومه هذه الليلة . الا تريدين البقاء معي ؟ لقد مضى علي زمن طويل لم تراودني فيه الرغبة للتحدث الى أحد . سنتعشى سويا . ينبغي انتهاز الفرصة ! » . واستجابت كلثوم لطلبها الحائر . وشعرت بما يشبه الاندفاع نحوها لكنها كبتته خشية ان تقلق والدتهـــا لهذا الدفق العاطفي المفاجىء بعد أن أوقفت محركات الحنان . واستقر بها المقام بالدار بضعة أيام تخللتها علاقات باللغة العناية كأن زوجة بندرشاه في طور النقاهة بعد تماثلها للشفاء من مرض عاطفي . وكانت الاتصالات بينهما خاطفة كأنهما تتعلمان اتيان الحركات المعبرة في كل يوم . بينما راح التقارب بينهما يبعث الابنة على الرعشة المفرطة ويدفع الام على اطلاق العنان لدموعها الخرساء . ولاحظتا معا ان الواحدة منهما لا تعرف الاخرى وانهما تعيشـان سعادة مصدرها هذا اللقاء الجديد والفوران العاطفـــي المفاجيء . وتراوحت خطواتهما هادئة خفيفة لا تكاد تلامس الارض ، وجعلت كل منهما توصد الباب وراءها في هدوء مصطنع زاده التواطؤ فيما بينهما غرابة على غرابة . وكثيرا ما كانتا تنفجران بالضحك عندما تتصنع احداهما الانين في غرفتها لكي تجذب الانظار حول عزلتها الرهيبة . ثم ان الواحدة منهما حدقت في الاخرى وقتا طويلا : « انت ابنتي ، وانا لا اكاد اعلم ذلك . لأستراليا ضلع في هذا النسيان وكذلك قصة الابهام الذي يسبح في الفورمول ! هل تحملينه دائما في البوقال ؟ بلى ! ما أغباني .... وصمتت كلثوم وتركتها تتحدث . لقد أخلدت الى الصمت فترة طويلة .

ولاحظت أن والدتها استعادت شيئا من حيويتها الغابرة كأنها تحررت من ثقل كبير . ومع ذلك فقد ظلت تفتقر الى شيء ما حتى تنفجر في ضحكاتها وتتخلص من قحط السنين الذي اختزنته في صدرها . وكان من المحتم عليهما ان يتحدثا عن « مسعودة » وعن شجرة الزعرور التي تحمل بين أغصانها أرهب فزاع في العالم . « اليس ذلك الفزاع على صورة ابيك ؟ ـ كلا ! ولكن له مكانه في الحديقة ! » وفي ليلة اليوم الثالث همست الام في أذن ابنتها بصوت لا يكاد يسمع : « تظنين أنك تفهمين كل شيء . لقد كنت مثلك قبل زواجي ، ولكن هناك اشياء عديدة لا تدركينها . فأنت غارقة في الحب ، وانا معجبة بقصتك ... » . وظل الحاكم طريح الفراش ينتظر الرد من صهره في حين تواصل اضراب الممثلين الثانويين وتيبس الديكور بهواء البلدة اللافح . وارادت كلثوم ان تتعرف على هذا السر الذي لا تزال تجهله ، وما اسرع ما قالت لها أمها وكأنها ترغب في التخلص من شيء قديم حملته طويلا : « انك تجهلين ان مسعودة قرصاني وأنا أختان بالرضاعة ! » .

عندما حل « بندرشاه » بالمنامة قبل عشرين سنة بتعيين رسمي مغلف ومختوم بالشمع الاحمر ، أصيب بالخيبة من فقر البلدة ومن قبح موقعها ومن عقول أهلها . ولم يجد مكانا لجولته اليومية أحسن من ساحة الطيور بأشجارها الفريدة من نوعها . فالتربة مشققة والارض مليئة بالحصى كأنها مشهد قمري ، والغبار يلتصق بكل شيء ، ثم ان مظهر البلدة المقفر دفعه الى النفور منها حتى انه كلما اراد المشيء بعد الغداء ، التجأ الى المقبرة الامريكية ، أهلب واخصب مكان في الناحية . ولم يعد احد يتذكر تلك الحرب التي نشبت بين الطرفين ، ومع ذلك فقد وجدت بالمنامة مقبرة أمريكية يظل عشبها مخضرا طوال السنة ، وتسطع ازهارها وتلتف اشجارها فيما بينها وتظهر قبورها مرصوفة في خط مستقيم وقد تغطت بالرخام الرائع ، مثيرة في نفوس الذين تقودهم خطواتهم الى ذلك المكان رغبة ملحة في الموت فينتهزون فرصة ذلك الهدوء الذي ينعم فيه الحارس الوفي المنضبط . على ان بندرشاه ، منذ زياراته الاولى المقبرة ، رسم في ذهنه مخططا للدار الضخمة التي بناها فيما بعد . ذلك أن منظر القبور الرخامية ذوات العروق الوردية الباهتة والفضائية ، بعثت فيه الرغبة فورا على أن يضع في قاعة الطعام طاولة كبيرة قادرة على استقبال خمسين مدعوا ، ويغطى أعلاها بصفحة من تلك المادة النبيلة . وأثناء البناء ، جعل يرسل في كل ليلة عددا من صنائعه لكي يفككوا قطعا من رخام القبور الى أن تمكن من صنع تلك الطاولة الفخمة التي تجتمع العائلة حولها يوميا لتناول طعامها وكذلك وجهاء المنامة أيام الاستقبال . فلا ليلى ولا كلثوم عرفتا مصدر ذلك الاثاث الرائع ، غير أن

الوالدة المطلعة على السر سرعان ما أصيبت بفقدان الشهية . ومنذ تلك الفترة راحت تعبث بالطعام الذي يقدم اليها بدلا من ان تأكله وخبت شعلتها شيئا فشيئا بنوع من الكتمان الذي تمليه طبيعتها . وقد اطلعت كلثوم على مصدر رخام الطاولة الكبيرة خلال تلك الامسية التي كشفت لها والدتها عن رابطة الرضاعة التي تجمعها بمسعودة . وبالفعل ، كانت تلك الطاولة بحجمها الهائل تحتل قاعة الطعام بأكملها . وجنت كلثوم من الغيظ وفاضت شفقة على أهلها بعد ذلك الكشف المميت ، فجاءت بمطرقة وانهالت ضربا على الرخام . ولم تتوصل حتى الى خدشها ، لكنها ظلت تكيل لها ضرباتها الى أن روعت والدها فنزل من غرفته ودخل القاعة . وارسل تنهيدة متثاقلة وهو يرى ابنته وترك هذه الكلمات تفلت منه : « انه رخام أمريكي ، فاضربي ما شاء لك الضرب . انه أصلب من الحديد واشد عنادا منك ! » ثم عاود الصعود الى الغرفة لينام . وتجمدت أوصال كلثوم من الدهشة فأقلعت عن الضرب ثم تهاوت على كرسي . وأرادت والدتها ان تهدىء من روعها وحاولت اقناعها قائلة : «انهم لا يتركون مجالا للصدفة . تلك هي القوة ... ولن تتوصلي للقضاء عليها بمثل هذه السهولة . ومحمد عديم اللقب سيكون بالغ السذاجة ان ظن في نفسه القدرة على بلبلتهم لمجرد انه يحسن القراءة بأنفه ! » وهل في مقدورها ان تجيب بشيء على مثل هذه البداهة ؟ لكنها لم تعرف الى الراحة من سبيل الا عندما حصلت على موافقة منها بالذهاب لزيارة مسعودة وتحقيق مصالحة انزاحت كل عوائقها .

حين غادرت كلثوم امها لتعود الى آل عديم اللقب ، عرجت على مكان التصوير لتتأكد من أن الحوت لا يزال معلقا في مكانه ومملوءا بالهواء دائما . وابصرت به تحت شمس الاصيل المحمرة يتأرجح عملاقا باعثا على القلق ، في الفضاء الذي مهدته الطيور بأجنحتها ، حيث يزيد الشفق من انفجارها الجنوني . ولاحظت أن الحوت يتصلب شيئا فشيئا وقالت في ذات نفسها بأن الريح سوف تمزقه على مر الايام . انه صلب حقا صلابة رخامهم ودباباتهم وطائراتهم ! وراودها الاحساس بأنها قد طعنت في السن . كانت في العشرين من عمرها وما أسرع ما شعرت بأن نهديها يتراخيان .... رويدا ، رويدا . انني اشبه الحوت تماما . وسوف يهد الحزن جسدي . لا يمكن أن نحب بلا عقاب رجلا له اربعة توائم ومواهب خارقة وعينان بلون الخضرة المائية تغرق فيهما عاشقات العالم كلهن . سأموت عانسا . سوف

تعيد امي علاقتها بمسعودة ، فلم تكن تنقص الا مهزلة الانفصام هذه ! وهذا يعني ان الاخوة عديم اللقب هم ابناء خالتي . احمد الله على انني لم أتزوج بحميد والا لكنا انجبنا كاميشيات معتوهة مصابة بداء التعملق بدلا من توائم جميلة . وعندما مرت بالقرب من قلب البلدة بصبص لها التقنبون الاجانب الذين انطرحوا ارضا ليشربوا البيرة التي جاؤوا بها . لكنها لم تغضب لسببين . اولا : استدلت من ذلك أن الاضراب لا يزال قائما . ثانيا : ادركت انها الوحيدة التي تخرج الى الشارع وتعود الى البيت كيفما شاءت ، ثم انها على وجه الخصوص لا تحمل حجابا من الحرير الخام على غـــرار النسوة المناميات اللائي يحدث لهن بين الفينة والاخرى أن يغامرن خارج دورهن تاركات وراءهن اطفالهن وشرانقهن . وكلثوم هذه تجهل اسباب المضايقات واشكالها . حتى ان بعض الفتيات شعرت بالحاجة الى تقليدها . فقد علمها عجزها عن امتلاك أي شيء من محمد عديم اللقب سوى ابهامه الايسر أن تكون صابرة جلودا . وسوف تنفتح النسوة على المستقبل عندما تنطلق الحرب التحريرية ، اما الرجال فلن يقولوا شيئا لأنهم سوف يكونون في غياهب السجون . وصار كل شيء ممكنا في المنامة الآن بعد أن علمت كلثوم ان لم يحدث لقاء بين امها واختها بالرضاعة منذ زواج كل واحدة منهما . وادركت ايضا انها تناولت طعامها بشهية كبيرة طوال خمسة عشر عاما على طاولة تيبست الجثث تحتها ! لعل تلك الجثث قد انفجرت أول الامـــر وسالت عفونتها ، وتمازجـــت أوصالها بأمخاضها المتراخية محدثة صفيرا أشبه بصفير القدر التي لم تعد قادرة على التغلية . يا للرعب ! السقطة المتراخية ليست صرخة بالضرورة ، بل هي احساس لذيذ بأن الانسان يغرق في عوالم الهذيان . وجثث وجب أسدال جفونها على عيونها الجاحظة المبيضة التي تتناقض الوانها مع بشرات الخدود بعد ان زحفت عليها الزرقة ، جثث استمرت لحاها في النمو كثة غزيرة الى ان لفظت الامعاء كل السوائل التي كانت قادرة على لفظها . وادركت كلثوم حينذاك ان هؤلاء الاجانب قد ينتهي بهم الامر أيضا في مقبرة مثل سواهم . ما أشد بطر الانسان وهو يضع زجاجة البيرة بين شفتيه ويغري النساء بنظراته ! وفكرت في قنفذها الذي قضى نحبه . أمن الحزن ؟ حتى هو ! علي أن أربي قنفذا آخر بدلا من أن أتحمل مشقة الذهاب الى ملبورن . والدي ؟ صعلوك ! مهرج منفوخ بالفقاقيع . وبأسلام التونجستين التي تنسج أفكارا غريبة تحت جمجمته . والآخر أيضا . صعلوك . محمد عديم اللقب ... لماذا لم تحبني ؟ انت مجنون ايضا . والفارق الوحيد بينكما هو انك أقوى واصلب .

ثم ماذا عن ابن خلدون ذلك الذي علمك اشياء كثيرة ؟ لك ان تبحث ما طاب لك عن المكان الذي عاش به في المنامة . لقد تزوج بها . انجب طفلا وطفلة. ثم عاود الانطلاق . بجاية . تونس . القاهرة . تاركا وراءه زوجته وطفلين في البلدة . تلك هي العادة المتبعة في ذلك العهد . يا لمحمد المسكين !... افضل ابهامك داخل البوقال بدلا من جنين محبجب مصنوع بمنيك السميك المتماسك ! وانى يكون لي أن أضعه ؟ في أنبوب من أنابيب الاختبار . كلهم مجانين . « رشيقة » هي الوحيدة التي احكمت ضبط أمورها . انتحار رهيب . خاطت نفسها داخل كفنها . الشطارة نفسها ! لا يبدو على مسعودة أنها تفكر فيها كثيرا . لقد بدات تفقه أمور السياسة وهذا غريب عند عجوز في مثل سنها . اهذي ثم اهذي وتمرغي في الهذيان ! سوف أحتفظ ببوقالي هذا . فهو التعبير السقيم السبخ عن صبابتي وفشل حبي . لم أعد أذكر الا الطيور وهي تشعث أرياش بعضها . ثم الحبر ! ضخات بنفسجية تتصاعد الى رأسي . مغمورة . سعيدة . مفترعة أنا ! وددت لو أنام في رائحته ، لكن جاءت الاخرى ... اتعس ما في الامر انني أحبه ... قادرة هي على أن أتقاسمه معها ... لكنه لن يقبل ذلك ابدا ! انه عاشق وعندما تحبل زوجته لا يعرف النعاس طريقا الى جفنيه ... يرتعد خوفا من معاكسة تقاليد عائلته . ابي هو المخطىء ... آه ، لو انه لم يتسبب في انخفاض نسبة المواليد بمسبحه الاولمبي عندما يملؤه كل صباح بمياه تفتقر اليها البلدة منذ ان بنيت ! يا للغبي ... لا يعرف كيف يسبح. لقد اراد التباهي والتخلص على عجل من رائحة السردين الغريض. حقا الوصولية مرض طفولي منتشر بكثرة في مناطقنا.. ما على اهل المنامة الا ان ينظروا الى مساحته : خمسة وخمسون مترا من الطول . وقرية عطشى ... الماء مقطوع خلال النهار. فانقلبت العادات والمواقيت واصبحت النسوة محرومات . وهكذا تفشت ممارسة العادة السرية . من الجانبين . لكن مسعودة قررت انجاب توائم . وفتحت صنابيرها . وخشي ابنها الا يصيب الهدف . فضلا عن انه تعذب العذاب الشديد بسبب مولده منفردا . حبيبي . هو ذا المساء يتلطخ بصفرة الزعفران . ولن تنجب توائم ابدا . أنا اقل حيلة من « الدر » . ومع ذلك نكون قد تجولنا خلال تلك ، عندما تخرق طيور المنامة جدار الفضاء ، فتجمد ساعات امك الصقلية وقد صعقها الذهول .

في دار عديم اللقب : فوران وجيشان . الاطفال يمتنعون عن الذهاب

الى فراشهم قبل ان تروى على مسامعهم قصة علي بابا والاربعين لصا . فهم يحبون الشعور بالخوف . الدر وحدها بقيت متصلبة . فهي ترى أن « علي بابا » هو اللص الحقيقي ، وليس هناك من داع الى قلب الادوار . حينذاك يرتفع صوت مسعودة صافيا ليفرض الطاعة التي يحبها الله والجدات اللائي لا يستطعن تحمل التوائم مـــن أحفادهن حين انقضاء النهار . وعادت كلثوم وهي بين اليقظة والنوم وقـــد ضاقت عيناها واقتيدت الى كرسي ، فابتلعت دموعها وحبها وكسوفاتها . « لم يلمس احد بوقالي ! اليس كذلك ؟ » وكان البوقال قد ظل ثلاثة أيام بدون أن يتغير سائله . وكاد الابهام اثناءها يتفتت فتحدث القيامة ان لم يندفع الطوفان الذي خرب أحشاء المنامة . وتصعد كلثوم الى غرفة التوائم حيث يوجد سريرها . وتنظر تحته فتبصر بالاناء . شعرت بنفس التوفز في احاسيسها كلما عمدت الى تبديل سائل الفورمول وتناولت بين يديها ذلك الابهام الذي انقطع عن أصله ذات يوم من ايام الحنان الطاغي . الابهام يقبع في صدارة عالمها المجنون . وهو الدليل القاطع على جبن الرجال . لا علينا . بينه وبينها ذلك الوشم الذي يجري من أعلى جسد « الدر » الى أسفلها . محظوظة في ان تحمل اسم الملكـــة الوحيدة في الامبراطورية الاسلامية . أما انا فأحمل اسم مغنية معاصرة انتهى بها الامر الى ترديد الغناء التافه بعد أن بدأت بالقصائد العصماء التي دفعت بالبلوغ الى حلقها . وحين انطـــرح الاطفال داخل فراشهم ، راحت كلثوم تفرك بوقالها بممسحة حديدية صغيرة . انها لا تمتلك مفركا بل ذاكرة حقيقية . الكل يريد لها أن تتخلى عن رقيتها المنحوسة . وها هي ذي وقد بلغت العشرين تتلقى طلبات الزواج في حين انه كان من المفروض ان ترسل الى والدها فيما مضى . معلم البلدة هو الذي دبج تلك الرسائل حتى يتمكن من سد حاجاته ويخلق جوا من الشاعرية يستنشقه تلاميذه ملء رئتيهم . « رددوا من بعدي ! » لا بد لكل شيء من بداية . لكن بينها وبينهم الخطاب . وتتراكم الحواجز بما فيها الاشياء والمشاعر : بوقال زجاجي مملوء بالفورمول . وممسحة حديديـــة صغيرة . تهاويل مرسومة . ثم خوفها من الاماكن المغلقة الموصودة أو الفائض من الحرية وفلسفة القرامطة ولون الخضرة المائية والابهـــام الـــذي يطفو وسط اليأس . فالى متى كل هذا ؟ وعرفت أو لعلها قالت لنفسها بأن يوما ما حقا سيأتي ، وستعطي الابهام حينذاك الى السلحفاتين الطاعنتين اللتين جاءت بهما مسعودة من دار والديها مع الساعات الصقلية التسع عشرة

واليمامات الثلاث . فمتى يغزر المطر وينزل الشتاء ؟ غير انها سمعت الام ترفع صوتها : « أنا أمنعك من أن تقصي عليهم حكايــة علي بابا والاربعون لصا .. ولكن حاولي أن تتجنبي قصة الزنج كذلك ... يا للفظاعة ! أدمغة بشرية تقولب في شكل أصص ليليه ! كــلا والف كلا ! فليمصوا ابهامهم وليناموا هادئين مطمئنين ... ان التاريخ مزعج ومخيف ... كفاية هذا الشقاء ... » حينذاك تسرع كلثوم الى وضع ابهامها الذي يسبح في محلول الفورمول داخل البوقال الزجاجي جانبا ، خشية رد فعل مفاجيء من طرف مسعودة .

تواصل الاضراب في حين أن آلات الارسال والاستقبال اللاسلكية ، راحت تطن بجعجعتها مـــا بين المنامة وعاصمة خليجية . واشتكـــى الاجانب من سوء نية أهل البلدة ومن الكسل المتأصل فيهـــم ومن روح التشويش الطبيعية عندهم . واستعان محمد عديم اللقب بشقيقيه محمود وامحمد وبصهره الساعاتي ، لصنع جهاز تنصت بواسطة علب الدخان المنشوق ، بعد أن أفرغها من محتوياتها وثقب أطرافها وربط فيما بينها بسلك موصل . ونصب هذا الجهاز الغريب فوق دار الحاكم سرا لان تلك الجعجعة المتثاقلة كانت تنطلق منها . واستأنف « فكرون » تجسسه واحسن عمله هذا . واغلق زعيم المقاومة على نفسه لكي يمازج هويات أشقائه وشقيقاتـــه بعضها بعض ، لأنهم كانـــوا يتشابهون فيما بينهم تشابها مذهلا ، وان كان كل واحد منهم يتحايل على ان يحتفظ على الدوام بخاصية من خاصيات طباعه أو بلون شعره أو بعلامة تدل على اثوابه المختلفة أو بأي رمز آخر يميزه عن سواه . على أن حمادي عديم اللقب آخر التوائم أصيب هو الآخر بعدوى الاطلاع وحب المعرفة على غرار أخيه الاكبر ، فكان أن الصق شريطا أحمر على قمصانه المزركشة فوق يسار صدره . خطرت له هذه الفكرة وهو يطالع كتابا في التاريخ . وعلم أن الامراء النورمانديين حين غزوا صقلية الاسلامية في القرن الثانـــي عشر فرضوا على العرب حمـــل شريط أحمـــر يميزهـــم من المسيحيين الحقيقيين .... وعلى أية حال ، غرق ابن مسعودة البكر في مخطوطات الطوسي ذلك الرياضي الكبير الذي عاش في القرن الثالث عشر وابدع نظرية الحساب التآلفي . وتمكن بذلك من وضع جرد بمختلف امكانيات التداخل بين اشقائه التوائم من جهة وشقيقاته التوائم من جهة ثانية وبين الاناث والذكور ، مثلما سبق له ان قام بذلك ذات يوم . وعندما

ايقن من صحة حساباته ، واثبتها عن طريق البرهان بواسطة الرقم تسعة قام بتوزيع الهويــات ، والذكــورة والانوثــة ، والايماءات ، والتصرفات ، والاثواب ، والوان البشرات ، وحجم العيون ، واختلطت السبل أمام مسعودة . واشتبهت في هوياتهم ، وحسبت الاناث ذكورا ، والصغار كبارا وهكذا دواليك . غير أن عديم اللقب كان يعلم في قرارة نفسه ان هذا العبث لا يمكنه أن يدوم طويلا . وكانت أمامه مهلة لا تزيد ولا تنقص عن خمسة وعشرين يوما ، وهي الفتــرة التي تتخلص فيها شقيقاته من أعباء الطمث ، لأنه خشي أن تعمد والدته الى اجلاس الفتيان على القصريات الفضية فوق سطح الدار مثلما تعودت ان تفعل ذلك في اليوم التاسع عشر من كل شهر . والحقيقة أنه هدف بذلك الى التمويه والى تقليد البنية السرية للحركة القرمطية . بل انه بالغ في عمله هذا فأعطى لكل واحد تسع عشرة هوية مختلفة بأوراق تثبــت ذلك . وعندما حــان الوقت لاستبدال أسماء اعضاء اللجنة السرية للمقاومة صار الامر كله العوبة طفولية بحيث أن اللجنة نفسها لم تعد ســوى خمسة افراد ، وهم : علاوة الاحمر الاسكافي ، ورشيد بناصر ماسح الاراضي ، وجيلالي بو حدبة الساعاتي ، وعلي الفقيه المعلم ومحمد عديم اللقب نفسه . وبعد هذا الجهد الهائل في وضع هياكل الحركة ، اختلط الامر على رجال الشرطة الذين يراقبون المتآمرين وما عادوا قادرين على تمييز الواحد من الآخر وسط ذلك الخليط من الاشخاص الذين تداخلوا فيما بينهم . على أن غباوتهم دفعت بهم آخر الامر الى أن يشكوا في أن الاجانب هم أهل البلدة الاصلاء والعكس بالعكس . وكان أن القي القبض على المخرج وعذب طوال عشرة أيام لكي يعترف بأنه ليس سوى محمد عديم اللقب المتنكر في زي ماضغ الشوبنغوم ! لكن الحوت ظل في مكانه . وأحست الطيور بغريزتها انه رمز كريه للسيطرة والتوسع ، فحاولت أن تثقبه بمناقيرها الحادة ، وما أسرع ما تحطمت دون ان تقضي وطرها . على ان الحركة ظلت تنتظم بصورة جدية . وتوقفت مصارعات الاكباش وانضم صغار التجار بكل عفوية الى المقاومة ضد الغزاة . والقى محمد رحاله بحانوت الساعاتي ، وطفق هذا يصلح الاحذية . في حين أن الاسكافي قد صغر سنه بأربعين عاما وتقمص شخصية محمد عديم اللقب مع فارق ضئيل وهو انه عجز عن ترويض ظله وعن بث الرعب في الدجاج على مسافة ستة وستين مترا . وعن القراءة الانفية . ونتيجة لذلك بادر الشعب الــى اعلان تضامنه مع الحركة فقدم لها مساعداته ، ثم ان الرجال مكثوا في

البيوت ليستغفلوا رجال الشرطة ، وانشغلوا بتربية الاطفال ودود القز ، في حين ان النسوة اتخذن مظاهر الذكورة وتنكرن في الثياب الرجولية وعمدن حينذاك الى تنظيم الاضرابات هنا وهناك . وطاش صواب المنامة مرة ثانية . فعانت من هذه التقلبات الجذرية ، حتى أن الطبيعة تنكرت لمناظرها . فانزلقت القرية متعثرة وصار عاليها سافلها ، وانقلبت الديكورات من تلقاء ذاتها وحدثت هزة أرضية خفيفة جعلتها تدور حول مركزها . بينما تحول مدخلها الى مخرج والعكس بالعكس . ولم يصمد منها سوى الاسوار . وشعر الاجانب بالخوف لأول مرة ، وذهلوا بدورهم من تلك الظواهر الفريدة من نوعها حتى انهم راحوا يشتبهون في الاشياء فيسمون الجدار ثغرة والظل تنهيدة . ولم يسلم من هذا الخلط سوى اللبان الامريكي الذي استمروا في مضغه لأنه كان محفوظا داخل افواههم ذوات الاسنان اللماعة ، وكأنه يستخرج من السنتهم ، فصار يكسو فكوكهم . وسيطر عليهم الرعب ، فانكمشوا في دار الحاكم الذي ظل طريح الفراش ، ولم يقبل بهم احد في اي مكان . حتى أصحاب المطابخ التي أبقت أبوابها مفتوحة لتمكين العزاب من تناول طعامهم أخرجوهم بضربات من السكاكين . وأما البغايا فسددن فروجهن بالرصاص وعندما حاول الزبائن المنبوذون ايلاجهن وقع في روعهم انهم صاروا عنينين . وحيثما اتجه هؤلاء الاجانب جوبهوا بالسباب والشتيمة . وكانوا بين الفينة والاخرى يطلقون النار على من يضايقهم ويعيدون مسدساتهم الى اغمادها كأن شيئا لم يحدث . واستقر الخوف في قلوبهم ، وذهلوا كيف أن قرويين فقراء جهلة هزيلين استطاعوا الصمود في وجوههم بتلك الطريقة . وزلزلت عقدة التعالي في نفوسهم لكنهم لم يعودوا يعرفون من هم . وكانوا بين الوقت والآخر يستعيدون هوياتهم بفضل ذلك المذاق السمج الذي يخلقه اللبان في افواههم ، ولم يعد لهم موئل آخر سوى الانكماش في بيت الحاكم على الرغم من انهم ايقنوا من انه لا يقوى حتى على الدفاع عنهم . وعندما وجد المخرج نفسه حرا طليقا تداخلت هويته مع هوية مدير الانتاج . وسلك الفنانون نفس السلوك وتداخلوا بعضهم البعض . وظلوا حبيسي الدار الضخمة يجترون ذواتهم اجترارا ويتخبطون وسط رعب واحد . وحين أدركوا ان اجهزة الترانزستور صارت عاجزة عن الالتقاط ، حاولوا جميعا مضاجعة زوج الحاكم لكي يبرهنوا لانفسهم بان ذكورتهم لم تتجمد على الرغم من فشلهم الذريع مع البغايا المشطورات من الاعلى الى الاسفل بوشم ابتدعه احد شعراء العهد الاسلامي الاول

لانقاذ الفتيات من الموت . وانقذت أم كلثوم نفسها بفضل مروحتها . فقد استعملتها كدرع ، وراحت تطحن القضيب الصلب لمهاجمها الاول ، ثم الثاني الذي التوت خصيتاه في اجنحتها فاستلتا منه الحياة بحشرجة تشبه تلك التي تصدر عن قمة الالتذاذ . وظهر أن الضحيتين هما رئيس فرقة الكهربائيين والمسؤول عن الآلات . ونقل الأول على وجه السرعة الى مستشفى من مستشفيات بلده البعيد لكي يخاط له قضيب اصطناعي لا يساعده الا على التبول . أما الثاني فقد دفن دون أي صخب في المقبرة الامريكية التي اقيمت بالمنامة خلال الحرب العالمية الثانية . وهي المقبرة التي استجلب منها بندرشاه رخام الطاولة التي تحتل قاعة الطعام الرائعة . على أن والدة كلثوم بعد محاولة الاعتداء عليها ، استدعت ابنتها واعدت حقيبة صغيرة ثم غابت من الدار . في حين ظل زوجها يتصنع المرض مع انه حاول عبثا ان يتعلم الشفرة لكي يستعملها في نداءات الاستغاثة الى صهره الذي التزم الصمت الكامل . وعندما نزل من غرفته ذات صباح لتناول كأس من الماء بعد أن دق الجرس على خادمه دون طائل ، ألفى الدار مقفرة وابصر في قلب البهو بمروحة زوجته وهي لا تزال مدماة وقد رصعت اجنحتها بقطع من لحم وغشاوات وتضاريف ، فغطت الملايين من اليساريع والفراشات والنغضات التي التصقت بها طوال عشر سنوات . ودهش الحاكم لرؤية تلك الاجنحة الصغيرة القادرة على محق الهواء الصفيق المزجج المنتشر في الجو ، بل واي مخلوق تسول له نفسه الوقوع في براثن رواحتها المرزكية التي لا يظهر منها شيء أثناء الدوران . لم يبق بالدار أحد اذن ! فالخدم اللوطيون والزيديون عادوا الى عشيرتهم ، والبستاني غادر هذه البلدة المجنونة ، وصنائع الحاكم ارتدوا عن سيدهم على غرار الناس الذين ينتمون الى ملتهم وطينتهم . حتى زوجته اللطيفة التي جف عودها الى جانبه وتلقت الف اهانة منه كانت قد تقبلت على مضض سلوكه المشين وتحريماته الجائرة وثراءه الفاحش ووصوليته الرهيبة الصبيانية وذوقه السمج وجهله المطلق وعمليات التهريب التي يمارسها وقوانينه المخيفة وتباهيه بنفسه وقامته القميئة ونفسه الكريه وكل سيئاته ، بل انها تقبلت حتى رائحة السردين المنبعثة من جسده ، على الرغم من العناية التي يوليها لشخصه وقوارير العطور التي يصبها صبا في مسام بشرته . ولم يعثر الحاكم على أحد اذن باستثناء السينمائيين الذين أتلفوا الأرضيّة الزجاجية وطاردوا السردين الخائف ، ومزقوا العشرات من صوره وهو في زيه الاستعراضي ـــ ولكن دون

سيف ـــ وكتبوا بأوساخهم على الجدران رسائل حـــب لزوجاتهم او لصديقاتهم ، وحولوا أصص الزهور الى كؤوس لتناول البيرة ، واحرقوا الزرابي الفارسية بأعقاب سجائرهم وباتوا في المحابر المصنوعة في عهد نابليون الثالث . وكان هذا قد اهداها الى الخونة الاهليين حين تدشين أوبرا الجزائر سنة 1864 ، وسلخوا القطة الوبرية الوحيدة فـــي المنامة وحولوا الطاولة الرخامية الى مجرد طاولة للعبـــة البينغ بونغ وأحدثوا خدوشا في طلاء الجدران بسكاكينهم ، والصقوا اللبان ببالوعات الحنفيات لسدهـــا ، وذبذبوا الساعـــات الجدارية التـــي تعـــود الى الامبراطورية الثانية بأن زيتوها بالمني ، وابتلعوا الاسماك الطائـــرة وهي حية . وكانت هذه هدية الى الحاكم من صديقه ملـــك جزر القمر الكبرى . ولم يجد بندرشاه في نفسه الشجاعة لطردهم بل اعتذر عن اهماله لهم مدة طويلة متذرعا بمرضه الخبيث الذي لم يقو اي طبيب على تشخيصه . وأكد لهم أنه بريء من دائه ذاك ووعدهم بتسوية المشاكل والخلافات كلها . وأمل ان تكون زوجته قد تحصنت في مغسل الثياب الواقع خارج الحديقة ، لكنه لم يعثر الا على الاثواب المتسخة التي لم تغسل منذ عدة أسابيع وقد تراكمت وعشش فيها الدود . حينذاك تهاوى أرضا وأطلق العنان لدموعه . وجعل ينتحب ، وقد انسحق بشقائه ذاك ودحرته العزلة التي ظن أنه قادر على القضاء عليها الى الابد بفضل المال ومنصبه كحاكم للمنامة . هذا الذي كافح سنوات طويلة من أجل نيله بعد أن تمعش في المواخير ، وقدم خدماته للبغايا ذوات الفروج المسننة التي تعض كل من يلجها ، وبعد أن أضطلع بدور الخادم الطيع للعشرات مـــن القادة الصغار ، واستقـــدم النســـوة للمسؤولـــين الكبار الخجولين منهم والمتغطرسين ، وحمل حقائب التيكنوقراطيين وتكور في قيء الاثرياء الجدد عند انتهاء السهرات ....

ولما كان الصباح ، حلق الحاكم لحيته وكبت حزنه في قرارة نفسه ، وتحزم في بذلته التي تصغره عشرين عاما وتمنطق سيفه البلاتيني الخالص، ثم اعلن لشعب المنامة انه على وشك ان يضفي الديموقراطية على حياة البلدة وينشىء حزبا مفتوحا للجميع ولكل الانتقادات فيكون بذلك بنية حيوية تسد الفراغ . وهكـــذا بـــرز الـــى الوجـــود الحزب الوطني الديموقراطي . وبمجرد ذهاب زوجته كتب رسالة الى بغي سابقة في احد المواخير التي عمل بها براحا عموميا فيما مضى ، وكانت هذه تشرف

على ماخور في مدينة بوردو . وطلب منها ان تأتي لتولي عنايتها بقلبه الشجي وبشؤونه السياسية . وقد عرفت هذه المرأة فيما مضى بأنها متمرسة في العمليـــات الجنسية التي تسمو على كل اشكـــال القيود والضوابط وتتخذ أوضاعا جنسية مذهلة ، وتضاجع رجلين في نفس الوقت بينما يباشرها ثالث من الخلف . ونزلت « جولييت أدام » بالمنامة مرتدية فستانا مهفهفا شفافا لا شيء فوقه . وأوحت بأنها ما زالت تمتلك بعض البقايا المتماسكة نوعا ما وكأنها احتفظت بها منذ ذلك العهد البابلي حيث كانت المواخير بيوت ضيافة حقيقية وحيث لم يكن الحنان قد خضع بعد للمواقيت والتعريفات . وكانت « جولييت أدام » هذه تحمل قبعة واسعة الاطراف اشبه ما تكون بطائرة مائية تستعد للاقلاع بتأثير ريح السمـــوم الكاشطة وقد ظهرت عليها حروف بارزة ح.و.د ، وأعـــلام بندرشاه الصارخة . المسكين ! لقد اراد أن يستبق أعداءه . وقد خطرت له فكرة انشاء هذا الحزب لأنه كان يحمل في مكان أنفه مقياسا لتسجيل الهزات . يتنوس لأدنى الحركات الارضية . وظن أن الناس سوف يتدافعون على باب الحزب هذا حتى تسنح الفرصة لكل واحد بأن يمرر رأسه بين فخذي عشيقته الصلبتين ويتعرف على لون قنفذها الذي أهلكه العمر ولا شك ولكنه ما زال زاخرا فياضا . وما تقدم أحد من ذلك المقر الفخم الذي افتتحه لهذا الغرض وزينه تحت ارداف جولييت . وما أسرع ما استبد به الغيظ من عناد المناميين وسوء طواياهم فحاول التقرب منهم مرة ثانية بأن اهدى صورته التي رسمها الفنان السابق للامبراطور باوو دايي ووقعها باسمه . هباء ! وقد وجد البعض من المهووسين بالجنس وممن تعبوا من الفتيات المشطورات بذلك الوشم الشهير فقبلوا الانخراط في الحزب لكنهم اشترطوا دون ذلك أن يتمتعوا ليلة كاملة بعشيقته التي عوضت كبر سنها بتجربتها في أمور الشبق المتشعب . لكنهم بمجرد ارضاء غريزتهم غابوا عن الانظار . حينذاك اعتزم الحاكم الانتقام . وتوترت أعصابه الملتوية بفعل الحرارة الخانقة وجحود البلدة وخيانة ملك خليجية فاتصل بالمستر « براون » وقابله سرا خارج المنامة . وكان هذا الاخير قد استقر بأرض المنامة مع كشافيه الذين تصلب عودهم وصاروا محاربين أشداء فأراد مساعدته لكن بشرط واحد وهو ان يقبل بيع ممتلكاته ببحيرة التماسيح في أعالي النيل واسافله . وهي البحيرة التـــي تمكن من ري الصحراء واستصلاحها . ووافق بندرشاه على الاقتراح ، ووقع اتفاقا سريعا ختم المفاوضات بين الرجلين . وقد سبق للمستر « براون » ان

حصل على الحق في سقي نباتاته بمياه النيل وتلقى بندرشاه وعدا منه بالتحرك صوب المنامة امام اول نداء يصدر عنه ويكون حينها مصحوبا بصبيانه المهرة في الفنون الحربية ذوي التجهيز الفائق والتغذية المفرطة ، والجسارة الفريدة في خوض معارك الرمال . وعادت « جولييت أدام » من حيث جاءت بعد ان حصلت على تعويضات طائلة وتشكرات صادقة من صاحبها السابق . وأخبر الحاكم رجال السينما بالامر واستقر بكل هدوء في مكتبه ينتظر اشارة البدء في العملية التي أطلق عليها اسم رمسيس الثالث على سبيل التباهي والتبجج بموافقة من حلفائه ... وراح يقتل اوقات فراغه بتدخين سيجارات ضخمة وتسجيل صوته حتى يتعلم كيف يجدف أحسن التجديف يوم الانتصار في وجه حثالة العالم المتحالفة ضده . وانتظر اللحظة المؤاتية لكنه ظل في واقع الامر يأمل حدوث رد فعل من قبل ملك خليجية أو انتفاضة من انتفاضات العزة والانفة او حتى مناورة من ابنته « ليلى » تجبره على الظهور . وما حدث شيء من ذلك القبيل . واغتاظ الاجانب في حين ظل مستمسكا بهدوئه ، يسخر قبل الاوان من هزيمة الشعوذة ويسحب انفاسا طويلة من غليونه الضخم .

توتر الوضع في الجانب الآخر من الزقاق . ولم تكن لجنة المقاومة السرية التي يترأسها محمد عديم اللقب تجهل بأن الهول وشيك الوقوع . واشتبهت مسعودة في ابنها فحسبته « مليكة » وجعلت تلومه على نقص الانجاب . وانهمك الساعاتي في صنع القنابل الزمنية متخذا هوية علاوة الاحر . غير أن الانتظار كان ثقيلا . فمن يكون أسبق الى بدء الصراع ؟ وطالب توائم « الدر » عمدا أن تروى على مسامعهم حكاية علي بابا واللصوص الاربعين ، لكن جدتهم رفضت أن يطلعوا على تاريخ الثورة القرمطية . ووسط هذا الجو المكهرب المتوتر وصلت بطاقة مصورة من المعلم « بربي » يعلن فيها لأصدقائه بأنه في صحة جيدة وبأنه وجد عملا في الجانب الآخر من البحر . وقال ايضا انه على الرغم من اخلاصه لدينه وجد نفسه مضطرا الى ان يقبل وظيفة خادم في كنيسة كاثوليكية رومانية . اما أسفه الوحيد فهو أنه لم يعد يمتلك طبله الذي مات منذ زمن طويل بمرض جلدي عضال . على ان صورة المعلم « بربي » البراح العمومي

السابق المتنكر في زي خادم كنيسة دفعت الجميع على المسرح واطلقت مسعودة العنان لضحكاتها حتى انها مزقت حمالتي نهديها اللذين ينطويان ما شاء الله على سخاء جسدها المليء بالوشم . وبعد ان زايلتها نوبة الضحك واستبدلت اثوابها الداخلية صوبت نظرات مثقلة الـــى السلم فوقعت على ابنها البكر وحشرته في زاوية قائلة : « لا تظنن أنني حمقاء . كف عن ذلك . اتريد اخفاء الحقيقة ؟ انني أهرم من ان اشتبه في هويات ابنائي حتى وان هم تشابهوا مثل قطرتي دم . حـــذار ! سوف يتسرب الينا الخطر حتى من شقوق الابواب » .

وعاودت أهل المنامة ذكرى المعلم « بربي » وطبله المجيد . ها هو ذا قد صار خادما في كنيسة يعطر بالبخور توابيت الكفرة ويفرش البسط الحمراء أمام العذارى المزيفات ، حين الزواج . اشفق الناس عليه . وكاد الخلاف يقسم البلدة لأن البعض من أهليها شكوا في أنه يكون قد تحول الى الدين المسيحي . غير أن الحوت الذي لم يفرغ من هوائه ، ظل معلقا هناك يرمز الى الخطر المحدق بهم والمتمثل في وجود الاجانب ، وسرعان ما تنوسيت البطاقة البريدية المرسلة من مدينة « روتردام » . وكانت مسعودة اخر من ضحك بسبب تلك البطاقة حين راحت ترتق حمالة نهديها التي انقطعت بسبب هزة المرح التي عرتها وتدفق سمنتها الجنونية . ولم تستطع التوقف عن الضحك حتى استيقظ أحفادها من جراء الضجة التي أحدثتها . وكانت كبرى التوائم تشبه كل الشبه ابنتها « رشيقة » التي انتحرت بأن أغلقت على نفسها داخل كفن وخاطته بيديها . واستعادت مسعودة الزمن الذي كانت تهدد فيه الفقيدة وتحول ضحكها الى نحيب . وفقدت غضارة جسدها وهي تصلح حمالتها بالخيط حتى لا تتفتق ابدا حينما تعروها الهزات النفسية المختلفة . والواقع انها لم تسل موت ابنتها الثانية ولا تناست شعورها بالذنب . وصبت لعناتها على علي لفتة بائع الخضراوات وأمرت باستقدامه على الفور لكي تفقأ عينيه . وهدأ ابناؤها روعها ، ولفتوا انظارها الى اشياء أخرى فأخبروها بأن زهرة بندرشاه قررت العودة نهائيا الى مسقط راسها ، واطلعوها على هروب الازواج الاربعة من اللوطيين ذوي الحس الرهيف واللياقة البديعة . اذ لن يتحملوا هؤلاء خشونة الاجانب الذين غزوا بيت

سيدهم . وشعرت مسعودة تجاه والدة كلثوم بحزن طاغ وأسفت على انها لن تلجأ اليها . لكنها لم تحدث أحدا عن رابطة القرابة بينهما بسبب عنادها وخجلها . ولم تعد تطرح التساؤلات حول خصوبة الخـــدم السابقين . وهي مسألة ظلت تؤرقها وان كانت قد فضلت الا تتطرق اليها لأنها كانت تجهلها في مجموعها ، ثم لأنها نشأت وفقا للمبادىء القائلة بأن الذكر ذكر والانثى أنثى ، لا اكثر ولا أقل . ومع ذلك فانها ادركت بغريزتها ان الامور بالمنامة لم تعد تسير على غرار ما هي عليه في مدينتها الاصلية التي ينعشها نسيم البحر على مدار السنة . وفهمت أن الغرابة في هذه البلدة جزء لا يتجزأ من الظواهر والموجودات لأنها جربت ذلك أكثر من مرة . وعندما تهب الريح الرملية ينزلق منها كل شيء تريد أن تضع يديها عليه كأنه مدهون بالطين الزلقة . وقد سبق لها أن لاحظت مرات عديدة أن الاشياء تبدّل مظاهرها حينما تتغطى بذلك الغبار الدقيق الاحمر . بل وكثيرا ما حدث لها أن وضعت الماء في غربال بعد أن حسبته جفنة من الخشب ! وتأملتها كلثـــوم بعد نوم الاطفال حينمـــا راحت تستعيد ذكرى مدينتها وطراوتها ، وغـــزارة نباتاتها وتكاثـــر حيواناتها المائية ، منهمكة في نفس الوقت برتق حمالاتها بالخيط الخشن الذي يستعمله الصيادون في العادة لاصلاح شباكهم . وراحت الفتاة التي تبنتها مسعودة وعائلتها تنتظر منها ان تتحدث عن الثديين اللذين رضعتهما المرأتان معا وعن العلاقات التي ربطت بينهما فيما مضى على الساحل . لكن ، خاب أملها ذاك لأن تلك المرأة التي تتربع على عرش الدار وتنظم أدق ظروف الحيادة المادية منها والماورائية وسط قبيلتها ... لم تنبس بكلمة حول هذا الموضوع وتبعثرت داخل التفاصيل كعادتها ! وانتقلت من حكاية الى أخرى فأضاعت راس الخيط وذهبت تجوب الاستطرادات المدهشة . والحقيقة ان مسعودة لم تعد تتحدث في صلب موضوع معين منذ بضعة اسابيع بسبب التوتر الذي يسود البلدة . وأمضت شجرة الدر وقتا طويلا قبل ان تتخلص من الحيرة التي استبدت بها حين صعدت الى غرفتها لكي تنام فلم تعثر على زوجها ، خاصة وانها ما راته يغادر الدار طيلة النهار ، لانها قضت وقتها كله في خياطة أثواب لتوائمها بالقرب مـــن عتبة الدار وقبالة شجرة الزعرور ، بل انها كانت جالسة في مواجهة عباد الشمس ومستمتعة بالرطوبة التي يبثها بدورانه حول نفسه بفضل أشعة الشمس المخزونة في سيقانه حيث تسيل طاقاتها المائعة المتدفقة صاعدة الى بتلاته المروية بسخاء لدرجة انها لم تعد تعرف الاتجـــاه الـــذي تدور حوله .

واكتشفت الدر في مكان عديم اللقب عجوزا جالسة على طرف السرير تدخن بسخرية وتدير تجاعيد وجهها بنفس السرعة التي تدور بها الشموس النباتية . وكادت تصرخ لولا أن الجدة المخيفه شدتها بقوة عجيبة وضمتها اليها وطبعت على شفتيها أحر قبلة أثارتها بتلك الرعشة ، في حياتها كلها . ولم تدرك أن هذه المراة المسنة التي أمامها ليست الا زوجها المجنون ، عندما شعرت بقضيبه بين جلابيبه الموصلية الفضفاضة . وكان قد تنكر في زي عجوز شمطاء في سبيل خدمة القضية . وتناكحا واقفين بكامل اثوابهما . وعندما تلقت الدر ذلك القذف الرائع جلجل في أعمق أعماق رحمها ، أدركت أنها سوف تضع بعد فترة ستة أشهر خمسة توائم ذكور ، دفعة واحدة . وفي ذلك العهد بالذات شاع بينهم ذلك التعبير للتندر : « النكاح على طريقة العجائز » . وطربت الدر لذلك لأنها ظلت في قرارة نفسها تغار من كلثوم التي بهرتها بجمالها ونضارتها وشيطنتها . ثم ان تعبير « وضع كاميشيه » راح يؤرقها لأنها علمت أن هذه الصيغة قد خدمت كلثوم بندرشاه حين طلبت من محمد ذات صباح بالغ الشفافية ان يخلصها من غشاوتها الغبية . ومارسا الحب الليل كله بتلك الحمى التي تنذر بالعواصف والاعاصير الكبرى . وعندما أفاقا في اليوم الثاني ، أدركا ان البيت محاصر بجنود المستر براون وان البلدة احتلت دون أي ضجة أو طلقة نارية فريدة .

واجتمعت لجنة المقاومة في غرفة الحيط حيث الحرارة لا تتجاوز 37 درجة . واحتاج الحاضرون الى مناديلهم لكي يناقشوا جدول الاعمال ويتخذوا القرارات ويوزعوا المهام ويحددوا مواعيد المراقبة . كانت الغرفة عبارة عن محم حميش ! لكن محمود عديم اللقب أحسن توريتها الى ان الاجانب عندما اقتحموا الغرفة حيث كانت تجتمع اللجنة الثورية عادة ، تحولت هي الاخرى وبدت وكأنها سور بلاد الصين المشهور . وكان هذا الجدار الغليظ الذي صنعه محمود يطل على العدم المصطبغ بلون الخلود ولم يلق العساكر القبض الا على مسعودة . فهي الوحيدة التي حافظت على مظهرها الاعتيادي الطبيعي ثم انهم لم يجدوا لديها اوراق تعريف . فهي لا تملك أيا منها منذ ولادتها . وأقدم الجنرال يهودي فجر اول ماي على مهاجمة المنامة على راس جيش قوامه عشر آلاف رجل مدججين بالسلاح . وقد تلقى أوامر من المستر براون الذي وعده بحماية جوية . وما أسرع ما استجاب للنداء . على ان البلدة بطيورها ودجاجها وأكباشها ودود القز،

وسلحفاتي مسعودة وحمائمها الثلاث لم تكن لتبلغ تسعة عشر الف نسمة عدا . ثم ان اللجنة الوطنية للمقاومة تنبأت بتلك الاحداث واشعرت المواطنين بترك العدو يتحرك على هواه ومساعدته على تثبيت اقدامه وعلى التغلغل بأعمق ما في الامكان وطلبت منهم ان ينتظروا التوجيهات في المستقبل القريب . وخلال الليلة التي سبقت الهجوم كان كل من محمد عديم اللقب وعلي الفقيه ورشيد بناصر وجيلالي بوحدبة يمارس الحب مع زوجته واطلعوا بنقل علب التبغ المنشوق على عدد المهاجمين وساعة الهجوم والاستراتيجية التي حددها المستر براون بموافقة متحمسة من قبل بندرشاه . وكان الهدف واضحا . واطلع المناضلون الموثوق فيهم على السر . أما الشعب فقد احيط علما في اطار من السرية الكاملة : « دعوهم يتصمغون في تذارات الزرازير ! » وسرعان ما طاف العساكر الاجانب بالبلدة . واعتزت مسعودة كل الاعتزاز بالقاء القبض عليها ففرقعت بحمالات نهديها حتى انها أهاجت طيور المنامة العديدين الذين تعودوا على تلك الموسيقى الحنون وعلى غناء الساعات الجدارية التسع عشرة . وما كانوا ليحقدوا عليها بل تناسوا الفخاخ التي كثيرا ما نصبتها لهم في شكل فزاعات مرعبة دموية بدءا من فزاع الحاكم بما في ذلك فزاعات ابن المقفع والمعتصم وسانت لويس والحجاج بن يوسف وسفيان بن معاوية وملك خليجية ومراد الاول وابو العباس السفاح والمستر براون ومحمود الثاني . وزحفت على الغرفة التي احتجزت فيها مسعودة ونصبت بينها وبين جلاديها ستارا من الاجنحة المزركشة حتى حجبتها عن انظارهم . ولم يبصر بها احد وهي تغادر مكان الحبس وقد تغطت بالمئات من طيور الكناريا والكوكسيرج والزرازير والدورية وطيور الفردوس وغيرها من تلك التي جاء بها الامازونيون خلال أولى أزمات الكشف التي شعر بها ابنها محمد عديم اللقب . ثم ان الكتوات أقامت حاجزا شرفيا لها بفضل ريشها الزاهي وجعجعتها التي لا تنضب وتكفلوا بحمايتها الى أن بلغت الدار . وكان أن استقبلت حينذاك بصيحات الفرح وبطلقات من أصوات الببغاوات الناطقة بمختلف اللغات وبزغاريد افراد العائلة الذين ما زالوا محتفظين بتشابكاتهم الدقيقة وعقدوا العزم على البقاء على تلك الصورة حتى النصر النهائي . وراح الجيش يقتل اوقات فراغه فأطلق بضع طلقات مدفعية أرهبت الحوت المعلق بحباله في الهواء . وتقطعت تلك الحبال فتهاوى الحوت أرضا وسحق عشرة من القناصة . وكان هؤلاء قد جاؤوا الى المنامة لاحتلالها مدة طويلة مثلما فعلوا ذلك في القرى الاخرى

التي أفرغوها من سكانها ليستقروا في مكانهم ويستثمروا ما غرسه الضحايا طوال قرون . ولم يكن افراد الجيش الا هؤلاء الكشافون الذين توفرت لهم بالاضافة الى غطرستهم امكانية التمضمض بماء النيــل المشهور بصفاته المكافحة للتسوس . في حين انهم كانوا قبل ذلك اليوم وقبل ان يتنازل بندرشاه عن ممتلكاته في بحيرة التماسيح يعانون من اسنانهم المتآكلة المهترئة التي تلتصق بها الزرقة الرمادية وصفرة النيكوتين . ولم يجدوا ما يشغلون به أوقاتهم باستثناء موت ذلك الحوت العتيد . وبعد بضعة أيام من البحث العقيم رأوا أن المسؤولين السريين عن الحركة قد غادروا البلدة واستقــر بهم المقام تحت الاشجار بساحة الطيور ، وقد أهملوا سلاحهم وبزاتهم ، وجعلوا يقضون اوقات القيلولة بها ويلعبــون الــورق مع السينمائيين ويطلقون الرصاص هنا وهناك وبين الاعشاب عندما تغالي الطيور فــي تذفهم بسلحها ، أو تستثير غيظهم وتزدريهم بتكرير النشيد الامي بصوت واحد متعاقب ومتواصل مثلما علمها ذلك محمد عديم اللقب ، منذ بضعة اشهر حين كان يلقنها دروسا في النوتة الموسيقية اذ كان وقته وفيرا آنذاك . وظلت كلمة السر مــن دون تغــير : « دعوهم يتصمغــون في قذارات الزرازير ! »

وعلى اثر هذا الاستعراض العضلي ، قرر بندرشاه ومخرج الف ليلة وليلة الاحتفال بالنصر قبل استئناف التصوير . وجرى الحفل في حدائق المقر الحكومي بعد أن طليت أعشابها مرة ثانية ، وشذبت زهورها وأصلح حوضها الياباني وأعيدت زهورها المصنوعة من الزنك الى أماكنها وركبت اشجارها بواسطة جرارات قوية . وقدمت فرقة الكشافة مساعدتها . في حين ان الفرقة الموسيقية العسكرية وضعت نفسها تحت تصرف الحاكم مجانا . وجيء بشحنات من الويسكي والعرق المحلي . ووضعت العشرات من الاكباش سرا في مختلف قاعات الاستحمام ، واستخدمت أجهزة الارسال والاستقبال للاستنجاد بالمهارات الحســية لفتيات « الجيشا » بكيوتو والمعارف الاباحية لبنات الهوى بميامي . واعدت اكداس مما لذ وطاب من الاطعمة ومن كل ما هو ضروري مفيد لنجاح أفخم حفل يشهده القرن . واستدعي ملك خليجية بالحاح فاعتذر عن تلبية الدعوة في فترة يذهب فيها الاباطرة الى المنافي بعد أن يقادوا الى حدود البلد الذي يختارونه وتحرم عليهم الاقامة بامبراطورياتهم . وجاء خلق كثير امتلأت بهم حدائق بندرشاه وبدت ضيقة عن احتواء الحفل . وكانت « جولييت أدام » رمز

الحزب الوطني الديموقراطي موجودة بين الضيوف المعدودين . وتحول مصور الفيلم الى مصور ولائم وأطلقت اشارة البدء في الحفل بتحويمة من يمامات تحمل الوان بندرشاه . وبعد الالعاب النارية ، تسارع المدعوون الى الطاولات الحافلة بالاطعمة غير أن الحاكم اشار اليهم بالتريث والانتظام . ونصحهم الا يأكلوا كثيرا لانه يختبىء لهم مفاجأة هائلة من مفاجآت الطعام اللذيذ . حينذاك تداخل المدعوون بعضهم البعض ، وشد كل منهم على صاحبته وراح يرقص بجنون . وبدأت النسوة يتخلصن من اثوابهن الزائدة عن الحاجة لأن الحرارة خانقة خاصة وان مسعودة رفضت اعارة عباد الشمس المبرد . وما اسرع ما اقتدى الرجال بهن . وازدادت الحرارة في حين أن المشروبات جعلت تبعث الدفء في القلوب المتجمدة ، وتعرى كل واحد من الحاضرين وجرت اشكال غريبة من التداخل الجنسي في جو يسيل الزبد فيه من الفتحات الجنسية التي تحولت الى عيون من الحب الاندفاعي الجنوني . على أن هذا النصر الذي احتفل به احسن احتفال صار دبقا حامضا بسبب الحرارة الجهنمية . ومع ذلك فقد هلل الجميع . وتشابكت الاشياء فيما بينها وتمازجت الافواه . وسالت أقداح البانسون بينما جعل العرق المحلي ينصب انصبابا جارفا في مؤخرات الذين امتلأت حلوقهم بكل نوع من أنواع المشروبات السائغة والخمور المسكرة . وكلما تقدم الحفل تخلل الجو وبدأت الرائحة المنبعثة من مستنقعات الجنون والهذيان تفعل فعلها في حين أن الفروج أطلقت روائح اشبه بتلك التي تنتشر فوق ركام السردين المتعفن . وتقاطرت الآباط بعرق أسود لزج ، وافسحت البشرات المجال لصنان كذلك الذي يتعالى من مطاهر مسدودة منذ قرون عديدة . وقد جيء بالخدم من القرى المجاورة وجعلوا يطوفون بالمدعوين ويغسلون مؤخراتهم وينظفونهم ويغرقونهم بالعنبر وزهر البرتقال . ولم يكن من طائل وراء ذلك ، لأن الرائحة الكريهة ظلت تنتشر بين الاشجار ثم ان الحاضرين راحوا يتبولون ويقذفون بأوساخهم على وجوههم لأنهم انجرفوا في دوامة هذيانهم ، فظنوا انهم في حفل راقص تنكري واتخذوا حذرهم لكي لا يتعرف عليهم احد . بينما البدانة بدأت تثقب اشد الوجوه عبوسا واكثر الاجساد سمنة لان كل واحد منهم ظل ينتظر تلك المفاجأة العظيمة التي حدثهم عنها الحاكم في بداية الحفل ، وترك لنفسه بقعة صغيرة من العناء الذهني وسط الجنون المحاصر . وبقي الحاكم محتفظا بكامل قواه لأنه لم يبتلع قطرة من خمر ولا شرب كأسا من عصير البرتقال ، بل انه لم يأكل شيئا ولم يتعر ، وظل

وقورا ، انيقا ، نشيطا مبتسما وقد انتصب كالعود ببذلته الصيفية وحذائه ذي الكعبين المضاعفين حتى لا يضيع كمادته أدنى ملمتر من هذه القامة القصيرة التي وصمه بها الله ، منذ ذلك اليوم الذي ولد فيه فقيرا في عائلة بائسة وأصيب بالكساح وامتنع عن النمو حتى يضايق والده الذي يكرهه لأنه كان يبيع السراين بدلا من اللآلىء البحرية .

وعندما انتصف الليل وراحت ساعات مسعودة الجدارية ترسل موسيقاها السحرية القادمة من عالم آخر مبهم ، طلب بندرشاه من الحاضرين التزام الصمت . فأنتصبوا قائمين ببعض الصعوبة . وسرعان ما جيء بالمئات من الاكباش وهي تثغو وتخبط خبطات عشوائية . وحشرها الخدم في حظيرة أعدت مسبقا ، ثم انطلق صوت الحاكم مفرقعا : « انني ادعو كل ضيف من الضيوف الشرفاء الى ان يذبح كبشا ويعلقه الى شجرة ويسلخه بأسرع ما يمكن . والضيف الذي يكون أول من انتهى من هذا العمل سينال سيارتي الرولزرويس التي يشهد عدادها بأنها لم تسر أكثر من ١٩٠٠٠ كيلومتر . ايها السادة ، امامكم هذا الصندوق الكبير الذي وضع تحت تصرفكم ، وهو يتوفر على كل الادوات الضرورية للقيام بعملكم في أحسن الظروف . وأمامكم ايضا كيلومترات من الحبال تساعدكم على تعليق الحيوانات الى الاشجار . واطلب من النسوة ان يتخذن أمكنتهن على الكراسي الموضوعة في الحديقة ويبادرن الى تشجيع المتنافسين الابطال . ولست في حاجة الى القول بأن الكبش هو رمز بلدتنا وبأن المراهنات على هذا الحيوان تمثل المصدر الرئيسي لثروتنا بسبب كساد الحرير ! لقد أبيت الا ان انظم هذه المنافسة لأعبر عن اعتزازي . فأنا اكبر مستورد لهذا النوع من الحيوانات في العالم ثم انني أردت أن اشكر المستر براون والجنرال يهودي على المساعدة الفعالة المنضبطة السريعة التي قدماها لولايتنا هذه . أيها السادة اتخذوا أمكنتكم . انطلقوا . أيتها السيدات افتحن ايديكم هيا الى التصفيق ! » واتخذ التذبيح شكل طوفان احمر . وشعرت مسعودة بمذاق الطرائد في فمها ، وكانت نائمة بينما كان قادة المقاومة الخمسة مجتمعين بلا انقطاع في غرفة الطمث التي ما نقصت حرارتها الخانقة ولا زادت عن 37 درجة . ثم قالت بصوت جهير : « انها مذبحة ! » وظنت بناتها النائمات بالقرب منها انها أمام رؤيا تستشرف المستقبل فاستيقظن مذعورات واستبد بهن أرق رهيب . وفي تلك الاثناء اتخذ التذبيح ابعادا مخيفة في حدائق الحاكم ، ذلك ان كل واحد

من المتنافسين اراد ان يفوز بسيارة الرولز في حين ان النسوة تحفزن كل التحفز وراحت الواحدة منهن تشجع زوجها او عشيقها . وجعل المدعوون يخوضون في الدم المتجمد بمجرد ما يسيل من رقبات الاكباش ، ونالت الحمية من نفوس الجميع حتى ان المشاركين في ذلك السباق العجيب اضطربت مداركهم كأن مزقا من نعاس الليلة الماضية ظلت ملتصقة بأهدابهم المتثاقلة من اللذة ومن تلك الرؤيا المذهلة عن نهاية العالم . وذبحت الاكباش وسط ثغاء هائل، وتخبطت قدر المستطاع واقحمت قرونها في جذوع الاشجار التي علقت اليها حتى تسلخ وتستأصل امعاؤها الزلقة الساخنة النابضة . وكان البعض من تلك الاكباش حين تلفظ انفاسها تدفع بقضيبها الى الانتصاب وتنفخ خصياتها حتى تنفجر انفجارا عنيفا . ثم ان الدفقات الحمراء وهي تندفع الى الاعلى استجمعت في طواياها رهبة الاكباش كلها ووحشية الذباحين الذي انتشوا بالكحول وبرائحة الموت . اما النسوة الجالسات على كراسيهن في الحديقة فانطلقن في جعجعتهن دون قيد او ضابط لأن طعم الربح والطمع شقق بشراتهن واحدث فيها اخاديد . والتمعت السكاكين في ضوء القمر وتحركت بسرعة خارقة . وكان على المتنافسين ان ينخروا العظام بضربات قوية محددة على الرغم من سكرهم حتى يكسروا القوائم من حيث يجب كسرها بشيء من الابهة والافراط . وجلس الحاكم على أريكة موضوعة فوق مصطبة يتأمل الذباحين الثلاثمائة وهم يعملون سكاكينهم في الاكباش المعلقة الى اشجار الحديقة الرائعة . وبدا وكأنه مأخوذ بالمشهد ، ونصب نفسه حكما دون أن يغيب عن ناظريه أدنى منافس ولو لثانية واحدة . وتمازجت الالوان والايقاعات والاصوات والاهوال . وحدثت الصدمات وتفجرت الافخاخ وفاض ملح العظام . وارتسمت الحركات مثل بروق في ذاكرة البشع والرهبة وفي فجوات المفاصل . وتجمعت كل القساوة البشرية في عيون القتلة التي افرزت حمية دافئة لزجة وقلقا ضاربا الى الزرقة بفعل كتل اللحم الزخم المترهل التي يشدونها بين أياديهم شدا حتى يتقدموا في اعمالهم بكل سرعة . حدث كل ذلك في سبيل شيء تافه كل التفاهة . وبدا السأم ينال من نفس بندرشاه ، واستبد به الحنين الى زوجته التي ما استطاع نسيانها منذ أن هجرت البيت دون أن تطلب ما لها . وفاز المخرج بسيارة الرولز فقد ذبح كبشه وسلخه وأفرغه من أحشائه وانتزعه من الشجرة في ظرف اربع وعشرين دقيقة وتسع عشرة ثانية وثلاثة أعشار . وضرب بذلك رقما قياسيا ! وانتهى الحفل بأكداس من الشواء . وذرر الحاضرون اللحم

بمسحوق الكمون ورشقوا فيه أعواد القرنفل وسط جداول اللذة وشطحات الجنون .

واحتاج المدعوون الى ثلاثة أيام لتخمير الدم والكحول . وقضوا راحتهم تلك في حين انتهزت لجنة المقاومة الفرصة السانحة لاتخاذ قرارها الحاسم . وهرولت مسعودة نحو غرفة الطمث وأعادت الى اذهان القادة الخمسة أنه لم يبق لهم الا اسبوعان وبعدها تكون في حاجة الى غرفتها . وأوضحت بأن الطبيعة لن تتردد عن الكشف عن نفسها في اليوم التاسع عشر من الشهر والحقيقة انها كانت لفتة منها لتحريك هممهم وتشجيعهم على التعجيل في الامور . وهي التي كانت دائما تشكو من تسرع ساعاتها الفتها هذه المرة مترنحة متثاقلة مثل ابنها وصهريها والمعلم والاسكافي . اما محمود الذي اتخذ شكل « رفيقة » شقيقته فــراح يترصد الباب ، واستعد لازلاق الجدران وانزال السقف المشبوه ودفع الى جانبه قنابل مدخنة توهم الناس بأنهم في حمام خانق الحرارة حتى ان الجو يصير ضعيفا معتما يحول دون رؤية بعضهم البعض على بعد ثلاثين سنتمترا . على أن مسعودة منذ ايقافها ونجاتها على ايدي الطيور التي كثيرا مــا طاردتها واضطهدتها ، استعادت حيويتها وفورانها اللذيــن افتقدتهما بعد دفن عتيقة . وراحت تقضي وقتها في صعود السلالم ونزولها بين قاعة الاستقبال وغرفة المحم الخانقة لكي تقدم الاخبار والطعام والتشجيعات . ونزعت الفزاعات من الاشجار وخبأت وراء الاثاث وتحت الافرشة خباز « فيينا » ادولف بيبنهورست وزوجته « دوروتي » والخلفاء وغيرهم من حكـــام الامبراطورية الاسلامية السابقة الذين اشتهروا بقسوتهم واستبدادهم وتعطشهم للدماء دون ان تنسى المسؤول الحالي عن المنامة . وكان هذا قد غرق في هذيان نهائي بعد ان اضاع سيارته الرولز في منافسة لا تقدر عليها الا مسالخ شيكاغو والمستر براون الذي راح يتلاعب كيفما شاء بمصائر العالم في ممرات التاريخ وسراديب الدم الضائع هدرا . حتى الطيور التي اعترفت بالجميل ما عادت تخرب النباتات المعرضة لتقلبات الطقس والامراض منذ ان كفت الفزاعات عن حمايتها . والواقع أن مسعودة ظلت حذرة من اهوائها ومن نزواتها . وأدركت ان الامر لا يتعلق الا بهدنة مؤقتة وليس بمسالمة نهائية . وكانت الاخبار التي تأتي بها من الخارج صحيحة ومشجعة . اما جنود الجنرال يهودي ومخرجو الفيلم الذيــن تقاعسوا بسبب تلك السهرة الداعرة فقد استبد بهم صداع رهيب . وجعل البعض

منهم يرى الواقع يتضاعف أمام عينيه واصيب الآخرون منهم بالعمى المؤقت في حين ان عددا منهم سايروا اهواءهم الى ان ماتوا من الغم والقرف . وتدهورت معنويات الجنود ، وزادت من بلبلتهم تلك امراض التليف والامعاء . وكان البعض من المظليين يقعون تحت وطأة الحمى بين الوقت والآخر فينطلقون دون أن يخطروا مسؤوليهم . ويراهم أصحابهم وقد تمسكوا فجأة بمظلاتهم على سقف الغرفة واندفعوا صوب السماء على الرغم من توسلاتهم وتضرعاتهم وعلى الرغم من أوامر قادتهم . وما كانوا حينذاك يحجمون عن مشروعهم الماورائي ذاك أو يفكرون في بلدهم المدحور الذي تهدده جحافل البدو .

اما معنويات الشعب فكانت جيدة بفضل التنظيم السري المطواع المحكم حسب طريقة القرامطة التي أثبتت صحتها . وكانت تنظيمات هؤلاء قد مكنت من الصمود في وجه ثلاث من اقوى الدول الاسلامية لمدة اربعمائة واحدى وخمسين سنة . وهي الدول الاموية والعباسية والفاطمية . وراحت التقارير وغيرها من الرسائل المشفرة بالارقام والاصفار تنتقل احسن انتقال بين القاعدة وُقمة الهرم الثوري . ثم ان اختفاء الحوت اعاد الشجاعة الى نفوس المصدقين بالخرافات في حين ان سلبية المواطنين حالت دون حدوث أي رد فعل من قبل عساكر الغزاة . وتحطمت احلام المحتلين التوسعية على الاسوار العتيقة التي تلف كل منامي داخل قشرة لا ينال منها شيء ولا حتى تقلبات الاجواء الصحراوية . وبدأت قيادة الاركان الاجنبية تتساءل اذا لم تقع في كمين تحترق فيه شيئا فشيئا او اذا هي لم توضع موضع السخرية لأن البلدة لا توفر أي فائدة اقتصادية او مالية او سياسية ناهيك بأن تتوفر على موقع استراتيجي . وراح السأم الذي يعرفه المناميون كل المعرفة ينتشر على وجوه القادمين الجدد لا سيما وأن الامر قد انتهى بفتيات الماخور الى مغادرة البلدة عندما ابصرن بتلك الجحافل من الجنود القساة وقد برزت رماح بنادقهم امامهم وتصلبت ذكورهم بين افخاذهم . واتضح أن العادات المتبعة من قبل البغايا تحرم عليهن مضاجعة العساكر ، وقد هربن من المنامة خوفا من العقاب الذي تصدره عليهن قبائلهن ان هن تجاوزن تقاليد العشق والجنس . وبعد أن تخلصن من الرصاص الذي سددن به فروجهن لكي يحولوا بينهن وبين السين تيبسن ، أرسلنه الى محمد عديم اللقب والى قريبتهن مسعودة السعيدة لكي يذوب وتصنع منه القذائف .

لقد اغلقن الماخور اذن ، وحملن معهن المفتاح والمعلمة التي يفصح جمالها وأناقتها عن أصل ارستوقراطي يعود الى أجيال سابقة عديدة . وخلت ساحة الربوة ، في حين أن مروض الحمائم الذي اشتبه الناس في أمره وحسبوه الامام الذي ينتظره القرامطة حمل معه طيوره وغادر المنامة . وكذلك فعل القوالون والمهووسون بحب الله وبائعو المساحيق التي تذر في العيون، والتجار المهربون والمتطببون والبهلوانيون وغيرهم. اغلقت سوق المهربين ابوابها بعد ان بيعت بها فيما مضى كل المحرمات وكل ما لم يكن موجودا في جهات أخرى بما في ذلك الاشياء التي لن يعرف اهل المنامة كيفية استعمالها بعد . وغاب المهربون بدورهم مصطحبين معهم مجلاتهم الاباحية واكسيرهم الممنوع وابر الاجهاض والطواحين التي تسحق الشجن وتحوله الى غبار للبهجة ، وأخذوا معهم الجبن المثقوب الذي يذر في الطعام ، والاثواب الداخلية الهفهافة ذوات اللون المثير ، والواقيات من الحمل ومن الامراض الزهرية ، والرنة التي تصب اللعنة على الاعداء ، وسراويل الجينز التي تحمل علامات على الخياطة الدولية الرفيعة ، والذكور المصنوعة من الاسلاك الشائكة خصيصا للمازوشيين ، والادوية التي تعالج أمراض الحنين ، والهواتف المتلفزة ، والبسط الخضراء النطاطة المصنوعة فـي طشقند ، والمعقمات الآلية التي تمنح اللذة بالدوران حول ذاتها ، ومجلدات العالم الرئيسيين وهم يظهرون في أوضاع داعرة ، والمكـاوي الحديدية المزيلة لتجاعيد الحزن . والآلات التي تخيط حطام البيـوت الزوجية . والاواني التي تخمر الزمن ، وقطع الغيار المستخلعة من سيارة الرولز ١٩ ، والاباريق التي تغلي السأم ، والاثواب القادمة من ممفيس ، والبنادق ذوات النظارات التي استخدمت لاغتيال عدد من الزعماء السياسيين ، والخردوات المهربة من ميناء أوديسا ، وسيف سيدنا علي ، ومخطوطاتهم المنتحلة التي صححها وضبطها محمد عديم اللقب ، ومنمنمات الواسطي ، والاجهزة التي تطيل العمر بعشر سنوات على الاقل وبضمان حقيقي ، وحيوانات الكنغورو التي تتكلم اللغة المنامية ، والمقاصل التاريخية ، والاقراص التي تدفع على اللامبالاة ، والاجهزة التي تشوش الزمن ...

لم يعد هناك من شيء يمكن القيام به ، حتى المشي صار متعبا بسبب الحرارة اللافحة . بل ان أشجع المناميين احجموا عن ذلك بعد محاولات قصيرة اقدموا عليها . غير ان الحجارة جعلت تتضاعف في حين أن الصحراء راحت تتسلق الاسوار وتغزو البلـدة وانبجست الانصاب

الضخمة من الارض المتشققة من الجفاف ، ونبتت الحجارة مثل الفطريات ، وتدافعت العناكب العملاقة وتزايدت العقارب . ثم ان محيط المنامة الذي لم يعد يشجع أحدا على التجول ، تشوك بأشواك ما رآها الناس قبل ذلك ، وتتالت الكوارث . ثم كان في أحد الايام ان نصـــب كمين للجنة المقاومة التي أرادت الاستجمام في المقبرة الامريكية لمقابلة منسقي مختلف المناطق في البلدة . وتسرب أحد متسقطي الاخبار بين افراد اللجنة وسرعان ما القي القبض عليهم باستثناء محمد عديم اللقب الذي استعمل ظله لأول مرة بطريقة ذكية جدا . فقد نفخه الى أن صار شبيها به وحسبه الاعداء الفريسة المنتظرة ، وهو الامر الذي احدث نوبة من الضحك بين رفاقه الذين اقتيدوا تحت حراسة الكلاب الالمانية . وغادر محمد المنامة في نفس اليوم واتخذ وجهة مجهولة ، وبعد أن أطلع كلثوم على تلك الكارثة وعلى ضرورة ان تضطلع النسوة بالامر حتى يعود بآلة حربية حقيقيـــة . « لقد انتهت الخوارق الآن ! وترك القرامطة لنا عدة هائلة في بداية هذا القرن الرابع عشر ... فعلينا أن نستخدمها ! » . وخلال الفراغ الذي أعقـــب القاء القبض على اللجنة السرية ، ثبطت همم المناميين فاضطروا الى الانصياع لتحذيرات العساكر . وتواصل تصوير الف ليلة وليلة مرة ثانية بعد ان توقف شهرا كاملا . وجرى كل شيء في جو صفيق متوتر .

اضطرت فرقة السينما قبل ان تستأنف تصوير الفيلم الى ترميم الديكور ، وملء الأقنية المتيبسة ، واسقاط وابل من الامطار ، واخراج الورق المفضض من صناديقه ، ونزع أغلفة الرافعات الهائلة ، وطلي وجوه الممثلين من جديد اذ فقد كل شيء صورته الاولية ، وتيبس وعلته الشقوق والتجاعيد والعفن بفعل الزمن والرمال والحرارة ... كان لفرقة السينما كل الوسائل ... مقرونة بخيال خصب .

وهكذا ، فانها لم تجدد المنامة ، ولم تعمل على تركيب الواح الديكورات البراقة فحسب ، بل استصلحت مروحة السيدة « بندرشاه » التي شرمت ذات يوم ذكرين عجيبين ، واستخدمت مروحتها كمحرك لا مرئي لدفع البسط الطائرة التي كان من المقرر ان تحمل على متنها هؤلاء النائمين الايقاظ الذين تتحدث عنهم الاساطير . وعلى الرغم من الصعوبات المتراكمة فان المتصرفين استطاعوا ان يوظفوا بعض الخونة لكي يظهروا في المشاهد التي تصور في النهار ، واعطت لهؤلاء الخونة أخطر الادوار حتى ان النائم الأول سقط راسا من بساط الريح لكي لا يستفيق أبدا . واستبدل بمجنون آخر فنجح في العملية ، الأمر الذي اعتبر ضربا من الخوارق الرياضية والاستفزاز السياسي .

كان مكان التصوير محاصرا بجنود متوترين ، اصابعهم على الزناد ، مستعدين لاراقة الدماء . وعندما انتصف النهار ، وصل الى مكان التصوير تلاميذ « علي الفقيه » الذين دربهم أحد اعضاء الخدمة الاجتماعية لجيش المستر براون . وكان هذا يتحدث اللغة المنامية بكل طلاقة ، وبغتة عمد

هؤلاء التلاميذ الى اشهار لوحات كتبت عليها شعارات معادية للوجود الاجنبي ، فحشدوا ، ثم وضعوا في القسم الدراسي الوحيد الخالي من المقاعد .

ذلك ان التلاميذ كانوا يصطحبون معهم تلك المقاعد في الصباح ويعيدونها الى بيوتهم في المساء بسبب نقص الاعتمادات المالية . وانتزعت سراويلهم وضربوا على مؤخراتهم واحدا واحدا . وما بكى احد منهم بل ان البعض أصيب بنوبات من الضحك مردها حساسية مرهفة ، ولم يكن لتلك الحادثة تأثير كبير على تصوير الفيلم الذي كان قد بلغ المشهد الخاص بالمدينة المبنية تحت سطح البحر ، وتحول المصورون الى غواصين غير أن الشخوص الثانوية اضطرت ان تلعب أدوارها دون اية اقنعة اوكسجين ولا اي لباس واق . وبما ان احدهم لم يكن يحسن السباحة ، ونظرا لرغبتهم في اظهار حماسهم للحصول على العمل كبوابين في قصر الحاكم الذي وعدوا به ، لم يترددوا في الغوص ، وفي ظرف دقائق معدودات ، ابصر الحاضرون بأجسادهم تصعد من الاعماق لتطفو على السطح، فكانت الكارثة . انتشلت على اثرها ثلاثون جثة ، أصبح من العبث محاولة نفخ الهواء في صدورها . اما الخائن الذي افشى السر عن مكان تجمع اللجنة الثورية فقد اكتشف امره بهذه المناسبة . كان في عداد الغرقى ، وعندما انتشلت جثته ، لوحظ ان سبابته مصوبة نحو صدره — وادرك الشهود انه اراد ساعته الحقيقية والاحتضار ، ان يكفر عن ذنبه ويمارس النقد الذاتي بعد موته . اسمه « العربي حناش » . كان يحوّي الثعابين في منبسط الربوة ، كان الناس على يقين من أنه مذنب لأن جسده انتفخ ثلاثة اضعاف الاجساد الاخرى ، وانكمشت عيناه خجلا بدلا من ان تتسعا كحال سائر الغرقى . اما العنصر الاخير الذي يثبت تورطه وخيانته فهو تلك الرائحة الكريهة التي تنبعث من قبره منذ ان دفن الى ان كف العالم عن الوجود سنة ٤٠١٩ بالضبط ، حسب التقويم الشمسي ، مثلما تنبأ بذلك دعاة الاديان كلها . وباستثناء هذا التوضيح الرباني ، فان أهل المنامة لاحظوا تلك البراعة المدهشة وذلك التشبث اللبد اللذين يمتاز بهما الفنانون الاجانب الذين كانوا مزودين بوسائل تزداد ضخامة على مر الايام ، وقد جيء بها بواسطة طائرات ضخمة قادمة من النصف الآخر للكرة الارضية مرورا بخليجية التي كان ملكها يلعب على الحبلين بغية الحفاظ على عرشه والابقاء على أحلافه الطبيعية والتقليدية مع ذوي الشأن . وقد نتج عن ذلك انه حين

استئناف تصوير الفيلم عمد الاجانب الى تغيير الطقس واسقاط الثلج الكاربوني الذي لا يمكن تفريقه عن الثلج الالهي ، ازلقوا ساحة الطيور على دريجات كروية ونقلوها خارج اسوار المنامة ، لحاجتهم الى مجال فسيح ، وجعلوا مدينة كاملة تنبجس من تحت الماء ، وتسلوا بدفع الطرقات للتقاطع فيما بينها بعد ان كانت متقاطبة ، وروضوا الطيور المغرورة المتحررة وارغموها على التغريد او السكوت ، حسب هواهم ، واقاموا ماخورا ملأوه بالبغايا الرياضيات ذوات البشرات البرونزية اللبابية اللائي جيء بهن راسا من كاليفورنيا وانبتوا اشجار لوز مزهرة من صلب النبل الصماء واقاموا ضيعات ينبت فيها الحشيش الاصطناعي وتخب فيها جياد الازل الشهباء ، بصورة متباطئة .

وموجز القول هو انهم شوهوا طبيعة البلدة ، وحولوها الى مستعمرة يانكو – يهودية كأنما ارادوا الاقامة بها الى الأبد مع أنهم قد جاؤوا أصلا لتصوير فيلم الف ليلة وليلة بأموال زوج « ليلي » لكي يبرهنوا للعالم اجمع من خلال تلك القصص العجيبة بأن الحضارة الاسلامية ملك للتراث العالمي وجزء من المكتسبات الحقيقية للانسانية . على ان مسعودة عديمة اللقب وان كانت متأثرة بالقاء القبض على اربعة من اقاربها وحلفائها وبالرحيل المستعجل لابنها الاكبر المحكوم عليه في ما وراء الاعمار والازمنة ، لا بالعزلة فقط بل بالنجعة وبأسحار العالم اللامرئي ، حزنت حزنا عميقا بسبب ذلك الثلج الكاربوني ، « واسفاه ! كان في مقدور هؤلاء الاوغاد ان ينتظروا عودة محمد لكي يلقوا بثلجهم من طائراتهم العمودية » وبعد عدة محاولات رشم مشهد المدينة المائية على شريط الفيلم . وصادف رضى المخرج عن هذا المشهد اضطلاع النسوة بزمام القيادة الثورية .

استعادت « شجرة الدر » ذلك الاسم الملكي الرامز لأنوثة أعطت براهينها ، ولم تنس أبدا ان نظيرتها الملكة قد قطعت رأس زوجها واقحمت خصيتيه في فمه لأنه خان ثقتها . عليها الآن ان تقوم بدورها ، فقيادة المقاومة تقع على عاتقها . وهكذا انطلقت توزع المهام . فكلفت كلثوم بمصالح الجوسسة والجوسسة المضادة بفضل التأثير الذي لم تزل تمارسه على والدها . بينما فوضت مسعودة بالاشغال البيتية مثل اطعام اعضاء المقاومة ، وتلميع ارجاء البيت وتنظيف مطائر واقفاص الكاميشي ، وأخيرا تنظيم التموين . اما رشيقة التي كانت قد عاينت زوجها الساعاتي اثناء عمله،

فقد عينت لصناعة قنابل موقوتة ومراقبة الساعات الجدارية التسع عشرة التي سوف تكون بمثابة كنز حربي في الوقت المناسب . وعلى الرغم من اختلاط هويات التوائم وتداخلهن فيما بينهن ، الا أنهن كلفن باجتذاب واغراء اكبر عدد من العساكر الاجانب الذين قد يعبرون بالقرب من الدار وبتحطيم حناجرهم بأطراف أيديهن مثلما تعلمن ذلك بمجرد وقوع هؤلاء العساكر في أحضانهن . وكانت مليكة بناصر المراة الوحيدة التي احتفظت بهويتها وكلفت بالاشراف على تربية الحمام الزاجل الذي سوف تكون المقاومة في أشد الحاجة اليه . وكانت شجرة الدر مطلعة تمام الاطلاع على طرائق حرب العصابات لدى القرامطة فاهتمت بوضع مخطط للمعركة وبتحديد استراتيجية النضال الوطني بكل دقة . وعلاة على ذلك كان عليها ان تنسق كل شيء وتراقب كل شيء . ولكي تكون مقنعة وعند حسن ظن النسوة ، روت عليهن تاريخ مقاومة نساء المنامة . واستهلت حديثها ذلك بمعركة الخصل الشهيرة التي كان محمد عديم اللقب قد وعد مليكة بأن يقصها عليها قبل زواجها بوقت طويل.

لن استهل حكايتي بجملة « كان يا ما كان » اننا نريد ان نستبق الزمن ، فلنعجل اذن . لقد تعرت نسوة المنامة في سنة ١٥٣٢ ورقصن عاريات في في خضم المعركة . فكان ان استثرن الرجال حتى انهم انتصروا على الغزاة الذين كانوا أكثر عدد منهم واكثر استعدادا واحسن عدة . هذا من جهة . اما عن الخصل فهي معرفة ومن جهة اخرى ففي سنة ١٧٢٥ رأت علجية « التي تنتمي الى قبيلة المنامة بأن المحاربين قد انهزموا امام الاتراك ، فعمدت الى تكوين جيش من النسوة اللائي سحقن الغزاة الاجانب وطردنهن الى ما وراء الحدود وأخيرا وفي سنة ١٤٥٠ ثارت نساء المنامة ضد الرجال وانتصرت في حرب الجنس بعد سنة من المعارك والكمائن والمكائد . ثم انهن وقعن بعد ذلك بكل سهولة وبصورة تدريجية بين ايدي المنهزمين الذين لم يحرمنهن من انتصارهن الباهر فحسب بل ومن الحياة ايضا . وهذا الامر لا يزال مستمرا ، بل والادهى من ذلك ، فقد حولن الى حاضنات طبيعيات لدود القز بحجة عدم وجود الكهرباء . علينا اذن ان نستخلص العبر ، يتعين علينا ان نحارب على جبهتين ، فنعمل على الحد من غرور هؤلاء الطراطير الاجانب ونضع حدا لممارسة همجية تتلخص في اعتبار اتخاذ النساء مجرد اشجار توت » . واما اسرع ما راجت في مختلف الديار الخطبة النارية التي القتها صاحبة الاسم البراق لملكة مصر والشام من ٦٤٧ الى ٦٦١ من التقويم الاسلامي . وقبل الرجال الذين ادركوا ان هنالك

اولوية مطلقة ، بهذا الوضع الجديد ودور الصدارة الذي تلعبه النسوة في الكفاح الوطني . لكن موافقتهم التي جاءت على مضض لم تكن تخلو من خلفيات خبيثة ودنيئة « لنترك الزمن يفعل فعلته ! وسوف نرى بعد ذلك » قهقهة خاطفة .. صفراء .. زرقاء .. لكن فلنشحذ عزائمنا ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار ضرورات الفترة التي انقلبت راسا على عقب لتنفذ الى ابعد اغوار الكون ومناخه وثلوجه المهربة . اخذت النسوة زمام الحكم وبث من جديد الوجه المعتم من حكايات ألف ليلة وليلة . بؤس شعوب تلك الفترة والعبودية والاعدامات الخوزقية والتمردات ، والقمع ، قطع الرؤوس ، الزنجيات غير البالغات اللائي يغسلن شروج الملوك بماء الورد ، الليالي العربيدة ، الحريم الخدور ، الاستبداد ، وبطبيعة الحال ملحمة محمد بن علي ووقائع حياة وموت حمدان قرمط ذي الاسماء التسعة عشر المستعارة والحيل التسع عشرة والانتصارات التسعة عشر، وشرحن التواطؤ السري الذي كان قائما بين ملك خليجية والمستر براون والجنرال يهودي وذلـك الحاكم الشبيه بالقرد وماذا عن الف ليلة وليلة ؟ وتصوير الفيلم ؟ مجرد حيلة ! تمهيد لاحتلال نهائي ...

تمت الهجمة الحربية الاولى لأهل المنامة ضد المحتلين دون ان يشعر بها احد ، وصنعت جارة لآل عديم اللقب تدعى « زبيدة الحلوانيـــة » ، مائة كيلوغرام من حبات «الشكولاته» ووضعت بها حبات السمسم بعد ان دست فيها عشرة ارطال من سم الفئران . وحملت السلعة على متن عربات تجرها احمرة هزيلة ، ولم يبق الا الانتظار ... أوقف العساكر الاجانب الموكب ظنا منهم اكتشاف اسلحة ومتفجرات ولم يجدوا سوى شكولاطة مقرمشة من النوع الرفيع . وعمت البهجة . احتجز القائد السلعة ووزعها علـى اصحابه في نفس العشيـة . الحصيلـة : ١٩١٩ قتيـلا بالسم خارجة السنتهم . وما لبثت ان وشمت زنجرة الموت وجوه العساكر الوسيمة ، أولئك الذواقين الاكولين ، بينما راحت العناكب النطاطة الضخمة تنسج شباكها داخل المخيلة المهترئة للباقين على قيد الحياة . وقد تعودوا على هز رؤوسهم باستمرار كأنما ليطردوا تلك الـرؤى المرعبة التـي كانوا ممثليها وشهودها اثناء حفل الانتصار الشهير الذي ختم الصداقة النهائية بين المستر براون وبندرشاه او كأنما ليتخلصوا من حصى تتأرجح بحرية في دماغ كل واحد منهم . هكذا ازيل ١٩١٩ من رجال العدو مـن المجال الحيوي وتم ذلك كله بفضل فن « زبيدة الحلوانية » المشكلط ، واوضحت

« الدر » بأن هذه الحيلة الحربية هي القرين لتلك الحيلة التي عمد اليها الخلفاء العباسيون ضد القرامطة في سنة ٣١٤ من التقويم الاسلامي حيث ارسلت سفينة محملة بالفواكـــه بالقرب مـــن الشواطيء التـــي يحتلها الشيوعيون المسلمون وعندما حجزها هـــؤلاء ، وزعـــوا محتوياتها على الشعب توزيعا عادلا . فلقي ١٩٠٠٠ شخص مصرعهم ! أمـــا الحيلة الحربية الثانية فقد مكنت من تفكيك سيارة (الرولز) التي ربحها المخرج السينمائي . وقطرت زوجة الساعاتي التي قدمت يد العون الى بعلها اثناء اصلاح الساعات الجدارية التسع عشرة ، عشر غرامات من النيتروجلسيرين في المصابيح التي تزين اجمل وأغلى سيارة في العالم . وأنارت الاضواء المتلألئة قلوب أهل المنامة الذين أصبحوا يعانون هوان الهزيمة ومـــرارة الخيبة ، كانت العربة اصلا ملكا لملك خليجية بعد ان دفع ثمنها من امواله الخاصة ، وصفعته المهانة بمجرد تلقيه الخبر فأبرق بتعازيه . وسارعت مؤسسة الرولز رويس الى ارسال ممثل تجاري .

وصل الى المنامة عند انقضاء نهار الاربعاء من يوم ١٩ مارس . كـــان يرتدي بذلة من « الالباجا » المقلمة لها زرقة الكوبالت حاملا حقيبة تنبي عن فخفخته بينما كانت ربطة عنقه تلمع الهواء من حوله وكان من الجمال حتى ان اللجنة النسوية السرية ترددت في نصب كمين له وقد جاء ليعرض آخر نموذج من سيارة الرولز وان يغري الحاكم بشراء سيارة جديدة من تلك الدار الشهيرة ، ربما انه كان قادما من بعيد وذا مظهر ملائكي ، فقد اقترح تخفيضا قدره عشرة في المائة لكي يظهر الاهتمام الـــذي توليه مؤسسته لمشاكل التنمية في بلدان العالم الثالث . وكان من الجاذبية بحيـــث ان « سميكة » الفتاة التوأم الاخيرة التي كانت مكلفة بتحطيم حنجرته وقعت في غرامه ، غير ان اللجنة كانت على كامل اليقظة وبينما كانت المساومات مع الحاكم على اوجها تولت كلثوم امره واجتذبته الى الحديقة ، ومنحته قبلة الموت .. تحت شجرة المشمش . وعندما هبط الليل ، رفعت الجثة فوق احدى الاشجار بمثابة فزاع تيبست بسرعة وآلت الـــى ان تشبه مرهب عصافير ، غير ان السلطات غشيت ابصارها عندما أقدمت على تفتيش دار عديم اللقب بحثا عن الفتى الجميل صاحب الحقيبة الذي يعد بمستقبل باهر جدا . وهكذا فقدت مؤسسة الرولز رويس سوقا هامة وممثلها المتنقل . وبعد ان سلا فؤاد سميكة ، عمدت الى النقد الذاتي ، واقسمت على ان تكبح هواها الى ان يعود اخوها الاكبر الذي ذهب يبحث

عن ذلك السلاح الفتاك القادر على ابادة سيطرة الاجانب وغرور عملائهم.

اثر كل عملية ، كان الحاكم يحتجز مائة من الرهائن ليحتفظ بها ، ويعدمها في الوقت الذي يختاره ، وخلال ذلك ، كان يعذبهم يوميا في أقبية مقره الفخم ، ولم يخطر على بال أحد أن يشك في امر النسوة ، وجعلت كلثوم لسهولة ولوجها مكتب والدها ، تسرق الوثائق منه وتنقل الاخبار الى السجناء ، وكانت اثناء ذلك تلتهم الكتب التي تركها عديم اللقب ، وتنظف بوقالها الذي لا تنفصل عنه ابدا وتفكر في امر العلاقات بين الحب والسياسة ، وقد عقدت مقارنات لم تدر بخاطر انسان ، وعزت نفسها قائلة بأن الاهواء الحقيقية هي تلك التي لا يعيشها المرء أبدا . ووقعت تحت وطأة هذه الفكرة ، فضاعفت من حيلتها ومكرها وتوصلت الى الاطلاع على الوثائق السرية التي كانت في حوزة والدها ، وعلى الاخص منها المراسلات بين ملك خليجية والجنرال «يهودي» المنقولة بواسطة بندرشاه. واتضح التواطؤ من خلالها وبرز الموقف المنافق لملك خليجية على حقيقته ، فهو الذي كان يسير الامور في الخفاء ، وقد استنسخت برسوم رمزية ، الرسائل والوثائق البالغة السرية ، والدلائل على المؤامرات والمذابح ، واخرجت الاف النسخ منها ، ووزعتها على سكان البلدة الاميين القلائل الذين لم يدخلوا السجن . وفي نفس العشية ، نظمت حملة اعتقال واسعة ، والقى القبض على السكان كلهم باستثناء الاطفال الذين لم يبلغوا تسعة عشر شهرا من اعمارهم !

في ذلك الوقت بالذات ، قررت مسعودة التي سئمت من تنظيف اقفاص الكاميشي وطيور الفردوس ، ومن غسل مؤخرات اطفال محمد ومليكة ومن تنظيف البيت ثلاث مرات في اليوم الواحد ، ومن سقي النباتات الهشة بدم الطمث العائلي ومن حراسة الطواحين التي ترحى الزمن ، ومراقبة ما اذا كانت جثة العون التجاري لمؤسسة الرولز رويس تيبس كما ينبغي فوق شجرة المشمش، ونقل الاثاث من مكان الى اخر للتمويه على العدو، وترصد الساعات الجدارية التسع عشرة التي كانت تشك في انها تخدعها وتلتهم ايامها ، قررت ان تكون لها كلمتها في الموضوع . فارتدت أمتن صدرية ولبست ثيابا بالغة الاناقة ، وغطت وجهها بحجاب من حرير المنامة الخالص وغادرت البيت دون ان تخبر احدا ، وعندما وقفت قبالة حارس مكتب الحاكم ، تجنبت اثارة الفضيحة ، فجذبته نحوها والقمته الحلمة البنفسجية الضخمة لثديها الايسر ، ولما ذاق الفتى حديث البلوغ حليب النشوة لأول

مرة ، غاب عن الوعي وهو يمص شفتيه ، واسترجعت مسعودة ثديها الذي كان اكبر من الايمن بقليل ، واندفعت بكل صخب نحو مكتب الحاكم ، وهو منهمك في مناجاة صورة زوجته السابقة التي ظل يحبها حبا جارفا . هو صعق بما يراه ، تلعثم ، وقد ضبط متلبسا بجنحة الحنان . هو ، صار يتملق . هي ، اشفقت عليه ، هو ، غبطها على صحتها المشعة . هي ، لاحظت ان التحلل العضوي حوله الى هيكل عظمي لا يتجاوز ١ر٥٢ متر . ونبتت له غدة درقية مكان حلقه . هو ، كالمذهول . بالاضافة الى رائحة الكافور والعنبر المحروق التي تبعث على القلس والتي تنفذ من جسده ، والتمعت عيناه ، ثم خبا اللمعان . أنا في خدمتك يا مسعودة . اي ريح جاءت بك الى هنا . لعلك لاحظت انني لم احبس أي واحد من ابنائك ! مسعودة صامتة . تخلصت من حجابها . أحس بأكبر خوف انتابه في حياته . اتمنى الا تخنقني بين ثدييها ، وضاعف تملقه ، الذباب كثير هذه السنة . تتركه يتنحنح ويثرثر . يهم بحركة ويقفز وراء مكتبه . لقد كان في ميسوره ان يصبح بهلوانيا رائعا ، مسعودة صامتة . يتساءل عما تدبر له . يريد ان يطلع على دوافع هذه الزيارة . وأخيرا فهم . سوف يطلق سراح صهريك والشيوعي والمعلم . انها قضية وقت مجرد خطأ قضائي . لا خطورة في الامر . انهم في صحة جيدة . غمره الابتهاج . ظن بأنه استلطفها . وفجأة راحت تترقع بحمالة صدريتها وسط ذلك الصمت المطبق . كان الصخب جهنميا ، اعصار يجوّح المكتب الواسع . والاثاث يهتز ، والمروحة الهوائية تتأرجح ، والاوراق تتطاير ، والمحبرة العتيقة التي استعملها السينمائيون سابقا كمبولة تتدفق عن نوازل بنفسجية .. هي ، تضاعف صخبها وسرعة حركتها . هو يصاب بالدوار : « توقفي يا مسعودة ، انك تعلمين جيدا ان لي دمامل تحت جلد الشعر .. ادنى ذبذبة .. » لا تحسب له حسابا . تضاعف الوتيرة والايقاع . تواصل بشدة اكبر . « حسنا ، ما الذي تريدينه ؟ اطلبي ما شئت ، اي شيء ، ها انذا اوقع الامر باطلاق السجناء على الفور » يكتب ، يوقع ، فجأة تتوقف مسعودة بكل عنجهية ، تغادر المكتب بعد ان اعادت الحجاب الى وجهها . وصفقت الباب ، تمزقت حمالتا صدريتها . اما الحارس الذي كاد ان يتسمم بحليبها الرديء الذي حمض بفعل الغضب ، فقد ظل يئن على الارض ويلعق التربة بلسان شبق ...

أطلق سراح السجناء في نفس العشية ، مسلحين بالسكاكين

وبالشوكات القديمة ، وزحفوا على ما تبقى من جيش الجنرال «يهودي» . وكان الجنرال نفسه قد أصيب بمغص قلاعي فعاد القهقـــرى ، بطريقة تكتيكية ، وأقام قيادته العامة فوق جبل خارج المنامة . وما لبث ان بدأ يقنبل البلدة بكل نوع من انواع القذائف . ردت الاسوار كعادتها تلك القذائف الى مكان انطلاقها فكانت المذبحة في صفوف العدو . واحتفل بذلك الانتصار الشعبي ، وخرجت مسعودة الى الشوارع مع عائلتها وهي مبهورة بما حدث . كانت اول مرة تغادر فيها التوائم البيت . فقد كان من المتبع ان يبادر الناس الى زيارة عائلة عديم اللقب ولا يذهب هؤلاء لزيارة أحد . وقد سويت مشكلة الحمام اليومي بفضل تلك الجرة القديمة الشهيرة التي كانت أكثر نجاعة من الحمام البخاري . ولم تكن القبيلة تذهب الى الحمام الا في الرابع والعشرين من كل شهر بعد توقف الدورات الشهرية عند التوائم . وراحت مسعودة تحدق بقلق في الوجوه بحثا عن ابنها « اتمنى الا يكون قد بتر ابهامه الايمن . هذا الفتى قادر على كل شيء عندما يعصره الشقاء ، انها غلطتي كان عليّ الا اتركه وحيدا خلال اشهر الحمل التسعة » وانحت عليها بناتها باللائمة لانها اطلقت العنان لنفسها في حين ان السكان وهم في غمرة السرور ارادوا ان يحملوها على الاكتاف . ورفضت بكل لباقة : « لست سلطانة ، تحمل على كرسي مذهب ! انا ام محمد عديم اللقب لا اكثر ولا اقل » ، وقد انتهز الجنرال «يهودي» فرصة السرور الغامر الذي سيطر على البلدة فوجه امره الى الطيران ، فانقضت الطائرة المحلقة على ارتفاع قليل ونثرت قذائف المنثار على البلدة وكانت المذبحة هذه المرة في الجانب الاخر . اما الذين نجوا مـــن المـــوت فقد تراجعوا نحو بيوتهم . وكان آل عديم اللقب وحلفاؤهم سالمين . ومن جديد ، اعيد تنظيم الهياكل السرية ، ولعب بوحدبة دور الغواصة بسبب حدبته ، ومعلوماته عن قوانين الفيزياء ، ودخل ما يشبه السرية ، كان يظهر بين الناس ويختفي حسب متطلبات القضية واوامر اللجنة المركزية المضيقة التي كانت تتألف من النسوة فقط لأسباب حربية ودون اي تمييز . وتنكر محمود في شكل « رفيقة » نظيرته التوأم . وازلق من جديد الجدران على سكتها ، وفتح السقوف ، ودخن غرفة حفظ الطمث حيث كانت تعقد اجتماعات المسؤولات عن المقاومة . اما الرجال فقد دابوا على لعب الدومينو ولعبة الورق وصراع الاكباش والمراهنة للتمويه. وتلقت الشخوص الثانوية التي نجت من الموت ، الامر من المقاومة باستئناف العمل في مكان التصوير . وتغني المخرج بالانتصار ، وبدلا من ان يمتطي سيارة الرولز رويس علق

على جيب قميصه شعار سيارته ، وتواصل التصوير في جو جنوني مفعم بالوهم والحمى . وحولت المنامة الى اسواق وازقة بغدادية وابتدىء في تصور مغامرات « هارون الرشيد » ووزيره وحكاية المتسول الذي اراد ان يصفعه الخليفة المتنكر في زي تاجر بالاضافة الى الصدقة التي تلقاها منه . وادرك اهل المنامة الذين كانوا يشهدون التصوير عن بعد ، المغزى السياسي وراء تلك القصة . اما جيلالي بوحدبة الذي يمتهن حرفة اصلاح الساعات ويقوم بدور الغواصة لاسباب سياسية فقد اختلط بالجمهور وقدم توضيحات عن مغزى القصة « الملوك يرون ان الشعب هو الذي يطالب بالعقاب ، ومن ثم فهم يضطهدون الجماهير ارضاء لأهوائها » وتبادل الناس التعاليق وعكروا جو التصوير . على انهم سرعان ما ابعدوا عن المكان في حين ذهب الساعاتي لكي يرى ما صار اليه امر الساعات الجدارية الصقلية التسع عشرة التي تمتلكها حماته ، رمز المقاومة ومحررة الناس بفضل صدرياتها الاسطورية .

كانت لمحمد عديم اللقب وهو يغادر المنامة فكرة محددة في ذهنه . كان يرغب ، على غرار اساتذته القرامطة ، ان يذهب الى مملكة خليجية ويسرق الحجر الاسود . كان القرامطة قد احتجزوه في السنة المقدسة ٣١٩ من التقويم الاسلامي واحتفظوا به في مدينة « السواد » لكي يجنبوا الحجاج مضيعة الوقت وتبديد الاموال التي يمكن استخدامها للتغلب على المجاعة ولحصر نطاق الاوبئة ولكي يعيشوا سعادتهم الارضية البسيطة . وبما ان الحجر الاسود الذي لا يتجاوز حجم كرة القدم ، كان رمز الدين العقيدة ، فانهم ابعدوه خارج الحرم ، لبعث المؤمنين على التقاعس ، ولنزع الهالة المقدسة عن الشعائر الدينية التي كانوا يريدون مقاومتها وتحويلها الى بضعة قوانين بشرية وقواعد اجتماعية ومبادىء عقلانية تمكن البشر من العيش سعداء على سطح الارض ، اما الباقي فلا يهمهم ، بل تركوه للملوك والامراء الذين كانوا متمسكين بامتيازاتهم ، مندفعين في النشوة والتبذير ، في حين انهم كانوا في مقابل ذلك يطالبون شعوبهم بالتقشف والزهد والاستشهاد . وقد أحرق القرامطة القرآن مثلما فعل الزنج . والخطأ كله يعود الى المتنبي الذي كان مصابا بمرض العظمة ومهووسا بالله وبنفسه . لقد اوقف المطر ذات يوم واعلن بأن اسلوب القرآن ركيك . فقد كان يقدس كل ما هو مكتوب في زمن ساءت فيه النبوءات والمدائح الدينية ويثنى على القلم والكتابة . وقد هتك المتنبي

فيما يقال بكل المحرمات وكان وهو في التاسعة عشرة أول من اراد ان يفضح هذا الرمز الذي كان الخونة يستخدمونه لتضخيم ثرواتهم . محمد عديم اللقب يريد نفس الشيء هو الاخر . رجع الى المنامة بكل سرية . والحجر الاسود تحت ابطه لكأنما ذهب الى السوق ورجع بدلاعة ، وصدر امر دولي للبحث عنه . وكان ملك خليجية في ذروة غضبه . وبما ان المنامة لم تكن موجودة على اية خريطة جغرافية جديرة بهذا الاسم فان الدروب اختلطت على شرطة العالم ، وانتظر الناس ان يقدم طلب بفدية .

غير ان عديم اللقب شرح الموقف وقال بأنه لا يريد الا ذهاب الاجانب ونهاية التحالف السري بين ملك خليجية والجنرال يهودي ، وايقاف تصوير ذلك الانتاج الضخم لانه تشويه صارخ للتاريخ الملموس ، واستدعاء بندرشاه من قبل الحكومة المركزية المهددة بوقوع حادث جلل ، وارجاع بحيرة التماسيح الى الفلاحين الفقراء الذين كانت اجسادهم واراضيهم تفتقر الى الماء . وكلفت كلثوم بتسليم الرسالة الى والدها . « من العبث ان نبحث عنه في غرفة حفظ الطمث ، ستضيع وقتك ، انه في مكان ما من الصحراء مع حجره الاسود ، ولا احد يستطيع الاتصال به لانه يحمل معه كيلوغراما من اليتروغلسرين الذي يمكن أن يحيل به الحجر الاسود الى كومة من الغبار ، ادنى ر منه قد يوصله جنونه الى تحديكم ، وهو يطلب الى جانب ذلك ان تنقل هذه الرسالة للحكومة المركزية » . حدث في الامر اخذ ورد ، وعرض ملك خليجية جسرا من الذهب على محمد عديم اللقب، وأرسل زوجته الرابعة ليلى بندرشاه بنفسها لكي تتفاوض معه بشأن الاقتراح . كان من المستحيل الامساك بمحمد بفضل حذائه المطاطي المألوف ، ناصع البياض ، الذي بهر رشيد بناصر منذ ان صار صديقا له وساعده في محاولته تحديد البيت السابق لابن خلدون بفضل ادوات مسح الاراضي ، اي قبل وقت طويل من زواجه بمليكة وقبل ان يصاهره . احيط الشعب علما بالقضية بواسطة منشور رسمه المعلم الذي احجم للمرة الاولى في حياته عن رسم رسائل الحب . وتضخمت الاشاعة لتتجاوز حدود الاسوار ، واحدثت هزة في الحكومة المركزية التي تناست رغم جهودها حتى وجود تلك البلدة في آخر نقطة من العالم ، حيث كان قد سبق لها ان ارسلت اليها بحاكم ولم تتلق عنه اي اخبار . وظن الناس في العاصمة المركزية ان المنامة قد غاصت تحت الرمال او نقلت من مكانها الى خارج الحدود الوطنية بفعل تلك المستنقعات المتحركة المحيطة بها او اندثرت تماما على اثر زلزال ،

وهو امر كثيرا ما يحدث في المنطقة، وتاثر المسؤولون لهذه القضية وانقسموا الى شطرين ، شطر يريد المحافظة على مصالحه مع ملك خيلجية وآخر يميل الى قطع العلاقات الديبلوماسية معه . ولكنهم كانـــوا في قرارات انفسهم معتزين ومعجبين بما حققه محمد عديم اللقب . لقد اعاد تاريخ حمدان بن قرمط الذي اخذ بالنصائح الشيطانية التي اسداها له الشاعر العبقري الشهير بالمتنبي واستولى على الحجر الاسود في السنة ٣١٩ من التاريخ الهجري .

لاول مرة منذ زمن طويل ارسلت الحكومة بعثة عاجلة للتفاوض مع محمد عديم اللقب الذي لم يكن يبتغي من وراء فعلته هـــذه سوى لفت انظار العالم الى استبداد هذا الحاكم القزم والى أطماعه التي لا تحد . الم يرسل ابنته الى استراليا لكي تتعلم الرقص بأكاديميـــة « سيدني » الملكية حتى يزوجها لملك خليجية ؟ وصل الوفد على متن طائرة عمودية كادت ان تصاب بنيران المدفعية المضادة للطائرات التابعة للجنرال يهودي، هذا الذي ظل بالمرصاد خارج البلدة ، يواصل قنبلتها على هواه ، دون ان يتمكن من دكها بسبب تلك الاسوار المنيعة التي تقوم شاهدا على العديد من الحضارات والعديد من الاساليب المعمارية والمواد المختلفة التي لم يكن في مقدور اي انسان او اي شيء اخر ان ينال منها . كان المبعوث الرئيسي فتى ذكيا ، مطلعا على نظرية الصراع الطبقي ، فقرر ان يقيم الوفد الحكومي بدار مسعودة عديمة اللقب ، ذلك انه لم تكن توجد بالمنامة فنادق ولان بيت الحاكم كانت اشبه بسوق فارسية تعج بالبشر والديكورات والاشياء الغريبة والمختلفة وبكل ما يساعد على صناعة الواقع وتحريفه في آن واحد . وانطلقت الالسنة السليطة تزعم بأن هذا الاختيار يجسد ارادة المتفاوضين في الضغط بكل سرية . ولطف على مسعودة حتى تعمل على ان يثوب ابنها الى رشـــده . وهمس البعض الآخـــر بأن الجمال الاسطوري الخارق لبنات مسعودة هو الوحيد الذي لعب دورا لا يستهان به في اتخاذ مثل هذا القرار . وعلى اية حال استقبل ضيوف مسعودة عديمة اللقب استقبالا حسنا وسلكوا سلوكا مثاليا بفضل نباهة رئيس المتفاوضين وذكائه وحسن تعامله ...

كان المبعوث الرئيسي الذي اوفدته الحكومة فتى يرتدي على الدوام بذلة من « التويد » وصدارا وربطة عنق ذات عقدة كبيرة من نفس القماش ونفس اللون . وكان قد اصطحب معه صندوقا هائلا يحتوي على حاجاته . كان يبدل ثيابه مرتين في اليوم الواحد ، وتسبب في مشاكل عديدة لمسعودة لأنه كان يستحم عدة مرات خلال النهار ويمنعها من سقي نباتاتها . ومن البديهي ان دم العادة الشهرية الذي يصب بنسب صغيرة على نباتات الحديقة لم يكن الا ليمنح القوة للفواكه والخضروات والزهور ، ولكنه لم يكن ليحل مكان الماء بأي حال من الاحوال . كان المبعوث الرئيسي متأنقا بشوشا دائما ، يمخط انفه بمناديل الموسلين ، اما ثيابه الداخلية فكان لها هفهفة الوهم ورقته . وكان الى جانب ذلك جذابا ، على ان مسحة من الشحوب تكسو وجهه على غرار هؤلاء المتفاوضين الذين تنفخ وجوههم سراديب المفاوضات والحلول الوسطى . اسكن الوفد في قاعة الاستقبال الواسعة ومع ذلك فان مبعوثي الحكومة كانوا مسرورين جدا لان تلك القاعة كانت أرطب قاعة في الدار كلها . اذ كانت تستقبل باستمرار هبات عباد الشمس الجديد الذي صار يتجاوز القديم بضخامته وبسرعته على الدوران حول الشمس . كان هؤلاء الموظفون الشباب مولعين بنبش الملفات . وجلبوا معهم بعشرات الكيلوغرامات من الوثائق والمراسلات الكاملة مع ملك الخليجية الذي كان يطالب بارجاع الحجر الاسود على الفور . كان مستعجلا بخصوص هذه القضية لا سيما وانه لم يبق على موسم الحج اكثر من شهرين . وخطر لهم في بعض الاحيان ان يستبدلوا الحجر الاسود بأي جزء اسود آخر لكنهم خافوا من ان ينكشف امر هذا

التدنيس فيتفجر غضب الملايين من الحجاج الذين ياتون كل سنة لتأدية الواجب الديني عدا الملايين الاخرى من المؤمنين الذين يتدفقون من كل صوب وفج ليشنقوا الملك المسؤول والمؤتمن على هذا الحجر الذي يرمز الى تقوى وسذاجة الجماهير التي تجد فيه صداها منذ الاف السنين . وبما انه تعذر ايجاد اي حل لارجاع تلك الكرة السوداء التي ينبغي على الحاج ان يلمسها لكي يتقبل الله ونبيه حجه فقد جاءت السلطة الى التفاوض مع عديم اللقب المتخفي في الصحراء بين الاسوار وخطوط الجيش « البراوني »، حاملا معه ثقله تحت ابطه ومتنقلا من مخيم الى آخر ومن خيمة الى قافلة . كان أهل المنامة مقتنعين من انه يوجد بالبلدة نفسها ، ولكنه صار لا يرى بفضل مواهبه الخارقة والعناية الالهية ، ذلك لان الحجر الاسود الموجود في حوزته كان له مفعول السحر ، ويقيه من كل الغوائل .

استقبلت مسعودة تلك اللجنة الحكومية بحرارة وطلبت من رئيسها ان يعتبر نفسه في بيته ، على انها حذرته « ان لي ســـت فتيات عذارى وشريفات ولا اريد ان يضايقهن احد والا فانني سوف اضطر الى قطع رؤوسكم واحدا واحدا والى ارسالها الى حكومتكم بعد ان اضع في افواهكم ما يصنع فحولتكم ورجولتكم . اسألوا زوجة ابني ، انها ادرى مني بمثل هذه الشروح ! » وشعر المتفاوضون بالخوف من ذلك التهديد حتى انهم صاروا يتراجعون كلما قابلوا احدى العذارى ، ويدورون على مبعدة منهن او يغمضون عيونهم ويرتلون تراتيل غيبية ويشهدون الله على براءتهم وعلى صفاء نياتهم وعلى عماهم . وجعلوا يشتكون من ذلك الحمل الذي ينوءون تحته بسبب عيشهم جانب تلك المخلوقات الرائعة دون ان يقوى واحد منهم على امتطائها . ونال منهم الاضطراب والقلق والحيرة بسبب تلك الكوكبة من اجمل نساء البلدة ، فراحوا يفقدون ملفاتهم وكروشهم ودردشتهم . كانوا يشعرون بوله خفيف غير انهم احتفظوا بذكورتهم بمنأى عن كل غواية . ولبث الرعب في اعماقهم فتجرات كلثوم ذات امسية وقد حاق بها السأم والضجر ، فروت لهم ما صنعته أمها بالسينمائيين الاجانب بمروحتها الشخصية . وبدأ المتفاوضون عملهم بواسطة « علاوة الاحمر » المعروف بنزاهته وسنه المحترمة وولعه بالدفاع عن المحرومين وبالصداقة الوطيدة التي تربطه بمحمد عديم اللقب . وقد ساءهم ان يلجأوا الى شيوعي معروف في سبيل ارجاع الحجر الاسود الى مالكيه الشرعيين في رأي بعض المذاهب وغير الشرعيين في رأي البعض الاخر . وبما انهم

كانوا واعين بخطورة الوضع وبذلك النسيان القاتل الذي راحت البلدة ضحية له ، اسكتوا تخوفاتهم ووضعوا قائمة بما هو مقبول وبما هو غير مقبول من بين مطالب محمد عديم اللقب ووافقوا على وضع حد لوظائف الحاكم وعلى حجز املاكه وتحويل داره الفخمة الى ملجأ للأطفال الذين قتل أباؤهم خلال الصدامات المختلفة والمظاهرات وتحت وقع القنابل ، كما وافقوا على تصفية ذلك الجيش المزعوم الذي انشأه ، وتحويل الثكنة الفخمة الى فندق دولي ، وطرد فريق السينما مقابل تعويض مادي ، وقطع العلاقات الديبلوماسية مع ملك خليجية ، وكفى ! اما فيما يتعلق بارجاع بحيرة التماسيح الى الفلاحين الفقراء فقد اعلنوا بأنهم لا يستطيعون التدخل في الشؤون الداخلية لبلد اجنبي ولا انتزاع تلك البحيرة من ايدي الملاكين الجدد ، فقد كانوا اقوى منهم عسكريا وتكنولوجيا . على انهم قدموا اجابة مماثلة بخصوص ضرورة طرد عساكر الجنرال يهودي من ارجاء المنامة ، ذلك لانها لم تكن قوية فحسب بل كانت تستفيد ايضا من تواطؤات يصعب تمييزها بوضوح تام داخل المنطقة .

بعد بضعة ايام عاد « علاوة الاحمر » منهك القوى متهالكا فقد رفض محمد كل حل وسط . كان يتفهم كل الفهم الحكومة المركزية في شن حرب ظافرة على العدو الذي ما انفك يقتبل البلدة برا وجوا ولكنه أصر ان يعيد ملك خليجية شراء بحيرة التماسيح . أو لم يقدم جبلا ثلجيا بأكمله وبمبلغ يقدر بالملايين من السنتيمات كهدية زفاف الى زوجته ؟ وانطلق الاسكافي بوعد على ان تستعاد مياه النيل وتكون لمنفعة الفلاحين الفقراء الذين يعيشون على ضفافه ، ورجع بعد عشرين يوما ، ظن اثناءها المتفاوضون انهم سيموتون من شدة الحرارة ، واهملوا انفسهم شيئا فشيئا حتى اصبحوا يشبهون المتسولين القذرين مشعثي الشعر واللحى . بل حتى رئيسهم المتأنق وقع مقهورا تحت وطأة المناخ والزحار ، المخجل ، الذي ارغمه على الاقامة في المراحيض بدون انقطاع . كان علاوة الاحمر يتأبط الحجر الاسود المغلف في جريدة تقطر عرقا ، واضطر الى الانتظار حتى يخرج المبعوث الرئيسي من المراحيض لكي يسلمه له يدا بيد ، لكن هذا الاخير كان افرغ جسده من الماء حتى انه لم يدرك القيمة التاريخية لمثل تلك العملية الجديرة باحتفال رسمي . واحتفظ محمد عديم اللقب بحذائه المطاطي البراق وظل متواريا . لقد قر رايه على الا يعود الى المنامة الا عندما يغادرها مبعوثو الحكومة حاملين معهم الحاكم والسينمائيين الاجانب والعملاء والجلادين والا

ـ حسبما حدد ذلك ضمن رسالة بعث بها ـ فانــه ســوف يضطر الى الى وضعهم قبالة فصيل الاعدام وينتزع منهم الرغبة في الحياة . وفي نفس العشية طوى هؤلاء الناس المنبوذون أمتعتهم ، طلب بندرشاه ان يقبل ابنته كلثوم فرفضت رفضا قاطعا تلك الرغبة الاخيرة ـ كان يحبها حبا جما بقدر ما يحب بازه يوبا الثاني الذي ـ لوت عنقه ذات يوم من ايام غضبها لانها رأت انه من العيب ان يغذي باللحم النيء المستورد من مسالخ شيكاغو في حين ان هناك اطفالا يموتون من الجوع في المنامة . وازاء هذا الرفض ، ترجى صورة منها ، وكان في نيتها ان ترفض على انها قبلت بالحاح من مسعودة على ان تسلم له صورة صغيرة كدراء تبدو فيها وكأنها زنجية تسخر من مصيرها .

ونظم حفل هائل بمناسبة انطلاق الموكــب المتكون مــن سيارات السينمائيين والعربات التي امتطاها صنائع بندرشاه والطائرات العمودية التي استقلها الوفد الحكومي . وشوهد بعض المناميين وهم يذرفــون الدموع ويلوحــون بمناديــل الوداع للحاكــم السابق الــذي كرهوه كرها اسود . وكان مثــل هــذا التصــرف امــرا طبيعيا لناس مرهفي الحساسية ومستعدين لأن يغفروا هفوات المهزومين حتى وان كان هؤلاء جلادين قساة قبل ان تدول دولتهم وكان آخرون يبكون رحيل الحاكم لفقدانهم فيه اكبر مهرج اضحكهم كثيرا وبدد سأمهم واكتئابهم . لكن السكان كانوا منضبطين على العموم فهم لم يغالوا في اظهار غيظهم والشتائم المتفرقة الذي قذف بها حين انطلاق الموكب كانت صادرة عن طيور الكاكاتويس والببغاء المتعدد اللغات إلفت انتباه المسؤولين لانهم كانوا بدورهم يرغبون في مغادرة جحيم المنامة لكي يستقر بهم المقام في حديقة وطنية او في احدى الحدائق الظليلة للحيوانات بالعاصمة ، وبدت البلدة خاوية صامتة وخفت حالة الهيجان وكف الجنرال يهودي بطلب من صديقه ملك خليجية عن ارسال القذائف نحو الاسوار بصورة مؤقتة وترك النصر في فم كل انسان طعما مرا ، وراح الناس يسيرون على اطراف اقدامهم ويتنحنحون بأخفت صوت ممكن ويتخاطبون همسا ، ويتشاجرون على انفراد . ولم يغادر اصحاب الطيور ولا مالكو الكباش دورهم ـ وكان محمد عديم اللقب يتلذذ بتلك الراحة التي كان جديرا بها ويقضي وقته في تبييض احذيته الشهيرة ، وساد الصمت العميق ، وسيطر الجمود .

ديكورات السينما وحدها التي خلفها اصحابها كانت تشهد بأنه حدثت بالمكان حرب عصابات ضد حاكم مستبد ومقاومة مسالمة ضد عصابة من ماضغي اللبان الذين كانوا يأملون تصوير الف ليلة وليللة من خلال تزييف التاريخ . وشيئا فشيئا ، استعادت المنامة حياتها الطبيعية . واخرج المولعون بالطيور الابرياء اقفاصهم وعلقوها من جديد على شجر الساحة التي اعيدت الى مكانها بعد انصراف مموهي الصورة والصوت ، وكذلك الامر بالنسبة للازمة التي تحولت طوال اشهر عديدة الى روافد تجحف طميا وطينا وللدروب التي حولت الى جنة من الحجر الاسمنتي والورق المقوى ، وبعد وقت من ذلك عمد المتراهنون بنوع من الاحتشام الى الخروج من دورهم لكنهم لم يجلبوا الا ذلك الجنس من الاكباش الذي لا يزال يسمى في العالم اجمع باسم جنس عديم اللقب اي منذ ان عمل محمد على تهجين الاغنام التي استوردها الحاكم من استراليا بمعاز المنامة . واعيد طلاء الماخور باللون الازرق السماوي في انتظار الوصول المفترض للنساء الموشومات واستأنفت الحانات والمطاعم نشاطها المعتاد تدريجيا وفتح علاوة الاحمر حانوته ، بينما عاد رشيد بناصر الى قياساته مستعملا ادوات بدائية لانه كان قد حطم آلات القياس الحديثة خلال تلك الظهيرة التي ادرك فيها بأن السياسة هي حياة كل يوم وان بندرشاه قد شوه هذه الكلمة وجعل منها ارجوحة الموت البهلوانية ونوعا من القفز في الفراغ دون شبكة أمان وانشغل « بوحدبة » ثانية بساعاته الجدارية الصقلية . كان قد فكك ونظف عشرا منها عندما تحول بفعل الاحداث الى ثوري فعال . اما عديم اللقب فبالاضافة الى الراحة التي كان يتذوقها بكل هدوء في داره خلص ذهنه من ضربة الشمس التي اصابته اثناء اقامته بالصحراء . وعاد الى تنظيف اقفاصه والى تلقين الموسيقى لطيور الكاميشي وغيرها التي جاء بها الامازونيون قبل وقت طويل للمشاركة في المنافسة الدولية لغناء الطيور بالمنامة . واستأنفت مسعودة نشاطها الفلاحي ، وجمعت دم العادة الشهرية للاخيرات من الفتيات التوائم العذارى واقنعت در بكل مهارة بأن تعود الى صناعة فزاعات جديدة لان الحرب مع الاعداء كانت قد وضعت اوزارها ولان المفسرين السابقين كانوا قد ملأوا بطون العث وزحف عليهم صدأ الزمن والتهمتهم عناكب النسيان . عاد السلم وبدأ الناس يستنشقون هواء الحرية الذي فقدوا رائحته منذ زمن طويل . وعلى الرغم من قذائف الجنرال « يهودي » التي تعودوا عليها نوعا ما ، فان الحياة تابعت مسارها ، والرغبة في العيش صارت تنفجر في عروق اهل المنامة وفي جشعهم

المتضاعف من اجل العيش عيشة سعيدة . غير ان شيئا ما كان يحول دون اكتمال سعادتهم . فهم لن يروا بعد اثرا للحاكم الجديد وصاروا قلقين على مستقبلهم . ما الذي كان يخفيه القدر في جعبته ؟ ذلك هو السؤال الذي يطرحه الناس جميعا . اتراه سيكون افضل من بندرشاه ام اسوأ منه ؟ وفتحت المراهنات غير ان الرغبة في الحياة كانت تمنعهم من التفكير كثيرا في المسألة والتمعن فيها .

وصل على متن عربة مذهبة اشتريت ـــ مثلما علم الناس فيما بعد ـــ من مخازن الحاجات الثانوية اثناء اغلاق الاستوديوهات الهوليودية مقابل بضع امتار مكعبة من الغاز الطبيعي . واستقبل بالتصفيق . واعادت الجياد ذات المناخر المليئة بالبخار الى ذاكرة مسعودة الواقفة عند عتبة دارها جياد التراجع العربي عن ابواب فيينا ، ذلك التراجع الذي مكن ادولف بينهورست من ابتكار حلويات « الكرواسا » الشهيرة . واعترف الساعاتي الذي كان منهمكا في معالجة الساعات الجدارية بأن الجياد الاصيلة الشقراء استرعت الانتباه اكثر من الحاكم الجديد .

لم يكن مظهره يسترعي الانتباه لكنه كان اطول بحـــوالي عشرين سنتيمترا من والد كلثوم . واعلنت مسعودة قائلة : « هذا دليل على ذكائه » اما « حديقة » سادسة التوائم ، والثالثة في سلم العزوبية فقد اكدت انّه كان من الافضل الاحتفاظ بذلك المتفاوض المورد الخدين الذي وقعت في غرامه دون ان يدري احد . واجابها « حامد » ثالث التوائم بأن الحاكم الجديد يبدو كأنه مخنث ومن ثم فهو غير شريف . وغضبت الدر من هذا الجواب ، فغادرت الطاولة واخذت قولة سليفها على انها مساس بكرامة النسوة . اما الشعب فقد كان ينتظر ان يحكم في الامر عن كثب كان يريد معرفة الطريقة التي سيستخدمها هذا المسؤول الجديد لتخليصهم من كشافة المستر براون الذين يسيرهم الجنرال « يهودي » بكل حذق وكانوا يتساءلون ايضا عن الشخص الذي سيلجأ اليه الحاكم لاستخلاف السيد « بربي » في منصب البراح العمومي . واخيرا اراد معرفة القرارات الحكومية الاولى ولم يطل انتظارهم . اولا منعت النساء من تربية دود القز تحت سراويلهن وضجت العشيرة الانثوية لآل عديم اللقب من الفرح . اما كلثوم فقد ارادت ان تعبر عن فرحتها فتجولت عارية في الدار واوشكت أن تغتصب من قبل « حميد » الذي لم يكن قد سلا حبها بعد فهددته بمروحة

امه التي التقطتها اثناء تراجع الاعداء السابقين فرقعت مسعودة بحمالة صدريتها من الفرح وهي التي طالما منعت بناتها من تلك الممارسة التقليدية . وهمهم اغلبية رجال المنامة من الغضب ، الا ان عديم اللقب الذي كانوا يعتبرونه نبيا منذ ان سرق الحجر الاسود دون ان تنزل عليه صاعقة الله ، شرح لهم بأن الحاضنات الكهربائية سوف تحل اثناء توصيل الكهرباء في المستقبل محل النسوة اللائي يمكن استخدامهن بعد ذلك في انتاج ثروات اخرى . وهدات الضجة . ثانيا : اتخذ قرار بارجاع الحوض الياباني الموجود في بيت الحاكم السابق الى ما كان عليه أول مرة وتحويله الى مسبح بلدي مفتوح للجمهور . وتبادل اهل المنامة النظرات وقد احرجوا . لم يكن احد منهم يحسن السباحة . وعلق محمد عديم اللقب بقوله : « هذا اول خطأ يرتكبه الحاكم . خطأ اخر وتثور العاصفة » . ثالثا : قرار بعدم فتح الماخور لاسباب اخلاقية ووقائية وسكت العزاب والداعرون والاعناء على مضض . وتنهد محمد وقال : « لو حولوه الى مكتبة عمومية لكان الامر افضل » على ان الماخور لم يكن محل قرار ذلك لانهم حولوه الى مخفر للشرطة للسهر على امن المواطنين وراحتهم . رابعا : قرار بتأميم محطة البنزين والقط الابيض الذي لا يزال يحرسها منذ اغتيال معمر القرية وكذلك ممتلكات بندرشاه . وتبودلت التهاني . اما شجرة الدر التي اعربت عن استنكارها اثر صدور القرار الثالث ، فقد صفقت ايما تصفيق . وانتشى الشعب ، واعلنت مسعودة بأن الحاكم شخص جميل اذا نظر اليه المرء عن قرب ، خامسا : قرار بضم حدائق المنامة داخل تعاونية جماعية ذلك انه لم يكن في المستطاع انجاز اصلاح زراعي بسبب نقص الاراضي . ووقعت مسعودة مغشيا عليها . وعندما افاقت من غيبوبتها ، كانت قد فقدت صوتها للمرة الثانية ، وأدارت عينيها في محجريها مثلما فعلت ذلك عند موت « عتيقة » . وتجمدت اوصال العائلة ، ورات في الامر مكيدة مدبرة ضد عشيرة عديم اللقب التي ندد بها الامام منذ ان تجرات على الاقتداء بالقرامطة وسرقة الحجر الاسود الشهير من مكة . وادى محمد زيارة للمسؤول الجديد الذي استقبله بكل ترحاب ، الا انه رفض رفضا قاطعا ان يتنازل عن قراره على الرغم من الحجة الدامغة التي قابله بها . « انها مجرد قطعة ارض سقيناها بدمائنا » وفهم الحاكم بأن الامر يتعلق بصورة مستعارة حلت محل كلمة العرق. غير ان محمدا لن يجرؤ على اطلاعه على وصفة والدته . « ليس هناك ما يمكن تأميمه هنا حتى الامام نفسه تقدمي » ورجع الابن البكر لعائلة عديم اللقب بخفي

حنين . ونصح الساعاتي بأن يأخذ الكل باسباب الهـدوء والصفاء . فالمسألة ليست اكثر من حماس لموظف شاب سوف يدرك الحقائق بسرعة. واقره محمد على قوله . فالقرامطة هم الاخرون ، امموا كل شيء ، ولكن لم تكن لبلاد ما بين النهرين علاقة على الاطلاق بالهكتارات الثلاثين من الارض الفقيرة التي تمتلكها حوالي مائة عائلة من البلدة . حينذاك ، ثابت مسعودة الى رشدها . واقنعوها بأن لا خطر هناك وجاء « علاوة الاحمر » ذات مساء وتناول العشاء دون ان يدعي الى ذلـك . كانت شواربه تهتز فرحا . وحين انتهى من العشاء شرح القـرار الخامس الذي اتخذه الحاكم . وقال بأن المنامة سوف تستقبل بموجب ذلك القرار رئيس الدولة عما قريب لانه تأثر ايما تأثر لفضائح بندرشاه وتصرفاته . ورغبة منه في اظهار مزاياه ، قرر المسؤول الجديد ان يؤمم كل ما هو قابل لان يفلح لان الاصلاح الزراعي كان على اوجه في باقي البلاد ولكن ما هي الانجازات التيينبغي عرضها امام المسؤول الاول في البلاد ؟ أهي تلك البساتين الجماعية؟ «هذه هي السذاجة عينها ، دعوه يزور الامكنة وسوف ترونه » واعلن الحاكم نفسه محاطا بمساعديه الذين خرجوا لتوهم من جامعة العاصمة بأن الزيارة سوف تبدأ في اليوم التالي. وصل في الموعد بالضبط . واندهش باشجار المشمش الثلاث وشجرة الزعرور واشجار دوار الشمس الخمس الهائلة والمربع الصغير من البقدونس والكزبرة . فقد كان يتوقع ان يرى واحة . واغاظ الامر مساعديه واحجم الجميع عن تأميم تلك القطعة الصغيرة من الارض . حينذاك ، استعادت مسعودة قدرتها على الكلام وانشغلت بالامور الجوهرية . وعندما عاد « مهدي واعي » الى مكتبه الغى القـرار الخامس . غـير ان واحدا من ملاكي اصغر واتفه حقل للخضراوات بالمنامة جعل يضج بالشكوى . فهو يرى بأنه لا يمكن التراجع عن القرار المبدئي . ويعتبر ان حقله ذاك اصبح ملكا للدولة ، وما كانت هناك اي حجة لتهدئته . والحقيقة انه كان محبا للظهور ، يريد ان تنشر صورته الى جانب صورة الرئيس بمناسبة حفل التسليم الرمزي للعقود العقارية وامام صلابة الحاكم قرر ان يدفع شكوى الى المجلس المختص في بحث الخلافات والذي كان قد نصب مؤخرا وما جاءه من جواب وانتظر ساعته . وانتابته حالة من الصمت المطبق حتى ان الناس تخوفوا على توازنه العقلي .

وصل المسؤول السامي على متن طائرة رئاسية حطت على حلبة

تناطح الاكباش بالمنامة . وكانت الجماهير في ذروة الهذيان فتمكنت من كسر حواجز الشرطة الضعيفة خاصة وان اعوان الشرطة حديثو التعيين . وقد كان صاحب الحقل الذي آلمه ان يعاد النظر في مسألة التعاونيات الجماعية واقفا في الصفوف الامامية منذ الفجر الباكر ، وكان حاملا عصا طويلة ترفرف في قمتها شكوى خطها معلم البلدة خلال الليلة الفائتة . وقد الح فيها على ان يتكرم رئيس الدولة بتأميم حقله الذي تبلغ مساحته ١٥٠ مترا مربعا . وبما انه لم يكن يستطيع ان يقترب من ضيف المنامة المحترم فقد وجد حيلة لنقل فكرته . وهكذا ، عندما مرت السيارة الرئاسية قبالته حرك عصاه بكل قوة فبلغت الرسالة غايتها . وقد تأثر الرئيس عند قراءته لها بكرم هذا المواطن فأدرك ما وراء شكواه ، فأخذ صورة معه في حديقة الحاكم السابق التي كان من المقرر ان تحول الى ملجأ للأيتام . وغمر السرور صاحبنا هذا وظهرت صورته الى جانب الرئيس في صحف العالم اجمع وحصل على مبلغ قيمته ٢٠٠٠٠ دينار . حينذاك علق محمد عديم اللقب : « ها نحن نسقط من جديد في تلك الممارسات المخادعة التي تزخر بها الف ليلة وليلة » فنظرت والدته اليه من عل وقالت : « اعلم تمام العلم انها غلطتي ان كنت قد ولدت وحيدا منفردا ، ولكن لا تنس بأنك سرقت الحجر الاسود ، عليك اذن الا تمس رئيسنا بكلمة سوء » . وآثر محمد السكوت . ولم يرد ان ينغص عليها بهجتها بعد ان فرحت ايما فرح بخلاصها من التأمم في آخر لحظة . وفي خضم سعادتها استعادت مشروع انهاء الطاحونة . ولم يكن امام ابنائها الا ان ينفذوا اوامرها . فقد كانت تطعمهم وتأويهم وتنظف ثيابهم ، وتعطيهم مصروفهم اليومي ولكنهم كانوا لا يعرفون ما يفعلونه بتلك النقود منذ ان تقرر اغلاق الماخور خلال المدة الاخيرة . وهكذا نسوا الحرمان الجنسي وراحوا يعملون كبنائين حقيقيين . وحامت مسعودة حولهم ، وذبحت دجاجة سوداء طهرت بدمها ارضية البناء . كانوا بصدد بناء هياكل الاستناد حين نقصهم السلك الحديدي اذ كانت البلدة تعاني من نقص في مواد البناء ، فتوقفت الاشغال غير ان دوار الشمس واصل جنونه وجعل يضخم الفضاء باستدارة زهوره وارسلت مسعودة البقدونس الطري الى الحاكم ، غير انـه رده اليها بحجة انه يرفض الرشوة من اي كان وقالت لها الدر: « ارسلي اليه بكبش وسوف ترين بعد ذلك » غير ان الام فكرت في ذات نفسها بأنه يمكنه الانتظار ما طاب له ذلك ، واذا ما تعنت في كبريائه فانها سوف تجد له النقيصة التي يخجل منها . كان ذئبا فتيا يعد نفسه لمهنة ينجح فيها . وكان يطمح الى ان يصير

وزيرا للري في يوم من الايام . وكانت المنامة ونقص الماء الازلـــي فيها يمثلان فرصة رائعة بالنسبة لكل من يريد ان يستعرض كفاءاته ويفتح امام نفسه طريقا الى المجد . كانت مسعودة هذه العجوز الداهية ، تنتظر ساعة افحامه . لكن الساعاتي الذي راح يتعلل بكثرة العمل وبعجالة المهام لكي يتخلص من واجب الزوجية قال لها : « دعيه وشأنه » . كل الانظار مصوبة نحوه تترقب زلة . صارت المنامة مركز البلاد ، لن يستطيع ان يمسنا بسوء « اما الشعب الذي استبشر بعبير الحريـــة الذي صار يستنشقه فقد تناسى بأن الزوجات لم يعد لديهن الحق في تربية دود القز في سراويلهن . وقال احدهم بدهاء « لن يبلغ بهم الامر الى ان يأتوا لالقاء نظرة على ما في الداخل » غير انه كان مخطئا . فقد انشأ الحاكم فرقة من مفتشات الاعضاء الانثوية للبحث فيها عن دود القز والشرانق وما شابهها من الحيوانات واتضح بأن الناس كلهم يمارسون التلبس والغش . فتهاطلت الغرامات ، لكن احدا لن يدفع مستحقاتها . وبأي شيء يتم الدفع يا ترى ؟ غير انهم تحايلوا على القانون ، فلأي شيء خلـــق الله الآباط ؟ لقد اعطى الله اثنين منها لكل انسان فليعمد الى استخدامها . وما اسرع ما تقوس دود القز في تلك الرائحة الناعمة للتجويفات الوبـــرة واحجمت النسوة حينذاك عن انتزاع شعر الاباط ولم يـــرد المسؤولون شيئا . ويا لذلك الماكر الذي نزل ذات صباح بالمنامة حاملا معه حاضنة كهربائية ضخمة لدود القز ، لقد افلس المسكين في ظرف يومين . فقد كانت تلك الحشرات في مكان اخر ، فصرف النظر عـــن صناعـــة الحرير الالكترونية وظل حرير المنامة طبيعيا واحسن حرير من نوعه في العالم . ومن الصحيح انه كان ذا رائحة خصوصية ، تتأرجح بـــين صابون مرسيليا وجزوات النعاج خلال الصيف . ضحك محمد عديم اللقب على نهاية تلك المغامرة التي اقدم عليها ذلك الصناعي صاحب الحاضنة الكهربائية وفكر في مؤسس البلدة الذي لم ينجح كبير نجاح هو الاخر في ساعاته المائية التي تشتغل بعرق الجباه وفي ساعاته الملحية . وما حدث ذلك الا لان المنامة كانت على مفترق طريقين : طريق الملح وطريق الذهب . واصحاب القوافل الذين كانوا ينقلون الملح والذهب كانوا ماكرين جدا فلم تنطل عليهم فكرة تلك الساعات .

لم يكونوا في حاجة اليها ، لانهم كانوا اذكياء يحددون الوقت بالنظر الى النجوم ويسرقون أوقيات من الذهب ويضعونها داخل انابيب جلدية

ثم يقحمونها في شروجهم وكانت مراقبة ناقلي الذهب خلال القرن الثالث عشر تتمثل في اجبار اصحاب القوافل على التغوط ، ومن ثم فان كل من كان لا يستطيع ذلك او لا يريده يفصل رأسه عن جسده في عين المكان . اما الذي يتغوط ذهبا فيلقى القبض عليه . ولم يكن مؤسس المنامة على علم بتلك الاشكال من التهريب وبذلك الصراع المستخفي بين المالكين والمشرفين على نقل الذهب . وعلى الرغم من قرارات « مهدي واعي » فقد استمر الناس في صناعة الحرير بالطريقة التقليدية . والحقيقة ان اهل المنامة كانوا متعنتين . وقد نزلت زهرة بندرشاه من نفس العربة التي اقلت ذلك الصناعي الذي جاء لادخال الآلات المصنوعة في فرانكفورت . علمت زهرة بندرشاه برحيل زوجها المخزي فقررت ان تعيش بجانب ابنتها . وهكذا استأجرت كلثوم دارا قديمة قبالة دار عائلة عديم اللقب واستقرت بها مع والدتها . واستطاعت ان تهدي لها مروحتها التي فتكت بالعديد من الفراشات وغيرها من الحشرات الليلية الاخرى والتي سحقت الذكرين الاجنبيين الهائلين وكانت بمثابة سلاح لردع « حميد » حينما اراد ان يغتصبها ذات يوم لانها اغرقته بانوثتها الرائعة . على انها شعرت بالذبول وهي لن تتجاوز العشرين عاما واستمرت في الاخلاص جسدا وروحا ، لذلك الابهام الذي يسبح في محلول الهوى . اما والدتها فقد كست وجهها مسحة شفافة من نور ، وبرز جمالها ثانية كأنما بمفعول السحر وكشفت عن وجهها امام الجميع . لقد تركت الحجاب يسقط عنها حينما فقد زوجها الذي راح يقضي حياته في عزلة هنيئة ولم تلبس كلثوم الحجاب ابدا على غرار « ليلى » التي انقطعت اخبارها منذ ان ارسلت للتفاوض بغية شراء الحجر الاسود وقد زعمت بعض الاخبار بأنها صارت من السمنة حتى انها لا تنتقل من مكان الحريم الى مكان آخر الا بمساعدة زنجيتين هائلتين . وقد شوهها الشره . ولم يخدمها الرقص في اي شيء ، وقد تخلى عنها الملك بعد ان ارتوى بطراوتها والتهم استدارات جسدها الرائعة ، ووقع في احضان محظية جديدة لم تصمد طويلا هي الاخرى . وهكذا تركت وشأنها بحراسة امراتين مرعبتين مزودتين بأسياف حادة معقوفة ، وارخت العنان لنفسها ولن تعد تستغيث بأحد وبعدت الشقة بينها وبين زمن الرقص التصويري ، وصارت « سيدني » عبارة عن سراب . وانتفخ جسدها الذي كان رائعا فيما مضى بمقاييسه المذهلة واطرافه المتناسقة المدورة واقعدها انتفاخها عن المشيء واقلعت عن مراسلة اهلها في تلك الفترة اي عندما كان يرسل اليها والدها برقيات بالشفرة ولا يحصل منها على اي جواب . كان الملك

بالغ المكر وممارساته السرية تمكنه من التصرف على هواه دون ان يعلم به احد . وقد ظلت علاقاته بالمستمر براون سرية ، مثل علاقاته بالجنرال « يهودي ». وكانت الاقاويل تنطلق من كل جهة وتختلط بالحقائق. ويتزلق الحلم على سكة الواقع المرير لكن كل الاوراق كانت مغشوشة والحقيقة تموج في صفيق . وصارت مأساة « ليلى بندرشاه » في حكم الماضي . وانتهى الامر بالناس الى ان يحسبوها ميتة ومدفونة منذ زمن بعيد . على ان والدتها التي لم تعش بالقرب منها وقتا طويلا كانت تستعيد ذكراها بين الفينة والاخرى وترسل دموعها بعض الوقت قبالة المروحة التي لم تكن لتفارقها ابدا . ووعدتها ابنتها بأن تزرع لها امام نافذة غرفتها دوار شمس خارق يمكنها من الاستغناء عن هذه الالة القديمة الصاخبة والتي تشكل خطرا على الفراشات المسكينة . وقد الحت على ذلك لا سيما وانه كثيرا ما كان ينبغي تغيير بطارياتها التي لن يكون من المؤكد العثور عليها في سوق التهريب الشهيرة المهددة غالبا ببعض النقص في المواد . وكانت فكرة زرع دوار شمس سحري هي الحل الصائب وأبدت مسعودة استعدادها لتقديم التركيبة وطريقة استخدامها . وعمدت خلال ذلك الى القيام بالخطوة الاولى ، وهكذا ، ودون ان تخطر احدا ، قامت ذات ظهيرة محرقة بزيارة شقيقتها بالرضاعة التي لم تلتق بها منذ ان تزوجت في نفس الفترة تقريبا . وكانت احداهما من نصيب حمال والاخرى من نصيب براح ماخور يحمل اسما مليئا بالوعود « القمرة المنفرجة » لقد تم رهنهما لاول قادمين لأن عائلتيهما تلقتا ضربات الحرب العالمية الثانية وأفلستا في نفس اليوم .

لم تكن الحياة في الساحل سهلة دائما ولكن الطقس فيه كان رائقا. على ان مسعودة عديمة اللقب وزهرة بندرشاه اللتين نشأتا معا في بيتين متجاورين ورضعتا نفس الحليب زادتا في الطين بلة عندما جعلتا تضخمان ثروات عائلتيهما ، وتسهبان في الحديث عن فخامة الاثاث وروعة الزرابي وعدد الخدم وجنون الجنائن المزهرة والسطوح المكلسة بالازرق النيلي المطلة على بحار العالم كلها ، والمرايا التي تغطي الجدران والمستوردة من البندقية والاواني الفضية التي تلمع كل يوم والغرف المظللة الصامتة والنوافذ العميقة تنسدل عليها ستائر من التول والهفهاف المتلاشي والروائح المختلطة بالعنبر والصنوبر والشمعدانات الذهبية المنقوشة في الموزمبيق، والثياب المهفهفة ولحى الاباء الوقورة المعطرة بماء الـــورد ، والاسرة المصنوعة من الحديد والارائــك المحشــوة بريش النعام وناموسيــات الموسلين ومصاحف القرآن ذات الاغلفة الجلدية القرطبية ، وبســط طشقند والالات الموسيقية التي لا يلمسها أحد قبل ان يتوضأ ، وحلي فاس وجاوي اسلام آباد ، وروعة النسوة الصامتات المتراخيات اللائي يدعن الزمن ينساب من بين اصابعهن كما لو كان ماء مقطرا . ولم تكن مسعودة وزهرة بندرشاه لتعجزا عن المبالغة في تلك المباهاة ، وبعــد فترة طويلة ، طويلة ، أي عندما عمد محمد عديم اللقب الى تزويج التوأم الاولى من شقيقاته تذكر تمجيد هاتين الاختين .

ولم تكن هاتان المرأتان تتحدثان عن الازمة التي القت بعائلتيهمــا على الهامش وعجلت زواجهما برجلين لا ينتميان الى مكانتهما الاجتماعية. عامل بسيط في مصنع للورق من جهة وبراح في ماخور من جهة اخرى :.

على ان مسعودة لن تأسف لشيء ، فقد غمرها زوجها بأن خلق لها تسعة عشر طفلا ومبلغا من المال تأخرت مصالح التأمين عن دفعه ومنحة ضئيلة مكنتها من شراء الحبوب التي تحتاجها حديقتها . وزهرة هي الاخرى لم تندم على شيء ، ذلك لان زوجها لم يعد متعجرفا الا حينما عين حاكما وذاق هوس السلطة . اما قبل ذلك — فيما تتحدث هي عنه — فكان يعود الى الدار مبحوحا لشدة ماضج بعقيرته كالمجنون خلال يومه ذاك . وكان يخلد الى الهدوء ويقوم بصلواته ولا يقلق احدا . بل انه لم يكن يقوى حينئذ على الاضرار حتى بذبابة . السياسة هي التي جعلته مجنونا ،فلم يكن معتادا عليها . لقد وقعت على أم رأسه من حيث لم يكن يحتسب وتغير بين عشية وضحاها وصار يؤثر جراء البحر بعد ان كان مغرما بالسردين المشوي . يا لتلك النقلة ، ويا لها من سنة لعينة ، وعلى اية حال ، لقد ضربت المراتان صفحا عنها . مع انها كانت سنة زواجهما . اما زهرة ، فعلى العكس من ذلك ، كانت تزعم بأن طعم الحليب الذي رضعته من ثدي والدة مسعودة لا يزال في فمها . يا للاعجوبة لم تكن ترفع اطفالها فحسب بل كان الناس يأتون لينظروا اليها وهي ترضع اطفال النساء المريضات واللائي جفت اثداؤهن او ذوات النهود الضامرة وكانت والدة « زهرة بندرشاه » تنتمي الى النوع الاول . كانت رهيفة حتى انه كان من الممكن رؤية شفافية عظامها من خلال بشرتها . وكانت رخوة حساسة الانف والرئتين . يمكن ان تذروها ارق النسمات لذا وجب ربطها بالحبال الى سريرها حتى لا تقفز فوق سطوح العالم التي كشطها توالي القرون وقشرتها رياح الكون . وهي بذلك تنبي عن تعب اعتق منها وكانت عيناها السوداوان الكبيرتان اللتان تلتهمان ما تبقى من وجهها الصغير هي كل ما يعبر عن واقعيتها . وبعد سنة من موتها ، كان الوالد قد افلس فتخلص من ابنته الوحيدة بأن زوجها بهذا « البندرشاه » الذي يجهل مدخولاته المشكوك فيها . على انه حين ادرك الحقيقة بعد وقت طويل لم يقل شيئا سوى تلك النبؤة التي تأكدت صحتها بعد سنوات قليلة : « انه من بذرة المحظوظين .. سيأتي يوم يصبح فيه رئيسا » .

اما والد مسعودة فقد ازدهرت تجارته ببيع قماش « البركال » و « الرياش والكتان المزفت والحبال المتينة وشباك خاصة بالصيد على ضوء المصابيح التي تجتذب الاسماك بل وحتى رياحا للسفن الشراعية

كان يشرف على حانوت والده الذي ورثه أبا عن جد بدءا من مصطفى قرحاني » القرصان الشهير ، صاحب الساعات الجدارية التسع عشرة. وكان هذا الاخير بعد ان احيل على التقاعد قد فتح دكانا في ميناء العاصمة. وقد اغلق هذا الحانوت بعد قرنين من ذلك التاريخ بسبب الافلاس . وفي تلك الظهيرة اللافحة ، فتحت المراتان قلبيهما وتسارتا وتبادلتا قبلا رنانة اخرها القدر زمنا طويلا وتلفظت كلاهما بعبارات الحب والتقدير . وقد شهدت كلثوم ذلك اللقاء التاريخي الذي لن تنساه ما حيت وهي التي تعلم انه ليس من الممكن الاحتفاظ بدون أي عقاب بابهام رجل داخل ابوقال من « النورمول » الى انتهاء الاول .

بدأت منذ ايام قليلة تسير ، يحدوها الشعور بأنها توشك ان تخطو برجليها في الفراغ وبأنها لن تتمكن من التحرك دون الاستناد الى الجدران والاثاث والزوايا وكأن لها هوائيات شاحبة لا مرئية كتبت لها في لب بوتقة حنانها . كانت تحس بأنها تزداد خفة على مر الايام عابرة سبيل تتسم بالخفة ، مستلقية على مطارح الرخاوة والكسل معا واصبح حس الاتجاه لديها يلعب لها بعض المقالب ، وادركت فجأة انها قادرة على التجول مغمضة العينين في اي زقاق من العالم الكبير دون ان تسترشد بأحد كانت تتزحلق على مخاوفها مثلما يفعل الاطفال بمزالجهم وقد نبتت لها بين الاصابع زهيران صفراء بلون الزعفران . وعبثا كانت تقطعها كل صباح وتضعها في مزهريات الشجن لكنها ترشم من جديد خلال الليل بانتظام ومواراة مثلما نبتت لها في الماضي تلك الجزوة الجنونية تحت ابطيها . وكان ثقلها يخف دون ان تفقد وزنها ويعتصرها القلق خشية على عباد الشمس الذي وعدت ان تغرسه امام نافذة غرفة امها . وقد قيل في هذا الموضوع بأنها فقدت طلاقة لسانها وشيطنتها وعنفها وانها لست قعر بليتها منذ الانتصار السياسي الذي حققه اهل المنامة ، على انها قد تستعيد عن قريب طبيعتها وبسرعة البديهة الخارقة لديها . ولكن لم يحدث ابدا شيء من هذا القبيل ، بل صارت خجولة حساسة تتلعثم في كلامها . ولهذا السبب ، فقد مر وقت طويل قبل ان تطلب تركيبة دوار الشمس من مسعودة التي لم تكن ترفض لها طلبا . صارت تعبدها الان ، في حين انها لم تكن تحتملها قبل خمس سنوات لانها رفضت ان تتركها تستولي على ابهام ابنها ، ذلك الابهام الذي كان الى جانب ذلك دليلا مخجلا على جبنه . وبعد مضي زمن طويل ، طويل .

تذكر محمد عديم اللقب اثناء تشييع جنازة امه ، ذلك اليوم الذي غرس فيه دوار الشمس بطريقة طقوسية في دار زهرة وكلثوم بندرشاه. ومسعودة التي لا تفوت فرصة لابراز مزاياها والتغنج حول الاشياء اخذت بزمام الامور تدفعها رغبة شديدة . فجمعت كل افراد العائلة . واستعملت دم « سمكية » الندي اصغر بناتها فقد حل اليوم العشرون من الشهر — ومزجته بماء ينبوع مقدس ، خارج المنامة ، وذرفت تسع عشرة دمعة على التربة التي كومتها حول النبتة الفتية ، ورتلت تعاويذ بلغة غريبة تلك التي تلفظ بها ابنها البكر يوم ولادته والتي لم يتمكن احد من فك طلاسمها الى اليوم ، سريانية ، آرامية ، عربية ، بربرية .

ونبت دوار الشمس بقوة الاعصار في ظرف ليلة . وفي اليوم التالي بسط ظلال وروده الهائلة على البيت ، وراح يتحرك فيبرد الغرف احسن من مكيف هوائي . والقي بالمروحة الى المزابل ، فالتقطها بائع خردوات. وقد بلغ سعرها بعد ثلاثة قرون من ذلك التاريخ سعرا خياليا خلال بيع بالمزاد العلني بقي مشهورا في حوليات التاريخ . ويمكن فهم هذا السعر المذهل اذا عرفنا انه استعمل كسلاح حربي عم الناس استخدامه ومكن النساء من حماية انفسهن من الهجومات الشبقية للذكور الذين لا يعرفون امساك فحولتهم . لقد تبدلت الازمنة وبدلا من ان تعمد النساء الى اخفاء وجوههن والتهرب من مسؤولياتهن وراء حجب الغياب والانزواء صرن يشهرن تلك الالات القادرة على تفتيت اقوى الاعضاء .

وفي الوقت الذي كانت فيه كلثوم تذوب بتواضع ، بر الحاكم بوعده في تحويل مقر بندرشاه الى ملجأ شعبي للايتام ، وتم التدشين في جو من الفخفخة ، لكن سرعان ما برز مشكل خطير امام رئيس البلدة الجديد .

فالمناميون الذين تعودوا في ظل نظام بندرشاه على التحايل والاحتيال والاستهزاء والمراوغة والغش في العاب الدومينو او في الرهان على الاكباش على حد سواء وجدوا ان لكل واحد منهم يتيما او عدة يتامى . وقد كانوا في واقع الامر يطمعون في الاستفادة من تلك الفرصة الفريدة والتخلص من اطفالهم بوضعهم في الملجأ . وقد كان من اليسير عليهم ان يستخرجوا شهادات وفياتهم او عقودا مزيفة تشهد على وفاة زوجاتهم حين الوضع . وهكذا ، لم يعد بالمنامة سوى الايتام . واخلى الاباء

السبيل ، تاركين زوجاتهم يتصارعن من اجل الحصول على مكان او على عدة امكنة في ذلك القصر الرائع الذي بناه بندرشاه خلال تنصيبه . والا فان النساء هن الذين كن يقمن بدور الاموات ، وفي هذه الحال ، كان الازواج المنكوبون يتضرعون حتى يتم التكفل بشؤون هؤلاء الاطفال المحرومين من عطف امهاتهم الذي لا يعوض ، وهجر النوم اجفان الحاكم.

كان صف الطالبين يمتد ، حتى ان الاخيرين منهم كانوا يوجدون خارج اسوار المنامة ضمن سلسلة لا تنتهي . وبما انه لم يكن هناك سوى ثلاثمائة مكان ، فان السلطة المدنية قررت اللجوء الى القرعة . وكان اهل المنامة مولعين بالقمار ، والعاب النرد والمراهنات فقبلوا ذلك القرار بروح رياضية . ولم يكن هناك يتيم واحد من بين الاطفال الذين وقع عليهم الحظ ، ولما انتهش الندم الغشاشين الذين اسعفهم الحظ قرروا ان يتبنوا الايتام الحقيقيين حتى لا يفقد احد ماء وجهه .. ما عدا المعلم ، فقد ندد بتلك العملية المكلفة والدعائية في حين ان المدرسة كانت في حاجة الى المقاعد لان التلاميذ كانوا يأتون بها في الصباح ويصطحبونها معهم في المساء ، وعلى العكس من ذلك ، لم يجتذب المسبح الا عددا قليلا من الناس . وقد تقدم خمسة مراهقين وتجرأوا على القاء انفسهم داخل الماء كانوا في مجموعهم من ابناء الشخوص الثانوية المساكين الذين غرقوا اثناء تصوير مشهد المدينة المائية قبل بضعة شهور . وبما ان تلك العملية لم تكن مربحة ، ونظرا لنقص الاسماك في البلدة فقد انتهى الامر بالسلطة الى تحويل المسبح الاولمبي الذي بناه بندرشاه قبل ان يتعلم العوم الى حوض لتربية الاسماك واخذت البلاعيط تحطم الارقام العالمية في السباحة ، وذلك حتى تقوم بشيء ما داخل ذلك الحوض الهائل . على ان المشكل الحقيقي كان يتعلق باغلاق الماخور . اذ انتشر البغاء في الازقة وعجزت السلطة عن الحد منه . وكانت النسوة يطاردن الزبائن في وضح النهار ، ويلجأن الى حمل طفل رضيع معهن يستعيرونهن من ربات العائلات المتعددة لتمويه رجال الشرطة وآل الوضع في هذا القطاع الى تدهور متزايد . وجن جنون الحاكم فطارد كل النسوة اللائي يحملن رضعا واتهمهن بالتعهر في الطرق العامة . على ان الجانيات الحقيقيات قد اخبرن عشية الكبسة ، واخذن احتياطاتهن واختفين في حين ان ربات العائلات المحترمات وجدن انفسهن جالسات في محكمة جنح التلبس بالجرم المشهود . فاقمن الدنيا واقعدنها ، وشتم القضاء شتما

لاذعا وخربن البناية عن اخرها فاضطر الحاكم انذا كالى اطلاق سراحهن مع اعتذاراته . وبعث يطلب محمد عديم اللقب لنجدته : « أنت الـــذي ولدت هنا ، قل لي ما الذي ينبغي علي ان افعله انني لم أر شيئا مماثلا في اي مكان اخر . يستحيل ان تكون هذه بلدة ، انها ملجأ للمراوغين المتحايلين » .

تعاطف معه محمد عديم اللقب ، حقا ، كان في وسعه ان يؤاخذه على طموحه السياسي وجشعه الذي لا ينتهي ، غير انه باستثناء ضعفه هذا كان يعترف له بنزاهته وبارادته وبقدراته على العمل الدؤوب وواساه بقوله : « الخطأ لا يعود اليك . تنظيم الدولة امر صعب جدا . اعـــد قراءة ابن خلدون اذا لم تقرأه بعد سوف تفهم بعد ذلك . اننا نعاني من وطأة سبعة قرون من الانفصام ان لم اقل عشرا ذلك لان الدولة في هذه المنطقة كانت قد انفجرت اثناء ضعف العباسيين . وانت لا تستطيع ان تقفز عشر قرون في ظرف عشر اسابيع» وانهمك الحاكم في دراسة كتابات المؤرخ اذ لم يسبق له ان قام بذلك ولم يفهم ما قاله محمد الا بعد ان فرغ من المطالعة . فما زال محمد عديم اللقب محل تقدير اهل المنامة بسبب خوارقه وحيله وشجاعته وكبريائه . وقد ظن « مهـــدي واعي » اثناء مناقشاته الاولى مع محمد ان محدثه ذاك مجنون . فما علاقة العباسيين بقرار ولائي لغلق ماخور ؟ وبينما كان الحاكم يستوعب دروس العالم باندهاش متزايد على مر الصفحات ، استأنف محمد عديم اللقب بحثه عن البيـــت الذي قضى فيه ابن خلدون اربع سنوات من حياتـــه .

ومن جديد ، عاد ابن مسعودة البكر الذي بدأ شعره يتوشى بخيوط بيضاء يذرع البلدة عشرين مرة في اليوم الواحد ، واستعاد خوارقه لكي يجد طمأنينته : وهكذا منع ظله من ملاحقته مرة ثانية ايا كانت الساعة .

وتحدث الى عصافير الدوري بتلك اللغة المبهمة التي نطق بها يوم مولده وقدم لها غذاءها اليومي واستأنف دروس الموسيقى مع الطيـــور ذات السلالة الرفيعة مثل الكاميشي والكناريا وطيور الفردوس والقبرات ... وعاد الاتصال بجده محتسيا ما يكفي من النبيذ وهم نفسه بأنـــه موجود امامه وبأنه يتحادث معه في فناء الدار في الصباح الباكر مذكرا اياه دائما بتلك الجملة التي لن ينساها : « تأمل جيدا في ما هم قادرون على القيام به واياك ان تقول بأن الجواد العربي الاصيل احسن من كـــل

شيء » وناجى اباه حول انتحاره واستفسر منه اذا ما كان على اطلاع بظروف موت الجاحظ . وكسر ضحك الاطفال وقوقعة الدجاج وجعجعة الرحى . وابصر بالمنعطفات تمتد في خطوط مستقيمة وتتداخل بالافق كلما اقترب منها . وذرع المنامة جيئة وذهابا في البحث عن مؤشرات واثار ودلائل قد ترشده الى المكان الذي استقر به ابن خلدون لان زوجته كانت تسخر منه كلما طلب منها ان تفضي له بالسر وتقول فجأة : « الافضل ان تتصرف كالشيوخ لماذا تقلق هكذا ؟ سوف اقول لك السر حين يحين وقته . لا تشغل بالك .. » وبما انه لم يعد يحتمل الانتظار ، فاجأ نفسه وهو يرهب المنعطفات التي بمجرد ان تراه تمتد في خط مستقيم صارم . وما كان ذلك ليفضي به الى نتيجة ما . كان في حاجة الى المعرفة لان الامر يتعلق بعزة المنامة وفخار عائلة عديم اللقب ومصير التاريخ العالمي ، هذا التاريخ الذي ينبغي فهم دواليبه وهياكله وتناقضاته لان الشرط الوحيد الذي قد يساعد الحاكم على اقامة دولة حقيقية قادرة على طرد الجنرال يهودي وارجاعه من حيث اتى وتجنيب الكشافين الصغار من ان يكونوا مثارا للسخرية ان عاجلا او آجلا . لكن الثغرة كانت موجودة في الكتاب الذي نصحه عديم اللقب بمطالعته . بالاضافة الى ذلك التبعثر في السلطة السياسية الذي يدوم منذ قرون ، لان الشعوب نوعا من الغريزة وتناقلته جيلا عن جيل عبر المتاهات والمسارات المتعددة التي تعاقبت بدون انقطاع ولا انتقاص . فكان ان اكتسبت تلك الشعوب نوعا من الغريزة وتناقلته جيلا عن جيل عبر المتاهات والمسارات المخضبة بالدماء وعبر الدهاليز والممرات التي صوبت بالمقلوب معاكسة كل واقعية وعقلانية . ولم يكن هناك من مفر ازاء هذا الوضع الا الهلع من ضياع الذات والخوف من عدم امتلاك القدرة على معايشة الاحداث والدوام رغم اشكال الغموض والخيانة وتجاوز المضايقات والمكائد . ولهذا السبب كان اهل المنامة على غرار سكان القرى الاخرى مجبولين على الفكاهة والظرف ، ميالين الى الحيلة والمكر لمداورة القوانين دون الوقوع تحت ضرباتها بالاضافة الى انهم كانوا ينتهكون المحرمات دون ان يبدو عليهم ذلك . وكان من حظ الحاكم ان يدرك لتوه هذا الجانب من الامور ويطرح السؤال طرحا صحيحا . والفضل في ذلك يرجع الى حد ما الى محمد عديم اللقب . وقد فهم المسؤول الشاب بأن الانسان لا يتعلم شؤون الحياة في الجامعة وبأن الحكومة وتنظيم الجماهير تنظيما اجتماعيا لا يستجيبان ابدا لنسق جامد يتم تحديده سلفا من قبل اساتذة

السياسة الكبار : فهم لم يكونوا قادرين حتى على تخيل وجود مثل هذه البلدة المعوجة القائظة المحرقة المهتزة السحرية المأساوية والتي كان ينبغي تنظيمها وجعلها قادرة على الاناطة بوجودها دون اللجوء الى الخوارق والهذيان ، وضمن بنية عقلانية تقوم بذاتها ولا تحتاج الى انسان خارق . بلدة تكون حسب ما أعلن عنها ابن خلدون الذي كان يحلم بديمقراطية في متناول الجميع . وعندما قابل محمد عديم اللقب مهدي واعي بعد ثلاثة ايام وابصر به وهو يلعب الدومينو مع اهل البلدة ، ادرك بأن صاحبه هذا حقق ضربة رائعة . كان هناك اذن بصيص من امل في ان يرى الناس هذه البلدة بعد اكثر من الف سنة وهي تدور حول نفسها وتضع راسها في السماء ورجليها في الارض ، فيجب الا تعاود المشي مائلة تماما عبر المنعرجات والحواجز كما تفعل الان لانها كانت تحذر كل سلطة لا سيما وان السلطات التي تعاقبت عليها كانت استبدادية او اجنبية او طفولية او عديمة الجدوى . وكان محمد نفسه قد اتخذ من الحذر مبدأ ثابتا في حياته حتى انه لم يكن يترك ظله ينسحب وراءه ويعلم ان الازمنة صعبة والسلطات متناقضة او مجزاة او عاجزة . واذا كانت الشعوب قد عرفت كيف تواجه الحروب عبر تعاقب القرون والمجاعات والاوبئة وفيضانات الانهار وهجمات الجراد والمذابح والمظالم فلأنها ادركت بنوع من الغريزة المبهمة انه لا يمكن ان تستمر في الوجود الا اذا هي امتلكت دواليب النظام بنفسها . وكانت خلال ذلك تظل متيقظة ، حذرة في بعض الاحيان من هؤلاء الذين يرغبون في تقديم المعرفة لها ، والصحة العمومية ، والكهرباء والسرعة والكرامة . على ان الامور كانت واضحة بالمنامة ، فالناس بها روضوا حتى الطيور لابطال مفعول افخاخ الحنين الشبق والتصمغ لان الصحراء ليست ذلك الطريق الخرافي والمهلوس الذي تحدث عنه بعض الرحالة الاغبياء ، بل هي المكان الذي تدفع اضواؤه وطقسه وكنوزه الباطنية كل الناس الى الجنون عندما يصطدمون بالسراب للمرة الثانية .

وبما ان الامور سارت على ما يرام والعلاقات بين المواطنين والحكومة قد بدأت تتحسن فيما يبدو على الرغم من الرفض الذي جوبهت به القوانين الخمسة لدى صدورها ، فان محمد عديم اللقب قد اطمأن لوضعه العائلي العام واعجب بتلك الصداقة بين زهرة بندرشاه ووالدته ، واستطاع ان يركز افكاره بكل هدوء . حينئذ قرر معاشرة حيوانات

« الكنغورو » التي عانت من نوازل الحرب والسن ، وتبددت بسرعة فائقة لانها كانت اناثا في مجموعها . وعلم ان تلك الحيوانات لم تستطع ان تتناسل منذ وصولها الى البلدة وهي توشك على الانقراض . فلم يبق منها الا بضع قليل تتصارع الطيور اكثر فأكثر للاحتماء بجيوبها النادرة والرضاعة بكل سكينة من الاثداء المختفية بداخلها . وقد لازم حيوان منها محمد عديم اللقب ولم يعد ينفصل عنه ابدا . كان يحمل له غداءه ومخطوطاته واقلامه كلما ذهب خارج اسوار المنامة . ورأى محمد ذات يوم ان يعلمه لعبة الشطرنج ، ذلك لانه مل اللعبة بمفرده والفوز فيه بطبيعة الحال . وسرعان ما فهم الحيوان طرائق اللعبة ، واستطاع خصمه ان يسرقه عن نفسه ويتناسى ابن خلدون ويحرر ذهنه بمجابهة ذلك الكنغور الذي كان يزداد اتقانا للعبة على مر الايام الى حد التفوق عليه تفوقا ساحقا ، على ان محمدا لم يشعر بالمهانة بل انه على العكس من ذلك احس بالرغبة الجارفة في ان يروي للناس في كل مكان حكاية ذلك الحيوان الثديي ذي التجويف البطني الذي صار بطل الشطرنج في المنامة حينذاك ادرك انه يكسر حدود الواقع والحلم ولسوف ينتهي به الامر — ان اكتشف امره — الى احد المستشفيات او الى ان يصير واليا صالحا بالبلدة . فآثر الاحتفاظ بالسر ولم يفش به حتى الى الدر نفسها التي ما فتئت تردد على مسمعيه : « حبذا لو انك كنت اسود اللون ، انت با صاحب العديد من المواهب . انك ما كنت لتنوي حتى على لفت انظار حاميتي ومثلي الاعلى اي شجرة الدر التي حكمت مصر من ٦٤٧ الى ٦٦١ حسب التقويم القمري » وخالجته حينذاك رغبة الافشاء بسره وبعد زمن ، طويل ، طويل ، وليلة زفاف توأمته الاولى ، وقد مضت سنوات عديدة على موت خصمه في الشطرنج الذي تمكن اخيرا من الفوز عليه ، تساءل اذا ما كان قد لعب الشطرنج حقا مع كنغورو وانهزم انهزامات متوالية وشعر بالفخار امام ابنته .

ولشدة فخره عندما رأى ابنته في ثوب العروس ، قرر في تلك اللحظة بالذات بأن مثل تلك الحكاية لم يكن لها وجود على الاطلاق . وكان على وشك ان يتحادث في الامر مع كلثوم عندما تذكر بأنها ماتت هي الاخرى منذ زمن طويل . ولاحظ بأن خيوط ذاكرته التي كانت قادرة على اتيان العديد من المعجزات بدأت تتخبل في بعضها . ولعل ذلك هو السر الوحيد الذي احتفظ به في صدره وحمله معه الى القبر . وكثيرا

ما كان يغادر المنامـــة خفيـــة ، ويلتقي علـــى مبعـــدة كيلومترات منها « بالكنغورو » المختبيء في احدى الفجوات بمعزل عن الرياح الرملية ، منتظرا اياه وورقة الشطرنج مبسوطة على الارض والبيادق في خاناتها تنتظر من يحركها وفي تلك الفترة بالذات بدأ القلق يساور الـــدر على الغيابات الطويلة والمتعددة وسرعان ما فكرت في كلثوم وراقبتها مراقبـــة سرية . وادركت حينذاك ان كلثوم هذه لم تكن في صحة جيدة كأن السأم الذي كبتته طوال حياتها قد صعد فجأة الى قصباتها الهوائية وجعلها تصاب بالربو . وعندما تأكدت من ان الفتاة لا ناقة لها ولا جمل في غياب زوجها المتكرر ، ألقت بالثقل كله على ابن خلدون وعقدت العزم على ازاحة الستار عن هذا الموضوع وعلى كشف ما احتفظت به زمنا طويلا بعد ان صار ثقلا يصعب حمله ، كانت تخشى ان يقع زوجها تحت وطأة الجنون وهو يتنقل من شط الى اخر ورأت ان الوقت قد حان لكي تخلصه من ذلك الوسواس ومن ذاك الهوس الفكري اللذيـــن ضويا حياته ، وأناراها ولكن زادا من اضطرابه الى حد انه يوشك في كل لحظة ان يسقط في مهاوي الجنون والهرم والمهزلـــة .

وكان على محمد عديم اللقب ان يتخلى مؤقتا عن مقابلات الشطرنج وابحاثه التاريخية . ففي تلك الاثناء كانت « صديقة » قد خطبت لموسيقي شاب شغفه الوحيد عزف المقطوعات الموسيقية على العود . وبما ان الفتاة قد وافقت ، وبما ان والدتها كانت منشغلـــة بحديقتها وبدردشة الظهيرة مع زهرة بندرشاه سارع محمد الى تحديد يوم العرس لكي يضع العائلة امام الامر الواقع . وهكذا ، فكر بأنه لم يبق لمسعودة الا خمس بنات تضعهن على القصريات فوق سقف البيت في اليوم التاسع عشر من كل شهر لاستخلاص تلك البذرة الحمراء التي تصنع المعجزات سواء في مجال انتاج الخضر والزهور غير ان الام كانت في غمرة السعادة . اذ اجتمع شملها بأختها في الرضاعة ، وتخلصت من عدوها ذلك الحاكم الخائن وجعلت تنظر الى طاحونتها وهي تتعالى بفضل جهود توائمها ، باستثناء « احمد » الذي دفعه حبه الفاسق لشقيقته مليكة الى ان يتزوج قبـــل الانتهاء من البناء باحدى شقيقات رشيد بناصـــر والـــى ان يغادر البلدة نهائيا . وكانت العائلة تتلقى اخباره من عابري السبيل المسافرين الذين يتوقفون بالمنامة بين الحين والاخر . وقد روى البعض عنه بأنه صار عالما كبيرا وغير جنسيته . على انه يكون قد احتفظ باسمه لكنه انتحل

لقبا اجنبيا جديدا لكي يتخلص من الحرج الذي يشعر به ازاء الاخرين بالنسبة للاسم الذي كان يشير الى انعدام هويته وهكذا كـان تصرفه مخالفا لتصرف الاستاذ « بربي » الذي صار قواسا في احـدى كتائس روتردام والذي لا يزال يناوش البلدة بوابل من البطاقات المسورة كأنما يريد ان تغتفر له مهنته الساقطة ويرغب في الحفاظ على جذوره . وتلقى « محمود » في يوم من الايام مبعوثا ارسله اليه اخوه بكل سرية . وكـان محتوى الرسالة يشير الى عبقريته الابداعية وينصحه باللحاق به في ما وراء البحر واعدا اياه بأن يجعل منه في ظرف سنتين باحثا عظيما فـي تكنولوجيا التبريد . ورغبة منه في تشجيعه ارفق برسالته صورة لكفيف مصري فاز بالدكتوراه في الرياضيات بكل نجاح . مزق محمود الرسالة والصورة وشكر المبعوث الخاص لشقيقه وتابع اعماله الترقيعية في دار امه جامعا كعادته قطع الغيار من مقبرة السيارات العسكرية التي تركت هناك منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . والحقيقة ان عائلة عديم اللقب كانت راسخة الجذور بالمنامة مثل تلك السفائن الجانحة على الرمـال . وكانت جذورها المجنونة والشبقة تغرق في تربة البلدة حتى انه لم يكن من الميسور اقتلاعها بسهولة . كان « احمد » في حد ذاته يشكل حالة خاصة . وهو حينما غادر المنامة انما كان في واقع الامر يهرب من خوفه الذي جعل يتكدس بين رجليه : فقد كان من الممكن ان يرتكب المحارم مع اخته في يوم من الايام ويقلب راسا على عقب الدورات والمواسم والنبوءات والاوهام والانهار والسلالات وحتى العرق نفسه الذي لم يكن مقدرا له حتميا الاندفاع الى ويلات الدم والجفاف داخل عزلة الهذيان المطلقـة المملوءة بالنبل المجروش . ومن جهة اخرى فمنذ ان غادر البلدة لم يسأل عن اخباره احد ولا ندم عليه احد كذلك لم يتجرأ احد على القـول بأنه كان محقا في مغادرتها اذ كان يمثل خطرا على تواصل السلالة التي كاد ان يقطعها برغبته الفاجرة . لقد اخلص كل من والده واخيه البكر فـي سبيل تقويتها وتكثيرها وتطهيرها لانها بافتقارها الى الاسم العائلي كانت مهددة بالانزلاق في مهاوى اللاوجود مثل مـرآة لا تعكس الا قصديرها الواقي ، ولم يكن في مقدور العائلة ان تعيش على آثار عظمتها الزائفة حتى وان كان لمسعودة اسلاف من القراصنة يعود اليهم الفضل في امتلاكها للساعات الجدارية التسع عشرة التي نظمت وقننت كل شيء بدءا من عدد الاطفال الى اهم الاحداث في تاريخ العالم اجمع والـى ساعات وفيات الاسلاف المفجعة ، او لو يحدث ان مات الناس في سن التاسعة عشرة او

امتدت بهم الاعمار الى سن المائة ؟ او لم يمت بعضهم على الساعة التاسعة عشرة ، وعاش بعضهم الاخر الى ما لا نهاية ، لقد حملتهم مسعودة وعجنتهم من ذات لحمها ، وانقذت ابناءها من اهوال الارق ومآزق الربو واكباش المراهنات وشروخ الكوابيس . اما عن بناتها ــ باستثناء رشيقة الانيقة التي عرفت كيف تطرز موتها ــ جنبتهن من ظلمات الخوف في هذا العالم ومن الرجال القادرين على احالة دم النسوة الى خل ومن هدر دمهن في كنائف اليأس وحشائش الحرام المتشبثة التي تنبت في ارحام النسوة الفاحشات وتعقمهن . ولم تكن مسعودة وذريتها في حاجة الى ارتكاب المحارم لا سيما وانهم كانوا يعلمون ان مليكة تعشق في سرها نظيرها التوأم الذي دفعت شهرته في الخارج اهل المنامة الى الافتخار والمباهاة به اكثر مما يجب . ولم يكونوا يجهلون ايضا بأن رشيد بناصر كان طوق النجاة التي تعلقت بها لكي لا تغرق في موج الهوى الفاجر .

سمح زواج « صديقة » التوأم الرابعة من « سليم موسيقى للتقنيين الموجودين بالدار من التنافس في اعمال الابداع . قام « جيلالي بوحدبة » بصنع بوق من الدمى المتحركة ووفر المال بالاستغناء عن « نوبة » اليهود العميان الذين كانوا يغنون في الاعراس التقليدية عادة . وكان هؤلاء الموسيقيون الصغار المصنوعون من البرونز محل اعجاب الجميع حتى ان الاعين ظلت ساهرة طوال الليل لكي لا يبادر الاطفال المبهورون الى نشل واحد او اثنين من أولئك العازفين الذين يتحركون بآليات دقيقة في حجم دبوس الشعر . وقام محمود عديم اللقب بمعجزة حينما اضاء البيت والحديقة بمصابيح كهربائية هائلة بالطاقة المستخلصة من مضخة احدى الدراجات . ولم يكن في ذلك الابداع الا مشكلة واحدة ، فقد وجب التناوب عليه طوال الليل لتوليد الكهرباء . نجح العرس كل النجاح ، حتى ان الحاكم الذي قام بظهور خاطف للمجاملة دون ان يتلقى اية دعوة منها ، انتهز الفرصة لكي يفضي ببعض الكلمات الى محمود بشأن مضخة مائية تشتعل بواسطة مجمع كهربائي ينوي تركيبها خارج البلدة لتدشين سياسة حقيقية في استصلاح الاراضي واخصاب الصحراء . اما محمد عديم اللقب فقد قضى سهرته تلك وهو يفكر في نقلة شطرنج تمكنه من وضع حد لتفوق صديقه الكنغورو الذي كان يتجاوز حدود الذكاء الحيواني نوعا ما .

بدأت الاحداث الهامة التي كانت وشيكة الوقوع بالمنامة تنسج خيوطها عندما تمكن محمد اخيرا خلال مقابلة دامت ثلاثة ايام متتالية من التغلب على الكنغورو العبقري الذي كان قد علمه لعبة الشطرنج . الشاه مات ، كان ذلك بشارة لشيء سيحدث على ان ابن مسعودة لم يدرك ذلك الا بعد زمن طويل ، طويل ، طويل . اي في ذلك اليوم الاغر الذي زوج فيه ابنته وتمنى من اعماق قلبه ان ينزل الثلج . كان يومها في قمة السعادة . يحن الى ماض استيهامي كل شيء فيه ممكن ، وقوانين الطبيعة والفيزياء اكثر تسامحا والمعجزات من الامور المألوفة في ذلك اليوم ، ادرك سبب فوزه على الكنغورو . اذ بلغت تلك الانثى سن اليأس ولم يعد لديها حليب وهذا ما دفعها الى العصبية والافتقار العاطفي ، فانتهز الفرصة بكل جبن وحقارة . وقد لاحظ بأن طيور المنامة لم تعد تتصارع منذ وقت قصير على الانغماس في جيوب تلك الحيوانات النادرة التي بقيت على قيد الحياة . لم تكن تجد بها ما يرضيها فالحليب قد نضب والينابيع الجرابية جفت . وهكذا احجمت الطيور الماكرة عن الالتجاء الى جيوب « الكنغورو » المجلوبة من استراليا تلبية لرغبة ليلى بندرشاه وحرمان هذه الحيوانات من حنان هذه الافراخ التي تعودت ارضاعها سيجعلها تموت الواحدة تلو الاخرى . مع انه لم يبق منها الا القليل . لم يكن والد العروس مستجمعا لكامل قواه الذهنية خلال الحفل وقد فطن الى انه في واقع الامر اكثر حمقا من شريكته في اللعب ، والى ان فوزه عليها كان امرا مشكوكا فيه وسوف يؤرقه طوال حياته . وعادت مواهب الصبا الى ذهنه وبدأ يتحدث بمفرده وقد عزا الناس ذلك السلوك الغريب الى حزن

الوالد وهو يرى ابنته قد استعدت لتغادره للاستقرار بالساحل حيث العمل لا يتناقص ابدا .

سرعان ما غابت الحيوانات الاسترالية بعد ان سحبت وراءها اذنابها الكبيرة مثل الشهداء الذين يبعدون عن المواكب الدينية وفقد محمد خصمه . ولم تعد انثى الكنغورو تأتي الى الموعد ، وذات صباح وهو ذاهب للبحث عن ابن خلدون ، وجدها منطرحة بلا حياة أمام باب البيت وفي جيبها الذي صار بلا فائدة رقعة الشطرنج والبيادق المصنوعة من خشب الابنوس المستورد من الكاميرون . وافتقد اهل المنامة الثدييات التي تقفز كالجراد وهي تعرج بخطواتها ذهابا وايابا عبر ازقة البلدة . والحقيقة انهم الفوها حتى اصبح مربي الطيور يتخمونها بحلويات لكي تقوى على تجديد حليبها الذي تتذوقه الشحارير والكناريا والزرازير وعصافير الفردوس والكاميشي والسنونو اثناء الحضانة . شيء ما كان ينقص تلك البلدة التي غرقت ثانية في حزنها الاصلي بعد رحيل السيد « بري » وخلافاته الشهيرة مع العجوز وبعد ذهاب بندرشاه الذي كانت احكامه القاطعة وتوبيخاته وقوانينه وخطبه قد فرحت الناس واحزنتهم الى حد ان يسفحوا دماءهم . وبالفعل ، كان الحاكم السابق صاحب موهبة في التهريج وفي اضحاك الناس . وها قد انقرضت حيوانات الكنغورو عن آخرها ، تلك الحيوانات الحنونة الاليفة رغم بشاعتها وجعجعتها ، فما الذي بقي امام اهل البلدة للترفيه عن انفسهم اللهم سوى مقابلات الدومينو والمراهنات على الاكباش . حتى مسابقات الغناء اوقفت بصورة مؤقتة لأن الطيور التي ظلت تتغذى بحليب الثدييات بضعة اعوام قد بحت منذ ان عادت الى نقب حبات الدخن وفتات الخبز بتململ ظاهر . اما كبار تلك الطيور فقد فقدت الرغبة في الغناء ، في حين ادى فطام صغارها المفاجيء الى انحباس صوتها في حناجرها فاضطرت الى هجر دروس الموسيقى التي يلقنها محمد عديم اللقب الذي كان دائما يترك نوافذ غرفته مشرعة .

وفيما عدا انقراض حيوانات الكنغورو ، كانت هناك شارات تذبذب الفضاء ايذانا بوقوع شيء ما : صبابة كلثوم وسبخ « الدر » وهي فيعز الحمل وصمت حميد عديم اللقب وراء جدران طوق بها نفسه والمقاهي التي خلت من زبائنها الاقدمين و « مهدي واعي » الذي لا يكثر

من الحديث والذي يفتقر الى كل موهبة خطابية فأرهف الجو الموبوء بالحزن من حساسية الناس . وواصل الزمن غليانه في وعائه . خاصة بعد ان بخلت السماء بالقطر ان نزل ذلك الثلج الغريب في سالف الايام . حتى مصارعة الاكباش صارت سمجة هي الاخرى ، ولم تعد الحيوانات تخاطر بنفسها ، بل ان جو تلك المقابلات الذي كان مكهربا فيما مضى صار رخوا بلا اثارة . وشعر محمد عديم اللقب بأن هذا النوع من الفرجة سوف ينقرض عما قريب ، ففكر في ان يصطحب معه ابنته وولده الكبير لحضور مقابلة من تلك الرياضة المنامية التي لا نظير لها في العالم بأسره والتي بدأت تتدهور على مر الايام . وبما ان التصوير كان مجهولا في المنامة الى اليوم الذي اكتشفوا فيه الالات الاولى لتسمير الزمان والمكان اثناء تصوير فيلم الف ليلة وليلة ، فانه لن يكون في الامكان فتح متحف لمصارعة الاكباش اذا ما حدث وزالت هذه اللعبة المحلية الى الابد . وقد صار المقامرون المعروفون بلباقتهم وعجرفتهم وحسهم بالتنبؤ يسيرون وكأنهم مذهولون . وبدأت التهم تتهاطل على الحاكم لكن محمد عديم اللقب بدد سوء التفاهم هذا . فقد اتهم ذلك الفتى المسكين الذي وصل حديثا من العاصمة لتنظيم شؤون البلدة وترتيب الفوضى المتأصلة في اذهان ساكنيها بأنه جلب معه النحس والحذر . كلها تجنيات باطلة بطبيعة الحال، وذات ظهيرة ندية اصطحب محمد عديم اللقب طفليه اللذين كانا في الثالثة من العمر واتخذ معهما افضل مكان في ملعب مصارعة الاكباش . وعندما كبر الطفلان وخطبت الفتاة ، لم يحتفظا بأي ذكرى عن ذلك اليوم الذي اصطحبهما فيه والدهما لمشاهدة تلك المقابلة ، حيث كانت الحيوانات حذرة خائفة متثاقلة ولم تكن لديها الا فكرة واحدة : تتقاسم النقاط ، والتعادل والطمأنينة . وصرخ يومها محمد عديم اللقب وقد تاكله الغيظ « ما بالهم يتحمسون » خاصة وان هذه الفصيلة من الحيوانات قد هجنها بنفسه ، مستعملا معاز المنامة واكباش استراليا اثناء الحرب الصغيرة التي كانت قائمة يومها لمنافسة الحاكم وللاستيلاء على احتكارات الاستيراد بتربية حيوانات على الارض الام . كان السأم قد نال من نفوس الجماهير التي جلست على تلك الكراسي المصطفة حول الحلبة الضيقة المغطاة بالرمل . وكان البعض من المتفرجين يثرثرون فيما بينهم لتمضية الوقت ، تلك هي الذكرى الوحيدة التي احتفظ بها التوأمان عن الرحلة الاستكشافية التي قاما بها مع والديهما ، اذ ابصرا في ذلك اليوم بأول قتيل في حياتهما . وبالفعل فقد تخاصم اثنان من عشاق المصارعات

ودخلت السكاكين اللعبة وسقط احدهما بلا حراك غارقا في دمائه . كان في نية محمد عديم اللقب ان يأخذ طفليه لحضور آخر معركة هوميرية بين تلك الحيوانات لكنه اعطاهما بذلك احساسا وبالخوف وبالقتل . فشعر بتانيب الضمير منذ ذلك اليوم كلما افاق احد التوأمين فجأة وهو يتنضد عرقا ويثغو مثل مجنون . وكرهت « الدر » سماع أي حديث عن تلك المصارعات . على ان زوجها الذي كان يأمل في قرارة نفسه اصلاح ذلك الخطأ باصطحاب ابنيه لمشاهدة مقابلة رياضية حقيقية دون اي قتيل من بين المتفرجين ، احجم نهائيا عن مشروعه هذا . واعترف بأن المسألة غير جديرة بكل هذا الاهتمام . لقد كان شبيها بجده الذي امتنع دائما عن اصطحابه مرة ثانية لمشاهدة تلك القاطرة الزرقاء التي تلفظ دخانا اسود من منخرين موضوعين فوق رأسها كما لم يصطحبه لرؤية الثلج الذي حلم به زمنا طويلا قبل ان يلمسه لاول مرة في حياته ويعلم حقا وصدقا انه موجود وانه ليس مجرد كلمة تافهة غايتها هي تضخيم القواميس التي تعلم قراءتها بمفرده . فهو لم يدخل اية مدرسة لانعدامها آنذاك . اما اليوم فان المنامة قد زودت بفصل دراسي يصطحب فيه المعلم « علي الفقيه » بصبية عديدين شاحبين يتعين عليهم ان يأتوا بكراسيهم كل صباح بسبب نقص الاعتمادات المالية التي لم تكن تكفي الا لشراء الطاولات والسبورة ولدفع اجره الضئيل الذي لم يكن يكفيه ، لولا كتابة الرسائل لسكان البلدة والاميين منهم ، علاوة على جهلهم ، كانوا متطيرين ويحذرون كل رسم سحري مهما كان شكله او دورانه او حدته .

واذا كانت مصارعات الاكباش تفقد جودتها فان الحرير قد تحسن بانتظام مدهش منذ ان صارت الشرانق تتنامى بسرعة مذهلة تحت آباط النسوة بدلا من ان تحتضن تحت سراويلهن. غير ان الكساد تفاقم على الرغم من ذلك التحسن ، ولم تقبل « الدر » أبدا بتلك الطريقة في خرق القانون الذي اقره الحاكم غير انها تعودت عليها لان الحرب كانت قد وضعت اوزارها ولان النصر قد خدر كل شيء وبنجه وجعله تافها . وقد راودتها الرغبة ذات يوم في العودة الى نسج اكفان من الحرير الحقيقي . ولكن الفشل اليومي المتكرر ثبط همتها ولم يتمكن احد في البلدة من خرق أي شيء ، وأخذ الناس نتيجة لرداءة حياتهم ينغمسون في غياهب الاحتضار ويموتون موتا بطيئا وهم يخدمون لهيب الحيوية في نفوسهم . لقد تغيرت الاشياء منذ تلك الفترة التي وصلت فيها الى المنامة

مع ست من صويحباتها وشعرت فيها بتوفز وحيد من نوعه جعلها كالمحمومة . الى ان التقت بمحمد عديم اللقب ، فادركت من خلال جسده وطريقته في المشي وجمال عينيه الواسعتين ، تلك العبقرية الداحرة والاصالة المذهلة . حينذاك حدست لتوها بأنه يرغب في ان يعرف المكان المفقود الذي توقف فيه قبل ستة قرون عالم فار من استبداد ملك صغير يغار من معارفه التي لا تحصر . على ان الركود والوقوع تحت وطأة التفاهات قد اثرافيها ايما تأثر لا سيما وان كلثوم منافستها واحسن صديقاتها راحت تفقد بريقها وتزداد غيابا عما حولها في صمت وهي متشبثة ببوقالها الذي لا يفارقها ابدا ، وتبذل جهودا خارقة لكي لا تقلق امها حول وضعيتها الصحية . لكن والدتها لم تعرف مثل تلك الهناءة في حياتها الا هذه المرة . فهي بفضل مسعودة عديمة اللقب وعلاقتها لم تكن تدري من أين تبدأ اندهاشها او ضحكها ولا من اين تبدأ البكاء لشد ما كانت اختها بالرضاعة وفية لصورتها ولحمالتيها الاسطوريتين وليقظتها التي تفاجيء الاشياء والموجودات بصورة غير متقطعة ، حتى في قلب الليل وهي نائمة ، كانت تستمر في التحدث بمفردها والان ولم يبق لها الا خمس عذارى تسهر عليهن ، كانت تتمتع بوقت اطول ، ، وكانت اجاباتها القاطعة اكثر حدة وسخرية فيما مضى . كانت الاختان تدرجان في اعتاب الشيخوخة بلياقة ، وتتجاهلان الوضع الروحي للبلدة تجاهلا تاما ؛ وتستصغران همومهما لانهما تعرفان بأن اناسا خياليون طفوليون رهيفو الاحساس متقلبون ومذهلون . وقد اطلعت مسعودة على رغبة زوجة ابنها في الرجوع الى صناعة الاكفان فكان ان رفضت رفضا قاطعا : « ليس لدي الوقت لسماع مثل هذه الترهات . الافضل لك ان تسهري على اطفالك وتعتني ببطنك ، اما انا فاهتم بطاحونتي .... سوف نفرغ من بنائها عما قريب . يا للروعة ، ينبغي التفكير في زراعة الشعير والا فما فائدة هذه الالة ؟ ... » وكانت الوالدة تنتهز الفرصة لكي تكيل المدح لابنائها البنائين الذين تعقلوا قبل الوقت ، وتعاطوا قلبا وروحا ذلك العمل بعد ان وضعوا امام الامر الواقع باغلاق ماخور « الكبش الشبق » . لم يكونوا يميلون الى مضاجعة بنات الشارع اللائي يحملن رضعا ؛ فباستثناء الامراض التي يخشونها ظلوا يحنون الى زمن الماخور بوصفه مقرا اجتماعيا ومكانا للحنان وعبادة الشهوة وقد رفضوا الزواج الامر الذي سر والدتهم وظلوا يقفون لياليهم تعبرهم اطياف البغايا الرائعات المشطورات الى شطرين بوشم طقوسي يبدو وكأنه يخرج من فروجهن

لكي يلج اعمق اعماقهن وكانوا على علم بأنهم لن يعرفوا مرة ثانية مثل ذلك التجلي المربوط بالعوالم الروحية وبالجنون ، تسيره احكام ربانية . واستشارت « الدر » التوائم الخمس الاخيرة حول خياطة الاكفان حتى تأخذ آراءهن في الموضوع . واجمعت البنات على القول بأنها اذا كانت ترغب في تطريز شيء ما فما عليها سوى ان تنهمك في تفصيل فساتين زفافهن وثيابهن الداخلية وجهاز عرسهن الكامل ... ولم يكن هذا بالعمل اليسير ، وتخلت « الدر » عن مشروعها وادركت بأن الامر ليس الا مسألة من مسائل الحنين وتأسفت على العهد الذي كانت تمارس فيه الجنس عشرين مرة في اليوم بينما الان وعلى الرغم من الهوى الذي يربطها بزوجها ومن هيجانها الجنسي ورهافة حنانهما . كان الزمان قد تعدى لعبته ونقر شيئا من تلك الخوارق التي لولاه لما كان العالم الا كسرة تدور حول نفسها الى حد الاهتراء والانكسار التهشيمي . وبدأت تعد اثواب العرس « لعريقة » التوأم الخامسة واحدى العذارى الاخيرات . كانتتحتل المكانة الوسطى في العائلة وميالة الى الحلول الوسطى . وبالفعل اخذت من كل فرد من افراد العائلة عضوا او صفة ، وصارت تبث الرعب في محيطها على الرغم من روعتها وقد ساد الانطباع بأنها تتألف من قطع متعددة ، ملحومة بكهرباء اللوعة والتقليد . وطبعها هو الاخر كان تجميعا لعناصر غير متجانسة متصارعة فيما بينهما . ولكنها كانت ذات نفسية طيبة وتعرف كيف تسري الى اعماقها وتتخذ موقعها في مركز ثقلها ، وكيف تظل على حذرها حتى لا تتفكك مفاصلها وتتبعثر .

راح جيلالي بوحدبة وزوجته رشيقة اللذان لم ينجبا الا طفلا هزيل البنية يقضيان اياما هادئة كانا يعملان بتوافق تام ، وقد مكنت ضرورات الصراع في الماضي من ان تطلع تلك الزوجة الفتية على اسرار الموازين والرقاصات وغيرها من الات التدقيق . كانت مهمتها الاساسية تتمثل في متابعة تفكيك وتركيب ما تبقى من الساعات الجدارية الصقلية التي لم تتناولها بعد اليدان الخبيرتان الرقيقتان ، اللتان يتمتع بهما الاحدب الذي نقل لزوجته وطواعيته لزوجته وهكذا كانت تغرق يديها الرشيقتين الواهيتين في احشاء الساعات الجدارية المصنوعة من الفضة الخالصة . وتعبر عن خلجات نفسها من خلال ذلك العمل الذي يخفف من حكتها الجلدية ، وتبعث امها على السرور ، تلك الام التي عجزت عن وضع ثقتها في الزمن الذي تطحنه عجائب الدنيا التسع عشرة بكل دقة وباجماع

الاشياء القديمة كلها التي ازدادت قوة عبر القرون وعبر تعاريج ونبضات الاحاسيس التي ابصرت بها وهي تبرز الى الوجود ومن خلال اشكال القلق الذي راته كالحب السري والمواعيد القاتلة والهزات الارضية والاعلان عن الحروب . وعندما لفظ الكنغورو انفاسه الاخيرة وسط صخب الطيور وجعجعة اللقالق التي تلتصق بامهاتها المرضعات كان بوحدبة وزوجته منشغلين بتركيب الساعة الجدارية الثالثة عشرة بكل صبر وعشق وبكل دقة وانضباط . وهي واحدة من الساعات التسع عشرة التي جاء بها قرصان جريء كان ينظم – فيما يقال – حملاته داخل المحيط الهادي ويأتي بسجناء أمريكيين حتى ان قنصل الجزائر يومذاك وهو « ويليام شالر » استعادهم بما مثقالهم ذهبا من ذلك القرصان العظيم الذي كان اكبر اخوة بابا عروج . وقد حدث ذلك سنة ١٨٢٩ اي عشية كارثة اخرى هي كارثة ١٨٣٠ : وفقا المجد ووهن السلطة ، من كان يمكنه ان يتنبأ بذلك ؟

وكان الحاكم يحسن الاستماع في حين ان محمد عديم اللقب الذي يحبه ، راح يروي له تاريخ عالم يفترض فيه أنه وجد في يوم من الايام ، وقد استطاع ذلك بفضل قدرته على خلط كل شيء ونفخ الحقائق وتجميعها وتقليصها ... ولكنه في كل امسية يقضيها في الثرثرة امام دار مسعودة كان يودعه ويكرر له نفس الجملة : « عندما اتحدث معك فانما اتحدث الى الانسان فيك لا الى الحاكم . انني لم اتعاطف كثيرا مع الذين يمتلكون زمام الحكم حتى وان كان لهم نفس موقفي من العالم » وقد جعله يشعر اخيرا بالضيق لكثرة ما كرر على مسمعيه تلك التحديدات والتصحيحات . وجعل يشعر بأن طموحه يذوب بين جنبيه وقر رأيه على تسويد رسالة استقالة لكنه مزقها بعد بضعة أيام . ثم انه دبج رسالة اخرى واقتنع بتبييضها لكنه لم يرسلها لانه كان يأمل فيتحقيق شيء ما وتسجيل ضربة كبيرة ، وموجز القول هو انه كان يريد ان يترك بصمات هائلة على المنامة قبل ان يغادرها من تلقاء نفسه . لقد خيل اليه ان رصيد التعاطف الذيجاء به قد بدأ يتقلص تحتضربات الشمس الزجاجية الثابتة والتي لا تتكسر والتي تحول البلدة كلها الى جحيم . كان يريد تزويد اهل المنامة بمضخة قادرة على ان تضرب عميقافي قلب الارض وتبحث عن ذلك العنصر الحيوي المختبيء في التجاويف المائية والتي تتخلل الصحراء . وهكذا ارسل بطلب عاجل الى الحكومة المركزية ، فقررت هذه الاخيرة

دراسة الاقتراح الوجيه حسبما يبدو لاول وهلة وبما ان وسائل الاتصال كانت بالغة الصعوبة ، فان المراسلات كانت تنقل على ظهور الاحمرة والجمال ، وهذا ما تطلب عدة اشهر لكي تصل الرسالة الى حيث كان ينبغي ان تصل . هذا بالاضافة الى تلاعبات التقنوقراطيين . فقد اخطأوا في الملف وارسلوا الى المنامة كاسرة جليد اهدتها احدى البلدان الشمالية الى وزارة الاشغال العمومية وكانت ردود الفعل لدى اهل المنامة فورية . فقد حمل الحاكم على الاعناق بنفس الطريقة التي حمل بها قبل بضع سنوات الاستاذ « بربي » عندما اعلن بأن مطرا مصنوعا من قبل البشر سوف يتهاطل على المنامة وعاد البشر الى البلدة وانتهز الاطفال الفرصة لكي يلعبوا لعبة الحرب بكاسرة الجليد فحطموها واحالوها الى قطع غيار في ظرف اسابيع قليلة . حتى محمود عديم اللقب استفاد من تلك اللعبة وسارع الى التقاط بعض الاليات النادرة لصناعة مبرد كان يتمنى ان يهديه الى زهرة بندرشاه .

بعد سنة المطر بدون اله ، جاءت سنة الحبل الثلجي وتلتها سنة اللواط ،ثم تحدث الناس عن سنة كاسرة الجليد . وقد كان حميد خلال ذلك محاطا بالدجاج الاسود ، بسبب حبه المستحيل لكلثوم ، ثم خرج من صمته واوجز في بضع كلمات ما كانت البلدة كلها تحتاج الى اودية من الكلمات وشلالات من الريق للتعبير عنه : « لو اننا ما زلنا نحتفظ بالجبل الثلجي لفهمنا الامر ... » اما الحاكم « واعي » الذي كان لاسمه رنين اجوف لم يتجرأ على الظهور أمام الناس واقلع عن زيارة « محمد » الذي كان ينجم كل مساء ، وفي نفس الساعة امام مدخل داره لان دوار الشمس كان يكف عن الحركة بمجرد ان تغيب الشمس . حينذاك كانت العائلة تعلق ابواب الدار ونوافذها للاحتفاظ ببرودة النهار وبفضل هذه الطريقة كان افراد هذه العائلة ينامون بعمق باستثناء الابن البكر الذي ظل يعاني من أرقه الرهيب ومسعودة التي تواصل التحدث الى نفسها وتتلفظ بنفس الكلام الذي قالته خلال النهار ولكن بصورة مقلوبة ، والتوأمين الاخرين اللذين تؤرقهما صورة الجسد المدمى لذلك الرجل الذي تلقى طعنة سكين خلال اسوأ مصارعة اكباش في تاريخ المنامة وانطلق « مهدي واعي » ذات صباح الى العاصمة دون ان يخطر احدا ، ورجع منها بعد بضعة اسابيع بصندوق كبير ملفوف بحاشية ، ووضعه وسط ساحة الطيور وعرضه على الناس بنفسه مبينا مزاياه . اما المناميون

الذين كانوا يلاحظون ظهور المشعوذين خلسة والمطببين ومروضي الحمام وبائعي مسحوق التنهدات فقد تراهنوا فيما بينهم على ان الحاكم قد تحول الى السحر وانه يريد ان يقدم عرضا لامرأة مقطوعة الـــى نصفين يمكن الصاقهما ثانية بمجرد ان يدب الذعر الى نفوسهم . على انهم بدلا من ذلك شهدوا بأنفسهم عملية اخراج آلة لا يعرفون لها اسما ، ولكنهم تنبأوا بغريزتهم بأنها قادرة على تحويل حياتهم القذرة الى مصير رائع . وسأل الحاكم الحاضرين اذا ما كانوا يعرفون ما هو ذلك الشيء المعروض امامهم فما تجرأ أحد على اجابته . حينذاك صاح الحاكم بكل فخر وتأثر : « انها مضخة ماء » وسرت الكلمات بين الناس فظلوا لا يصدقون آذانهم طوال دقائق عديدة لها طول اذناب « الكنغورو » التي استوطنت المنامة فيما مضى . ولم يستطع احد من الحاضرين ان يصف ما حدث على وجـــه التحديد . كان محمد عديم اللقب اثناء ذلك خارج اسوار المنامة منشغلا بالتقاط آخر عينة طوبولوجية ، ولعلها كانت محل اخذ ورد ، لكنها قادرة دون شك على أن تقوده الى البيت الذي لا تزال ذكرى ابن خلدون تسيطر عليه . ولم يتذكر « مهدي واعي » نفسه . اي شيء مما حدث. فقد خنقته هتافات الجماهير التي صارت تهدد حياته . وعندما أفاق من اغماءته تلك كانت مضخة الماء قد نصبت خارج الاسوار من قبل فريق يتكون من محمود عديم اللقب ورشيد بناصر وبعض الصناع . ولم يكن الجميع ينتظـــرون الا ظهور الحاكم للقيام بأول حفر تدشيني . وعلى الساعة السادسة مساء توفرت جميع الشروط للبدء في العمليـــة . حتى الطيور نفسها — وكان وقت خروجها — شاركت في الحفل . وضغط الحاكم على الزر السحري ، فانغمس المكبس على عمق ثلاثة كيلومترات وانبجس الماء ، مندفعا الى السماء ، لكنه عندما انهمر على الحاضرين والطيور والحاكم والصخور ونباتات الحلفاء النادرة تسبب في خراب مذهل . فقد كان يغلي بحرارة قدرها ١٥٠ درجة . واحترق مائتا شخص احياء بينما انكشطت البشرة عن وجه الحاكم كله ، وذابت الصخور وتميعت النباتات . والتقط اهل المنامة الطيور بواسطة المجارف ، واحصوا عدد المحروقين بدرجات متفاوتة فاذا هم بالمئات .

على ان الامام الذي كان ذا فكر مستنير بخصوص المسائل الملموسة يشك بأن يد الله وراء ذلك الدمار الذي وقع على المنامة . ولم يعرف السكان اذا ما كان ينبغي عليهم الضحك من الهستيريا او البكاء مـــن

الغيظ . وقد القى الامام خطبته فييوم الجمعة الذي دفنت فيه الضحايا وأنذر السكان بأن قضية مضخة الماء ليست الا وعيدا ربانيا . فالله غاضب على البلدة لأنها كانت تريد ان تمارس ضغطها على القدر وتنتزع من الارادة السماوية سعادة تافهة اذا امعنا النظر . ذلك لأن الحقيقة والاصالة والمطلق انما توجد في مكان آخر . واحمر الملحدون من الخجل ، أما المؤمنون فقد أصفرت وجوههم من الخوف . وقرقعت مسعودة بحمالة صدريتها وظل الحاكم في حالة من الغيبوبة لا يقوى على قول كلمته . غير ان محمد عديم اللقب شتم أخاه واوضح لهبأنه لا يكفي ان يعرف الانسان معالجة بعض المبردات المنزلية لكي يغامر باخراج الماء من الارض . كان عليه ان يقوم بدراسات اولية ويأخذ فريقا من الجيولوجيين الى عين المكان ومجموعة من الاختصاصيين في شؤون المياه بل وحتى فريقا من علماء البراكين : فالماء في الصحراء غزير ، ولكنه محرق على عمق ثلاثة الاف متر والاخصائيون يعرفون ذلك . او لم يحذر المهندس محمد الشاكر الذي أخرج الماء من بطن الصحراء العراقية في القرن الثالث للهجرة هؤلاء الهواة من الباحثين عن المياه من مثل هذه النتائج ؟ لكأن سوء الحظ يلتصق التصاقا بهذه البلدة المنبوذة في آخر الدنيا ، ولأول مرة ، لم توضع السلطة المدنية فيقفص المتهمين الذين قد يؤاخذون على سرقة بضع دجاجات ... ولم يكن اهل المنامة يجهلون بأن الشاب الفتي التقنوقراطي الذي حل قبل سنة بالمنامة وهو يتفجر حيوية ويزدهي بملابسه الانيقة وشعره المزيت قد تشوه عن آخره ونبتت له فطريات مسمومة على اجزاء جسده المكشوط ، وتحول الى لحم محترق تشم رائحته على مبعدة كيلومترات . وظلت مضخة الماء منصوبة مثل رمز للخراب الجارف واليأس القاتل ، كأنما تريد أن تبرهن بعنقها الشبيه بعنق الزرافة بأن هناك رجالا واراضي وقع عليهم الحكم الابدي ، ولا يمكن ان يتنصلوا منه . على ان هذه الفكرة التي اخذت تنتشر كانت موضع تنديد صارم من قبلمحمد عديم اللقب . كان عليه ان يقنع أولا وقبل كلشيء عائلته ثم مسعودة التي جابهت حججه العلمية بعنادها : « نحن المنبوذين في هذا العالم ، توقف عن ترهاتك والا فضحتك امام الامام » ، لكنه صمد في وجهها ولجأ الى المساومة بعد ذلك ، وهدد ببتر ابهامه الايمن ، ثم نال وطره منها : « ليس هناك جنس محكوم عليه بالزوال والتيه وسوء الحظ . انظري الى حديقتك انها رائعة لأنك تبذلين فيها كل جهدك ، حقا وضعية الاشياء واشياء الدولة تمثل عراقيل رهيبة ، لكن اهم ما في

الامر هو معرفة كيفية التحايل عليها والتطرق اليها بكيفية صحيحة ... » وكادت مسعودة ان تجيبه بأنه اذا كانت حديقتها مصابة بجنون الغزارة والحيوية والمبالغة ، فذلك بفضل دم العادات الشهرية لبناتها القويات الجميلات ... غير انها آثرت الا تأتي على ذكر هذا الامر واقتنعت ؛ لأنها خشيت من ان تلتقط كلثوم ابهاما آخر تتركه يختمر في البوقال المليء بالفورمول . وهي في واقع الامر لم تستطع ملاحقة الاحداث . بل انها عادت منذ بضعة ايام الى صناعة الفزاعات لاستخلاف الفزاعات القديمة واخذت بنصيحة صهرها الساعاتي الذي اقترح عليها بأن يساعدها مع « الدر » وكلثوم المتهالكة على صناعة فزاعات آلية ، مزودة بحركات ازلية . وقادرة على احداث اصوات خشخشة ترهب امكر الطيور واشبدها حيلة .

تخلى « بوحدبة » عن الساعة الجدارية الرابعة عشرة بعد ان اخرج احشاءها واشرف على العمليات . وهكذا تعاقب طغاة التاريخ واحدا واحدا ، وكانوا نفس الاشخاص المعتادين اي بندرشاه ، وملك خليجية واسلافهما من الامويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين والاتراك وسانت لويس وخباز فيينا ... ولكنهم صاروا اكثر ارهابا وابعث على الفزع . كان الاول يعرج والثاني يغمز باستمرار والثالث يدير رأسه حول عنقه دون توقف ، والرابع يحك عانته كأنه مصاب بحرقة البول والخامس يصفع نفسه والسادس يجلد نفسه بذكره والسابع يخنق نفسه بكلتا يديه والثامن يضع اصبعه في احدى عينيه والتاسع يتلمس فحولته اما العاشر فكان مصابا « بدوار الغنم » وهلم جرا . الى حد بلوغ الفزاع التاسع عشر الذي يمارس اللواط مع عبد أسود . واذا كانت التقنية من عمل جيلالي بوحدبة وزوجته رشيقة فان الافكار قد اغترفت من خيال الدر الخصب التي استعادت بهجة العيش من جديد فقد بدأت تربية توائمها تضجرها نوعا ما ، لقد وجدت في العملية متنفسا لخيالاتها السياسية والجنسية على حد سواء . وساهم « سليم موسيقى » عازف العود الماهر وزوج رشيقة الجديد في هذا الابداع الجماعي فوضع موسيقى طوفانية . على انه اذا لم يكن احد من افراد العائلة ليتناسى المأساة التي تعيشها البلدة بعد الكارثة الصباحية التي تسببت فيها مضخة الماء والتي مكنت من تقليد الحاكم الشاب وهو في حالة من الغيبوبة بوسام الاستحقاق والشجاعة ، فان مسعودة هي

الاخرى خجلة من خوارق زوجة ابنها ، تلقـــة علـــى غياب ابنها المتكرر ومنشغلة بتدهور صحة كلثوم التي كانت تجيء بين الفينة والاخرى لتقدم يد المساعدة في سبيل صناعة الالات الجهنمية . على انها ظلت تسهر على بناء الطاحونة التي كانت على وشك الانتهاء وقد سارعت الى غـــرس بذرات القمح وجعلت تسقيها في الصباح الباكر بعد طلوع الفجر وتصب عليها الكثير من الماء والقليل من الـــدم وتســـع عشرة قطـــرة من ريقها الصباحي . وراح القمح يتنامى على الرغم من غيبوبة الحاكم الذي انتهى الامر بنقله الى مستشفى متطور ومختص في معالجة الحروق الخطيرة في مقاطعة « اونتارو » الكندية . ورغم متابعة الجنرال يهودي لقصفه البلدة ــ كان يتسبب بين الوقت والاخر في ضحية او ضحيتين فيعمد اهل البلدة الى البكاء كثيرا ثم يسارعون الى دفنهم بسبب رداءة الطقس ولنسيان عجزهم الذي لم يكن ناجما عن عيب في الخلقة بطبيعة الحال ولكن صار من الصعب تحمله او اسكاته او القضاء عليه ــ فان الفزاعات الالية كانت تحدث صخبا جهنميا كأنما لتعيد الى اذهان الضيوف الذين قد يمرون بالبلدة بأن الزمن الذي ترك بورا لمدى طويلة يأخذ لنفسه بالثأر علـــى حساب الاجيال اللاحقة ولتذكرهم ايضا بأن فراغ سبعة قرون من الخجل والسلب والاستلاب والتفتت في حاجة الى صخب العالم كله حتى تسد ثغراتها بقدر الامكـــان .

بدأ الاعتقاد يسود في المنامة بأن هناك الكثير من الموسيقى في بلـــدة تلاحقها مثل هذه اللعنة وسوء الطالع اذا لم يحدث قط ان بحت طيـــور الربيع من الزقزقة مثلما فعلت في ذلك الموسم ودوار الشمس الذي تمتلكه مسعودة واختها بالرضاعة كان يحدث حين دورانه حفيفا خاصا شبيها بتلك الخشخشة الخشنة لملايين من اجنحة فراشات وضعت تحت جرس بلوري ووقعت فريسة لخوفها واللقالق العائدة كانت تطنطن بمناقيرها المعقوفة طوال النهار على سطوح البيوت المبرقشة والفزاعات الميكانيكية كانـــت تصدع اقوى الآذان بنواقيسها الخشبيــــة وطبـــولها وصفاراتها وصرير حركاتها . وضاعف الاطفال والدجاج والرحى يضيفون صخبهم منذ ان تخلى محمد عديم اللقب عن تلك الموهبة التي تمكنه من كسر الضحكات وقوقعات الدجاج وسحيف الرحى على مسافة مائة وستة وستين مترا . وكانت الساعات الجدارية تصلصل بتثاقل مقطوعة لتسعة عشر صوتا ولزفير واحد . يصدره جيلالي بوحدبة وهو يموت تلذذا عندما يصغي الى ذلـــك الشلال البللوري الدقيق حين يشع في الفضاء كل ربـــع ساعة ، هـــذا بالاضافة الى الاصوات الاخرى التي تعود عليها أهل المنامة كثيرا : حمالات مسعودة وهي تهوي على لحمها المكتظ ، وتنهدات العذارى المنششة في البيت وزئير التوائم وهم يحلمون بأفراسهم الموروبة الرشم بوشم العهود الغابرة ، والكوابيس المقلوبة الجهيرة لربـــة العشـــيرة وهمسات أهـــل المنامة وهذيانهم خلال النوم .... هذا العجب كله كان يصل الى الشارع ثم يتراص عندما يقترب من ساحة الطيور التي تحوم بها في قلب الليل . نوع من الوشوشة المتضخمة لعالم زائغ شجي بعيد عن الواقع . موسيقى

اخرى : اصطكاك اسنان « الدر » وهي تغرز اظافرها في ظهر زوجها حتى لا تصرخ من اللذة كلما عمل على دفع الحبر البنفسجي الى راسها ، حيث يراودها احساس بأن جمجمتها تتحول الى عقود زجاجية مليئة بأرفيات اصيلية تشبه زهورا بدون سيقان بين النباتات والطيور أو رسائل غرامية حريرية مطوية بكل عناية . وكثيرا ما كان يحـــدث ألا يتمالك الزوجان نفسيهما فيمزق صياحهما وصراخهما ، وجلبتهما الفضاء ويلولبوه ويقسموه الى حويصلات تتسمر بداخلها اصواتهما لكي يتردد صداها بعد ذلك فيبلغ الاجيال القادمة ويعلمها ما الذي يعنيه الحب . وكان الوله بين « الدر » ومحمد عديم اللقب يتزايد على الرغم من بعض السقطات المتولـــدة عن تخوفات الدر وعن انقباضاتها العاطفية والخيالية . كانا يتمسكان ببعضهما لان الازمنة بالنسبة اليهما ايضا كانت صعبة الاستفسار. ويفقدان صوابهما أمام تلك الدوامة من سوء التفاهم والفهم وردود الفعل العكسية والتقلبات المدهشة وحين يجنحان لشواطىء الظنون ، يفرغان ما في نفسيهما من ظلمة بممارسة الحب دون راحة أو هوادة كلما استطاعا الى ذلك سبيلا . كانا يتحابان ومن حاجة الى البرهنة على ذلك يوميا في الغرفات التي تتعاقب الى ما لا نهاية ، والتي تندمج الواحدة منها بالاخرى ، داخل العاصفة الشمالية التي ترطب بشرتيهما وعضلاتهما وعظامهما الى حد القشعريـــرة لشدة البرودة التي تلف سعادتهما في حين ان البلدة في الخارج كانت تحترق تحت افران الرياح اللافحة ووسط حنان المخلوقات التي تغرق في عرقها باستمرار وقد كان هناك شاطىء آخر من شواطىء الحياة بالنسبة لهذين الزوجين الخارقين ، وهو سرمدية المرآة الوحيدة بالمنامة ، التي زينت زمنا طويلا بهو بندرشاه ، وما وراء لغة الروعة التي تكتفي للتعبير عن نفسها بايماءات العشق وبنغمات النشوة اذ كانا حقا يشاركان بمطارحتهم الغرام اي بطريقتهما الخاصة ، في سمفونية البلدة ذات الالف عازف والتـــي تمكن السائرين التائهين في الفيافي من العثور على طريقهم ليلا ونهارا بنقل هذه الموسيقى المتسلسلة المتألفة من الصخبوالصيحات والتـــي كانت ببنيتها العامة تفضي الى عوالم تفوق الوصف .

وهكذا استطاع الحاكم الذي شفي من حروقه الفظيعة ان يعثر على طريق البلدة . قيل له دائما سر في اتجاه الازامل الخارقة التي تفيض من اسوار اليقظة وحدود الذهول . وعلى الرغم من السرية التي أحاط بها عودته ، فانه استقبل من قبل السكان الذين لاحظوا بتأثر انه بالاضافة

الى آثار الجروح التي حكم عليه بحملها طوال حياته ، قد اصطحب معه زوجته وطفله . وكان ذلك دليلا على أن « مهدي واعي » يشعر بالحاجة الى ان يضرب بجذوره في الواقع المتشعب الذي يستحيل توقعه ولا يعيد نفسه ابدا لأشد بلدة اعوجاجا في العالم كله . وشعر السكان بالفخــر وازدهاؤهم كان مبررا لا سيما وأنهم كانوا يعلمون ان بعض حكام المناطق المحرومة في البلاد لا يستقرون بها أبدا مع عائلاتهم . كانوا يتركونها في العاصمة ويحولون مقر أعمالهم الى محط لا يطأونه الا نادرا بمناسبة حفلات التدشين التي تتطلب حضورهم والحفلات الرسمية التي يتخلصون منها بأسرع ما يمكن للعودة الى المدينة الكبــيرة ولاستئناف عاداتهم ومقالبهم وزبائنهم الساسة . وكان « واعي » من التشوه حتى ان بعض المناميين الحذرين على الدوام اقسموا بأن الأمر لا يتعلق بنفس الشخص وندموا على الاستقبال العفوي الذي خصوه به . وبالفعل ، فالرجل لم تنسلخ بشرته فحسب بل تغير صوته ايضا وفقد شعره الذي كان يدهنه بكل عناية قبل حدوث كارثة مضخة الماء الرهيبة ، وازداد طولا بصــورة مبالغة ، واستبدل حركاته السابقة بطريقته في المشي بأخرى جديدة، وفقد رشاقته المعهودة لانتهاجه مشية خالية من التناسق مائلــة نوعا ما وتذكر بمشي ــ حيوانات الكنغورو ــ ــ التي لا يذكرها أحد من أهل المنامة دون أن يذرف عليها بعض دموع الحنين ــ او حتى بالحركة المتخلعة للفزاعات الميكانيكية التي صنعها الاحدب الشيطان وقد بدأ الناس يشكون في أمره ويحسبونه خيماويا يصنع في ورشته مشروبات سحرية ، وجروعا رائعة وأكاسير دمعية . وانتشر مرض الشك هذا بسرعة الريح الرملية وذاع صيت جديد في البلدة منذ عودة الحاكم الذي قرر طرق الحديد وهو ساخن رغم تجربته المؤسفة مع مضخة الماء ، وافصح عن استعداده لانقاذ المنامة من التفسخ والتفكك . وكانت هذه الطريقة تتمثل في التشكك في هوية كل انسان غير ان أهل البلدة قالوا فيما بينهم : « ليس لدينا اي دليل على ان حاكمنا هو الحاكم الحقيقي . لا سيما وانه ليس لدينا اي سبب يدفعنا الى الاعتقاد بأن المواطنين البسطاء هم انفسهم فعلا » . من ذا الذي كــان يستطيع القول بأن الحلاب الذي يمر بمعازه في الصباح بأزقة البلدة فيحلبها ويملأ المواعين التي يمدها الصبية الذين لا يزالون نائمين هو علي بو معزة حقا ؟ ولا يوجد اي دليل ايضا يمكن مواطني البلدة مــن التأكيد على أن القصاب هو سالم الازرق نفسه أو أن الاسكافي هو علاوة الاحمر المسمى بالشيوعي او أن الساعاتي هو جيلالي بوحدبة المسمى بالاحدب أو أن

ماسح الاراضي هو رشيد بناصر المسمى برجل الامور الوسطى أو أن محمد عديم اللقب هو ابن مسعودة عديمة اللقب الشهيرة بفورات غضبها، وبحمالاتها وبكرمها وبقدرتها على العمل وبضحكتها المجلجلة وبخصوبتها المذهلة ؟ وكما كان الحال وقت صدور القرار الشهير حول زواج الشواذ ، لم يعد أحد يعرف من هو من ، وراقت اللعبة للمناميين الذين قتلهم السأم وجعلوا يخلطون الامور فيما بينها الى أن تضببت عقولهم . كل هذا لأن الحاكم قد أصيب بحروق رهيبة وغير مظهرة . على أن صلب المشكلة كان في جهة أخرى . فأصحاب مثل هذه الفلسفة المبهمة كانوا على اقتناع تام بأن الشخص الذي عاد ليس « مهدي واعي » بل شبحه لأنه لم يكن في مقدورهم التخيل ، حين ابصروا به بعد تلك الكارثة بأنه من الممكن اخاطة هذه الأكوام من اللحم المشوي من جديد واعادة العظام الى أماكنها ، وصقل بشرته ونفخ الحياة فيه مرة ثانية . على انهم لم يجرؤوا على الافضاء بكل وضوح بما كان يعذب ضمائرهم خفية . وهكذا قرروا اشاعة الشك لكي يتخلصوا من الورطة دون تدنيس اي شيء أو استثارة ارواح العائدين القادرين على الانتقام منهم وعلى ارهابهم وعلى بث القلق في أوساطهم العائلية وفي بيوتهم . وسرعان ما أدرك محمد عديم اللقب أن مكانه لا يؤهله لحل هذا المشكل ولاعادة الهدوء الى العقول . بل انه أدرك أنه المسؤول الأول اذا ما كانت الخوارق قد سيطرت على عقليات أهل البلدة مثل العشبة السيئة التي لا نفع فيها ونباتات مسعودة . لقد تلاعب بالخوارق كثيرا وكدس المواهب النفاذة ، واختزن الاحاسيس التنجيمية في حين انه كان من الواجب ان يدفعه دوره الى محاربة السحر والخرافة والمعتقدات الغبية الراسخة بقوة في أذهان أهل البلدة ، الذين لا يعرفون من الحياة الا وجهها المعكوس ومن الواقع سوى تقديره الاستقرائي المزيف . لكنه لم يتجرأ على اعطاء تفسيراته ولا على عرض حججه . وقد لامه على ذلك بمرارة صديقه وصهره رشيد بناصر الذي عرضت هويته هو الآخر للتشكك . « انك بحماية الظل الذي يسبقك دائما ، وبطريقتك في كسر ضحكات الاطفال ، وبقراءاتك الأنفية وقدرتك على فض المنعطفات ، وقدرتك فيما مضى على رش العذارى اللائي لا يمكن افتراعهن بالندى الليلي . انك بذلك كله ، قد أوقعتنا في المأزق ... وعلى أية حال ، لقد نجوت من عساكر الجنرال « يهودي » بتضخيم ظلك الى أن صار شبيها بك !من انت في واقع الالأمر ؟ أأنت نفسك أم ظلك المضخم مثل دمية من السيلوليود .... ثم ماذا عن حذائك المطاطي الذي يجهل المسافات .؟.

كلا ! لقد أوقعت نفسك وأوقعتنا معك ... ان مسعودة في أشد غضبها ؛ لا تقبل أن يتجرأ أحد على الشك من واقعها ولا في حقيقة حمالاتها الصاخبة بوجه خاص ... » ولم ينبس زوج « الـــدر » ببنت شفـــة ازاء كل هذه البداهة . وقد دهورت عودة الحاكم العجيبة من الصحة العقلية لأهـــل البلدة . وكان يشفق عليهم لشدة ما يحس بضعفهم واضطرابهم وهشاشتهم ودهشتهم وترك الزمن يفعل فعلته . والغبار يتراكم على الهاجس الجديد وترك العناكب الضخمة تسدي في افخاخهم شبكات حريرية تفرزه قرونها المعقوفة . والطيور تعيد الاحساس بالقياس الى ما حولها بل انه ترك الأشغال اليومية تقضي نهائيا على القلق ، والحياة تحول وجهة الحصر عن مجراه ليصب في اقنية أخرى منتجة وخلاقة لثروات تنقص نقصا مخيفا . حتى خزانات مضخة البنزين كانت خاوية ! الكل يجهل سبب نفاذ حقول النفط ؟ نهب قام به الجيش « البراوني » اثناء احتلاله المؤقت للمنامة ؟ اختلاس هذه الثروة السائلة من قبل المهربين المرتبطين ببندرشاه ؟ لا أحد يمكنه أن يجزم . ومن المستحيل ان يعطي القط الأبيض وهو الشاهـــد الوحيد في عين المكان الاجابة الصحيحة !. فأهل المنامة لم يكونوا قـــد اكتشفوا بعد اسلوب التحادث مع القطط ...

هذه الهواجس كلها وكوابيس اليقظة والاقاويل والاشاعات لم تمنع الحاكم عن الاستقرار بدار متواضعة جعل بها مكتبه الخاص . وربحا للمجال، اقام في أروقة الدار مصالح أعوانه القلائل الذين مكثوا في عين المكان . وقر رأيه على ان يعيد النظام الى الشؤون المتشابكة المغبرة لبلدة المنامة . القرار الأول الذي اتخذه بعد رجوعه هو اعادة محافظـــة الشرطة الـــى وظيفتها الاصلية . وافتتح الماخور من جديد . فكر طويلا في هذه المشكلة وادرك أن الحرمان الجنسي ليس الا شكلا من اشكال القمع المفرط الداحر وأن النقص في هذا المجال يمثل خطرا على أمن النساء وعلـــى التوازن العقلي لدى الرجال . وعادت البغايا الشهيرات ذوات الطرائف المتنوعة على متن العربات سبعا سبعا . ولم تنس اي واحدة منهن وشمها الذي لا يمحى عبر العصور وعبر الكواكب . وعاد حب الحياة الى نفوس العازبين، وبعض الاباء والشـــواذ ، وزعزعوا تلقائيا النظريـــة القائلة بلا واقعية الموجودات وخاصة ما يتعلق منها بالحاكم . كان لديهم في ذلك حجة دامغة . اذ كيف يمكن لشبح ان يعيد فتح الماخور ؟ اين حدث مثل ذلـــك ؟ وشيئا فشيئا قلب انصار اللذائذ والشهوات الوضع . وحدد أهل المنامة من جديد

وبصورة تدريجية هويات بعضهم البعض . وتخلص محمد عديم اللقب من تلك الورطة ، في حين ان جيلالي بوحدبة الذي لم يكن يغادر ورشته مخافة ان يحرق حيا بتهمة الزندقة نفس حدبته واستراح . ونسي الجميع التهمة الموجهة اليه على انه لم يكن الا ساحرا هربت نسخته البديلة من جحيم ابن حيان اشهر خيماوي في العصر الذهبي ، المتوفي في القرن التاسع . واستعاد ماخور « الكبش الشبق » نشاطه وحيويته السابقة . واستأنف التوائم الثمانية لمسعودة عاداتهم الليلية وأكملوا في نفس الوقت بناء الطاحونة التي رغبت فيها والدتهم .

وذات صبيحة أربعاء ، وعلى الساعة العاشرة حسب دقات الساعات الجدارية الصقلية ، هجم فيلق مباغت تابع للجنرال « يهودي » على البلدة وتسبب في مقتل شخصين وعاد من حيث أتى . وظن الناس ان الامر ليس الا تحرشا لا طائل من ورائه او عملية همجية مجانية . لكنهم سرعان ما أدركوا بأن العساكر الأجانب انما جاؤوا لخطف محمد عديم اللقب . لم يحالفهم الحظ . محمد كان خارج الاسوار يتأمل وراء خطوطهم في غرائب الحياة وفي الصعوبات المترتبة عن ضبط ذلك الثفل من الاشياء والموجودات والأحاسيس والظواهر والانطباعات ! دفنت الجثتان وضمدت جراح المصابين الخفيفة . ولم يفكر الناس في الهجوم بعد ذلك . على أن الحاكم كان عاجزا ولم يكن يتوفر على الامكانيات لرد الهجوم فرفض أن يبرق — وكان قد أتى بآلة مبرقة كاتبة تشتغل بالطاقة القمرية — الى الحكومة المركزية التي كانت تلها مشاكل اخرى تريد تسويتها . وفي نهاية النهار ، قام بزيارة محمد عديم اللقب لتهنئته على نجاته من ايدي العساكر الاجانب . وطمأنه هذا الاخير ، وحدثه عن حذائه الذي كان منشغلا بتبييضه كما يفعل كل مساء في نفس الساعة . ورفض محدثه الدخول في مثل هذه الاعتبارات التي لا علاقة لها بأكوام الورق والادارة والقوانين وقواعد التسيير . ورغبت مسعودة في ان تدعوه الى تناول العشاء لكنها كانت في مثل موقف ابنها وقالت في قرارة نفسها أنه على الرغم من لطافته ونزاهته وجده ، يبقى حاكما على أية حال . وخشيت من ترسانة القوانين اللامجدية والصعبة التطبيق ، التي يزدحم بها رأسه . فأسكتت رغبتها ، لكنها استفسرت منه عن صحة زوجته وعن اسم طفوله . ثم اضافت بأنها تعرف كيف تطرد العساكر ان هم عادوا . « القوة الى جانبهم ولكن لدينا الحيلة والمكر والحماية الالهية لا تخشى شيئا يا سيادة الحاكم : نحن

قادرون على الصمود الف عام » . ولم يكن لديه ما يضيفه . واكد محمد عديم اللقب اقوال امه : « لقد حدث مثل ذلك خلال التاريخ » . غير ان الرجلين كظما في اعماقهما اليأس والعجز والمرارة التي كادت ان تطغى عليهما . ولكن الى متـــى ؟

لم تعد كلثوم قادرة على التطرق الى المشاكل بصورة حازمة ومزدرية في نفس الوقت . فلم تدر ما تقوله . وقد علمت بخبر الهجوم الاخير وهي تصغي دون اهتمام الى صوت مسعودة الحاد وهي تثرثر مع والدتها من غرفتها المبردة بنفس فصائل عباد الشمس الذي يجعل الحياة رخية وفي دار عديم اللقب. لم يدهشها الامر واستغربت للاهتمام الكبير الذي أولي له. لم تبذير اللعاب والاعصاب اذا كان الرد غير ممكن ؟ من الاجدى بهم ان يركزوا جهودهم على المشكل ويبحثوا عن حل جذري له بدلا من ان يرهقوا اعصابهم ويسترسلوا في الحديث لتشجيع انفسهم . وكانت البلدة غارقة في الشجون والاستبصار. ودفن الاموات اضحت حركة ميكانيكية يأتيهـــا الناس ، وقد جفت دموع النسوة لشدة ما كن في حاجة الى ماء اباطهن لارواء غليل دود القز الجشع ولاحتضان الشرانق الهشة المهددة في نفس الوقت بالربو والزكام والبرد . كانت كلثوم تزداد استمساكا بالبوقال ، تعبيرا منها عن عزلتها وتشتتها . وتغرق في ابهامات الشك وانعدام اليقين واللاوضوح ، ولا تبذل ادنى جهد لطرد ذباب سوء الطالع الذي كان يصلها رغم برودة الهواء داخل البيت ، لان بشرتها كانت تفوح برائحة الوحل التي تعرفها تلك الحشرات معرفة جيدة . لكأن طمي الفرات ودجلة تجمع في جسدها الذي لم تعد تقوى على نقله من مكان الى اخر لشدة ما كـــان يراودها الشعور بأنه من طين وبأنه يستطيع ان يهرب منها في كل لحظة وفي اي وضع من الاوضاع وفي اي ساعة من الساعات . وجعلت تبتعد اكثر فاكثر عن هذا العالم الذي عملت جاهدة في الماضي على جعله في متناول اصابعها ولم تعد تسأل عن اخبار محمد . وكانت تقول لوالدته التي تثقل عليها بأسئلتها وتحاول ان تستخلص منها بعض الكلمات عـــن هذا العشق الذي خدشها من الخارج بعد ان تآكلها من الداخل زمنا طويلا « اذا كان ابهامه في حالة جيدة فهذا يعني انه على ما يرام » . ولم تكن لها اية ردود فعل ازاء احداث في مثل اهمية وخطورة كارثة مضخة الماء ، وعودة الحاكم والهجمة الاخيرة التي وقعت البلدة ضحية لها ، هذه البلدة التي شهدت مولدها والتي قضـــت بها حياتها القصيرة ، باستثناء عامين

عاشتهما في « سيدني » لتعلم اللغة الانجليزية التي سرعان ما نسيتها . لقد احتفظت بذكرى سيئة عن استراليا ، هذه القارة الصارمة العجوز حيث يشترى منها السأم داخل علب في كل الصيدليات ! وكأن هناك الاحساس الجسدي تشعر به في عمودها الفقري وكأن ما يسري فيه هو زيت الكتان او السمسم الذي يستعمله جيلالي بوحدبة لتزييت لوالب الساعات الجدارية التسع عشرة التي كان مسؤولا عنها . علاوة على شعورها بتسرب مائي في قلبها .

لم تعد تقدر على سده ولعلها فقدت الرغبة في ذلك . ثم انها كثيرا ما تفكر في حكايات الساعات الرملية التي رواها لها محمد عديم اللقب قبل ان يحشر لها كاميشيه في فرجها ويقطع ابهامه الذي سرقته منه لكي تضعه داخل اناء مليء بالفورمول . وكان يسمي تلك الالات الخاصة بقياس الزمن بسارقات المياه على سبيل ممازحتها . وها هي اليوم تفكر في ذلك كله يحدوها احساس بأن ماءها يسرق منها، ويتقاطر في احواض الوهن والخمود، وتذكر العديد من الحكايات التي كان يبتدعها ابتداعا حول سارقات الماء التي تفنن فيها البيزنطيون الى حد ان صنعوا البعض منها مزودة بطوافة تحرك دواليب تعمل بدورها على ذبذبة رقاص امام لوحة مدرجة . كم كانت هشة وبالغة التفنن تلك الساعات الرملية . وهكذا ، حينما كانت تغلق النوافذ الخارجية لغرفتها وتتمدد على فراشها ، يعتريها الاحساس بأنها ثكومة . وقد ادركت منذ زمن طويل ان ماءها يهرب منها من كل جهة الى حد ان يغرق وجودها والى حد ان دواليبها تتأكسد الى ان يتجمد الزمن . لكنها لم تكن ترفع صوتها بالشكوى وتظل طوال ساعات تحدق في الابهام وهو يطفو على سطح بوقالها مثلما يطفو المرض على جسدها، تهدهدها في ذلك وشوشات والدتها وعمتها بالرضاعة — والدة محمد عديم اللقب التي كانت تحبها بقوة وعنف لم تكن تظن انها قادرة عليها ، قوة وعنف يجعلانها تتسمر في سريرها — بمنأى عن الستائر الخارجية التي كانت بتلات عباد الشمس الهائلة تبث الظل والضوء بالتناوب تبعا لموقع الشمس وتشطر جسدها كأنما لتجعله اكثر شفافية وميوعة . كانت ترهف السمع الى الزيت اللزج وهو يسري عبر عمودها الفقري ، بل انها لم تعد تدري بأن الطيور قد جنت اكثر فأكثر واستعادت موسيقاها السابقة التي ضاعت بعد انقراض الانثى الاخيرة من حيوانات الكنفورو ، التي مصت حليبها الى اللحظة الاخيرة والى اخر قطرة . وبمجرد ما كانت

والدتها تفرغ من تنظيف البيت وسقي نباتات الحديقة تأتي اليها في غرفتها لتتحادث معها في "انتظار" وصول مسعودة ، التي تفر عادة من العتمة وتقعد مع زهرة بندرشاه في السطيحة لتقولب الزمن وتمزج ما بين اتساع بيوت اسلافهما وفشل زهرة الذريع ، مع الاحتفاظ دائما بجشعها الهائل الى الحركة والحيـــاة .

وسمنت الدر كثيرا وتمددت بشرة بطنها الى حد انها خشيت ان تتمزق او تنفجر مزقا مزقا مثل جلد طبل السيد بربي الذي قلت اخباره منذ وقت، او لعله كان مستاء لان احدا لم يرد على بطاقاته ورسائله التي يتحدث فيها عن حياته الجديدة وعن المهنة الذليلة الكافرة التي تردى اليها ، ذلك لان البطالة كانت منتشرة في انحاء العالـــم ولان الارياف شــــهدت نقصا في القرائح مع الايام بدءا من رتبة الاسقف الى القواس البسيط . وعلى الرغم من حالة الحمل المتقدمة وحجم بطنها غير العادي فانها عملت علـــى ان تزور كلثوم لانها كانت الوحيدة القادرة على ان ترفه عنها الى حـــد توريد خديها بألوان باهتة ، خلبت بيضويتها وغمازتاها الفاتنتان عمال الارصفة بمدينة ملبورن ، عندما كانوا يترددون على الحانات المشبوهة كانت تذهب بانتظام لتعقد اواصر المعرفة مع حثالة الارض وتلصق العار بأبيها التافه. ولم تكن المرأتان تتحدثان الا عن محمـــد عديم اللقب ، وعـــن شذوذه ، وخوارقه ، ومواهبه الاستبصارية واعماله السحرية ، وتوقفاته وخيبته وفشله وانتصاراته وهزائمه ، وصراعاته ، وولعه بالتاريخ وبالسياسة، وصراعه ، وارقه وابهامه الذي تعملان معا على تغيير السائل له بطريقة طقوسية تدوم بضعة ساعات ، خاصة ان هذا العضو الذي بتر في يوم من ايام الحنان قد صار هشا جدا . لقد تعتق كثيرا وتعفن في الفورمول حتى وان لم تنس كلثوم ولو مرة واحدة ان تستبدل السائل الذي يسبح فيه . كان عليها ان تحصل على بعض التركيبات من الماء المقطر والحامض، وتنقل هذا الطرف المكون من اللحم والغضروف المورد ، وتطهر طبق الماء بالجافيل لتبيد ادنى جرثومة قد تنال منه ، وتملأه ، وتعيد الابهام ثم تغلقه باحكام حتى لا يتسرب الهواء اليه اولا وحتى لا يفر بعد ذلك ، وصار ابهام محمد عديم اللقب يشبه الان قطعة من قماش الرياش نقع في الماء زمنـــا طويلا ، اذ ليس من الممكن تفادي مفاجآت ابن مسعودة الاكبر . ثم ان كلثوم كانت تحب ان تتلمس بطن الدر الضخم ، وتضع اذنها على بشرتها لكي تنصت الى خفقان القلب ، وكان ذلك طقسا من الطقوس التي تأخذ

منهما وقتا وتسليهما . ومع ذلك فان كلثوم لم تشعر ابدا بالغيرة من السعادة الزوجية التي تتمتع بها منافستها . اذ لم يكن لها يد في الموضوع. وعندما كانت « الدر » تضحك وتلح على معرفة حقيقة الشعور الذي تكنه لها صديقتها ، كانت هذه تجيبها مازحة : « دعينا من هذه الحكاية ... انها قضية طيور الكاميشي ، ليس الا ... » على ان كلثوم كانت في واقع الامر مشدوهة بتلك الضربات الصغيرة التي تسمعها عبر بطن رفيقتها وبالطريقة التي تضمن بها الوشم بسبب انتفاخ بشرة مسعودة السعيدة التي لم تستحق هذا الاسم مثلما استحقته الان . وما كان هناك احد غيرها يستطيع ان يفهم تعاسة كلثوم . وذات يوم وقد لاحظت شحوبها ، وسأمها وضحكها الزائف الاجوف الذي يشبه صلصلة هيكلها العظمي تجرأت واقترحت عليها ان تتقاسما الرجل الذي تحبانه معا : « انظري الى جسدي ، انه مشطور الى شطرين متساويين ، ولكنه واحد . سوف ندخل بعضنا البعض ، وبدلا من مكان الوشم وموقعه لن يكون هناك سوى شق صغير ، يميز بيننا ... » بكت كلثوم عرفانا بالجميل لكنها آثرت السكوت. كانت تعرف رجلها ذاك وتعلم انه جاد في كل الامور ، وعنيد ونزيه . انه لن يقبل ابدا بمسألة تعدد الزوجات ولن يخدع مبادئه السياسية بهذه الطريقة . « انه من الخشونة بحيث لن يقبل مسايرة حناننا ، ثم انني لم اعد ارغب فيه ... ابهامه اقل وطأة من جنونه ومن خياله الجارف . لن استطيع الصمود ، لقد صرت عجوزا ! حتى وان كنت لم ابلغ العشرين بعد ! لقد قضت علي قراءاته الانفية ... وهذا شيء كثير بالنسبة لامرأة واحدة » . اما محمد فكان ابعد من الظن في نوعية العلاقة بين المرأتين ، وقد صار يتعذب بالشك في اقتراب اجل الوضع لدى زوجته ويخشى الا تنجب الا طفلا وحيدا تثقل عليه عزلته طول حياته . ومسعودة سوف تثور ثائرتها ولا ريب . الم تقرر بأن عليه ان ينجب توائم من جنسين مختلفين لانه ولد وحيدا وبدون اسم ؟

وبعد فترة من الزمن طويلة ، طويلة . اي في اليوم الذي دفن فيه محمد عديم اللقب والدته التي نيفت على المائة ، تذكر جنازة علاوة الاحمر الذي مات وهو في سن الخامسة والسبعين دون ان يخطر حتى اصدقاءه . اما الحاكم الذي لم يضيع وقته ابدا فلم يكن محظوظا في محاولته الثانية . فلقد جاءت من حيث التوقيت مع موت الاسكافي الشيوعي ، وكان محمد يتذكر جيدا بأن الصدمة التي تسبب فيها ذلك الفقدان قد مسحت الاثار

النفسانية التي ينتظرها « مهدي واعي » من اعلانه عن مشروعه الاخير . كان الامر يتعلق باحداث تربية حقيقية وعلمية للبقر المستورد من سويسرة وتغذيتها بالحلفاء التي تتكاثر في المنطقة والسهر عليها من قبل بيطريين مختصين على وشك الوصول على متن الطائرات الشاحنة التي تقل هذه الحيوانات والهدف من ذلك كله هو تكوين تقنيين في عين المكان في مجال الصحة البقرية من بين الشبيبة العاطلة بالمنامة ، دفن علاوة الاحمر في كفن من الحرير الاحمر سجته « الدر » بكل الحنان الذي استطاعت ان تضيفه عليه من خلال فن التطريز . ولم ير الامام اي حرج في ان يرسم المنجل والمطرقة بالاخضر والابيض على الكفن ، بل انه لم يتردد في اداء صلاة الغائب عليه ، على الرغم من ان الاسكافي لم يهتم في حياته ابـدا بمشكلة الله التي كان يراها زائدة عن الحاجة بالنظر الى مآسي البشر واحزانهم اليومية ، بل ان محمدا فكر في ان يضع صورة ستالين على صدر صديقه العجوز الذي رافقته البلدة كلها الى مثواه الاخير . مع العلم بأن الناس كثيرا ما وقفوا موقف الحذر من افكاره . لكنه كان النعال الوحيد الماهر في البلدة كلها . ولولاه ، لما استطاع احد ان يسير على قدميه : على ان ذاكرة اهل المنامة كانت ضعيفة بخصوص الاموات وسرعان ما كفنه غبار النسيان . وما كان لمحمد ان ينساه ابدا . كان يتذكر جلسات قراءة الصحف في حانوت الاسكافي العجوز . وكان في كل صباح وقبل ان يفض صديقه الجريدة التي يعود تاريخ صدورها الى بضعة اسابيع يطرح عليه نفس السؤال القلق : « ما الذي قاله ستالين اليوم ؟ » وقد ظل « علاوة » يطرح نفس السؤال حتى بعد مرور زمن طويل علـى وفاة الزعيم الشيوعي . كان محمد صاحب المواهب المتعددة الذي آل به الامر الى ان يقرأ بأنفه ، كان يخبره عن الصراعات العمالية والشعبية وعـن معارك التحرير الوطني التي تخوضها الشعوب . سؤال الاسكافي كـان ينطوي في واقع الامر على انشغال عميق ، ثم ان طرحه بصورة ساذجة مركزة حول عبادة الشخصية ، لم تكن الا طريقة تقليدية للاطلاع على احوال الثورات عبر العالم . غير ان محمدا تجرأ ذات يوم على القول بأن ستالين لم يأت بشيء . ووقع في روع العجوز ان صاحبه يهزأ به فما كان منـه سوى ان غضب غضبا ماحقا . وطرد قارئه الوفي المعتاد وامتنع عـن توجيه الحديث اليه لمدة ثلاثة ايام .

وصلت البقرات السويسريات والبيطريون ذوو الجنسيـة الواحدة

ذات صباح من شهر جانفي كان الطقس فيه رائقا . واحيط اهل المنامة علما بواسطة مكبرات الصوت فشهدوا وهم في حالة من الوجوم انزال تلك الحيوانات الضخمة التي اضطرت الى افراج قوائمها حتى تقوى على المشي اذ كانت ضروعها الضخمة تعوقها عن ذلك . واقتيدت وسط تصفيقات المناميين المخلصة الى حظائر حديثة تم بناؤها لتوها . وسكن البيطريون عمارة كبيرة واسعة بنيت في نفس الوقت بجوار الحظائر . واغرق الناس بحليب البقر الثخن والثري الى حد ان المعاز ماتت غيرة . وفكر بعض الماكرين في استعمال السائل الابيض لري قطع ارضهم اليابسة التي ظلت بورا لسنوات طويلة . على ان الحاكم اقنعهم بعدم الاخذ بهذا الرأي ، وشرح لهم بأنه ينبغي تحويله الى جبن لتصديره ولسد النقص الناجم عن ازمة وعن كساد تجارة الحرير . وحزن البعض حزنا كبيرا لرؤية كميات هائلة من الحليب تحول الى جبن في حين ان حقولهم المشقوقة كانت متعطشة الى اي نوع من انواع السوائل . ولكن سرعان ما تبددت احلامهم ، وتبعهم في ذلك الحاكم ! لكن البقرات بدأت تدر القليل فالاقل من الحليب بعد الاسبوع الثالث . واعتقد الناس ان ذلك راجع الى تغير النظام الغذائي فتخلوا عن تغذيتها بالحلفاء وتحولوا الى التبن المستورد من الارجنتين . عبثا فقد ظل الانتاج يتناقص ، والضروع تضمر والبقرات تنضمو شيئا فشيئا. واحرج البيطريون ففكروا في اختلاف الطقس غير ان الحظائر النموذجية كانت على درجة مثالية من الحرارة ، وقد كلف محمود بالسهر على انتظامها مثلما فعل ذلك جيدا بغرفة الطمث . وقد امعن التقنيون السويسريون طويلا قبل ان يقر رأيهم على تقديم فرضية جديدة ، وكان عليهم ان يعجلوا بذلك ، ذلك لان البقرات فقدت النصف من اوزانها، وزار احدهم الحاكم واوضح له بأن البقرات ، على الرغم من وجودها في نفس ظروف العيش والطقس التي كانت عليها في بلادها الاصلية ، تعاني من نقص كبير ... كانت في حاجة الى سماع الموسيقى الفلكلورية لمقاطعة « الفود » التي جيء بها منها وهي تشعر بضرورة الانصات الى اجراس التبشير والى نايات الرعاة المحليين . طلب من «سليم موزيكا» ان يضع مقطوعة ملائمة ، تتخللها اجراس الكنائس واصوات النايات لمنطقة « الفود » . ظن الحاكم بأن احزانه انتهت حينما بلغه نبأ موت البقرة الاولى ، واصيب بالذعر ، استدعى محمد عديم اللقب والامام لنجدته . اوضح محمد بأنه لا يمكن استيراد بقرات سويسرية دون نقل جبال الالب التي نشأت بها في نفس الوقت ... اذن ! كان عليه ان يتصرف مثل

« بندرشاه » ويستجلب جبلا جليديا ! وسرعان مــا ادرك مهدي واعي مضمون هذا الحل الساخر ! على ان الامام كان واضحا فيما قاله : « لا طائل من التفكير ، شفاؤنا كله صادر عن غضب الله النهائي علينا . انظر الى المساجد كيف خلت من المصلين وكيف امتلأت المقاهي بلاعبي الدومينو وبيوت الحرام الموشومة » ثم انصرف. وتهاوى الحاكم وهو يفكر في ان الامام يعرف كيف يصوغ جملة غير انه رفض قدريته . كان الامر قد انتهى به الى ذلك الحد عندما بلغه نبأ موت البقرة الثانية . حينذاك شعــر برغبة محرقة في البكــاء .

يوم التاسع عشر من كل شهر هو يوم متميز لدى عائلة عديم اللقب. وكانت مسعودة تعمد الى غلق كل شيء ، وطرد الرجال من دارها ، وتطلب من العذارى الخمس الجلوس على قصرياتها الثمينة ، فوق اعلى السطح وتترك الامر للطبيعة لكي تعمل عملها . وهكذا ، كانت ميازيب الحياة تنبجس بنبضات ذلك الشيء الذي لا يقوى على ان يصير جنينا فيتفجر عن دفق ثري غزير تنتظره الارض البعل لارواء نفسها . فيسيل الدم السخي من فروج فتيات الدار المشعثة النابضة وهن ينتظرن ادوارهن في الزواج لكي يتخلصن من تلك المراسيم التي تدوم خمسة ايام تحت انظار امهن القلقة المتوثبة ، في جو متثاقل شبيه بأجواء العفن والقيء. ولهذا السبب بالذات ، كانت حارسة العرش تغلق الابواب والنوافذ وتسد الشقوق والشروخ ، ولم يكن شيء ليخفى عن رقابتها ، حتى شقوق السقوف واخاديد الجدران . ومن اجل ذلك قررت تنظيم الشعائر الطقوسية فوق البيت حتى تنقل الرياح عطور بناتها النفاذ وتنشرها عبر الابعاد . وخلال هذه الفترة القدسية التي تدفع بها مسعودة الى حد الذروة ، كانت روائح التوابل القوية تنتشر في المنامة ، وبالاضافة الى سيلان العذارى الخمس المهبلي ، كان هناك انيض الاباط النسوية حيث تتجمع الشرانق دائما وسط الروائح الحريفة وشذا العنبر والجاوي المحروق في المجامر المحتدمة للتخفيف من احتقان العالم السائر نحو تفتته وانهياره . على ان الحاكم الذي ظل جاهلا بأن مثل تلك الممارسات البالية لا تزال سارية المفعول ، لم يكن على اطلاع بعملية وضع دم الطمث في القصريات ، هذه العملية التي تشرف عليها اضرس امرأة في البلدة ما

بين اليوم التاسع عشر والثالث والعشرين من كل شهر ! وكان موت البقرات التي استوردت بمبالغ طائلة قد احزنه كثيرا ، بينما عمد اهل المنامة الى اقامة علاقة بين موتها وبين انقراض حيوانات الكنغورو . وهكذا ، عاد دوار الحذر يعصف برؤوسهم ، اما مضخة الماء ! فلم يكن احد يدري ما يصنع بها . الا اذا أقيم جهاز تحت الارض لتبريد السائل الذي يغلي في بطن المنامة . اما فيما عدا ذلك فليس هناك اي حظ امام تلك المجموعة البائسة من البشر التي استنفدت امكانياتها كلها . غير ان جهازا كهذا ليس الا شطحة خيال طوباوية لانه يتطلب ثلاثة اضعاف الميزانية الوطنية السنوية ! وهو من ضروب المستحيل ! وخلال ذلك كله ، ظلت تلك الالة المنصوبة في قلب الصحراء تعاني من زحف الصدأ ، تتلقى قاذورات اللقالق ، التي كانت مهووسة بالاعالي ، فحولتها الى مجثم بنت عليه اعشاشها الناعمة الكبيرة المحشوة بقطن الجنون والصمت . وكم كانت صاخبة فيما مضى ! ولم تكن المضخة هي الوحيدة التي تأكسدت واهترات بل الاشخاص هي الاخرى جعلت تحشو حياتها وغضبها بالقطن الضارب الى الزرقة . ولم تكن اذانهم لتقوى على الطنين مع ضوء النهار الذي يحزن الفضاء ويفكك كل المهاوي التي تحولت الى خشبات مسرح كبير في الهواء الطلق ، ذلك المسرح الذي وعدوا به منذ سنوات طويلة والذي لم ينتظروه ابدا لانهم كانوا يزعمون بل يعتقدون بأنهم افضل الممثلين في العالم اجمع ، كانت المأساة والهزل في رأيهم قد ولدا بالمنامة على سطح هذه الارض المحروقة . هذا بالاضافة الى ان اسماعهم ملت تلك الاقاويل التي تزعم بأن الرخاء سوف يعم قريبا ، فبما انه وجد قبل عشرة قرون ، ليس هناك من سبب يحول دون رجوعه لكي يلمسهم بنعومته ويغمرهم بغزارته . غير انهم في واقع الامر كانوا يقولون بضرورة وضع كل الانذال الى جدار واعدامهم فوراً حتى لا يعودوا الى ترصيع عرى بذلاتهم بجلطات الدم الحمراء المحبحبة لهؤلاء الذين اعدموهم وهم في العشرين وفصلوا رؤوسهم عن اجسادهم وهم في سن التاسعة عشرة ولهؤلاء الذين بتروا اياديهم اليمنى ثم اليسرى ثم الارجل اليمنى فاليسرى . وقطعوا اعضاءهم قطعة قطعة في حال تكرارهم لنفس الجرم حتى يسكتوهم ويتخلوا عن ميولهم وغرائزهم السيئة . كان السعار يهز بلور النعاس في حين ان الكوابيس تفرض نفسها فرضا . لا جدوى من الكلام . الورود في العري ، سوف يدفعون يوما ما حسابها وكذلك الملايين من الدولارات التي تجمع بمسحاة المشرفين على القمار فوق البسط

الخضراء كلون الاعلام المطرزة بالسيوف المعقوفة ، وكذلك الامر بالنسبة لينابيع النفط التي يهربونها كما يفعل بندرشاه الفظ الى الذيــن ينظمون عمليات ابادتهم . والواقع انه عندما كانت العذارى يفقدن دماءهن قطرة قطرة في أصص الليل والحنين والسرية ، كان الوقت قد أزف لكي تنطلق الرصاصات وتحدث ثقوبا في اصفار الاحتيال والسلب المدهشة . ولا يهم بعد ذلك ان ماتت بقرات الحاكم ! فالمسألة لن تكون موقوفة على هذا الحد ، ذلك لانه طالما دفع الجنون بالمتألهين الى رحم النسوة وتبذير ثروات الاخرين ، فان اناس المنامة سيظل محكوما عليهم بالانتجاع داخل الكوارث القلوية المخفية تحت اباط النسوة بعد ان صارت اعشاشا لدود القــز داخل دفقات الحبر البنفسجي المندفع من العانات المشعرة ، التي تجفف بنشافات الكذب والنميمة او برمال الحقد والعجرفة على الطريقة القديمة. هنا تكمن الثغرة . مهاوي الهواجس ! ولــم تعد المنامة تتحمــل الرش بالرصاص كل ثلاثة او اربعة ايام من هؤلاء القبضايات الذين نســوا عذابهم . وصار اهل البلدة كحيوانات احادية الخلية تائهة داخل شموسها واصبحوا لا يتعرفون حتى على رائحة جرادهم المطلي بالجير ، قبل دخول « الدر » الصاخب الى البلدة بزمن طويل وقبل ان تنهمك في تفصيل اكفان الحرير الخام ، الاكثر طبيعية من الطبيعة . هذا قبل ان تحول العناصر الهوجاء بكثير بلدتهم الى سفينة شجية تتأرجح بين الغرق والقلق . حتى القيظ نفسه لم يعد يحمل في تضاعيفه تلك الرطوبة المنبعثة من القيلولات الطويلة الزنخة . ولم يبق حينئذ سوى الهذيان ، لان مسعودة كانت تشعر، بدافع جنوني الى سقي حديقتها بدم العادة الشهرية لبناتها ، وصل ابنها الاكبر الى حد من التذبذب يمنعه من القيام بدور المهرج ، اما كلثوم فكانت تحت وقع العصاب حقا والا لما تجولت ببوقال مليء بالفورمول . وصار كل شيء يتزايد ويتضخم ، وينفتح بين هاوية وجرح واغتصاب ومذابح التاريخ ، كأنما الامر عبارة عن رموز مرعدة وايجازات متشنجة . من حسن الحظ ! والقطن الازرق يحشو كل ما يمكنه من فتحات وشقوق وخاصة الشروخ المتشنجة ، وانتظارات القطار الذي يرى بين عشيــه وضحاها . او يحلم به او يصنع مــن اعواد الثقاب علــى غرار الاطفال الموهوبين القادرين على ادخال سفينة بأكملها في قارورة من سم الافاعي. وجعل محمد عديم اللقب يحسب في تلك الصبيحة من اليوم التاسع عشر كعادته في كل شهر . كان يشعر بالرعشة تسري في جسده وبطمي الفرات ودجلة المخضب بالدماء وهو يتصاعد الى رئتيه ويلفهما بطينته الصفيقة ،

ذلك انه بعد المذابح التي راح الزنج ضحيتها وبعد القضاء المبرم على القرامطة ، ظلت الاعدامات متواصلة ، وقطعت الرؤوس واغرق العديد من الناس في النهرين اللذين يتشابكان فيما بينهما ويتشعبان الى ما لا نهاية عبر الالاف من الحدود ومائة الف من الروافد بغض النظر عن ملايين التعرجات والحفر المسدودة بالزجاج المسحوق واحجار الصوان المثلوم وحطام التعذيب والهمجية . كل ما يتحرك يمثل خطرا ينبغي ان تقطع انفاسهم وخصياتهم ! ذلكم هو قانون الحكام بالوراثة الذين يصبغون لحاهم بالملح والفلفل . ولا شك في أن الخطأ يعود الى ابن ماجد ذلك الشعرور التافه ومقتحم البحار العظمى الذي قاد البرتغاليين الى الاماكن التي ارتكبوا فيها جرائمهم ونظموا فيها تجارة الفلفل والزنجبيل والعبيد. وكان البعض الاخر قد مر بتلك الاماكن قبلهم! أوتي بالزنج من زنجبار وموباسا! من اتى بهم؟ هؤلاء الذين اغرقوا وحولوا الى رواسب في مجاري النهرين المتنافسين اللذين يلتقيان في مكان ما بين مسقط رأس الجاحظ ومسقط رأس المتنبي . اما عن الاخر ، اي ابن خلدون ، فقد ولد في الناحية الغربية اي بتونس وانتهى به الامر وهو في سن الثانية والاربعين الى ان ينزل بهذه التجويفة المعدنية التي تصك بأسنانها ، وتصر برملها وتنظم خليطا من الموسيقى الالية والاصوات المزقزقة تحت اشراف زوج التوام الرابعة . وبقيت مسألة الطيور ! تجيء في اليوم التاسع عشر من كل شهر لتنقر مؤخرات العذارى الجميلات الجالسات على عروش الحظ واللائي يتحدثن عن الامراء الساحرين الذين يمتطون جياد الهروب الى الامام لان ضمائرهم قد افرغت من عنصر الزمن ولم تعد تتألف الا من طبقات سطحية من عقود الزجاج المزركشة الرخيصة ومن ورق الالومينيوم المصبوغ بالفضة . علمتهن مسعودة كل شيء . تولى محمد عديم اللقب البقية لتطبيق المخطط الماكر الى اخره ، وذلك باجراء مقابلات في الشطرنج مع « الكنغورو » فوق رقعة استيهاماته بالبيادق المحولة الى فرسان ليس لها من هدف سوى الاطاحة بالملوك ! لقد حلم طويلا بآثار السعادة وبصداها كشريط ذي حاشيتين: الصوت من جهة وصورة الف ليلة وليلة التي موهتها ذاكرة الانتقام والتشويه من جهة ثانية . لا يجب ترك اي شيء للصدفة ! كانت روح « علاوة الاحمر » تحوم بالبلدة التي لم يعد لها من يرقع احذيتها المثقوبة اما صديقه ابن مسعودة فكان يسمع في احلامه تنهدات خيبته . يا لذلك الاسكافي المسكين الذي اراد بشدة ان يقف خاشعا على ضريح ستالين ، ولكن عازه الوقت والمال ...

وعندما كانت الريح الفاترة تهب على اشجار الزعرور وتكسو زهور الغرنوق والبيغونيا بالغبار ، يخرج محمد ارقه للتجول به ويمكث خارجا اطول من المعتاد ، ذلك انه بدلا من ان يتحاور مع جده فقط ، يشعر بعد ذهابه بضرورة انتظار وصول شبح « علاوة الاحمر » . « لقد فاتت الفرصة منا على اية حال يا بني : انني لا اتحدث عن قبر ستالين ، فأنت تعلم ان الاسر لا يتعلق الا بهذيان عجوز ، ولكنني وددت لو مت بعد مشاهدة المعركة النهائية » . ثم يتبخر في الهواء . اما الشيء المثير للدهشة حقا ، فهو ان محمد عديم اللقب لم يكن في حاجة بين اليوم التاسع عشر واليوم الثالث والعشرين من كل شهر الى السكر للاتصال بواقع الاموات الحقيقي . كانت هناك دلائل من حالته النفسية المهلوسة تتخلل غيابه ، وكان يعلم ان الحاكم المسكين لا يقوى على شيء حتى لو اشترى جبال الالب كلها مع البقرات ...

في نفس ذلك اليوم ، حين كان الدم يتقاطر بصوت اشبه برذاذات المطر المفعمة بالحنين في قاع كل القصريات الطقوسية الخمسة المنقوشة بشعار سلالة مسعودة امعن « جيلالي بوحدبة » النظر الى اليومية التي يخفيها في حديثه حتى يتمالك نفسه عن التحديق في الايام والشهور وهي تمر مسرعة وعلم ان اليوم كان التاسع عشر فأصيب بالذهول لانه كان منشغلا بتركيب الساعة الجدارية الصقلية التاسعة عشرة والاخيرة من ساعات مسعودة التي ورثتها عن سلفها القرصان العظيم . ورغب « جيلالي بوحدبة » في ان تساعده زوجته « رشيقة » على الانتهاء من عمله قبل منتصف الليل اي قبل الثانية الاخيرة من الانتقال من الشمس الى القمر بين اليوم التاسع عشر واليوم العشرين . وقد زاد اضطرابه ذاك من رهافة اصابعه الجميلة الدقيقة كلما عمد بأدوات التدقيق الصغيرة الى رد كل شعرة من شعرات الزمن الى مكانها ، وشدد احكام المعبئات بكماشات الوهم البالغة الصغر ، وادرج المفاصل في امكنتها بقفازات التول والموسلين ، وقوم كل لولب وكأنه ازاء عصارة متحجرة من خيط دود القز ، وتفنن في معالجة كل لولب بعين التسامي وركب الرقاصات برهافة الفراشات ، واستبدل الاحزمة بمهارة مذهلة ، ورصع المعدلات بحذق صانع ماهر ، وزيتها ، وسارع في عمله هذا دون اي تعجيل او حركة خاطئة ، لكي يعيد كل شيء الى مكانه ويعلن الخبر السار الى حماته ... بدا وكأنه يعزف على ملامس الخلود . لقد روجعت الساعات

الجدارية كلها ونظفت وشحمت . وهي لم تزد عن كمالها الاصلي الا ببعض التدقيق الذي اضفي عليها . ذلك أنها ظلت منضبطة ودقيقة تماما حتى اثناء الكوارث ، والمجاعات ، والتهديدات ، والانتحارات والموت والمجازر والجفاف والمذابح . وعندما أنتهى بوحدبة من عمله واتخذ كل شيء مكانه من مراسي جذوع ومحاور ومساند واوتاد ووقافات وكريات ومشابك ونواسات وبلاتينات وبكرات والعجلات، ولوالب وطبول واصاميخ ودواليب وعندما تم فحص تلك الروائع التسع عشرة الاخيرة وتشحيمها وضبطها واحدة بعد اخرى ، دخل محمد عديم اللقب ورشة الساعاتي . بدا وكأنه مجنون ، وجعل يسير على ارتفاع ثلاث سنتمرات من الارض بفضل حذائه المطاطي دون شك . وعيناه اللتان حيرتا العديد من النساء قد اتسعتا بصفة خارقة ، حتى ان خضرة بؤبؤيه كانت محاطة بالماء اكثر من المعتاد . واضطر جيلالي بوحدبة الى ايقاف الادوات التي استعملها حينما دخل صهره الغرفة حيث كان موجودا مع زوجته : حينذاك ثارت زوبعة ودمرت كل شيء باستثناء الساعات الجدارية التي كان ثقلها وضخامتها يرد عنها اعنف الهزات. وشع الجو ببوادر زخة مطر قادم . ودوخ الاحدب نوع من الدوي النهري ، لكأنما اصطدم دجلة والفرات داخل قفصه الصدري . وقد كان الوحيد الذي سمع من خلال الريح التي ادخلها محمد معه النغمات الرائعة كقطرات المطر المخضرة الزرقة الاولى ، المنقطعة فيما بينها والمتباطئة وكأنها تتردد في السقوط ، لكنها تهطل برتابة آلات المترونوم التي ادرجها قبل حين بمساعدة زوجته المحبوبة في بطون الساعات الجدارية الصقلية . وظل محمد عديم اللقب في مكانه لا يريم ، وقد امتلأ فمه بالكلمات ووشوشاتها ، ولكن دون ان يصدر عنه صوت واحد . كان من الاضطراب بحيث ان الساعاتي النحيف اتى حركة دفاع عن نفسه واحتمى بيده رافعا اياها بمحاذاة رأسه . لكن سرعان ما انفجرت زوجته ضحكا وطمأنته . فاستعاد رباطة جأشه رغم شعوره بالحرج وبالحزن ، في حين صاحت رشيقة : « لقد وضعت الدر حملها ! » واستطاع أخوها وهو يضمها اليه ان يتلفظ بكلام يكاد يكون غير مسموع : « لقد وضعت خمسة توائم ! كلهم ذكور ... » وقفز من مكانه ، وغادر الغرفة وهو يجري فوق مطارح الهواء المهفهفة على ارتفاع ثلاثة سنتيمترات من الارض . وبقي الزوجان الساعاتيان وحيدين ، لا يعرفان ما يقولان او ما يفعلان . تصاعدت حمرة الخجل الى وجه جيلالي بوحدبة. فهو منذ ولادة ابنه الكسيح العليل لم يستطع ابدا ان يخصب زوجته على

الرغم من جهوده اليائسة التي كان يعرف في قرارة نفسه بأنها غير كافية. وعلى اية حال استطاع ان يتعزى عن ذلك قائلا بأن لقبه الاصلي الذي يفصح عن ذاته احسن افصاح يغنيه عن سلالة هي مدعاة للشبهات والمشاكل في هذه الازمنة التي تتميز بالجفاف وبكثرة المواليد .

عندما علمت مسعودة بالخبر وهي فوق سطح الدار تراقب بناتها وهم يبذلون جهودا مضنية ، نزلت مسرعة ، دون أن تنسى تحذير العذارى بأن عليهن ألا يغادرن اماكنهن ! فمن العبث اضاعة ولو قطرة دم واحدة في وقت تدفن البلدة ما لا يقل عن عشرة اشخاص في الاسبوع الواحد ! وليست قطرات المطر التي سمعها بوحدبة هي التي ستغير في الامر شيئا بعد الجفاف الذي دام زمنا طويلا . والنباتات واشجار الفواكه ، وخضراوات واعشاب الطبخ ، ودوار الشمس لا يمكن لها ان تستغني عن هذه العصارة الجوهرية التي كانت الجدة تحولها الى سماد الحياة اللاذبة . وبدلا من ان تذهب لرؤية المعالم الخمسة الجديدة للسلالة التي كانت ابعد ما تكون عن الانقراض ، بحثت بقلق عن ابنها في كل الغرف ، وفي الحديقة بل وحتى في الغرفات المتداخلة في بعضها والتي تتعاقب الى ما لا نهاية في شكل حويصلات من الذاكرة تحت الجلدية . لكنها لم تعثر عليه . وانتزع الابناء من عملهم في حين ان الطاحونة لم تكن في حاجة الا الى بعض الجير الابيض لكي تدشن بكل أبهة . ولم يذهبوا لرؤية الاطفال الخمسة ، لكنهم تلقوا امرا بالبحث عن اخيهم الذي ولد منفردا ووحيدا ، منكمشا حول نفسه ، عبر شوارع البلدة وازقتها . وما كانوا ليبحثوا عنه طويلا . فهم ما ان بلغوا حانوت الخباز حتى تعرفوا على دمه وهو يرصع الارض قطرة قطرة ، ولم يكن عليهم حينئذ سوى ان يتعقبوا الاثار للعثور عليه مسترشدين بتلك الدلائل التي ما كان للونها ولكثافتها ان توقع بهم . وقادهم مسار القطرات من الدم الى الاسوار ، ثم الى ما وراءها ، اي الى تلك المنطقة التي تفصل المنامة عن الخطوط الاولى لجيش الجنرال « يهودي » . وبعد بضع ساعات من السير ، بلغوا التجويفة التي سبق لمحمد عديم اللقب ان لعب فيها الشطرنج مع اخر كنغورو في البلدة . وجدوه بلا حراك في الحفرة ، ممددا وقد غطته غشاوة رقيقة من الرمل . كان فاقد الوعي وثيابه ملطخة بالدم وجرح الابهام الايمن في فمه . حينذاك ادركوا أنه قام بحيلة جديدة من حيله المعهودة ولم يلمسوا العضو المبتور المخفي بين الشفتين . لكأن والد التوائم

الخمسة حاول قبل ان يفقد وعيه ان يوقف النزيف بمص دمه . والحقيقة انه كان في مثل جنون امه ، ولكنه كان شحيحا كلما تعلق الامر بماء الحياة الذي يجري في عروق الرجال وشرايينهم . ونقل الى الدار حيث كانت مسعودة مذعورة تتوقع خارقة جديدة من خوارق ابنها ، وتنتظره برعشة الحمى عند مدخل الدار . وما ان ابصرت بهم وهم يحملونه حتى صرخت : « لقد قطع الابهام الوحيد الذي بقي له . اليس كذلك ؟ » ولم يكن توائمها في حاجة الى الرد . فذلك امر بديهي ، غير ان صرختها هيجت كلثوم وزهرة بندرشاه اللتين جاءتا جريا ، رغم تعذر الجري على كلثوم التي فقدت كل قواها . لكنها وجدت بقية من قوة في شبكات عاطفتها المشلولة لكي تجرها الى دار عديم اللقب . وهجمت على محمد الذي ظل غائبا عن وعيه على بساط قاعة الاستقبال . ودون ان تنبس بكلمة او تضطرب، دفعته جانبا بكل رفق ، وغرست يدها في الجيب الايمن من سرواله القطني الاسود الذي لا يفارقه والذي يضيق عند الفخذين ، واخرجت منه قطعة من لحم مخضبة بالدم على طرفها ظفر علاه السواد . ولم يكن ذلك الا ابهام محمد الايمن ! اما مسعودة وابناؤها فقد انشغلوا بمعالجة الجريح فقد بتر الابهام من منبته ، بنفس مقطع الخبز الذي استخدم فيما مضى لاقتطاع الابهام الايسر . وانتهزت كلثوم الفرصة وسط الصخب والفوضى الذي احدثته مسعودة بحمالتي صدريتها اللتين جعلتا تصطفقان بقوة اعصار ، وانزلقت من المكان وهي تضم في قبضة يدها الابهام الدامي . وعادت الى بيتها وقد هدها العياء ونال منها السأم . وحين استعاد محمد وعيه بعد تطهير جرحه ، وتضميد يده وتبديل ثيابه ، حدق فيما حوله بعينين نشر عليهما التهلل والانتشاء خضرة مائية اشد ما تكون شفافية وسيولة . عندئذ انفجرت امه بقولها : « اترتكب هذه الحماقة في مثل هذا اليوم ؟ خمسة توائم ينزلون علينا وخمس عذارى يسيل دم العادة الشهرية منهن ! انك مجنون ، ليس هناك ما تفخر به ، ها انت الان بلا ابهام على الاطلاق ! لن يبقى امامك ما تمصه عندما يعيدك الهرم الى طفولة ثانية . فأنت من نسل ملعون ، قادر على ان يعيش بكل جبور اكثر من قرن ونصف ! » . على ان هيجانها لم يدم وقتا طويلا . وجعل الزمن يتنصل منها الان وقد اصبحت الساعات الجدارية موضوع تدقيق صارم . ودون ان تضيع وقتها في الشجار مع ابنها ، امرت توائمها بالعودة الى اعمالهم للانتهاء من طلاء الطاحونة التي كان من المنتظر ان تدشن في نفس العشية وذهبت لرؤية حلقات سلسلة نسلها الخمس

الجديدة . التي جاءت لتعمق جذورها بالارض اكثر من ذي قبل . وقالت للدر : « سوف نحتفل بالاحداث الثلاثة في نفس الوقت ! » غير ان «الدر» لم تكن مندهشة بتلك المواليد . فهي تتذكر ذلك اليوم الذي كانت تلعب فيه لعبة الشيوخ مع زوجها حين شعرت من خلال الطريقة الرائعة التي فجر في احشائها انداءه الليلية انهما سوف يحدثان معجزة . انها اذن ثلاثة احداث . ثلاثة مآثر : ميلاد التوائم الخمسة ، والفراغ من بناء الطاحونة والانتهاء من فحص الساعات الجدارية التسع عشرة . واستعاد محمد عديم اللقب نشاطه فورا .. وبما انه تعذر على اخواته مغادرة قصرياتهن، وتحتم على اخوته الفراغ من تبييض الطاحونة ، وبما ان زوجته ظلت نفساء في فراشها ، فانه لم يجد الا والدته التي نفرت منه وان كانت في ذروة سعادتها لكي تساعده على تحضير الحفل ، فكان أن سألت ذلك الذي فقد لتوه ابهامه الثاني : « وهل سندعو الحاكم ؟ » .

عادت كلثوم الى دارها وحيدة . بينما ظلت والدتها في دار عديم اللقب لتشهد اللغط الذي اخذ بتلابيبها اكثر من المعتاد ، وصارت خلية نحل يتحرك كل واحد فيها لكي يقوم بعمل معين او ليثبت بأنه موجود حقا وصدقا . وهكذا تبين ان قطرات المطر التي ضجت بها اسماع بوحدبة لم تكن لتغير شيئا ، فقد تبخرت في الفضاء الملتهب قبل ان تبلغ سقوف الدور والحقول اليابسة ونباتات مسعودة الخارقة . على ان زهرة بندرشاه بعد ان زايلها الاندهاش رقصت هي الاخرى تحت وطأة الهذيان الجماعي الذي راح يهز دار عديم اللقب المنغرزة في بطن الارض بأسسها منذ ان اعيد بناء قواعدها ، فقد قال « محمود » عنها بعد الفراغ من البناء : « سوف يكون في مقدورها أن تدور بنفسها هي الاخرى ! ». وفي الواقع ، كان الناس كلهم واقعين في الدوامة . وكذلك الاشياء والنباتات والحيوانات وساد شعور بضرورة التحرك بسرعة على غرار السرعة التي يقلب بها محمد عديم اللقب صفحات الكتب لاكتشاف سيرة العالم والكون ، المتفجر الى شظايا ، تملكت أحداها قلبه بوجه خاص لانه ولد فيها وانتعش من تربتها وثقافتها وحنانها وزوبعتها . وكان ان نسي ابن خلدون لاول مرة في حياته ووضعه بين قوسين . وادرك فجأة انه اصبح أبا لتسعة اطفال : سبع ذكور وطفلتان . وانتشى سرورا وقد علم الان ان نسله سوف يتوالى على مر الزمن . لقد كان من السعادة الى حد انه بتر ابهامه الثاني للاحتفال بهذا الحدث ، الحيوي في منطق هؤلاء

الذين لم يكن لديهم اسم علم لكي يغرقوا في هويتهم . بل ان الامر بلغ به ان ينسى الوخزات المؤلمة الصادرة عن عضوه المبتور حديثا والتي سرت الى العضو الاخر مع انه شفي منه منذ بضع سنوات ، وبما ان المرارة جعلت تسيل من اشجار المشمش لتلتجيء الى الثمار المرة المنشورة على حبال الخيال بدبابيس الغسيل ، فانه ادرك بأن ألمه قد سرى عبر شرايينه المرئية وغير المرئية بين الابهام الايسر والابهام الايمن . اما الان وقد صار المستقبل مضمونا فانه لم يعد في حاجـــة الـــى انجاب اطفال اخرين ، وعقد العزم على ان يشتري في اقرب وقت آلة منع الحمل حتى تحمي « الدر » بطنها من تلك البذرة الجنونية التي من شأنها ان تعرض التوازن الغذائي العالمي للخطر . وكان يعلم ان مثل تلك الآلة تباع في السوق السوداء التي ينظمها المهربون العريقون . ثم انه قرر توسيع البيت بمجرد الانتهاء من الاحتفاء بالاحداث الثلاثة . فالمكان سيضيق ولا شك بالعائلة ، وهي وسيلة ايضا لتشغيل اخوته الذين يرفضون الزواج والذين صاروا بنائين مهرة جريئين . وكان عليه خلال ذلك ان يوزع مجال الحفل ويلون الجدران ، ويعرض دوار الشمس بحكمة لكي ينشروا البرودة في الحديقة التي يدور بها الحفل العظيم ، الذي امرت به امه، وكان عليه ايضا ان ينظر في موقع الهلال للاستفادة من نوره بعد مغيب الشمس ؛ ويحضر الاطعمة والحلويات ويوجه الدعوات الى احلافـــه واصدقائه . حينذاك تذكر بأنه فقد صديقه الاسكافي العجوز . وبكاه بدموع حرى دون حرج ولا حياء على مرأى من اخوته جميعا ، وزوجته وامه واطفاله بل وتوائمه الخمسة الذين بدا عليهم منذ الساعات الاولى لولادتهم انهم يفهمون اشياء عديدة ... وعلا نحيبه حتى انه ادرك انه لا يعرف اين يوجـــد ابهامه ، وبحث في جيوبه ، ولاحظ بأن ثيابه قد استبدلت حينما كان غائبا عن الوعي وذهب يبحث بين كومة الثياب المتسخة عن سرواله القطني الاسود ، وقلب جيوبه دون ان يجد بها شيئا . وفجأة ادرك ما حدث . وفي الوقت الذي راحت فيه الساعات الجدارية الصقلية تقرع دقاتهـــا التسع عشرة ، انقض على دار بندرشاه الواقعة على بعد امتار من داره ، ودفع باب المدخل الذي لم يكن مغلقا وزحف الى غرفة كلثوم . كانت هناك امامه ممددة على فراشها ، هادئة لكن ميتة . اجل كانت ميتة ، وميتة بكل هدوء وكانت لا تزال دافئة ، تنبعث من يديها اللتين ضمهما اليه رائحة حامض الفورميك ذلك انها غيرت لتوها سائل البوقال

الذي قطع من منبته قبل ساعات في حانوت الخباز المنشغل بوزن الخميرة. ولم تكن الخميرة تعمل على نفخ العجين بل الاموات ايضا ، لذا كان يجب دفنهم بسرعة في المنامة حيث الحرارة تعفن الجثث في ظرف ساعات قلائل ، وفهم انها ماتت وهي مسرورة بعد ان اطمأنت على مصير الابهام الايسر الذي لم يعد وحيداً ولا في حاجة الى ان ينطح جدران البوقال بعد ان التقى الان بنظيره الايمن .

وتحول الحفل الى جنازة . ودفنت كلثوم في نفس العشية قبل هبوط الليل ، فالذين احبوها ، ارادوا ان يجنبوها محنة البشاعة والاخضرار الزنجري الذي يزحف الى الجثث بمجرد برودها . لقد توفيت وهي في العشرين ، في زهرة العمر بعد مرض الذبول الذي انهكها الى حد ان حول عمودها الفقري الى امبيق زجاجي يسري فيه بايلام زيت الخيبة الصفيق ، التي كانت تعرف مصدرها . ماتت والى جانبها البوقال الذي يضم ابهامي الرجل الوحيد الذي احبته . ودفن البوقال معها . ولم يخف محمد عديم اللقب حزنه الشديد فهو لم يفكر ابدا في ان فتاة من جبلتها يمكن ان تموت ذات يوم . لقد ظن انها تتغلب على الموت وتنتقل عبر القرون دون ان يتشوه جسدها او يتقلص عقلها بفضل ذلك الزخم البالغ الذي تصطخب به عظامها وبفضل تلك الغرابة العجيبة التي تنتقل عبر خيالها المتزلزل المندفع ابدا . لكنه لم يفطن الى انها اخفت هواها وحميتها وهشاشتها وكل ما تختلج به نفسها الفتية يوم ان دخلت عليه غرفته لكي يغرق معها في عالم اللذة ، وفهم ان عقله كان منشغلا حينذاك بأمور اخرى . لقد نال منه ابن خلدون بينما كمّل وشم « الدر » بالبقية، ثم انه اساء تقدير مواهب كلثوم في ابتداع قوانين العشق وفق شفرة ضاعت منه رموزها لانه كان يمارس اشياء عديدة ويضيف اليها من عندياته فوق ما تقتضيه الضرورة ، ناهيك عن السراب الذي ضج به ذهنه ، وبانفجار الضوء الباهر عبر عظامه التي رآها الناس في بعض الايام وهي تمتلىء بزبد الغرابة او تفرغ منه من خلال بشرته الشفافة الشاحبة . اما كلثوم فقد بالغت في تقدير مواهبه الخارقة ووضعت في متناول يده رغبتها المحرقة التي سوف تجسدها احسن تجسيد الى نهاية الازمنة ، وها هي ذي مسعودة يسكنها الندم الى اخر يوم من حياتها ، ولات ساعة مندم ! والحقيقة ان بداية المأساة تعود الى تلك العزلة التي نشأ فيها ابنها وحيدا في بطنها وولد منفردا . أولم يتحدث بمجرد ان ابصر

النور لغة لم يتعرف عليها احد ؟ وتعلم القراءة بمفرده لانه شعر بنفسه منبوذا من عالم تكثر فيه التوائم وقضي فيه على المعزولين بالحزن والحيرة . وهو حين ادرك هذا الحكم اراد ان يتخلص منه . ولكأنما اراد ان يستجمع حطامه وشظاياه فعمد الى اللعب بالخوارق وتحريك ظله وكسر الضحكات ، وفك رموز المخطوطات المكتوبة باللغات القديمة في ظرف ساعة واحدة ، وشرح طرائق التنغيم للطيور ، ولعب الشطرنج مع اغبى حيوان على سطح الارض ، وفض المنعطفات على غرار الجرائد والمناديل ، وتدبيج الرسائل الغرامية ، وقراءة اي نوع من انواع الكتابة بأنفه وهو معصوب العينين ، وامتلاك تلك القوة الخارقة في التوليد ، والتحول الى معبود للنساء في بلدة لا تزال تقاليد الشرف العتيقة مسيطرة عليها ، وزرع الانداء الليلية في بطون العذارى دون فض بكاراتهن ، والسير — عندما يفرح — على ارتفاع ثلاث سنتمرات من الارض ، والتحاور عندما يسكر مع روح جده وشبح الاسكافي التائه الذي لم يقبل لا في الجنة ولا في النار لان قلبه كان عامرا بالوضوح ، والجري طوال النهار في اثر رجل عبقري مذهل حسب حسابا لكل شيء ووضع نبوءته للقرون العشر التي اعقبت وفاته . ولم تكن لمحمد عديم اللقب اية وسيلة لمعرفة المكان الذي عاش فيه ذلك الرجل لا سيما وان البلدة بنيت على شرائح قرى اخرى تراكم عليها الرمل والنسيان . وعلى اية حال ، فان ابن خلدون هذا لم يمت بالامس ، ولم يمر بالمنامة البارحة ، بل انقضت مئات السنوات الضوئية على وفاته ، ذلك ان زمن الصحراء لا علاقة له البتة بأزمنة المناطق والاجواء الاخرى . والحقيقة ان مسعودة لم تخطىء حين نظرت بعين الحذر الى الساعات الجدارية . ذلك لان كل شيء قد تشوه بفعل حدة الضوء وحجم حبات الرمال التي لم تكن قادرة على تخبيل آليات الساعات فحسب بل ودواليب الكون نفسه ! فالصحراء في حد ذاتها كانت انفجارا ازال منذ وقت طويل كل اثر وكل كتابة اللهم الا اذا اطلق مثل هذا الاسم على الرسم البياني للعناصر التي تأتي في كل يوم بحصة المنامة من الكوارث وبنصيب سكانها من الكوابيس ، والحقيقة ان هؤلاء الناس كانوا منغلقين حتى وان كانوا يواصلون في الظاهر لعب الدومينو وتغذية طيور الساحة ، والتمدد في حموضة اسرتهم المشربة بالعرق ، والرهان على الاكباش التي لم تعد ترغب في المصارعة بل صارت تميل للمقابلات المتعادلة وتأخذ بأسباب المسالمة والتنهد وراء نوافذ الحب ، والتظاهر بالسخرية من الحاكم الذي قرر تهجير اسرته

لاعداد الراي العام على تقبل ذهابه بعد فشله الصارخ ، والحلم بـــأن الثلج تساقط طيلة يوم وليلة كاملين على البلدة ، والامل ان يهطل المطر مدة تسعة عشر يوما دون انقطاع الـــى ان يرغمهم علـــى قذف حباله بالحجارة ، والاسترسال في هذيانهم حول تصوير فيلم خيالي يحمل عنوان الف ليلة وليلة لانهم لم يتوقفوا اثناء سحرهم عن قص حكايات شهرزاد ، وترويج الدعايات ضد الدول الاسلامية ماضيها وحاضرها واتهامها بتذبيح الملايين من المعذبين والعبيد والمتمردين وبتحويل جماجمهم الى اصص ليلية لعشذيقاتهم غير البالغات ، والخلط ما بين الحاضر والماضي، والاشتباه في امر الظل والانعكاس ، والشمس والقمر ، والفرات ودجلة ، والرغبات والواقع ، وترويج اشاعات حول الامطار الاصطناعية المزعومة والجبال الجليدية التي نقلت عبر البحار بأمر من حاكم مستبد مشهور بقامته القميئة وثرواته الكبيرة . كل هذا الخلط وهـــذا الاخـــذ والرد بين السحـــر والتكنولوجيا وذلك التردد بين حبات المسبحة والرافعات النفطية لم يكن سوى اختراعات محضة خرجت من رأس محمد عديم اللقب ذلك المجنون الذي ظن ان كل شيء مسموح له بحجة انه حرم من شقيقة توأم ومن اسم علم ، فراح يتلاعب بالنجوم ، ويتحدث الى طيور الببغاء ويعطس بسوء نية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد بقي شيء واحد ثابت . لقد كان ذلك الديماغوجي صاحب البدايات والاكتشافات العلمية والتقنية والتأمـــلات الفلسفية السامية متهما بأنه تسبب في موت كلثوم بندرشاه ، تلك التي دفنت الا ن، حسب الطلب الملح الذي توجهت به الى امها ، داخل كفن حريري اخضر طرزته « الدر » التي وضعت حملها صبيحة اليوم التاسع عشر من نفس الشهر . لقد طلبت ايضا ان يوضع الى جانبها بوقالها الذي حملته طوال حياتها من المنامة الى سيدني مرورا بالقطب الجنوبي . واتهم الابن الاكبر لعائلة عديم اللقب بأنه اسهب في الحديث عن شخصيات تاريخية وعن بعض الشعراء الصوفيين ، مثل ذلك الجاحظ صاحب ٣٧٠ مخطوطا ، والمتنبي الذي كان يعرف نظم الشعر وايقاف المطر ، وابن المقفع الذي مزق جسده والقي في فرن خباز ، وما كان ينبغي اثارة الجن بطبيعة الحال ! والان وقد ماتت كلثوم ،لم يعد احد يخشى خوارقـــه ولا

اعماله السحرية التي يلقيها على اعدائه . وكانت الشائعات تشير الى انه يقترف سحره من البوقال حيث كان ابهامه يسبح في البلوفين والفورمول . ولم يعد يخشاه احد بعد وفاة الفتاة التي احبته حبا مضراسا . وبعد زمن البوقال معها . اما اشدهم تطيرا فقد انطلقوا في جنح الظلام وفتحوا قبر كلثوم للتأكد من ان الابهامين موجودان هناك ، داخل البوقال . ولاحظوا ان الجثة مغطاة بعليق ابيض هائل ، وعلى صدرها نبتت ياسمينة بلون الزعفران .

وبعد الجنازة عاد عديم اللقب منهكا مريضا وكانت تستبد به حمى عنيفة وتشرش تحت يديه عروق متداخلة تكشف عن تعب شديد . وعندما شيئا فشيئا في دهاليز النعاس ، خيل اليه انه يسمع صوت الدر وكأنما هو قادم من حياة اخرى ، ويهمس له بأن الدار التي حذف فيها ابن خلدون مقدمته العظيمة توجد بالضبط في مكان شجرة الزعرور المفضلة لدى مسعودة من بين جميع اشجار حديقتها ... وهب من كابوسه مذهولا حتى كاد يخنق الدر ويذبح قوائمه الخمسة الجدد . لكنه تمالك نفسه وسرعان ما ادرك من خلال الرؤيا السرمدية التي عبرت ذهنه انه طاف حول الارض الف مرة ولف بالكون جميعا ، دون ان يتحرك من مكانه ، في البلدة التي ولد فيها بالذات والتي نبشها شبرا شبرا ، في حين ان المكان الذي يبحث عنه موجود هناك ، في حديقة امه المزهرة المزدهرة . ثم بعد برهة ، غرق من جديد في نوع من الغيبوبة المرصصة بالكبريت ، وهبط عليه وعي صاعق كشف له ان عبد الرحمن بن خلدون هو السلف الذي طالما بحث عنه . اولم يغادر ابن خلدون البلدة بعد ان مكث فيها اربع سنوات وعمر فيها ، تاركا زوجة وطفلين ! حينئذ حاصره حلم مطلي بخضرة عينيه المائية ، فتحرك عبر تباطؤ غسقي كأنما ليوقظ الحاكم من كمونه الدبق حيث سمرته الاحداث الغريبة المنزلقة كصوت مطلي بصابون اللاواقع ، والواقع المتعنت ، فآل به الامر ان لا ينام في سريره بل تعود الاستلقاء بضع ساعات ليلية على كرسيه الوثير وهو لا ينزع ثوبا من ثيابه . وعندما بلغ محمد عديم اللقب اطراف الحلم اعلن بأنه يسمى ابن خلدون وطلب ان تسلم له شهادة رسمية كتبت هويته

المستعادة اليه بعد قرون من الحرمان والصخب . اذ لم يعد يطيق تذارة الحرفين الملعونين اللذين يعوضان لقبه المفقود منذ ان قرر ذلك المحتل الغاشم البليد ، خاصة وقد وجد الان الدليل على انه من نسل المؤرخ الكبير :•:•:•:

اما الاخر ، اي الحاكم الفاشل المقهور بأمره ، فيقف دون ان يحرك ساكنا ، منفذا لرتابة بالية صدئة ، ويرمقه بنظرة منهكة ويجيبه بصدى متردد ، مستعملا كلمات التفاهة والهذيان الزلقة ، بأن عليه العثور على شاهدي عيان عرفا سلفه هذا العظيم معرفة شخصية ومتينة .

(نهاية الرواية)

كتب أخرى للمؤلف

- الطلاق (رواية)
- ضربة شمس (رواية)
- طبوغرافية مثاليّة لاعتداء موصوف (رواية)
- الحلزون العنيد (رواية)
- الفائز بالكأس (رواية)
- التّفكّك (رواية)

كل الرّوايات السابقة نشرت أصلا باللغة الفرنسية وهي إما مترجمة إلى العربية ومنشورة أو في طريق الترجمة والنشر، ما عدا الرواية الأخيرة فهي منشورة بالعربية أصْلاً.

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

June 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin